

السراج

محمّد



المسرح

السَّيِّدُ الرَّبُّ

لا تعرف الخور، فلماذا يا ترى هذا العناء كله؟ ألم آو عمري إلى الصمت والكتان، ألم تظفر الأسرار من صدري بقبر مغلق تستكن فيه وتموت؟ فما سرّ هذا الإلحاح العنيف؟ وكيف سللت القلم لأنبش قبراً تراكم عليه نرى الإخفاء! لقد ضاعت الحياة، والقلم ملاذ الضائع، هذه هي الحقيقة. إنّ الذين يكتبون هم في العادة من لا يمخون، ولا يعني هذا أنّي كنت أحييا من قبل، ولكنني لم أكن ألو أن أرنو لأمل بسّام أستضيء بنوره، وقد خمد هذا النور. ولست أكتب لإنسان، فليس من شأن المرضى بالهجل أن يطلعوا إنساناً على ذوات نفوسهم، ولكنني أكتب لنفسي، ونفسي فحسب، فطالما داريت همساتها حتّى ضللت حقيقتها، وبتّ في أشدّ الحاجة إلى جلاء وجهها المطموس في صدق وصراحة وقسوة، عسى أن يعقب ذلك شفاء غير مقدور. أمّا محاولة النسيان فلا شفاء يرجى منها. والحق أنّ النسيان خرافة بارعة وحسي ما كابدت من خرافات. ولعلّ في شروعي في الكتابة آية على أنّي قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائياً، وما كان الانتحار بالجزء الذي لا يستحقّه إنسان قضى على نفسه، بل هو دون ما يستحقّ بكثير، ولكن ما حيلتي والحياة لا تتورّع عن وسيلة في سبيل الدفاع عن نفسها؟ ولو كان الماضي قطعة من المكان المحسوس لوليت عنه فراراً، ولكنّه يتبعني كظلي، ويكون حيثما أكون، فلا مناص من أن ألقاه وجهاً لوجه بعين غير مختلجة، وقلب ثابت، ومهما يكن من أمر فالمرت أهون من الخوف من الموت، وإنّه لعمل فيه سحر، تستحيل به هذه الصحائف نفساً خالصة بغير حجاب. ولست أدعي العِلم، فما ناصبت شيئاً العداء كالعلم، وإنّي لعيني كسول، ولكنني عانيت تجارب ممرّة زلزلتني

١

إني أعجب لما يدعوني للقلم، فالكتابة فنّ لم أعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة، ويمكن القول بأنّه فيما عدا الواجبات المدرسيّة على عهد صباي، والأعمال المكتبيّة المتعلّقة بوظيفتي، فإنني لم أكتب شيئاً على الإطلاق. والأعجب من هذا أنّي لا أذكر أنّي سوّدت خطاباً أو رسالة طوال الدهر الذي عشته في الدنيا وهو ما ينيف على ربع قرن من الزمان. والحق أنّ الرسالة - كالكلام - رمز للحياة الاجتماعيّة، وعنوان للوشائج التي تصل ما بين الناس في هذه الحياة، ولست من ذلك كله في شيء. السننا نشدّب الأشجار فنبت ما اعوجّ من أغصانها وفروعها؟ فلماذا نُبقي على من لا يصلحون للحياة من أفراد الناس؟! لماذا نتسامح بل نهمل فنفرضهم على الحياة فرضاً أو نفرض الحياة عليهم كرهماً؟ لهذا يسعون في الأرض غرباء مذعورين، وقد بلغ الذعر منهم أحياناً أن يخطوا على وجوههم كالمحمومين فيدرسوا بأقدامهم المتعترّة ضحايا أبرياء.

أقول مرّة أخرى إنني لا أذكر أنّي كتبت كتابة تستحقّ هذا الوصف. كذلك طالما أعياني الحديث وأعجزني، فكنت إذا اضطرتت إلى كلام تلعثمت وأدركني العي والحصر، ولم يكن الإعياء في قوّة النطق أو الكتابة، إنّه أجلّ من ذلك وأخطر وإنّ العي والحصر والعجز لأنّته عواقبه على وجه اليقين. ولذلك حقّ لي أن أتساءل عمّا يدفّعي الآن إلى الكتابة. وليس الأمر قاصراً على رسالة تدوّن، إنّه شوط طويل تنقطع دونه الأنفاس، وإنّي لأعجب لما يستفزني من نشاط لم أعده، وحماس لم أله، حتّى ليخيّل إليّ أنّي سأواصل الكتابة دون تردّد أو تعب، في الليل والنهار، وبعميمة

وبعثها خلقًا جديدًا، ولئن شقَّ عليَّ الطريق أو تولّاني القنوط، أو خلدني حيائي، فلن يبقى أمامي إلا الموت.

٢

ما جزاء الميت - عندنا معشر الأحياء - إذا وراه التراب؟ أن نفرّ من ذكره كما نفرّ من الموت نفسه! ولعلّ في هذا حكمة غالية، ولكنّ أناثيتنا تأتي إلا أن تضفي على هذه الحكمة أسفًا حانقًا مضحكًا. ولقد فررت من بيتنا موليًا كلّ شيء ظهري كالحوائف المدعور، ثم مضيت أثوب إلى رشدي في هدوء نسبيّ، وأدرك هول الخطب الذي نزل بي، ففاض بي حنين موجع، وفزعت يداي إلى خزانة الذكريات فاستخرجت كلّ ما بقي منها، ألا وهي صورة!

هي صورة كبيرة يظهر فيها جدّي جالسًا على مقعد كبير، بجسمه الضخم وكرشه الكبير، وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه، في بذلته العسكرية المحلاة بالنيشين، وأقف أنا عند ركبته لا أكاد أجاوزهما إلا قليلاً، أتطلع إلى عدسة المصوّر بعينين باسنتين وقد التصقت شفتاي في توتّر من يغالب ضحكة تغالبه. ووقفت أمّي إلى يمين جدّي معتمدة بساعدها الأيسر مسند الكرسيّ الكبير، في فستان طويل يشتمل عليها من العنق إلى القدمين، ولا ينحسر من ساعدها إلا عن اليدين، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حائلة تقطر حنانًا ولا تخلو من بريق ينم عن الحيويّة وجِدّة المزاج. يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرّره في وجهي حتّى لقد قيل إنّه لا يفرّق بيننا إلا الثياب! هذه صورة تطلّ عليّ من عالم الذكريات. ولقد ثبتّ عينيّ الملتهبتين على الوجه المحبوب طويلاً حتّى لم أعد أرى شيئًا سواه. كبرت قسامة في عينيّ حتّى خلّفتي روحًا صغيرًا يعيش في أحضانها، واشتدّ ما يحيط بي من صمت فتهيّأ لي أنّ هذا الفم المطبق سيفترّ باسمًا ويُسمعي من عذب الحديث ما العهد به غير بعيد. إنّ الصورة شيء عجيب فكيف غابت عنيّ هذه الحقيقة؟

زلزالًا، وليس كالتجارب كاشف عن مسطوي النفوس. إني لأتلهّف على رفع النقاب، وهتك الأسرار، لأضع أصبعي على موطن الداء ومكمن الذكريات ومبعث الآلام، ولعليّ بذلك أنفادي نهاية محزنة، وأنجو من الآم لا يقبل لي بها، وأتلمّس في الظلماء سبيلًا. لست في الواقع إلا ضحيّة، ولا أقول ذلك تخفيًا من ذنبي، ولا تهربًا من تبعتي، ولكنه حقّ وصدق، فالحقّ أنّي ضحيّة، إلا أنّي ضحيّة ذات ضحيتين. وأشدّ ما يحزّ في نفسي أنّ إحدى الضحيتين هي أمّي! أقطع بها من حقيقة لا تصدّق! كيف أنسيت أنّها سرّ حياتي وسعادتي، وأنّي لا أحتمل الحياة بدونها! ولكنّي كنت أحياء على حافة عالم الجنون، وهكذا فقدت كلّ شيء، ووجدت نفسي في خلاء مظلم مخيف. . . إني رجل مؤمن عميق الإيمان، وأعلم علم اليقين أنّي سأبعث حيًّا في اليوم الموعود، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأهواله - إذا تجرّدت أمام الله بما في يميني وبما في شمالي - قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التي عانيتها في دنياي. أروم بعنًا جديدًا حقًّا، ويومذاك تصبح آلامي لا شيء يطويها الفناء إلى الأبد، فيمكنني لقاء أحبائي بقلب صافٍ ونفس نقيّة طاهرة.

كانت أمّي وحياتي شيئًا واحدًا، وقد ختمت حياة أمّي في هذه الدنيا، ولكنّها لا تزال كامنة في أعماق حياتي، مستمّرة باستمرارها. لا أكاد أذكر وجهها من وجوه حياتي حتّى يترامى لي وجهها الجميل الخنون، فهي دائئًا أبدًا وراء آمالي وآلامي، وراء حبي وكراهيتي، أسعدتني فوق ما أطمع، وأشقتني فوق ما أتصوّر، وكأني لم أحبّ أكثر منها، وكأني لم أكره أكثر منها فهي حياتي جميعًا، وهل وراء الحبّ والكراهية من شيء في حياة الإنسان؟! فلاعترف بأنّي أكتب لأذكرها هي، ولأستعيد حياتها هي، بذلك تعود الحياة كلّها وبذلك أصل ما انقطع من حبل حياتي، لعلّ الأمل أن يتجدّد في النجاة. يبدو لي كلّ شيء الساعة غامضًا متواربًا، كأنّ الشيطان يذرّ في عينيّ رمادًا، ولكن مهلاً إني أتلمّس سبيلي في صبر وأناة، ورائدي أمل الغريق في النجاة، ومن ورائي نيّة صادقة في تجديد حياتي

هذه أُمِّي بجسمها وروحها، هذه أُمِّي بعينيها وأنفها وفمها، وهذا الصدر الحنون الذي التصقت به عمري. رباه... كيف أقتنع بأنّها رحلت عن الدنيا حقاً؟! أجل إنَّ الصورة شيء عجيب، ويبدو لي الآن أنّ كلَّ شيء عجيب في هذه الدنيا، وقاتل الله العادة فهي التي تقتل روح العجب والإعجاب فينا. كانت هذه الصورة معلقة بحيث تراها العين في كلِّ حين، بيد أنّي أراها الآن شيئاً جديداً، أطلع في صفحتها حياة عميقة كأنَّ نفحة من الروح الطليق قد استكنت بها، وأرى في هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم. إنّ هذه الصورة حيّة بلا ريب، ولن أسترّد بصري منها ولو جنت. عكفت عليها طويلاً، ثمَّ تملكنتي رغبة قوية في تخيّل حياة صاحبتي في جميع أطوارها من المهد إلى اللحد. تخيّلتها طفلة تجبو، وصبيّة تلهو بعرائسها. ألا ليبتها خلّفت لي صوراً أستعيد بها أحلام طفولتها السعيدة! ثمَّ تخيّلت عهد الشباب الرطيب، وهي عادة حسناء ترنو بطرفها الساجي إلى الأمل والسرور وتلهو بلذّة الفتوة المشبوبة، لقد عاصرت عهده الحلو، وكنت ثمرة لخصبه ونضارته، ومع ذلك فقد ضاعت معالمة وولّت آثاره. غشيه الظلام كأنّني لم أرتع حضنه وأرضع ثديه. وكنت إذا تخيّلته فيما مضى من أيّامي تخيّلته في حيرة وقلق، وساءلت نفسي في خجل واستياء ألم تنبض بدمه الحارّ تلك الرغبات الجائعة التي تستأثر الشباب؟! ولعلّ عاطفتي الغامضة تلك هي التي دفعتني في صباي إلى تمزيق الأثر الباقي لهذا الشباب الأوّل. فقد دخلتُ حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدتُ أُمِّي منكبة على درج مفتوح في صوان الملابس تنظر في شيء بين يديها، فاقتربت منها في خفة تحذوني شطارة الغلمان المدلّكين، وأدخلت رأسي تحت ذراعها الميسوطة، فرأيتها ممسكة بصورة عرسها! وبادرت تحاول إرجاعها إلى مخبئها، ولكّني أمسكت بها في عناد، وحملت فيها بدهشة، فرأيت شاباً جالساً وأُمِّي واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة. وتعلّقت بعيني بصورة الرجل فأدرت أنّه أبي، وإن كنت أراه أوّل مرّة، بل أراه بعد أن امتلأ الفؤاد له خوفاً

لا تدري. وكانت ذكرى تلك الحادثة تعاودني في فترات متباعدة فتحزّ في نفسي، وتملأني حيرة وقلقاً، فأمضي متسائلاً عمّا دعاها حقاً إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحزنها تمزيقها؟ ثمَّ أحاول أن أنفذ بخيالي إلى ما فاتني من حياتها، فانقلب متفكراً مغتماً. هكذا فقدت صورة الشباب الأوّل، وإنّني لأسف على فقدانها - الآن - أسفاً خالصاً، ولكنّ أليس ذلك أسفاً مضحكاً بعد أن امتدّت يدي إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها؟!

٣

ولم أكن الحظّ العائر الوحيد الذي ابتليت به حياتها. روت لي يوماً قصّة زواجها، في حذر وحرص شديد، خاصّة وهي تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها، فكانت تذكرها في عجلة واقتضاب وتمحّج، وكأني في أعماقها تخشاني، أو كأنّها أشفتت منّي أن تخفّف لطافة الذكرى من حدّة كراهيتي لأبي. على جسر إسماعيل رآها أبي أوّل مرّة! وكان «الحانطور» ينطلق بأُمِّي وجدي في بعض الأصائل للنتزّه والفرجة، ففي مرّة مرّ بها «حانطور» يتربّع بصدرة شابّ مزهو بشبابه وثرائه أو على الأصحّ بما ينتظره من ثراء، فوقع بصره على وجهها، وسرعان ما وجّه عربته في أعقابها حتّى بيتنا في النيل. وكانا كلّما غادرا البيت صادفاً في الطريق وكأنّه ينتظر. ولم أذع

عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة. وبذلك صارت كريمته حرماً لرؤية لاذ أو رؤية بك لاذ كما كان يدعى، وظنّ جدّي أنّه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بتزويجه أصغر كريمته. ولكن ما كاد ينقضي أسبوعان على ليلة الزفاف حتّى عادت أمّي إلى بيت جدّي دامعة العينين كسيرة الفؤاد! وانزعج جدّي انزعاجاً شديداً، ولم يكد يصدّق عينيه، ثمّ علم أنّ الشاب قد عاود سيرته الماضية في الحانات ولما يمض الأسبوع الأوّل من زواجه، وأنّه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس، وأنّه أوسعها ضرباً في ذلك اليوم الذي غادرت فيه قصره. واستنطق جدّي الأمر، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب، ويحذب على ابنتيه حدباً عظيماً، فغضب غضباً شديداً، ومضى لتوّه إلى قصر لاذ، وصبّ جام غضبه على الشاب وأبيه معاً، ولبثت أمّي في بيت جدّي حتّى وضعت أختي الكبرى. وسعى نفر من أصدقاء الطرفين إلى إصلاح ذات البين، ووصل ما انقطع من حياة الزوجيّة، وكلّ مسعاهم بالنجاح فرجعت أمّي وطفلتها إلى قصر لاذ مرّة أخرى. وامتدّ مكثها به شهرين، ثمّ نفذ صبرها فهجرته إلى بيت جدّي مهیضة الجناح. والحقّ أنّها لم تذق الراحة إلاّ أيّاماً معدودات، ولكنّها تصبّرت وتجلّدت عسى أن تصلح الأيام ما فسد من حاله، فلم يكن يزداد إلاّ فساداً، ولم تعد ترى فيه إلاّ سكيراً عربيّاً لا يرعى لشيء حرمة، فأبست منه، ولاذت ببيت أبيها. وسعى الرجل إلى استردادها، مقرّاً بإدمانه الشراب، محاولاً إقناع جدّي بأنّه من الممكن أن تستقيم الحياة الزوجيّة مع إدمان الشرب، ولكنّ جدّي وقف منه موقفاً صلباً فطلّقها، ومرّت أشهر فوضعت أمّي أختي الأوسط، وعاشت في كنف أبيها متمتعة بعطفه وحنانه. ثمّ ترامت إليهم أبناء غريبة عن رؤية لاذ تقول إنّ الفتى الطائش قد حاول في ساعة نزق وجزع أن يدسّ السّم لأبيه متعجلاً حظه من الميراث، ولكنّ الأب اكتشف الجريمة بوساطة الطباخ، فطرد ابنه من قصره، ووقف نصف

هذا الفصل من القصّة يمرّ بي دون ملاحظة، فسألته عن الغزل في تلك الأيام وكيف كان، وتلقّت سؤالي بريية وحذر، ولكنّي ما زلت بها حتّى استنامت إليّ، فاستسلمت لرقة الذكريات. وقالت إنّ كان يبعث إليها بنظرات تومض بالابتسام، أو يلتفت نحوها باهتمام وهو يفتل شاربه الغزير الأسود، بيد أنّه لم يعدّ حدود الأدب قط. وتفكّرت مليّاً، وتمت في ببداء الخيال الحالم، فعانيت أحاسيس الدهشة والحيرة والضيق، ثمّ رفعت إليها عينيّ - ولم يكن لنا من سلوى في تلك الأيام إلاّ مواصلة الحديث - وسألته مبتسماً عن كيف كانت تلقى تلك المقدمات الغزليّة. ولم يخف عنها ما في سؤالي من خبث فتضحكت، وكانت إذا ضحكت اهتزّ جسمها من الرأس إلى القدم، وقالت إنّها كانت تتجاهله بطبيعة الحال، وتنظر فيها أمامها دون أن تلوي على شيء، وتظنّ على حالها كأنّها تمثال ذو برقع أبيض! وداخلني شكّ، وقلت إنّ أسألها عن الباطن لا الظاهر، عن القلب لا الوجه. ونازعني النفس إلى مصارحتها بما يدور في خلدي، ولكنّ خائتي الشجاعة، وعقلي الحياء، ولورجعت إلى قلبي لعرفت الجواب، فهذا القلب من ذاك، يجري بهما دم واحد، ويسجعان عن خفقات واحد، فهل أنسى أنّي وقتت كثيراً كمثل التمثال والقلب شعله ناراً!

وتقدّم الشابّ يطلب يدها، لم يكن ذا عمل ولا علم، بل ولا مال حتّى ذلك الوقت، ولكنّه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين. ولما علم جدّي بموافقة الأب واستعداده لتكفل ابنه وأسرته، سرّ بالخطبة سروراً لا مزيد عليه، وفرح بجاه الأسرة العريق. وقيل له إنّ جاهل جهل العوامّ، فقال وما حاجته إلى العلم؟ وقيل له إنّ بلا عمل، فقال وما حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة إنّ شابّ ذو أهواء جامحة وإنّه سكير عربيّد، فقال إنّ يعلم أنّه شابّ وليس براهب. ولم يكن جدّي طماعاً جشعاً، ولكنّه كان يروم السعادة لابنته. وبحسب أنّ المال كفيّل بتحقيق تلك السعادة، هذا إلى تأثر باسم الأسرة التي تودّ مصاهرته، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة، وفضلاً

ثروته لجهة خير، ووقف النصف الآخر على الابن الأكبر، ولعلّه لم يشأ أن يوقفها كلها للأخ الأكبر حتى لا يوغر صدر ابنه الشَّرير عليه فيعرّضه بذلك لأذاه... واستيقظ رؤية لاظ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على فقر نسبيّ، فلم يعد يملك من حطام الدنيا إلّا ريع وقف ورثه في ذلك الوقت عن أمّه - وهي غير أمّ أخيه - يقارب الأربعين جنبها شهرًا وبیتًا ذا طابقين في الحلمية انتقل إليه بعد طرده من قصر لاظ. وأثارت تلك الأنباء شجنًا في بيت جدّي صفقت له ضلوع الذين يشفقون على مستقبل الوليدین الصغیرین، فقد تضاعلت نفقتهما، وتجهّم مستقبلهما. وتشاور جدّي وجدتيّ وأميّ في الأمر، وانتهى بهم تبادل الرأي إلى أن يقابل جدّي لاظ الكبير، وأن يستعطف قلبه للوليدین البریثین حتى یغیّر وصیته لصالحهما، ومضى جدّي إلى قصر لاظ، وحادث الرجل فيها جاء من أجله، ولكنّه وجد منه قلبًا قاسيًا وأذنا صمًا، ولعن بمحضرة الابن وذريته، فعاد جدّي محزونًا ثائرًا.

وكان من سخرية الأقدار أن مات لاظ بك في نفس العام الذي سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه. وانقضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت أختي راضية الثامنة، وبلغ أخي مدحت السابعة أو نحو ذلك. وفي ذلك التاريخ حدث ما غيّر مجرى حياة أسرنا الهادئ. وشاءت الأقدار أن يتمّ ذاك التغيّر بحادثة تافهة مما يعرض في الطريق، إذ كان جدّي يغادر ناديًا للقمار بشارع عماد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفرًا من السوق يلتفون بأفندي ويوسعونه ضربًا وهو يتخبط بينهم هائجًا مترنحًا، فبادرهم هاتفًا أن يكفوا عنه، ومضى صوبهم غاضبًا، ثمّ لحق به شرطيّ على الأثر. وما كاد النفر يفترقون حتى رأى جدّي رؤية لاظ في حالة سكر بينّ وقد سال الدم من أنفه. ودعش جدّي وتولّاه الارتباك موقع الدهشة، ولكنّه تقدّم من الرجل دون تردّد وسنده بذراعه وهو يوشك أن يقع. كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذبوله أو كاد، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالي إرسال النفقة لوليديه

على استهتاره وعربدته، فلم يكن بين الرجلين عدا، ودعا جدّي إلى «حانطوره» فأطاع، وأمر جدّي السائق بالذهاب إلى الحلمية، وخيّم عليهما في الطريق صمت عجيب، فلم ينبس أحدهما بكلمة، ولمّا بلغت العربة البيت أوسع له جدّي لينزل، ولكنّه أمسك بذراع الرجل ودعا إلى بيته. واعتذر جدّي بتأخّر الوقت ولكنّ الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلّا أن ينزل معه وكان ما يزال ثملًا خمورًا فأذعن جدّي على رغبه، فمضيا معًا إلى حجرة الاستقبال وخيوط الفجر الزرقاء تنشب في الظلماء. وارتمى رؤية لاظ على مقعد وجذب جدّي فأجلسه على مقعد قريب، وسرعان ما ولّى عنه سكوته فغلبه الانفعال والتأثر وراح يقول بلسان ثقيل حلّت الخمر والانفعال عقده «أرأيت الأوباش كيف انهلوا عليّ لكتّمًا وصفمًا؟!... أرأيت إلى الإهانة البالغة تنزل بكرامتي، وأنا رؤية بن لاظ، ربيب القصر العتيق؟! هذه هي الدنيا يا عمّاه... وما بالي أدعوك بعميّ؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تُعدّ أنت الخمسين إلّا بقليل، فما أحراني أن أدعوك بأخي، ولكنّي أدعوك عمّي احترامًا وإجلالًا، فإنك بمنزلة أبي... أستغفر الله أنت أعظم من ذلك وأجلّ، لا تؤاخذني بما أنطق من لفظ، واللفظ شيء تافه، أمّا ركلي بأقدام الأوباش فشيء خطير، اليس كذلك؟! لقد مات أبي غاضبًا عليّ، ويقولون إنّه لا يظفر بالسعادة من حُرّم رضاء الوالدين، أحقًا هذا يا عمّاه؟! حتى ولو كان أحد الوالدين أبي؟! ربّاه، لقد سئمت هذه الحياة، إنّها حمى وهذيان وجنون متواصل، لشدّ ما تتوق نفسي إلى الهدوء والطمأنينة، اليس هذا هو الندم؟! امدد إليّ يدك يا عمّاه، ولتقسّم معًا بهذا الفجر الطالع أن نبدأ حياة جديدة لا إثم فيها ولا فجور، ردّ إليّ زوجي وطفليّ وأسكتني أسرتي... هلمّ... واشتدّ احمرار عينيه حتى ظنّه جدّي باكيًا، ولم يجد بداً من أن يطيب خاطره. وعندما انطلق به الخطور صوب المنيل وقد تحرك سطح الأرض رويدًا بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق، أغمض عينيه في ارتياح، وتفكّر في الأمر مليًا، وكان يودّ أن يرى ابنته سيّدة لبيت يخصّها. وفي

الزمان يأوي إليه حمام الذكريات، الساجع بالحنين إلى ما انقضى من أعمارنا، فلأنقّب في غيايات الماضي عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسي من موجات الذكريات، إني أغمض عيني متوارياً عن عالم المحسوس، كي أهتئ لروحي سكينه تنطلق فيها إلى الماضي الخالد. ولأعترف أنّي شديد الحنين إلى الماضي، وقد بت في هذه الفترة الأخيرة أشد ما أكون حناناً إليه، ولعلّ ذلك منّي ليس إلا توقفاً صريحاً إلى الطفولة، وإني لأدرك ما في هذا الحنين والتوق من خطورة هي سرّ دائي الأسيف في الحياة، ومع أنّي عشت حياتي متطلّعا إلى ذلك الماضي - راضياً أو ساخطاً - شديد الشعور بما يشدني إليه من رباط وثيق، إلا أنّي أقف عاجزاً حيال سجنه الكثيفة، ترتدّ ذاكرتي حسيرة عن أرقّ عهوده وأخطرها. ها أنا أغمض عيني في تشوّف وتساؤل، فيعشو بصري إلى نور خافت، أرى يدي الصغيرة وهي تمتدّ إلى القمر من على كتف أمي. يا لها من ذكرى! ولكم تمتدّ أيدينا إلى أقمار ليست دون ذلك القمر مثلاً، وتعاودني ذكرى جهد مضمّن بذلته كي أزدرد حلمة الثدي فيصدني شيء مرّ مذاقه. وشارب جدّي المهلالي وأنامي تشده في سرور لا مزيد عليه. وتحطيم أصص الزهور، وكيف هوت إحداهما مرّة من حافة الشرفة على ذراع البواب النويّ فكادت تكسرها. وكان من عادتي ألا أستسلم للنوم حتى أمتطي منكب أمي فتذهب بي وتجيء بطول البيت وعرضه، وكلّما تواتت حثنتها بقدمي. وكنت أرفل دائماً في فساتين البنات، وشعري مسدل حتى المنكبين. وقد بدا لأمي يوماً أن تهتئ لي بذلة عسكرية محلاة بالنجوم والنياشين، فارتديتها مسروراً، وقطعت البيت في عجب وخيلاء، ضابطاً عظيماً ذا ضفيرة تتهادى على ظهرها ولم يكن جدّي يرتاح إلى ذلك التذليل المفرط. ولكنّه لم يجد من وقته متسعاً للإشراف على تربيتي، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادي القمار إلا قبيل الفجر. وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمي لسوء طالعها، ولأنّه لم يبق له في شيخوخته سواها. عشنا ثلاثنا وليس للأب

نفس الشهر رُدّت أمي إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة. ولكن لم تدم هذه الحياة الجديدة إلا أسبوعين! بل لعلّها لم تدم إلا يوماً واحداً، وتحمّلت أمي بقيتها صابرة متصبرة حتى أقضها الإشفاق على طفلها من شرّ السكير العرييد، فحملتها وفرت إلى جدّي المسكين. ونار الرجل ثورة عنيفة، ومضى لتوّه إلى التائب الزائف وانهاه عليه تعنيفاً وتقريعاً وازدراء، واستمع الآخر إليه صامتاً، ثم قال له إنّ زوجه هي الملوّمة لأنّها لا تودّ العيش معه وإنه لا ذنب له إلا أنّه يسكراً وغادره جدّي يائساً وبيده شهادة الطلاق. انقطعت حياة الزوجية إلى الأبد، وكنت أنا ثمرة تلك التوبة الكاذبة! ...

وقد سمعت جدّي يمازحني يوماً فيقول لي: «لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحسّاتي أنا دون سواي...». ولكن ما أكثر الذين جاؤوا هذه الدنيا في أعقاب الحماقات. ونشأت في بيت جدّي، فلم أعرف بيتاً سواه، بل لم أعرف من الأهل غير جدّي وأمّي، لأنّي حين أخذت أمي ما حولي كان أبي قد استردّ أخي وأختي، وكانت جدّي قد ماتت. ولم أعرف أنّ لي أباً إلا بلسان أمي، وحديثها المفعم مرارة وحزناً، فنمت كراهتي له على الأيام. وقد أتمّ الرجل قسوته عليها فلم يكتفِ باسترداد ابنه وابنته، ولكنّه حالّ بينها وبين رؤية أمّهما، فمَرّت الأعوام تلو الأعوام وهي لا ترى لها أثراً. وترامت الأخبار إلينا تقول إنّ الرجل يكاد يحبس نفسه دون العالم كلّهُ، فأرّاً من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهائاً ولا ليلاً...

٤

كان بيت جدّي بالمنيل مولدي وملمي ودنياي. وكان يتكوّن من دورين كبيرين نقيم في الأعلى منها، وله فناء صغير. لست أريد التحدّث عن البيت، ولكنّي أتلهّف على استعادة الماضي. وما من ماضٍ إلا وله بيت تحوم حوله ذكرياته. إنّ حياتي لا تنفصل عن ذلك البيت أبداً، ولن تنفصل عنه ما حييت، وما البيت ببناء وعمارة وهندسة، ولكنّه برج ثابت في

مضى يزداد بتدرّجي في مدارج النمو، وأي ذلك أنها أقبلت نحوّني أشياء لا حصر لها لتردني عمّا أتطلّع إليه من حرّية وانطلاق. ولتحتفظ بي في حضنها على الدوام. ملأت أذنيّ بقصص العنسايرت والأشباح والأرواح والجنان والقنلة واللصوص، حتّى خلّتي أسكن عالمًا حافلًا بالشياطين والإرهاب، كلّ ما به من كائنات خليق بالخطر والخوف. ذاك عهد بعيد، ولكنّه لا يزال حيًّا في صدري ودمي، وهو الذي جعل من الخوف جوهرًا أصيلًا في نفسي تدور حوله حياتي جميعًا، فنغصص على صفوي، وروماني بتعاسة لا تريم، وما أنا إلا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعرًا، وأخاف الناس، وأخاف الحيوان والحشرات، وأفرق من الظلام وما يرصدني من أوهامه، وأحمى جهدي أن أنفرد بقطّ، وهيئات أن أنام في حجرة بمفردي. على أنّ الخوف كان أعمق في حياتي من هذه الأشياء التي يتمثّل لي فيها، لقد استطلت ظلّه الكثيف حتّى أظلّ الماضي والحاضر والمستقبل، واليقظة والنوم، وأسلوب الحياة وفلسفتها، والصحة والمرض، والحبّ والكراهية، فلم يترك شيئًا خالصًا. وقد عشت جلّ حياتي الماضية غرًا جاهلًا لا أدري لتعاسي سببًا، ثمّ جلت لي المحن جوانب من حياتي، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسيّفة، بيد أنّ شعوري بالعجز لا يفارقي، وهو يستند في الحقّ إلى قصور ثقافتي وضعف ثقتي في قواي العقلية. كانت أمّي مبعث هذه الآلام ولكنّها كانت الملاذ الوحيد منها، فأويت إليها في غير حيلة . . .

ومن ذكريات ذلك العهد التي لا تنسى، موقفنا - أنا وأمّي - على قبر جدّتي في المواسم نكلّله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترجمين. وكنا نتحدّث كثيرًا عن القبور وأهل القبور، وكيف يرقدون، وكيف يستقبلون، وماذا يلقون من شدّة وحساب، وكيف نزل عليهم الآيات نورًا، يُذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم، ولما كان القبر قبر أمّ أمّي فقد أحببته حبًّا جمًّا. وكنت إذا وجدت منها غرّة هرعت إلى جانب منه، أنشب في ثراه أظفري، وأحفر في عجلة لعلّي أطلع على ذلك المجهول

إلا ابنته وليس للآم إلا ابنها، وكانت أمّي تهفو لذكريات أختي وأخي بعين دامعة وفؤاد كسير، وتلهّف على رؤيتهما ولو ساعة واحدة، ولم تجد في حزنها من عزاء سواي، فأودعتني حضنها، لا تحبّ أن أبرحه، وتودّ لو أجعل منه مرتعي ومراحي وديبائي جميعًا. وهفّت نسائم الحياة رخاء، فلم أدرك إلا بعد فوات الوقت أنّه كان حنانًا شاذًّا قد جاوز حدّه، ومن الحنان ما يهلك. كانت مصابة في صميم أمومتها فوجدت فيّ أنا السلوى والعزاء والشفاء، كرسّت حياتها جميعًا لي، أنام في حضنها، وأقضي نهاري على كتفها أو بين يديها، وحتّى في الأويقات التي كانت تتعهد فيها شئون البيت لم أكن أفارقها، أو لم تكن تدعني أفارقها، وحتّى في المطبخ كنت أمتطي منكبها مفترشًا رأسها بخديّ متسلّيًا بمشاهدة الطاهي وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويخرط البصل، بل كنّا نستحمّ معًا فتحتطي في طست عاريًا، وتجلس أمامي متجرّدة فأرشها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على جسدها فأدلك به جسدي، ولم تكن تغادر البيت إلا قليلًا، فصلتنا بآل أبي مقطوعة، وخالتي كانت تقيم في ذلك الوقت بالمنصورة مع زوجها، فإذا خرجت في النادر لزيارة إحدى الجارات اصطحتبني معها. على أنّنا كنّا نواظب على زيارة السيّدة زينب، ولعلّها الزيارة الوحيدة التي كنّا ننتظرها بفارغ صبر. ولم يكن يسئها شيء مثل أن تشني على امرأة من معارفها بما يثنى به على الأطفال عادة، فكانت تتطرّب من الثناء وترقيبي من العين في إشفاق عميق، ومن عجب أنّي لا أذكر التعاويذ والرقميّ باستهانة أو ازدراء، وأنّي لمؤمن بها، بل إنّي لأومن بكلّ ما كانت تؤمن به أمّي. وقد نلت من الثقافة حظًا، وحصلت على البكالوريا، ولكن بقي لي إيماني القديم سالمًا غير منقوص، وهيئات أن يتزعزع إيماني بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والأضرحة.

بيد أنّي لا أستطيع أن أقول إنّي استكنت إلى تلك الحياة بلا تملل. ولعلّي ضقت بها في أحيان كثيرة، وتطلّعت إلى الحرّية والانطلاق. ولعلّ ضيقي ذاك

خرجنا معاً لزيارة السيّدة. إذا كنت تحبّي حقاً فلا تفارقي.
ولاح في وجهي التذمّر والامتعاض فاستطردت تقول:

- لقد حُرمت رؤية أختك وأخيك، ولم يبق لي في الدنيا سواك، وها أنت تودّ فراقِي، ساعك الله... فتودّدت إليها قائلاً:

- إني أحبّك أكثر من أيّ شيء في الدنيا، ولكنّي أريد أن ألعب... .

ولكنّها لم تكن لتذعن لسرغبتِي تلك، وكنت إذا ضقت بإصرارها بكيت أو ناربي الغضب ثورة لا أعفّ فيها عن شدّ شعوري وتمزيق ثيابي، ولكنّ شيئاً لم يكن ليجعلها تذعن لرغبتِي في الابتعاد عنها. وفيما عدا ذلك لم تذخر وسعاً لمرضاتي. كانت تتنازع لي اللعب أشكالاً والوأناء. وإذا لمست ضيقي ومللي دعت بطفل من أطفال الجيران ليشاركني لهوي تحت سمعها وبصرها. بيد أنّ ذلك كلّه لم يروّ غلّتي، فتحبّبت منها غفلة يوماً وانسللت هارباً من الشقّة أكاد أخرج من جلدي فرحاً، واستقبلني الأطفال في الفناء بدهشة وترحاب معاً. ومع أنّه كان بيننا شبه تعارف إلاّ أنّه لم يسعني الاقتراب منهم، فوقفت مكاني في ارتباك وحياء، وسرعان ما أطلت أُمّي من الشرفة ونادتني في حدّة الغضب، ولكنّ أكبر الأطفال تقدّم منّي، ودعاني إلى اللعب، وهو يقول لي: «لا تبالها!» ولأول مرّة لم أبال صوتها. فاندفعت إلى حلقة اللعب، وأخذت مكاني في سرور لا يوصف، ولم تكد تمرّ دقائق حتّى شجر خلاف بيني وبين أحدهم فلطمني على وجهي، وذهلت ذهولاً شديداً فلعلّها كانت أوّل لطمة تلقّيتها في حياتي، وارتميت على ساعده وغرست فيه أسناني، ولم يتردّد رفاقه فانهالوا عليّ ضرباً وركلاً، وتوعّدتهم أُمّي في غضب شديد، ولكنّهم لم يقلعوا عنيّ حتّى هدّدتهم بقذفهم بالقلّة، فغادروني في حالة يرثى لها. ودعتي للصوصود إليها، وكنت أهت بالدموع ملء عينيّ، فقهرني الحياء وتسمرت قدماي فلم ألّب نداءها، ولم أرفع بصري عن الأرض، ولم أفارق موقفي حتّى جاء

المنطوي تحت الأرض. ولشّد ما كان يجرّ في نفسي أن أسمعها تردّد: «إنا لله وإنا إليه راجعون» أو «آخرتنا التراب» أو «الموت نهاية كلّ حيّ» فسألته مرّة في دهشة:

- سنموت جميعاً؟!

فساءها السؤال، وحاولت أن تلهيني عنه، ولكنّي وقفت عنده لا أنزحزح فقالت:

- بعد عمر طويل إن شاء الله.

فرمقتها بإشفاق وسألته مرّة أخرى:

- وأنت يا أمّاه!...

فقالت لي وهي تداري ابتسامة:

- طبعاً. ساموت يوماً ما...

فوقع قولها من نفسي موقعاً أليماً وهتفت بها:

- كلاً... كلاً... لن تموت أبداً.

وربّبت على رأسي بحنان وقالت برقة:

- ادع لي بطول العمر، كما أدعو لك يستجيب لك الرحمن الرحيم.

وبسطت كفّي الصغيرتين ودعوت الله من أعماق قلبي، وعينايا مغرورقتان بالدموع.

٥

أظّل الدهر في حجرها كآتني عضو من أعضاء جسدها؟! جاوزت الرابعة من عمري، وجاء سنّ الرفاق واللعب. ولم يكن لي من مهرب في البيت إلاّ الشرفة، وهي تطلّ على فناء البيت، وتشرف على الطريق. وكان أطفال الأسرة التي تسكن الدور الأوّل يلعبون في الفناء، فجعلت أنظر إليهم بعينين مشوّقتين، فيتطلّعون أحياناً بأعين قرأت فيها دعوة صامته اهتزّت لها جوانحي، واستأذنت أُمّي يوماً في الانضمام إليهم، فقالت لي بارتياح: ماذا حدث لعقلك؟!... ألا ترى أنّهم لا يكفّون عن العراك؟!... ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك؟!... أو خرجوا بك إلى الطريق لا تنقطع به العربات؟! بل ماذا تفيد منهم إلاّ الشقاوة وسوء الأدب؟! أمّا أنا فأفصّ عليك القصص، وإذا شئت

لإقامة شقيقتها بيننا ذلك الشهر، لا لتفتر في عواطفها نحوها، ولكن لأن أبناءها استأثروا بي من دونها، وأفسدوني عليها. وشكت مرة إلى خالتي ما تخافه عليّ من حوادث الطريق، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم:

- «هل ابنك من لحم ودم وأبنائي من حديد!... قوّي قلبك وتوكّلي على الله!». أمّا أنا فقد نسبت في سعادتني الشاملة تعاليم أمي جميعاً، واستسلمت للسرور شهراً صادف حياتي الرتيبة كالحلم البهيج، وألقيت بنفسي في أحضان اللعب بشراهة ونهم، لا أستشعر تعباً ولا مللاً. وفي الليل إذا آوينا إلى البيت كنت أضع عمامة زوج خالتي على رأسي وأحكي لهجته في الحديث، وأنجّمتُ كما يتجسّأ، وأتممت عقب ذلك قائلاً: «أستغفر الله العظيم» والكسل من حولي يضحكون!

كان شهراً كالحلم، ولكنّ الأحلام لا تدوم. وقد انقضى. ورأيت بعين الحسرة الحقايب وهي تُعدّ وتكؤم استعداداً للرحيل. وحَمّ الفراق، فكان عناق وسلام، وحملتهم العربية جميعاً ومضت، وأنا أودّعهم من الشرفة بطرف داعم كبير.

وقالت لي أمي:

- كفاك لعباً وجرباً في الشارع، ثب إلى رشدك، وعد إليّ كما كنت لا تفارقني ولا أفارقك.

وأصغيت إليها في صمت. كنت أحبها ملء فؤادي ولكنّي كنت أهفو كذلك للعب والمرح. وبدا لأمي أن تحضر لنا خادمة صغيرة، وسمحت لها بأن تلاعبني تحت سمعها وبصرها. فكانت رفيقاً خيراً من عدمه على أيّ حال، كانت صبيّة دميمة، ولكنّها كانت أفضل لي من الطاهي الهرم وأمّ زينب العجوز. وكانت أمي محافظة على صلاتها، فجعلت أفلدها إذا صلّت، ولعلّها وجدت الفرصة مناسبة فمضت تلقني مبادئ الدين كما تعرفه. عرفت الدين مبتدئاً بالحنّة والنار، فانضافت إلى معجم مخاوفي كلمات جديدة، بيد أنّها كانت مصاحبة هذه المرّة لعاطفة صدق وحبّ وإيمان.

البوّاب فحملني إليها. وغسلت لي وجهي وساقّي وهي تقول في انفعال شديد:

- تستاهل... تستاهل... هذا جزاء من يخالف رأي أمه، إنّ الله يغفر كلّ شيء إلا من يعاند أمه، فلن يغفر له. هذا هو اللعب مع الأطفال، فكيف وجدته؟!

ألتمني هزيمتي أمامها أضعاف ما ألتمني الضرب، ورحت أوكد لها كذباً أنّ الحقّ كان عليّ، وأني كنت المعتدي. ومن عجب أنّ أمي نفسها لم تكن تكثر من الاختلاط بالناس، فلم يألّف بيتنا الضيوف إلا فينا ندر. وكان جدّي يضيّق بعزلتها، ويحُثّها دائماً على المعاشرة لتسرّي عن نفسها. ثمّ شاء الله أن يؤنس وحشتنا، فحلّت خالتي ضيفة ببيتنا هي وأسرتها! كانت خالتي تقيم مع زوجها - مدرّس لغة عربيّة - بالمنصورة، فانقلوا إلى القاهرة ليقضوا بيننا شهراً من العطلة الصيفيّة. وجدت نفسي بين ستّة من الأولاد وبنات، فأفلت الزمام من يد أمي على رغمها. وكان أكبر الأولاد في العاشرة، وأصغرهم يحبو، فانقلب البيت الهادئ سرّاً تقفز به القروود والنسانيس، فلعبت وهوت حتّى كدت أجنّ من الفرح والسرور. لعبنا الجديد والحجلة، والوابور، والاستغاية.

ولمّا ضفنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا أكاد أصدّق. وأرادت أمي أن تحول بيبي وبين الانطلاق معهم، ولكنّ خالتي تصدّت لها قائلة:

- دعيه يلعب مع الأولاد يا أختي!.. لو كان بنتاً ما جاز لك أن تحجبيه قبل الأوان!

كانت الشقيقتان مختلفتين في المزاج على تقاربهما في الشبه. كانت خالتي مفرطة في السمنة، ميّالة للمرح والمزاح، لا تكرب نفسها بالقلق على أبنائها بغير داع. وكانت إذا غادر جدّي البيت غنّت بصوت لطيف محاكية «منيرة المهديّة». أمّا أمي فتبدو على العكس من هذا كلّ. فهي نحيفة، منزوية، كثيرة المخاوف والقلق، مفرطة في الحنان لحدّ الشذوذ. وقد أرهقت ظروف حياتها أعصابها، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتّى تلتفّها كآبة شاملة. ولعلّها لم ترتح كلّ الارتياح

- أنت الآن تلميذ عظيم، وستفتح المدرسة يوم السبت القادم...
وأعلنت أمي عن ارتياحها، ولكنها لم تستطع إدارة ما اعترأها من كآبة، حتى برم بها جدتي وقال لها بشيء من الحدة:

- ماذا تفعلين غداً إذا بلغ السابعة وأخذة أبوه!

فرمقت جدتي بنظرة فزع وألم وهتفت قائلة:

- لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة.

وفي يوم السبت المنتظر أوصلني جدتي إلى المدرسة وعاد من حيث أتى. وقد تعلقت بيده وهو يغادرني، واستشعرت خوفاً مبالغاً أنساني طول اشتياقي إلى تلك الساعة، واقترحت عليه أن يعود بي! ولكنه ضحك ضحكته الرئانة وقال وهو يومئ بأصبعه إلى التلاميذ:

- إليك أهلك الجدد...

وقفت على كثر من الباب في ارتباك لم أعان مثله من قبل، وتولاني الندم، ونظرت إلى التلاميذ المتفرقين في الفناء بخوف وحياء، وتمنيت ألا تقع عين عليّ. ولكن أنافتي وجدّة ثيابي لفتتا إليّ الأنظار فغضضت بصري في خجل شديد. وتساءلت حَتّام يطول ذاك العذاب؟ بيد أنّ غلاماً اقترب منّي وحياتي، ووقف معي كأننا أصدقاء. ثمّ سألتني بغير مناسبة:

- هل أبوك الذي جاء بك؟

وكنت أعدّ جدتي جدّاً وأباً، فحنيت رأسي دلالة الإيجاب، فعاد يسألني:

- ما مهنته؟... وما اسمه؟

ولكن كان الحديث ضايقي، إلا رحبت بذاك السؤال خاصّة، فقلت بفخار:

- الأميرالاي عبد الله بك حسن.

وقال لي الغلام إنّ أباه فلان بك كذلك وقد نسيت. ولعلّه ضاق بصمتي وجودي فغادرني وانضمّ إلى غيري من الرفاق. اشتدّت بي الوحشة وتساءلت ترى أستطيع أن أندمج في أولئك الغلمان؟ هل يمكنني حقّاً أن ألاعبهم أم تتكرّر المأساة التي وقعت لي في فناء بيتنا؟ وتقبّض قلبي خوفاً، ولو واتتني الشجاعة على الانسحاب من موقفتي والعودة إلى البيت لفعلت. ثمّ

وأدّت حال أمي تلك معي إلى تأجيل تاريخ التحاقي بالمدرسة، فقاربت السابعة دون أن أتعلّم حرفاً. وتدخّل جدتي في الأمر، فدعاني يوماً إليه وهو جالس بالشرقة على مقعده الطويل الهزاز، وعرك أذني مداعباً وقال لي:

- طالما رغبت في الانضمام إلى أترابك من الغلمان، فالآن قد فكّ الله أسرك، وسأذن لك بالاشتراك معهم في حياتهم عمراً طويلاً، ستدخل المدرسة! أنصتْ إليه في دهشة بادئ الأمر إذ لم أكن أدري شيئاً عن المدرسة، ثمّ بدا لي أنّه سيطلق سراحي فنظرت إلى أمي بين مصدّق ومكذّب، ولشدّ ما دهشت حين رأيتهما تبسم إليّ في تشجيع واستسلام، فانبعث الجبور في صدري فيّاضاً، وهتفت بجدتي متسائلاً:

- هل أَلعب في المدرسة كالأطفال؟

فهزّ الشيخ رأسه الأبيض وقال:

- طبعاً... طبعاً... ستلعب كثيراً وتعلّم كثيراً، ثمّ تصير فيها بعد ضابطاً مثلي... فسأله في لهفة:

- متى أذهب؟...

فابتسم الرجل قائلاً:

- قريباً جدّاً، سأقيّد اسمك غداً...

وفي صباح الغد - وكنا في مطلع الخريف - ألبسوني بدلة وطربوشاً وحذاءً جديداً فعاودتني ذكريات العيد السعيد، ومضى بي جدتي إلى عطفة قاسم غير بعيد من بيتنا، ودخلنا ثاني بناء صادفنا إلى اليسار، مدرسة الروضة الأولى الأهلية، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت، كانت تتكوّن من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات، فصلين وحجرة الناظر. وقد استقبل الناظر - وهو صاحب المدرسة أيضاً - جدتي بالاحترام والإجلال، ولاطفي في محضره برقة، وأطرى نظافتي وجدّة ثيابي، فأنست إليه واستبشرت به خيراً. وتمّ إثباتي بين تلاميذ المدرسة في دقائق، ودفع جدتي المصروفات، وعدنا وهو يقول لي:

وارتقيت السلم وثبًا، وفي الشقة وجدت أمي في انتظاري، فهتفت بي لما رأني:

- أهلاً بنور العين... .

ووقع بصرها مصادفة على البنطلون، فبدأ في وجهها الانزعاج، وتمت بصوت منخفض:

- رباه... . بلت على نفسك!

وانفجرت باكياً، وقلت لها منتحياً:

- لن أعود إلى المدرسة، إن جدّي لا يدري عنها شيئاً، وإنّي أكره الناظر والمدرسين والتلاميذ، أنقذيني منها ولن أبتعد عنك ما حييت... .

فجففت دموعي، ونزعت ملابسي، وهي تقول برقة:

- لا تقل مثل هذا الكلام، ستألفها وتحبها، كيف تبقى في البيت والغلمان جميعاً في المدرسة؟ وهل يمكن أن تصير ضابطاً مثل جدك إذا تركت المدرسة؟!

وواصلت البكاء، وألححت في الشكوى، ولكنّها جعلت تلطف من حزني وتحذّرتني من البرح لجدّي بشكواي أن يغضب ويحتقرني. ولأول مرّة أعارت دموعي أذناً صمّاء.

* * *

وبدا لها - تشجّعني على مواصلة الحياة الجديدة - أن توصلي كلّ صباح إلى المدرسة، فكنا نذهب يوماً، وأدخل أنا المدرسة بينما تقف هي على الطوار المقابل لها، وأظّل ملازماً للسور، أبادها النظرات والابتسام من خلال قضبانه، والكآبة ترين على صدري والضيق يمسك بخناقني. كرهت المدرسة وحياتها جميعاً، ولكنّي أجبرت على الذهاب إليها، ولم ينفعني عصياني ولا بكائي ولم يغنيا عني شيئاً، فأيقنت أنّه قضي عليّ بسجن طويل الأمد. ولأول مرّة وجدّتي أحسد الكبار على حرّيتهم، وأغبط النساء على قبوعهنّ في البيوت. وإلى ذلك العهد يرجع سروري بيوم الخميس، فكان اليوم المفضّل عندي من الأيام، أما بقية أيام الأسبوع فقد جفوتها واستقلتها، وكنت أستشعر الكآبة ابتداء من أصيل يوم الجمعة، ويمرّ السبت والأحد والاثنين

دقّ الجرس فأنقذني من أفكاري، وأوقفونا صفّاً، وأدخلونا الفصل. لم أكن أتصوّر حتّى ذلك الوقت إلّا أنّي التحقت بملعب كبير، فلما أن جلست إلى قمطر، وراح المدرّس الشيخ يفتح العام الدراسي بالإرشادات التقليدية الخاصّة بالنظام وعدم الحركة والكلام، أيقنت أنّي دخلت سجنّاً... . وتولّتي الدهشة والانزعاج، ترى أخطأ جدّي أم خدعه؟ وطار خيالي إلى البيت فتمثّلت لي أمي في جلستها وحيدة، وتساءلت ترى هل نسيّتي؟ إنّها الآن تراقب أمّ زينب وهي تنكس الحجرات وتنفض الأثاث، ألم تفكّر في؟... . هل تطيق فراقي طول اليوم كلّ؟! وانتهت الحصّة الأولى دون أن ألثفت لحظة واحدة إلى كلام الشيخ، ولا عجب، فقد قرّرت أن يكون ذلك اليوم الأوّل والأخير. وفي دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمرّ بباب الفصل، فتنفّست الصعداء. ومضيت نحوه بلا تردد إذ لم أكن نسيّت لطفه ورقته، واقتربت منه في حياء، فالتفت نحوي في دهشة، ورمقني بعينين جامدتين متسائلتين فظننته قد نسيّني، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- أنا ابن الأميرالاي عبد الله بك حسن.

فسألني بدهشة:

- وماذا تريد؟

فلممت أطراف شجاعتي وقلت:

- أريد أن أعود إلى البيت.

فصرخ في وجهي بصوت غليظ كالرعد:

- عد إلى قمطرك... . عمى في عينك... .

وأذهلني صراخه، فعدت إلى مكاني يكاد يغمي عليّ من الرعب والألم. ولبثت في مكاني مروّعاً محزوناً. وفي أثناء النهار شعرت بحاجة إلى التبول ولكنّي كنتمها في خوف شديد، ولم أفكّر مطلقاً في استئذان المدرّس في الخروج. وغلبني الحياء في الفسحة فلم أستطع أن أسترشد بأحد عن موقع المراض. وجعلت أتملّمل تملّمل الملدوخ، وأشدّ على ركبتيّ في ألم وجزع. ومرّ الوقت في ثقل وعذاب حتّى دقّ جرس الخروج فأطلقت ساقبي للريح، فبلغت البيت في ثوانٍ،

الفاضحة. ولمّا أطلع جدّي على الشهادة غضب. وقال لأمي بحدّة:

- هذا نتيجة تدليلك... لقد... أفسدته يا سّي.

ثمّ توعد الناظر شرّاً، ومضى لمقابلته في المدرسة. ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح:

- نجحت يا سيدي بالفوّة، وإياك أن تسقط في السنة التالية!

وكان يداعبني أمل بأنّ سقوطي ربّما عدل بهم عن إرسالني إلى المدرسة، فلمّا بشرني بذلك النجاح المغتصب خاب أملي. وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من الأولى. وزاد من شقائي هفوة لسائبة عثرت بها فضاغت من تنغيص حياتي بقيّة المدة التي قضيتها في الروضة الأولى، رفعت أصبعي مرّة لأستاذنا المدرّس في الخروج، ولكن بدلاً من أن أدعوه «يا أفندي» أخطأت وأنا لا أدري فقلت له «يا نينة!».

وضجّ الغلمان بالضحك، وضحك المدرّس نفسه وقال لي بسخرية:

- إيه يا سيّد أمك؟...

وقهقه الفصل بالضحك، وتولاني الدهول، ولبثت ذاهلاً حتّى اغرورقت عيناى، لم يكن لي فيهم رفيق أو صديق، فقد بدا عجزي عن اتّخاذ الأصدقاء منذ ذلك العهد البعيد، فلم يرحمني أحد منهم، ودعوني منذ تلك الهفوة بنينة حتّى غلبت على اسمي الحقيقيّ، وكنت أتمامهم مهوراً مغلوباً على أمرى ونار الغضب ترعى صدري.

وفي نهاية العام جاءتني شهادة الأصفار فأتهمت أمي المدرسة. وقرّر جدّي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائية، ولمّا كنت متخرّجاً في مدرسة أهلية اشترط الناظر أن أوّدي امتحاناً، ومضى جدّي بي إلى المدرسة قبيل افتتاح العام الدراسيّ، وانتظر نتيجة الامتحان. ولم تكن بحاجة إلى الانتظار، ورجا الناظر أن يقبلني بصرف النظر عن نتيجة الامتحان، وأراد الرجل أن يجامل جدّي لكبر سنّه ومقامه فطلب إليّ أن أكتب اسمي «كامل رؤبة» ولكنّي أخطأت في كتابة رؤبة

والثلاثاء في ضيق وتبرّم، حتّى يأتي صباح الأربعاء فأتنفس الارتياح، ثمّ أستيقظ عند الفجر الخميس وأتقلّب تحت الغطاء في سرور وجور والدنيا لا تسعني من الفرح. ولذلك تفوّقت في دروس الخميس، ولم تعدّ المحفوظات والديانة... على أنّ ذلك العهد لم يخل من ذكريات تثير الابتسام، وإن بدت لي وقتذاك في إطار من الجدّ والصرامة، من ذلك أنّنا كنّا نبتاع السميد في الفسحة، وإذا أعوزنا الملح استعضنا عنه بالجير الطافح من جدران الفناء. وكان مدرّسنا الشيخ يروق له أن يشرب كوباً من العرقسوس في أثناء الحصّة الأولى، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف وإدارة ظهورنا له حتّى لا يصيبه مكروه من أعيننا النهمّة. وجاءنا يوماً متجهّماً وقال إنّه شعر ليلة أمس بمغص وإنّه لا يشكّ في أنّ أحدنا استرق إليه النظر وهو يشرب العرقسوس، وأنذرنا إذا لم نرشد عن الجاني بالضرب على أيدينا جيّعاً، ولمّا كنّا نجعل الجاني فقد ضربنا جيّعاً. وكان زميله الآخر شيوخاً هرمّاً رقيق النفس، فلم يكن يضرب أحداً إلا إذا أعبته الوسائل، وكانت طريقته المفضّلة في إسكات التلاميذ وضبط النظام أن يخوّفنا بالعرفيت الذي يسكن أرض الحجر من قديم الزمان، قائلاً إنّه لا يحبّ الضوضاء، وكان إذا أفلت الزمام من يده يجلس القرفصاء وينقر على أرض الغرفة ثمّ يقول بخشوع ورهبة «عفوك يا سيّدنا... إنهم لا يدركون شيئاً... لا تركبهم وساحمهم هذه المرّة».

أمّا الدراسة فإنّي لم أتعلّم شيئاً على الإطلاق. ولعلّ الفنّ الوحيد الذي أتقنته في مدرسة الروضة الأولى هو قياس الزمن بمراقبة تحوّل ضوء الشمس عن جدران الفصل، وأنا أعدّ الثواني في انتظار جرس الخروج. وكان المعنى الوحيد الذي يتضمّن توجيّه سؤال من المدرّس أنّي سأضرب كذا مسطرة على ظاهر كفيّ. ولم أحفظ في بحر عام دراسيّ إلاّ بعض السور القرآنيّة الصغيرة التي كنت أسمع أمي تردها في صلاتها. وجاء الامتحان في نهاية العام فظفرت بجملة أصفار تكفي لجعلي مليونيراً لو ظفرت بها في غير الشهادة

حتى أبلغ التاسعة، وقُبلت الشفاعة بمعجزة من السماء. وها قد اقتربت التاسعة، ولسوف أنتزع من أحضان أمي ما لم يتنازل أبي عن حقه في استردادتي. وبكت أمي يوماً في محضر جدّي وقالت له:

- لقد فقدت راضية ومدحت فلم تقع عليهما عيناى منذ تسع سنوات، ولم يبق لي إلا كامل، فهو عزائي الوحيد في هذه الحياة، ولا أدري ماذا أفعل إذا سلبني الرجل إياه.

وهزّ جدّي رأسه الأشيب متبرّماً، وكان ذلك الحديث يكرهه، وقال لها:

- وماذا بيدي أن أفعل؟! هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه، والرجل الذي تعنيه هو أبوه على أيّ حال، وليس برجل غريب!

فهمت أمي في تألم واحتجاج:

- أبوه!... أتدعو هذا الوحش أباً؟! يا أسفي على راضية ومدحت في البيت الذي جعل السكّير منه حانة. إن الأبوة لم تختلج بصدرة قطّ. وكامل قد ترعرع في رعايتي ونهل من حناني، ولم يدر شيئاً عن شواذّ المخلوقات، فإذا أخذه الرجل هلك بين يديه، وهلكت هنا وحدي...

وخنقتها البكاء فأمسكت عن الكلام مرغمة، ولها استردّت أنفاسها استطردت تقول:

- هل تتصوّر يا أبي أنّ كامل يستطيع أن يعيش بعيداً عن أمّه؟ إنّ يديّ هاتين تطعانه وتلبسانه وتنيسانه، إنّه يخاف خياله، وإنّه لتُفزع زفرات الصراصير، فكيف يأذن الشرع بأن يُنتزع مثل هذا الطفل من أحضان أمّه؟!!

وقطّب جدّي متبرّماً، وبدا وكأنّه ضاق بشكواها، بيد أنّ وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه، وكثيراً ما كان يبدو ساخطاً والقلب منه نديّ بالرحمة، ولم يزد وقتذاك على أن قال: كفاك شكوى وبكاء. إن قسم له أن يمكث بيننا مكث، وإن أراد الله أن يذهب إلى أبيه فلا رادّ لقضائه...

ذاك كان قوله، أمّا صنيعه فكان شيئاً آخر. فقد حزم أمره يوماً ومضى إلى أبي ليفاوضه في شأن

فاعتذر الناظر من عدم إمكان قبولي. وعاد بي جدّي وهو يسخر منّي طوال الطريق، وقال لأمي وهو ينفخ: - لا فائدة ترجى من إعادته إلى المدرسة الأولى، فسأحضر له مدرّساً خصوصياً هذا العام.

وأنصت إليه وأنا لا أصدّق أذنيّ، سألته وأنا أدري فرحي:

- هل أبقى هذا العام في البيت؟

فحدجني بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بغیظ:

- يا فرحة أملك بك!

V

واستقبلت عامّاً مثمراً لأول مرّة في حياتي، وجلست أمناً مطمئناً بين يدي مدرّسي الشيخ، أتلقن مبادئ العربيّ والحساب. بدأت أخطو الخطوات الأولى في طريق التعليم، وإن مضت ساعات الدراسة في ثقل وضيق كالعادة، ولكي أضمن معاملة حسنة من المدرّس أجلست أمي غير بعيد من باب حجرة المدرّس للاستنجاذ بها عند الحاجة، ولا عجب فإنّ ذكرى العامين اللذين قضيتهما في مدرسة الروضة - ما بين ضرب المدرّسين واعتداء التلاميذ - لم تمحّ من نفسي قطّ. ولم أكن أتصوّر حتى ذلك الوقت أنّ التعليم واجب ضروريّ ساؤدّيه شطراً طويلاً من العمر، ولكّني عددته عقاباً فُرض عليّ لسبب لا أدريه، ولم أياس من أن يلين قلب جدّي يوماً فيعفني منه.

على أنّ أمي لم تكن أسعد حالاً منّي. كانت تعاني عذاباً من نوع أشدّ. وقد ازدادت كآبة في تلك الأيام، فلم تكن تخلو إلى نفسها حتى تبكي مرّ البكاء. ولم تكن تجلس إلى جدّي حتى تفانحه بالأمر الذي يقضّ مضجعها، أجل لم يعد يفصل بيني وبين التاسعة إلا أشهر قلائل، فإذا بلغتها حقّ لأبي أن يضمّني إليه، وهو لا بدّ فاعل كما فعل بأختي وأخي من قبل. وقد تهدّنا ذلك الخطر حين بلغت السابعة، ولكنّ جدّي كتب إلى عمّي - وهو من كبار المزارعين في الفيوم - راجياً أن يستشفع لي عند أبي ليتركني في كفالة جدّي

استقبائي في كفالته. والحق أن جدّي كان يجنّي حباً بالغاً. أحبني لأنّي كنت أنيس شيخوخته، والطفولة تحرك في الشيخوخة أعماق الصدور، وأحبني لحبه أُمّي التي لبثت إلى جانبه بعد وفاة جدّي ترعاه بحنانها وعطفها وحبها. ذهب الشيخ إلى أبي وانتظرنا وأيدينا على قلوبنا. ومرّ وقت الانتظار على أُمّي في عذاب لا يمكن أن أنساه مهما امتدّ بي العمر. لم يكن ليقرّ لها قرار أو يسكن لها جانب، وجعلت نخاطبني حيناً وتخطب نفسها أحياناً. ودعتني مرّات إلى مشاركتها في الابتهاج إلى الله أن يكُلّل مسعى جدّي بالنجاح.

ومضيت أرقبها بعينين محزونتين حتّى انتقلت عدوى قلقها إلى صدري فاستعبرت باكياً. انتظرنا طويلاً - أو هكذا خيّل إلينا - يشملنا حزن وقلق، تسبح أعيننا دمعاً، وتلهج السنننا بالدعاء، حتّى سمعنا جرس حنطور فهرعنا إلى الشرفة، فرأينا جدّي وهو يقطع فناء البيت بخطاه الثقيل... وعدنا إلى الباب ففتحناه، ودخل جدّي صامتاً وهو يحدجنا بنظرة لم ندرك لها معنى.

ومضى إلى حجرته فتبعناه وقد خانت أُمّي الشجاعة أن تسأله عمّا وراءه، وراحت همس بصوت متهذج «يا ربّي... يا ربّي!» وخلع طربوشه بأناة وهو يتحامي عيني أُمّي، ثمّ جلس على مقعد كبير قريب من فراشه، ثمّ ألقي علينا نظرة طويلة وقال بصوته الأجنس وكأنما يخاطب نفسه:

جدّي وأشبعته يده تقيلاً وهي تقول بلهفة:
- حقّاً؟... حقّاً؟... هل رحم الله قلبي الكسير؟
وأخذ جدّي يفتل شاربه في ارتياح بينما عادت أُمّي تسأله بنفس اللفظة:
- أرايت راضية ومدحت؟
فهزّ رأسه أسفاً وقال:
- كانا في المدرسة!

فدعت لها دعاء حارّاً وعيناها تغرورقان. ولم يكن جدّي يزورها لكرهيته لأبي، ولأنه لم يكن ينتظر استقبالاً كريماً في بيته. ثمّ قصّ جدّي كيف قابل أبي في الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مرتعة. وكيف تلقّاه بدشهة واستغراب، وكيف أنّه لم يعد له من عمل في الحياة إلاّ الشراب، ولعلّ اضمحلاله ذاك الذي جعله ينفاد لاقتراحه متنازلاً عن عناده القديم.

وقد بدا أوّل الأمر وكأنّه يرتاب فيما يلقي على سمعه، فلمّا أن تبيّنه ضحك في سخرية وازدراء من غير ما معاندة أو غضب وقال ببساطة:
- لا دماغ لي للترية، ولاكون مرضعة من جديد. خله عندك إذا شئت ولكن لا تطالني بمليّم واحد، هذا شرط صريح، وإذا طولبت بمليّم واحد فيها يستقبل من الأيام انزعته منكم فلا تقع عليه أعينكم ما حبيت.

وقبل جدّي الشرط، وكان يحده مقدّمًا من قبل أن يذهب إليه، ولكنّه عجب كيف أنّ الرجل لم يبد عن أيّة رغبة في رؤية ابنه، ولا سأل عنه على الإطلاق. ثمّ قال جدّي:

- لم يعد رؤية لاظ إنساناً، لقد انتهى الرجل. فغمغمت أُمّي في حزن وكآبة:
- واحزننا على راضية ومدحت!
فقال جدّي يطمئنّها:
- إنّ راضية في السابعة عشرة ومدحت في السادسة عشرة، ولم يعودا طفلين...

وثبنا إلى طمانينتنا المعهودة، فجنونا من ذاك الخوف

رجل مجرم!... ماذا كنت تنتظرين من رجل مجرم؟
وابيضّ وجه أُمّي وارتعشت شفتاهما، ولاح في عينيها القنوط، وجعلت أردّد بصري بين جدّي وأُمّي في قلق وخوف. وتركتنا جدّي لشقائنا هنيهة، ثمّ رئي لنا فرغ عن وجهه نقاب التجهم، وقهقه ضاحكاً، وقال بصوت ينمّ عن الظفر:
- لا تقتلي نفسك كمداً يا أمّ راضية. فقد أذعن الشيطان بغير تعب طويل.

بهتنا بادئ الأمر، ثمّ تهلّلت وجوهنا بشراً، وتلاّلاً نور الفرح في عيني أُمّي، ثمّ جثت على ركبتيها أمام

الغرباء، وزاد طبعي تعاسة ما جُبلت عليه من صمت وعي وحصر، فلم أحسن الكلام قط، فضلاً عن الدعاية والمزاح، لذلك جميعه رموني بثقل الدم، وقد أمتني هذه الصفة، حتى سألت أمتي يوماً:

- هل أنا ثقيل الدم يا أمّاه؟

فرمقتني بنظرة ارتياح وقالت بحدة:

- من قال عنك ذلك؟

فقلت في حياء:

- التلاميذ كلهم؟

فصاحت بغضب:

- قطعاً لألستهم. إنهم ينفسون عليك أدبك

الكامل، والخطر الذي يملكك بينما يتسكعون على أقدامهم، إياك وأن تتخذ منهم صديقاً...

ومتى كنت في حاجة إلى مثل تلك النصيحة؟! وهكذا كابدت الحياة في المدرسة في وحدة، يطالعي روح عداوة وبغضاء من الجو المحيط بي. ولعلها كانت لا تخلو من غبطة لو أنني أسهمت في مسراتها، ولكن خجلي الشديد أجبرني على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكرة والقسم المخصوص، حتى الرحلات المدرسية لم توافق أمتي على الاشتراك فيها أن يصيبي مكروه، وكان التلاميذ يتحدثون عن الأهرام وأبي الهول ودار العاديات والفسطاط فاسترق السمع في حيرة وحزن وكأني أستمع إلى سائحين يقصون عن بلاد نائية! ولشد ما يتأبني من خجل إذ أقر أن عيني لم تقعا من القاهرة - المدينة الوحيدة التي عشت بين أسوارها - إلا على شوارع معدودات هي كل حظي من مشاهدات في هذه الدنيا الواسعة. ولم يكن لي من عزاء في تلك الأيام إلا أن انفرد بأمتي في الشرفة أو في حجرتها، ثم نأخذ بأطراف الحديث، كأن ليس لحدثنا من نهاية. وكانت عصا المدرس تذكرني بأن علي واجباً ينبغي أو أؤديه قبل النوم، فأقبل على الكتاب مستكرهاً، وأذاكر بلا روح ولا حماس وسرعان ما يترنح رأسي ويرتق النوم بحفني.

ويوماً قرئت علينا - في حصة الديانة - هذه الآية

الذي اعترض سبيلنا مهتداً، وواصلت الدراسة في البيت أعالجها بصعوبة وضيق. واستدار العام، وحل الخريف وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة، وأيقنت أنني معاد قريباً إلى السجن. وقلت يوماً لأمتي:

- إذا كنت تحبيني ولا توافقين على أن يأخذني أبي

فلماذا ترضين بأن تفرق المدرسة بيننا؟

فضحكت ضحكتها الرقيقة وقالت:

- يا للعار! كيف تقول هذا وأنت الرجل الكامل؟! ألا ترغب أن تكون يوماً ضابطاً كبيراً مثل جدك؟ وماذا يبقى إذا هجرت المدرسة إلا أن تشتغل بائع فول أو

كمساري ترام!

ومضى بي جدي إلى مدرسة العقادين بمصر القديمة، ونجحت في الامتحان هذه المرة. وهل العام الدراسي، وانتظمت في المدرسة كارهاً مرغماً. وكان الخطر يوصلني صباحاً إلى المدرسة، ويعود بي مساءً إلى البيت، وفي نظير ذلك منع جدي أمتي من توصيلي بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولى. عدت مرة أخرى إلى المدرسة، وعانيت من جديد الدروس والنظام وقسوة المدرسين وسخرية التلاميذ. كانت حياتي المدرسية شقاء كلها. وأكد ذلك الشقاء أنني كنت ملكاً مستبداً في بيتي وعبداً ذليلاً في مدرستي. وطالما تحيرت بين الحب الذي يغمري في البيت وبين عصا المعلم وسخرية التلاميذ.

وقد اكتسبت عداوة المدرسين ببلادتي وخود ذهني حتى أطلق عليّ بعضهم «الغبي الممتاز» وكان مدرس الرياضة إذا انتهى من شرح درس سألني عنه وما يزال بي حتى أجيب إجابة ترضيه فيتنفس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلاً: «لا بد أنكم فهمتم ما دام سي كامل قد فهم» ويضحّ الفصل بالضحك!

أما التلاميذ فكان دأبهم السخرية مني ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وكان عجزني عن إنشاء علاقة صداقة حقيقة مرة لا شك فيها فلم أظفر في حياتي بصديق. والحق أنني لست أسوأ من كثيرين ممن يتمتعون بصداقات سعيدة، ولكنني شديد النفور بطبعي، شديد الخجل، محب للوحدة والعزلة، عديم الثقة في

فضرب جدِّي الأرض بقدمه حتَّى ارتجَّت أركان
الحجرة وصاح بغضب:

- محال؟! بل هي الحقيقة الواقعة، هي الفضيحة
العارية، هي الضربة القاصمة لكرامتنا...

ولم تحر أمِّي جوابًا كأنما فقدت النطق. وتنفس
جدِّي بشيء من الجهد ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- أيّ جنون سلبها الرشاد!... ليس هذا الدم
الفساد بدمنا! هذا دم شيطاني يفضح سوء فعله

الأصل القدر الذي استمَد منه. لقد مات جدّها وهو
يصب لعناته على رأس أبيها فحلّت اللعنة بذريّته.

وازدردت أمِّي ريقها وتمتت في ارتباغ:

- أفضّح بها من كارثة! كيف ضلّت الفتاة؟! لقد
أفسد السكير العرييد عليها حياتها، ما أتعسها!

فقال جدِّي باستياء وحقن:

- لا تنتحلي لها الأعذار. لا شيء في الوجود يسوّغ
هذا الفعل الشائن...

فغمغمت أمِّي بصوت باك:

- لست أنتحل لها الأعذار، ولكنّها تعيسة ما في
ذلك من شك...

وساد صمت محزن، ولبثا يتبادلان نظرات الغم
والكدر والقنوط، وقد أصغيت إلى ما دار بينهما بانتباه

شديد، فأدركت أهونه، وغابت عني خطورته الحقّة،
كان الأمر يتعلّق بأخت لم تقع عليها عيناى. لماذا

هربت؟ وأين اختفت؟ وتساءلت:

- لماذا لم تحضر إلينا؟

فصاح بي جدِّي حانقًا:

- اخرس!

وارتمى على مقعد، واستطرد يقول:

- جاعني عمّها في النادي وأبلغني الخبر. قال إنّه لا
يعلم شيئًا عن حقيقة الحال. وقد أبرق له مدحت

للحضور فورًا، فجاء بلا إبطاء، ثم أخبره الشاب
باختفاء شقيقته. أما المجرم السكير فلم يزد على أن

قال «في داهية». ثم ذهبنا معًا إلى بعض أصدقاء العمّ
من رجال المحافظة وأفضينا إليهم بالخبر الشائن سائلين

معونتهم.

الكريمة «إذا جاءت الصاخة، يوم يفتر المرء من أخيه،
وأمه وأبيه الخ...» فلا أذكر أيّ انزعجت لشيء

انزعاجي لها، لم أطق أن أتصوّر أن أفر من أمِّي في يوم
مهما كانت فظاعته، وأن أعادها في أهواله بقامتها

النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراوين الحنوين، فقاطعت
الشيخ على غير وعي متي هاتفًا:

- كلاً... كلاً...

وأحدثت مقاطعتي دهشة في الفصل لأنّي لم أكن
أنس بكلمة، ولم يدرك أحد ماذا أردت، ولم يلبثوا أن

ضجّوا ضاحكين، وغضب الشيخ، وحلني مسئوليّة
الإخلال بالنظام، فأقبل نحوي متغيّظًا ولطمني على

وجهي بعنف وحقن. ورحبت باللطمة كعذر ظاهر
للبيكاه إذ كنت أقاوم دموعي جاهدًا ودون جدوى.

لقد زلزلتني هذه الآية الكريمة، وكانت أول نذير لي
عن مأساة الحياة...

٨

حياة رتيبة، كابدهتها على استكراه، بيد أنّها لم تحلّ
من هزات عنيفة. فذات مساء عاد جدِّي مبكرًا على

غير عادته. وقلقت أمِّي لأنّه لم يكن يرجع إلى البيت
قبل الفجر. واقتحم علينا الحجرة متجهّماً، فنهضت

أمِّي مستطلعة. ورفعت رأسي عن الكتاب، وقيل أن
تسأله عمّا به قال بحدّة وهو يضرب طرف حدائه

بعصاه:

- زينب، كارثة نزلت بالأسرة... فضيحة
ستجعلنا مضغة الأفواه!

فنطقت عينا أمِّي بالفزع، وهتفت بصوت مهتدج:
- رحماك يا ربّي!... ماذا حدث يا أبي؟

فقسّت نظرة عينيها الخضراوين، وقال بصوت أجشّ
غليظ:

- ابتك... راضية... هربت!

وشحب وجه أمِّي، وخلجت عيناها، وجعلت ترنو
إلى جدِّي بنظرة مستنكرة لا تجد سبيلاً إلى تصديق ما

صكّ أذنيها، ثم غمغمت بصوت كالأنين:

- هربت!... راضية!... هذا محال!

تعيسة الحظ، رباه... أين هي الآن؟ خبّرني بكل ما تعلم.

فقال جدّي بهدوء:

- سافرنا إلى بنها، أنا وعمّها ومدحت، فوجدناها في أسرة طيبة محترمة، وتعرّفنا إلى زوجها وهو شابّ موظّف بالحقائيّة يدعى صابر أمين. فأخبرنا أنّه استأجر شقّة بشارع هدايت بشبرا وأنه سينقل إليها هذا الأسبوع. وقالت راضية: إنّ زوجها تقدّم لخطبتها ولكنّ أباهارفضه بغلظة، وأنه رفض قبله شابًا آخر تقدّم لخطبتها كذلك... ولعلّها الخمر التي لم تبق على ذرة من إنسانيتيه فأنسي واجباته وبدد مرتباته، واستبدّ بها اليأس فهربت مع الشابّ. وسافرا إلى أسرته حيث كان المأذون في انتظارهما.

وأصغت أمي إليه وهي تبكي بكاء حارًا، بعته الحزن والارتياح معًا، ثمّ قالت:

- سأسافر إليها غدًا...

فقال جدّي بتأكيد:

- ستجدنيها في بيتها غدًا أو بعد غد...

وعادت تتساءل:

- لماذا لم تأتي إليّ أنا؟

فقال جدّي كمن يعتذر عن الفتاة:

- لعلّها خجلت أن تأتي بخطيبتها إلينا وهي هاربة من وجه أبيها، وعلى آية حال لنحمد الله على هذه النهاية التي لم نكن نحلم بها...

٩

ركبنا الحنطور جميعًا لأول مرّة، فجلس جدّي وأمّي في الصدارة، وجلست على المقعد الخلفي. كانت أمّي من الفرح في نهاية، وقد بدت بعدما عانت في الأيام الأخيرة من همّ وحزن وكأنتها استردت شبابها الأول. كانت عيناها تتألقان بنور السرور البهيج، وكان لسانها يسبح بالحمد والشكر. وانتقل سرورها إلى صدري ففرحت برحلتنا السعيدة. وجعلت أذكّر في شقيقتي التي سأراها لأول مرّة بعد دقائق بدّهشة وسرور وقلق لم أدر له سببًا، ترى ما شكلها؟ وكيف تلقانا؟ وهل

وتريت جدّي دقيقة ثمّ استطرذ:

- ويل للسكّير المجرم!... إنّه المشئول الأوّل عن هذه المسألة، لأذهبنّ إليه وأحظمنّ رأسه!

ولاح الانزعاج في عيني أمّي فقالت بجزع:

- كلاً... كلاً... هذا يزيد من حالنا سوءًا.

فقال جدّي بإصرار:

- ينبغي أن يجزي عن شرّه شرًا.

فقالت أمّي بتوسّل:

- لا شأن لنا به... فلنركّز اهتمامنا في العثور على

الفتاة علنا نقيم ما اعوجّ من أمرها...

فحدجها بارتياح وتساءل:

- لماذا تلحفين في الحيلولة بيني وبين الذهاب إليه؟

فلاح في وجهها الارتباك وتمتت:

- أخاف أن يزداد الأمر سوءًا.

فقال جدّي بحقن:

- بل نخافين أن يؤدّي الشجار إلى أن يسترّد كامل.

إنّك لا تقيمين وزنًا لشيء، ولا تكثرين لغير نفسك،

ألا لعنة الله عليكم أجمعين...

ولبس البيت رداء الحزن فكأته في حداد،

واقتصرتنا أيام سود فنكد العيش، وكدت أختنق في

ذلك الجوّ القاتم. وقد غير جدّي نظام حياته، وتخلّف

عن سهراته المعتادة في النادي وكان يغيب خارج البيت

طوال النهار دون أن ندري عن مكانه شيئًا، على حين

تقضي أمّي النهار ساهمة أو باكية. وجاءنا جدّي ذات

مساء، فلمّا أن وقع بصره على أمّي بادرها قائلاً:

- عثرنا على ضالّتنا أخيرًا...

فجرت أمّي نحوه وهي تصيح:

- حقًا!... اللّهمّ ارحمنا...

فقال جدّي بصوت تنمّ نبراته عن الارتياح

والسرور:

- أرسلت الفتاة المجنونة إلى مدحت كتابًا تنبّه بأنّها

تعيش في بيت زوجها بنها، وتساءله المغفرة عن سلوكها

الذي اضطرّت إليه اضطرارًا...

وتهدّت أمّي من الأعياق وقالت وعيناها تدمعان:

- ألم أقل لك!... إنّ راضية فتاة طاهرة ولكنّها

تَحْبُنَا؟ وقطعت أُمِّي عليَّ حبل أفكاري فسألت جدِّي بلهفة:

- هل أجد مدحت هناك؟

فقال جدِّي وقد اعتمد مقبض عصاه بيديه:

- الراجح أن يكون هناك... لقد تواعدنا على ذلك.. ولاحت في عينيها نظرة حنان ورجاء. وسارت العربية ميمّمة شبرا. ورحت أتسلّى بمشاهدة المازة والعربات والسترام، حتّى بلغ الخنطور مقصده، وانعطف إلى شارع هدايت، ثمّ وقف أمام بيت متوسط الحجم، مكوّن من ثلاثة أدوار. وغادرنا العربية وصعدنا إلى الدور الثاني وأُمِّي تقول بصوت كالمس: «ما أشدّ خفقان قلبي!»، ودقّ جدِّي الجرس، وفُتِح الباب، ودخلنا. رأيت فتاة وشابّين، وقبل أن أعينها هرع اثنان منها إلى أُمِّي، فلم أر إلّا عنقا حارًّا. ولم أسمع إلّا تنهّات الدموع. رمقت الثلاثة بحيرة وخجل وصمت. وطال العناق، وطال البكاء، حتّى تدخل جدِّي بينهم ضاحكًا وهو يقول:

- إليك زوج ابنتك صابر أفندي أمين.

وتقدّم الشابّ من أُمِّي فقبّل يدها، وقبّلت جبينه، ولم ألبث أن رأيت نفسي محطّ أنظار الجميع. وقالت أُمِّي وهي تبتسم خلال دموعها:

- أخوكما كامل..

وهرعت نحوي شقيقتي، وضمتني إلى صدرها، وقبّلتني بحرارة، وأنا مستسلم بين يديها لا آتي حراكًا، ولا أنطق بكلمة، وصاحت بفرح:

- ربّاه، إنّه شابّ يافع!... إنّه نسخة منك يا

أمّاه!

ثمّ ضمتني شقيقتي إلى صدره وقبّلتني وهو يقول بسرور:

- يا له من شابّ خجول!

ولم أكن حتّى تلك اللحظة قد أنعمت النظر إلى وجه من وجوههم، وظللت غاضًا بصري، والخجل يحرق جبیني وخذني. ثمّ مضوا بنا إلى حجرة الجلوس. فجلست أُمِّي بين راضية ومدحت، وجلس جدِّي لصق زوج أختي، وأقعدتني شقيقتي إلى جانبها،

وقالت أُمِّي وهي تجفّف دموعها:

- يا رحمتاه! وجدتكما شابين بعد أن انتزعتنا مني طفلين، الحمد لله والشكر لله...

فقال زوج أختي بتأثر:

- يا لها من حياة هي بالمساة أشبه! وإني لأشكر الله على أن جعلني الفرصة التي هيأت لكم هذا اللقاء! وسالت الأشواق القديمة حديثًا فيأصًا لا ينضب معينه، وانثالت عليهم الذكريات والخواطر، وشكا كلّ بئّه وهّمّه، وامتزجت الدموع بالبسات. وكانت تلوح في عيني أُمِّي بين الحين والحين نظرة دهشة كأنّها لا تصدّق أنّ الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرّق ونوى. ولسًا شغلوا بأنفسهم عني أخذت أفيق من الخجل، وأستردّ أنفاسي، وشعرت بأنّي - لدرجة كبيرة - وحدي، فداخطني ارتياح، ولكن سرعان ما انتابني قلق وضيق، وجعلت أسترق النظر إلى راضية ومدحت. بهرني جمال أختي، رأيتها أقصر من أُمِّي قليلًا ولكنّها ممثلة بضّة، مبالغة للبياض، أما وجهها فصورة من وجه أُمِّي، وصورة من وجهي أيضًا، بعينيه الخضراوين الصافيتين وأنفه الدقيق المستقيم. أمّا مدحت فأتموّذج من نوع آخر، بدين في غير إفراط، مستدير الوجه والرأس، أبيض الوجه مشرب بحمرة، أسود العينين، ينمّ مظهره عن الفحولة والقوّة وإن لم يجاوز الثامنة عشرة. وكان يقهقه ضاحكًا لأنفه الأسباب، ويبدو فرحًا صحيحًا معاني. استرقت إليهما النظر باستطلاع واهتمام، وسرعان ما جذبني إليهما شعور بالحبّ والعطف، واستنمت إلى روحهما المرحّة الباسمة. بيد أنّي لم أنعم بشعور الوحدة طويلاً، فربّما اتجهت صوبي الأنظار وبُذلت المحاولات لحملي على الكلام، واستدراجي لمشاركتهم سرورهم، ولكنني لم أنبس بكلمة قانعًا بردّ الابتسام بالابتسام. ولئن كان كلّ شيء ممّا يكتنفي يدعو للغبطة إلّا أنّي لم أحلّ من مشاعر قلق غامض ربّني أكثر من مرّة في الرحيل، وقالت لي راضية باسمّة:

- كان مولدك عسيرًا، والله يعلم كم تألّت أمّنا، ولبشنا أنا ومدحت في الحجرة المجاورة نبكي، ثمّ

بعد ذلك بينما وبين شقيقتي، وكان مدحت يزورنا كلياً
سحنت له فرصة.

واستقبلتُ عامًّا مثيلاً تورّعتني فيه الحيرة وحب
الاستطلاع والتجربة القاسية. صدمني في مطلعها
هروب أختي وما علمت بعد ذلك من زواجها،
فجلبها، ثم إنجابها طفلة. وتساءلت نفسي كما ساءلت
أمي عن معنى هذا كله، لماذا هربت من أبي إلى رجل
غريب؟ لماذا لم تأتِ إلينا؟ ولماذا تزوّجته؟ وكيف
حبلت؟ وكيف خرجت زينب الصغيرة إلى نور
الدنيا؟. . . وارتبكت أمي حيال إلحاحي وتطفلي،
وجعلت تصطنع لي الأجوبة الكاذبة حيناً وتأتاني حتى
أكبر حيناً آخر، فإذا لججت تكلفت لي حزمًا غير
معهود ولا مألوف. فلم أظفر منها بشيء ينقع الغلّة،
وفي الوقت نفسه شعرت بأنّ ثمة سرًّا يراد إخفاؤه
عني. ثمّ جاءني العون من حيث لا أدري، فتطوّعت
الخدمة لإمالة اللثام عمّا حيرّ خيالي وألهبه. كانت
تكبرني بأعوام، وكانت دميعة قبيحة، ولكنّها كانت
تكرّس فراغها لخدمتي وكانت تحلوبي في أوقات نادرة
إذا شغلت أمي بعمل أو حاجة. وبدا أنّها استرقت
السمع يوماً إلى ما يدور بيني وبين أمي عن الألغاز التي
استثارتني من سباتي، فصارحتني مرّة بأنّها تعلم أموراً
خليفة بأن تُعرف، وانجذبت إليها على قبحها في اهتمام
وسرور، وواجهت التجربة بلذّة وسداجة. على أنّ
العهد بها لم يطل، فما أسرع أن ضبطننا أمي متلبّسين.
ورأيت في عينيّ أمي نظرة باردة قاسية فأدركت أنّي
أخطأت خطأ فاحشاً. وقبضت على شعر الفتاة ومضت
بها فلم تقع عليها عيناى بعد ذلك. وانتظرت على
خوف وخجل. ثمّ عادت متجهّمة قاسية، ورمت
صنيعي بالمذمّة والعار، وحدّثتني عمّا يستوجبه من
عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة. ووقع كلامها متي
موقع السياط حتى أجهشت باكياً، وليبت أياً ما أتحمى
أن تلتقي عيناى خزيًا وخجلًا.

حدثت معجزة - على حدّ تعبير جدّي - فنجحتُ في

أدخلنا في النهاية ورأيتك في اللقّة كقبضة اليد فاهلنا
عليك بالقبل.

وقهقه مدحت وقال:

- وأردت أن أطعمك قطعة من الشيكولاتة
فحملوني إلى الخارج.

وقالت راضية برقة:

- وكنا نتخيّلك في وحدتنا ببنت أينا فنقول لعلّه
يجب الآن، أو أنّه يمشي ويلعب، أو هذا أوان المدرسة.
وعلى فكرة أيّ سنة بلغت من دراستك؟

وشعرت بحرارة احمرار حدّي، وانعقد لساني،
فأجاب عني جدّي قائلاً بلهجة لا تخلو من تهكم:

- إنّه يعيد السنة الأولى الابتدائية وهو في العاشرة
من عمره.

فقال مدحت ضاحكاً:

- الحال من بعضه، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة
بعد سقوط عامين بالثانوي!

وقالت أمي:

- إنّ جدّك يريد أن يجعل منه ضابطاً.

فهزّ مدحت رأسه وقال:

- عليه إذن أن يحصل على البكالوريا.

وكان جدّي من الذين ألحقوا بالمدرسة الحربية
بالابتدائية فقال بازدرء:

- إنّ بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأمس. . .

ثمّ دار الحديث عن الحياة في بيت أبي، حتى قالت
راضية:

- كنا في الحقيقة نعيش بمفردنا، ولم نكن نرى أبانا
إلا مرّة في الصباح الباكر، ثمّ غمضي وقتنا معاً، نذاكر
أو نلعب أو نتحدّث، وقد حمدنا الله على تلك
الوحدة.

وتنبّهت أمي إلى الشطر الأخير من الكلام.
وتنهّدت في إشفاق، فقال جدّي:

- إن كان أبوكما أعفكما من عشرته ومخالطته حقاً،
فقد فعل خيراً يستحقّ عليه الشكر والدعاء!

وتقصّى النهار كله في جوّ عابق بالحبّ والأشواق،
وعدنا إلى المنيل مجبوري الخاطر. واتّصلت الأسباب

تحلم، فناديتها حتى استيقظت. ولبثنا مستيقظين حتى
أسفر الصبح.

وفي اليوم التالي زار جدِّي ذلك الضابط المتقاعد،
وحدث ما حدث بالأمس فدعا جدِّي أمي إلى
حجرته، ولبثا منفردين زهاء الساعة، ثم جاء معًا إلى
الشرفة وهي تتعلّق بذراعه وتهتف بانفعال وتأثر
شديدين:

- كلاً... كلاً... هذا محال، ولا أحبّ أن يعلم
شيئاً. ولكنّه لم يأبه فيما بدا وقال لي بحزم:
- إني منتظر في حجرتي.

وجعلت أمي تتوسّل إليه وتضرع، ولكنّه رجع إلى
حجرته وأنا في أعقابه على حين مضت أمي إلى حجرة
نومنا في حالة غضب واستياء. وجلس جدِّي على
مقعده الكبير، وأمرني أن أقرب منه، فاقتربت في رهبة
وخوف حتى وضع يده النحيله على منكبي، ورمقني
بنظرة دقيقة ثم قال:

- أريد يا كامل أن أحدثك بأمر هام. لا زلت
صغيراً بغير شك، ولكن يوجد في مثل سنك من
ينهض بأعمال الرجال، وأحبّ أن تفهمني جيّداً، فهل
تعدي بذلك؟

وأجبت بطريقة الآيّة:

- أعدك يا جدّي.

فابتسم إليّ متلطفًا ثم قال:

- الأمر هو أنّ رجلاً فاضلاً غنياً من أصدقائي
يرغب أن يتزوَّج من أمك، وأني أوافق على ذلك رغبة
منيّ في سعادة أمك، فلا بدّ للمرأة من رجل يربها،
وأنا قد جاوزت السنين، وأخاف أن أموت قبل أن
تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه
في الحياة.

وواصل كلامه باستفاضة، ولكنّ عقلي كلّ فلم
يتابعه، ولم أعد أفقه معنى ما يقول.

شكّلت عبارة «يتزوَّج من أمك» مسامعي، وانفجرت
في دماغي، واتّسعت عيناوي دهشة ورعباً وتفزّراً
وتساءلت: هل يعني جدّي ما يقول حقاً؟ أجل لقد
روت أمي لي قصّة زواجها، ولكن كان ذاك قصّة

الامتحان. وتقلّت إلى السنة الثانية، وإن كنت قضيت
عامين في السنة الأولى. ولما أطلع جدّي على الشهادة
قال لي مداعباً:

- لو كنت ما أزال في خدمة الجيش لجئتك بفرقة
الطوّيجيّة، وأمرتهم بإطلاق أربعة وعشرين مدفعاً
احتفالاً بنجاحك.

على أنّ جدّي إذا كان لم يمكنه أن يطلق لنجاحي
أربعة وعشرين مدفعاً، فقد قذف حياتي بقنبلة - عن
قصد حسن - كادت تودي بي. حدث أن زاره يوماً
ضابط متقاعد في الخمسين من عمره ممن عملوا تحت
قيادته في السودان. وعقب انصرافه مباشرة جاءنا
جدّي في الشرفة وراح يتفرّس في وجهينا في صمت
وإن نمّ وجهه عن ارتياح وسرور. ثم قال مخاطباً أمي
بلهجة مليئة بالمرح:

- اتبعيني بمفردك يا زوزو هانم!

وانفجرت ضاحكاً لذلك التذليل اللطيف. على
حين تبعته إلى حجرة نومه وميّت نفسي ببشرى
جميلة... وغابت أمي مقدار ساعة ثم عادت إليّ، وما
إن وقعت عليها عيناوي حتى بادرتها قائلاً:

- أهلاً وسهلاً يا زوزو هانم...

وقهقهت ضاحكاً، ولكنّها ابتسمت ابتسامة باهتة
على غير ما انتظرت، وجلست على كرسيها يلوح في
عيناها السهوم والتفكير، وساورني القلق، فملت
نحوها. وسألته عيّا ألم بها؟ فقالت لي باقتضاب:

- أمور تافهة لا تهتمّ.

ولكنّ تهربها ضاعف من رغبتني في معرفة ما
وراءها، فألححت عليها أن تفضي إليّ بمكنون صدرها،
ففضخت في ترمّ، ورجتني أن أمسك. وجلسنا صامتين
طويلاً، ثمّ تجاذبنا أحاديثنا المعتادة في فتور. ودّعينا إلى
العشاء فأكلت لقمات معدودات، ولما تهيّأنا للنوم
وقفت أمام المرأة طويلاً، ثمّ استلقت إلى جانبي.

ووضعت راحتها على رأسي وقرأت سوراً قصاراً من
القرآن كالعادة، حتى رنق النوم بجفنيّ. واستيقظت في
الهزيع الأخير من الليل، فخيّل إليّ أنّي أسمع حسّاً
كالمس، فأرهفت أذنيّ فأيقنت أنّها تغمغم، وظننتها

- لعلّ جدّك قال لك إنّه يريد أن يزوّجني، ولكنّه لم يقل بلا ريب إنّي وافقت على هذا الزواج، والحقّ أنّي رفضته لأوّل وهلة، وبلا أدنى تردّد، ووددت لو لم تعلم عن الأمر شيئاً على الإطلاق، ولما أعطاني مهلة للتفكير قلت...

وقاطعتها بحدّة قائلاً:

- ولكن يريد لك أمراً معيباً محرّماً؟

فصمتت قليلاً وهي ترنو إليّ بطرف حائر. ثمّ استطردت متجاهلة اعتراضي:

- قلت إنّ المهلة مضیعة للوقت، وأبيت أن أجعل هذا الأمر موضوعاً للتفكير، وذلك من أجلك أنت، من أجلك وحدك، فلا تحزن ولا تغضب، ولا تظنّ بأنك الظنون.

ولئن أخرجني كلامها من ظلمات القنوط إلا أنّي أصررت على ترديد اعتراضي حتّى قالت لي بعد تردّد:

- لم أقل أبداً إنّ الزواج من العيوب أو المحرّمات، بل هو علاقة شريفة يباركها الله، إنّي ذممت عيوباً أخرى.

وانعقد لساني حياءً وخجلاً، وربّيت هي على خدي لتسرّي عنيّ وقالت بصوت ينمّ عن العتاب:

- يا لك من طفل جحود، ألا تستأهل توضيحي في نظرك كلمة شكر؟... أترك تذكرها فيما يقبل من العمر؟ أبداً... لتزوّجن يوماً ولتغادرن وحيدة بلا رفيق ولا أنيس!

وقطبت ساخطاً، وقلت بحماس:

- لن أفارقك ما حييت.

عبثت بشعري مبتسمة، ولاحت في عينيها الجميلتين نظرة ساهمة..

١١

سارت حياتي المدرسيّة في بطء وتشاقل يدعون للأنس، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائيّة، وكان جدّي يقول مثاقفاً:

- متى تُقبل على الدراسة بهمةً ونشاط؟ متى تعرف واجبك؟ ألا ترى إذا أطردت دراستك على هذا المنوال

وتاريخاً بعيداً، ولم أتصوّره حقيقة واقعة أبداً. وذكرت لتويّ الخادمة المطرودة ففاض قلبي في صدري وقلت لجدّي وأنا الهت:

- أمي لا تتزوّج. ألا تفهم ما هو الزواج؟!

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك، ثمّ قال مبتسماً:

- الزواج سنّة من سنن الله، والله يفضّل المتزوّجين على غير المتزوّجين، ولقد تزوّجت أنا جدّتك، كما تزوّجت أمك فيما مضى، وكما ستزوّج حضرتك يوماً ما. أصغ إليّ يا كامل، أريدك على أن تذهب إلى أمك وتقول لها إنك ترغب في تزويجها مثلي، وإنّ سعادتك تضاعف بسعادتها... ينبغي أن توافق على ما يسعدها، وحسبها ما قاست من أجلكم جميعاً.

وجعلت أطرافي تنتفض انفعالاً وتأثراً، ونظرت إلى جدّي كما تنظر الفريسة إلى معدّتها، ثمّ سأله بصوت مهتدج:

- أريد أن يأخذها ذلك الرجل؟

فابتسم وقال لي:

- نعم، ولكن ليرعاها ويسعدها.

فسألته بحدّة وأنا لا أدري:

- وأنا؟.

فقال برقةً بالغة:

- إن شئت ذهبت معها، أو بقيت عندي على الرحب والسعة...

فعضضت على شفتي بقسوة لأحبس دمعي، وتراجعت فجأة فأفلت من يده، وركضت خارجاً متجاهلاً نداءه، وعدوت إلى حجرة نومنا، فوجدت أمي جالسة محمّرة العينين من البكاء، وفتحت لي ذراعيها فارتيمت بينهما منتفض الأطراف من التأثر، وبادرتني قائلة:

- لا تصدّقه، أعني لا تصدّق أنّ شيئاً ممّا قال لك سيقع، لا تبك ولا تحزن... واعذباها!

وحدجتها بنظرة استغراب واستنكار، وصحت بها:

- ألم تقولي إنّ هذا عار وحرام؟!

فشدّت عليّ بحنان وهي تقاوم ابتسامه، ثمّ قالت:

وانتخذه زاءاً لأحلام الوحدة وعبثها. وأفرطت إفراط جاهل بالعواقب. وخيّل إلى جهلي المفرط أنّ أحدًا سواي لا يدري بها، حتّى سمعت يومًا - في فناء المدرسة - بعض التلاميذ يتقاذفون بها في غير حياة فانزعجت انزعاجًا فظيماً وتولّاني خجل أليم. ومنذ تلك الساعة أمضيت الألم، وكدر صفوي تأنيب الضمير والشعور بالذنب... ولم يكن ذلك ليصدّي عن ممارستها، فقضيت وحدتي في لذة جنوبيّة سريعة يعقبها نكد طويل.

وكانت تسطع في أيامنا الرتيبة ساعات باسمات فتورنا أسر من الجيران والأقارب، سيّدات وبنات في سنّ الصبا، وربّما قدّمت سيّدة بنتها على سبيل المداعبة:

- هذه عروس كامل.

فكانت أمّي تلقى هذه المداعبة وأمّهاها بفتور ملحوظ، لا يخفى على مخاطبتها، ولا عليّ. فازدت شعورًا بالحياء وبالنفور، وبالخوف خاصّة حيال المرأة. ثمّ لا تفتأ - عقب انصراف الزائرات - تنتقد مداعباتهنّ الفاضحة المفسدة للأخلاق!... ومضيت في حياتي الوحيدة الموحشة أتملّمل تحت ضغطها المتواصل دون أن أبدي حراكًا، أنتهب لذاتها الخفيّة في جزع ويأس، وأجني مرّ الشعور بالذنب وقد شقّ عليّ الخلاص، في عزلة غابت بي عن خضمّ الحياة. على أنّي كنت أدرك إدراكًا غامضًا أنّه توجد حياة واسعة فيما وراء أفقي الضيق. كنت أسترق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث التلاميذ عن السياسة والسينما والألعاب الرياضيّة والبنات، وكأنّني أصغي إلى سگان كوكب آخر. وددت لو كان لي بعض فصاحتهم ومرحهم وجبورهم، وددت لو يُرفع ذلك الحاجز الأصمّ الذي يجسني دونهم. ولكم رمقتهم بعينين محزنتين كأنّي سجين ينظر من خلال القضبان إلى الطلّقاء. بيد أنّي لم أحاول قطّ أن أنطلق من سجني، لم يكن ليغيب عنيّ ما يتظرني في دنيا الحرّيّة من قسوة ومهانة، بل إنّي لم أسلم في سجني من أذى وسخرية وتهجم، ذلك سجني فلاقتع به، فيه لذّي وألمي، وفيه أمان من الخوف. إنّه

فستتبي منها وقد استوفيت سنّ المعاش؟!
ولشدّ ما كانت تأسى أمّي لذلك التهكم المرّ، وكانت تسأله دائماً ألاّ يلقى في وجهي أن تنكسر نفسي فأزداد بلادة، أو تقول له:

- الذكاء من عند الله، وحسبه ما جمه به من كريم الخلق، لأنّه كالعذراء حياء وأدبًا!

وكان أن كابدت حياتي تطوّرًا خطيرًا لا أذكر متى بدأ ولا كيف بدأ، وأخشي أن يكون الخيال قد زور منه أمورًا على الذاكرة. دبّت في النفس والجسم يقظة غريبة، سرت في أطرافي فلقًا واضطرابًا. طافت بي في وحدتي أحلام جديدة، وغبّيتي في المدرسة شروود ركّز شعوري كلّهُ في نفسي. وكنت إذا انطلقت بي العربة من المدرسة إلى البيت سرّحت طرفي في آفاق السماء وبفسي لو أخلّقي إلى ذراها المتلفعة بتلك الزرقة الغامضة. ولشدّ ما انتابني الكآبة وغشيتي الكدر فروّحت عن قلبي بالدمع الغزير. ولا أنسى الأشواق الغامضة، والمخاوف المجهولة، والأثبات المهموسة، والشعيرات النابتة. ربّاه إنّي كائن يتمخّض عن حياة مخوفة مجهولة، تعبت بي شياطينها في النهار والليل، في اليقظة والأحلام.

واكتشفت بنفسي - تحت ضغط تلك الحياة - هوية الصبا الشيطانيّة لم يغرنى بها أحد إذ كنت معدوم الرفاق. فاكتشفتها كما اكتشفت أوّل مرّة في حياة البشر. واستقبلتها بالدهشة واللذّة، ورضيت بها عن كلّ شيء في الوجود، ووجدت فيها أنسًا لوحدي الغريبة، وعكفت عليها في إدمان، وراح خيالي يقطف لي من صور المخلوقات ما أزيّن به مائدة العشق الوهميّة.

ومن عجيب أنّ خيالي في عشقه لم يعدد دائرة الخوادم بالنبيل اللاتي يسمين حاملات الخضر والفول. ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثمّ ولّت، إنّها سرّ دفين، أو هي داء دفين. كأنّي موكل بعشق السدّامة والقدرة!! إذا طالعت وجهًا ناضرًا مشرقًا يقطر نورًا وبهاء ملكني الإعجاب، وبردت حيوانيّتي، وإذا صادفني وجه دميم ذو صحّة وعافية أثارني وتملّكني،

أخفقت مرّتين في عامين متتاليين. تملكني الفرع والقنوط وازدادت فزعًا وقنوطًا للامتحان الشفوي، فما كانت لي قدرة على الكلام، ولا قلب أواجه به الممتحن. وقد سألتني الممتحن الإنجليزي في العام السابق عن معالم القاهرة التي زرتها؟ وكان كلّمًا سألتني عن أثر من أثارها أو موقع من مواقعها أجبت بأنّي لا أعرفه، فظنّني أتهرّب من أسئلته وأسقطني. تملكني الخوف وأوردني مهالك القنوط ووجدتني لأوّل مرّة ألقى على الحياة نظرة عامّة شاملة متأثّرًا خطّ الحياة من البداية إلى النهاية، حتّى لم أعد أرى منها إلّا البداية والنهاية متعاميًا عمّا بين هذا وذاك. ميلاد وموت، هذه هي الحياة! وقد فات الميلاد فلم يبق إلّا الموت. ساموت وينتهي كلّ شيء كأن لم يكن، ففيم تحمّل هذا العناء؟! فيم أكابد الخوف والضيق والوحشة والجهد والامتحان؟! وازدحت برأسي ذكرياتي المحزنة عن الحياة التي أحيهاها... امتحان لا حيلة لي فيه ثمّ سقوط فسخرية مريرة، حرمان من أفراح الحياة التي يحظى بها التلاميذ. دعاؤهم لي بالأبكم، رميهم إليّ بثقل الدم حتّى رأني تلميذ مرّة قادمًا وكان قريبًا من باب مسجد المدرسة فكور كفه على أذنه كأنه يدعو للصلاة وصاح في وجهي منشدًا «يا ثقيل الدم!» وقهقهه الآخرون ضاحكين. وأذكر أنّ مدرّسًا أراد يومًا أن يختبر معلوماتنا العامّة، فلّمّا جاء دوري ووقفت مبهورًا لا أجيب عن شيء سألتني عن اسم رئيس الوزراء؟ ولازمت الصمت، فصاح بي «هل أنت من بلاد الواق؟!». كانت مناسبات الإضراب كثيرة، ولكنّي لم أشارك في مظاهرة على الإطلاق، وقد أضربت المدرسة يومًا وخرجت في مظاهرة عن بكرة أبيها، إلّا، فقد تخلّفت في الفناء مرتبّكًا خائفًا على كوني من أكبر التلاميذ سنًا، ورأني على تلك الحال مدرّس عُرف وقتذاك بوطنيتّه فقال لي معنّفًا: «لماذا خرجت عن الإجماع؟ أليس هذا الوطن وطنك أيضًا؟!» ووجدتني في حيرة شديدة بين تعنيف المدرّس وبين وصايا أمّي التي تحلّفني كلّ صباح على أتباعها. يا لها من ذكريات خليقة بأن تُفقد الحياة كلّ قيمة! أليس في الموت غناء

سجن مفتوح الباب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عنته، ولم أجد من متنفس غير الأحلام. كنت أمكث في الفصل غائبًا عمّا حولي وخيالي يصنع المعجزات، يحارب ويقتل ويقهر، يمتطي مشون الجياد ويعتلي الطائرات ويقتمح الحصون ويستأثر بالحسان وينكّل بالتلاميذ تنكيلًا مروّعًا، حتّى لا يست أحيانًا حركات رأسي وتقلّصات وجهي انعكاسات من تلك الأخيلة، يرتفع لها الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالندير والوعيد!

ولم تقف أحلامي عند حدّ الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق. وكان إيماني قديمًا راسخًا يعمر قلبي وروحي بحبّ الله وخوفه معًا. وقد أذيت الفرائض في سنّ مبكرة أخذًا عن أمّي ومحاكاة لها. ولّمّا أجدت لي لذاتي الخفيفة شعورًا بالذنب لم يكن لي به عهد قويّ شعوري الديني، ولفحت إيماني لهفة حارة إلى الله ورحمته فما ختمت صلاتي مرّة حتّى بسطت يديّ مستغفّرًا. بيد أنّ أشواقني لم تقف عند حدّ، وانقلبت طلعة لمعرفة الله، وتميّت من صميم فؤادي لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذي يحيط بكلّ شيء ويوجد في كلّ مكان. وسألت أمّي يومًا:

- أين يوجد الله؟

فأجابتنني بدهشة:

- إنّه تعالى في كلّ مكان...

فزنوت إليها بطرف حائر وتساءلت في خوف:

- وفي هذه الحجرة؟

فقلت بلهجة تنمّ عن الاستنكار:

- طبعًا... استغفره على سؤالك هذا!

واستغفرته من أعماق قلبي، ونظرت فيما حولي بحيرة وخوف، وذكرت بقلب موجع كيف أنّي ألمّ بالإثم تحت بصره القريب لشدّ ما حزني الألم، وغصني الندم، ولكنّي ما فتئت أغلب على أمرّي.

وشقّ عليّ النزاع المتواصل فاتتهى بي إلى التفكير الجدّي في الانتحار. بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت أستعدّ لامتحان الابتدائيّة للمرّة الثالثة بعد أن

وحدثت نفسي قائلاً: «يقولون إنني لا أحسن شيئاً في الحياة... ولكنني سأفعل الآن ما لا يسع أحداً الإقدام عليه!». وألقيت على الماء نظرة متحجرة، وتمثل لي ما سأفعله بسرعة البرق ينبغي أن يتم كل شيء في ثوانٍ وإلا أفسد عليّ تدخل المازة غرضي، أتسور السور ثم ألقى بنفسي، ولن يستدعي ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات. وانقبض قلبي وأنا أنظر إلى الماء الجاري وقد بدا تحت النظرة العمودية سريعاً صاخباً فدار رأسي. واحد... اثنان... وسرت في بدني قشعريرة، ترى ما إحساس الإنسان إذا هوى من شاهر؟... وكيف يكون اصطدامه بالماء؟ وكيف إذا غاص تحت لجته؟ ومتى يخلص الإنسان من عذاب الغرق؟! وشدت قبضتي على حافة السور، وتقلّصت ساقتي، وقلت بلساني أن سينتهي كل شيء حالاً، ولكنني كنت في الواقع أترجع وأتقهقر وتخور قواي. هزمتني الخواطر والتصورات التي اعترضت عزمي. لا ينبغي للمتحرر أن يفكر أو يتخيل، لقد تفكّرت وتمحّلت فانهمزت. واشتدّ خفقان قلبي. وتراخت قبضتاي عن السور. ثم تحوّلت عنه متهدّداً كالذاهل. وحملتني ساقاي المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربية، فركبت، واستلقيت على المقعد في إعياء حتى غلبتني رغبة في النوم.

وطالما سألت نفسي عمّا أنقذني من الموت ذلك الصباح؟ فقال قلبي: إنه الخوف! وقال لساني: إنه الله الغفور الرحيم.

ولا شكّ أنّي بالغت فيما يتعلّق بدوافعي نحو الانتحار، لأنني حصلت على الابتدائية في ختام العام!

١٢

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهرًا من أجل مظاهرها فاختمت من أفقها العربية والجوادان والحوذليّ العجوز. باع جدّي العربية والجوادين واستغنى عن الحوذليّ. وعلمت ممّا تسقطته من الحديث أنّه خسر ليلة في النادي خسارة جاوزت المعهود، فاضطرّ إلى اقتراض ما يساوي معاشه من النقود. ولمّا كان رجلاً مطبوعاً على

عن هذا كلّه؟ بل وإنّي لأمتني الموت. وملأت تلك الأفكار عليّ شعاب قلبي فأجمعت على أن أرمي بنفسي إلى النيل... وعندما أتى المساء صليت طويلاً، ثم نمت ويدي قابضة على يد أُمّي، وأنا أظنني في عداد الأموات. وجعلت في الصباح أسترق النظر إلى وجه أُمّي في خوف وحزن، وأثر في نفسي هدوؤها وجمالها، فغالبنني شعور بالبكاء، وأكربني ألا أستطيع توديعها، وسألت نفسي في إشفاق كيف تتلقّى الصدمة؟ وهل تطيق الصبر عليها؟ ساكون المسئول عن تكدير هاتين العينين الصافيتين، وتجميد صفحة هذا الوجه المنبسط، وزوال هذه الطمأنينة إلى الأبد ثم خفت الخور فجأة فأمّدتني اليأس بقوة جديدة، وحفزني إلى الهرب. وأتيت على قلع الشاي وعيناي لا تفارقان وجهها، ثم حبيتها وغادرت الحجرة منقبض الصدر مرير النفس وركبت الحنطور، وألقيت على البيت نظرة وأنا أغغم: «الوداع يا أمّاه، الوداع يا بيتنا العزيز». وانطلقت العربية حتى طالعتني جسر الملك الصالح فدقّ قلبي بعنف حتى شقّ عليّ التنفّس. ينبغي أن ينتهي الآن كلّ شيء. دقائق معدودات ثم الراحة الأبدية. ولم يكن لديّ علم عن عذاب المتحرر في الآخرة، فلم أشكّ في أنّي أستهلّ حياة مطمئنة. واقترب الجسر رويداً، وراح توقيع سنابك الخيل يصلك قلبي، ولاحت منّي التفاتة إلى النيل فرأيت لآلئ الشمس تنتشر على صفحته اللدكنا، وخلتني أتخبط على أديمه والأمواج الهادئة الصامته تتقاذفي بغير مبالاة، مطمئنة إلى نتيجة الصراع. وتوثبت لما عقدت العزم عليه بجنون فغاب عن خاطري كلّ شيء في الحياة فهتفت بالحوذليّ العجوز وهو ينعطف إلى الجسر:

- فف!

فشدّ الرجل على الزمام وتوقفت العربية، فغادرتها متعجلاً وأنا أقول له:

- اسبق إلى نهاية الجسر وسألحق بك شيئاً على الأقدام.

وانتظرت ريثما ابتعد عني عدّة أذرع ثم ملت إلى سور الجسر، وأشرفت على النهر بقامتي الطويلة.

وإلا بدا في أعين الناس وكأن لا أب له . .

فقالَت أُمِّي بصوت متهدِّج :

- هَذَا أَبُّ، الْجَهْلُ بِهِ أَشْرَفُ .

فلاح في وجه جدِّي الضيق وقال بحزم :

- كَأَنَّكَ تَحْفَافِينَ أَنْ يَسْتَرِدَّهُ إِذَا رَأَاهُ، فَيَا لَهُ مِنْ وَهْمٍ

لَا يَدُورُ إِلَّا فِي رَأْسِكَ، وَإِنِّي لَعَلِي ثِقَةٌ مِنْ أَنَّهُ سَرٌّ

سَرُورًا كَبِيرًا حِينَ هَيَّأَتْ لَهُ الْأَقْدَارُ مِنْ بَرِّي ابْنَهُ عَنْهُ .

ولكنِّي أَرَى الْآنَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَرَّفَ كَامِلٌ إِلَى أَبِيهِ .

وقد صممت على أن أذهب به إليه، فمن يدري أنه لا

يحتاج إليه غداً؟ هل ضمنت أن أبقى له إلى الأبد؟ ولا

تنسي أن كامل وشيك الالتحاق بالمدارس الثانوية وربما

أقنعت أباه بمعاونتي في تعليمه!

ولا شك أن أُمِّي كانت تتحزَّن للمعارضة، فلَمَّا

سمعت الشطر الأخير من كلامه فتر تحفَّزها وبدا الحزن

في عينيها، ولم تنبس بكلمة، ولمَّا غادرنا جدِّي

اغرورقت عيناها بالدموع فاقتربت منها متأثراً محزوناً

وحققت عينيها، وقلت لها :

- لَا شَيْءَ يَسْتَدْعِي الْبُكَاءَ يَا أُمَّاهُ .

فابتسمت إلي ابتسامة باهتة وقالت بحزن :

- لَا شَيْءَ حَقًّا . وَلَكِنِّي أَبْكِي الْأَيَّامَ الْمَاضِيَةَ يَا

كَامِلٌ . . . أَبْكِي الطَّمَانِينَةَ الْمَطْلُوقَةَ الَّتِي اسْتَمْتَمَتْ إِلَيْهَا

طَوِيلًا . كَانَتْ الْحَيَاةَ رَغِيدَةً طَيِّبَةً لَا يَكْدُرُهَا عَلَيْنَا

مَكْدُرٌ، الْيَوْمَ يَتَحَدَّثُ جَدُّكَ عَنِ الْعَدُوِّ، وَهُوَ إِذْ يَتَحَدَّثُ

عَنْهُ يَمْلُؤُنِي خَوْفًا وَقَلْقًا . لِنَدْعُ اللَّهَ مَعًا أَلَّا يَشْتَتَ

شَمْلَنَا، وَأَنْ يَطِيلَ لَنَا فِي عَمْرٍ جَدُّكَ، وَيَغْنِينَا عَنِ

النَّاسِ . . .

ثم تفكرت ملياً، وقالت لي وهي تحدجني بنظرة

غريبة :

- قَابِلُهُ إِذَا قَابَلْتَهُ بِأَدْبٍ فَهُوَ أَبُوكَ عَلَى أَيِّ حَالٍ،

وَلَكِنْ لَا تَنْسَى فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي

عَدَبْنَا جَمِيعًا .

وجرت على شفطي ابتسامة خفيفة لهذا التحذير

الملفوف الذي لم أكن في حاجة إليه . ليس في وسعي

أن أحب شخصاً كرهه أبوه . ثم فكرت في تلك الزيارة

المرتقبة بين ابن وأبيه لأول مرة، وحاولت أن أتخيل

النظام فقد أثر أن يبيع العربة والجوادين على أن يربك

ميزانتيته . لشد ما أحزننا بيع العربة، وضياع الجوادين،

ووداع عمِّ كريم الحوذني العجوز الذي قضى عمره في

خدمة جدِّي حتَّى فَقَدَ فِيهَا أَسْنَانَهُ . ولقد بكيت الجميع

بكاء مرّاً دون أن أنبس بكلمة . وكان جدِّي يعيش في

نادي القهار أكثر ممَّا يعيش بيننا، ولم تكن له من سلوى

أو فرجة سواه وخاصة عقب تركه الخدمة . ولم يكن

يحاول إخفاء سيرته بما جُبل عليه من صراحة وميل

للمرح، فكثيراً ما كان يقصُّ على أُمِّي طرفاً ممَّا يصادفه

في سهراته، فيقول هازئاً رأسه الأشيب: «بالأمس

لازمني سوء الحظِّ طوال الليل حتَّى قبيل الختام بقليل

فعوّضت خسارتي جميعاً بضريبتين موقفتين»، أو يقول:

«يا للطمع الأشعبي! أضاع عليّ بمقامرة واحدة في

أخريات الليل عشرين جنبها ربحتها بشقِّ النفس» .

ولكنه كان بوجه عامّ مقامراً عاقلاً إن جاز لي أن أقول

ذلك، تستأثر به لذّة المقامرة الجنوبيّة دون أن تنسيه

طاقة ميزانتيته وواجباته كرت لأسرتنا ولا أشكُّ في أن

أمر مستقبلي قد شغله كثيراً، لا لذاتي فحسب - وإن

غمرني دائماً بحبه ورعايته - ولكن لا ارتباط مصير أُمِّي

بمصري . ثم كان ما كان من تعرُّ حياتي المدرسيّة

فأخذت الابتدائيّة في السابعة عشرة وقد اقترب هو من

حدود السبعين، وأخذ القلق يساوره كثيراً وهو أعلم

بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر . على أنه كان يتغلب

دائماً على قلقه بما طبع عليه من ميل للتفاؤل مرده في

الغالب إلى ما وهبه الله من صحّة حسنة لم تزايله رغم

طعونه في السنّ . إلا أن خسارته الأخيرة ذكرته بقلقه

ومخاوفه ودفعته إلى أن يعالجها بالحليطة والحرص، فقال

يوماً لأُمِّي بعد تردّد غير قليل وكنانا يتحدّثان عن

مستقبلي :

- أَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْهَلَ كَامِلٌ أَبَاهُ هَذَا الْجَهْلُ

الْمَطْلُوقُ .

فامتقع وجهها ورمقته باستنكار وتساءلت :

- مَاذَا تَعْنِي يَا ابْنَاهُ؟

فقال جدِّي بغير مبالاة :

- أَعْنِي أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْهِ . هَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ

الفسيفساء. تبعت جدّي في قلق يزداد بتوعّنا في الحديقة، وعندما أخذت في ارتقاء السلم جفّ حلقي من الاضطراب. وبدا أبي واقفاً ينتظر، فألقيت عليه نظرة سريعة من وراء جدّي.

كان وقتذاك في الستين من عمره، ربعة، بدينًا وإن بدا في جلبابه الأبيض الفضفاض أ بدن من الواقع بكثير، أبيض البشرة، عمّر الوجه والعنق، منتفخ الأوداج، محتقن الوجه بالدم، أما قسّات وجهه فكبيرة واضحة في غير تنافر: أصلع الرأس، أسود العينين، وقد جحظت مقلّته وتشابكت بهما خطوط حمر دقيقة كالشعيرات، وقلقت بهما نظرة زائغة شاردة خاملة بدّدت ما كانت ضخامته خليقة بأن تبعته في النفس من رهبة. خامري شعور بالغرابة والإنكار والنفور، وحقدت على جدّي المسثول عن الزيارة. اشتدّ بي الإنكار عندما وضع لي أنه لم يبد أي الترحيب بنا إلا تلك الوقفة الخاملة. تصافح الرجلان، وسمعت صوتًا غليظًا ذكرني بصوت أخي مدحت يقول:

- أهلاً وسهلاً... كيف حالك يا عبد الله بك؟
فرّد جدّي قائلاً:

- الحمد لله... وكيف أنت؟!

وتنحّى جدّي قليلاً ليكشف عني وأوما إليّ قائلاً وهو يتسّم:

- كامل ابنك.

وتقدّمت منه في ارتباك ظاهر وعيناي متطلّعتان إليه، فحدّجني بنظرة متفحّصة في اهتمام شديد وقد لاح في عينيه نور خافت، ثمّ مددت يدي، وعند ذاك قال جدّي ولعلّه أراد أن يتفادى من خطأ رائي حرّياً أن أقع فيه:

- اقهر هذا الخجل وقبّل يد والدك!

وأدركت مراده فقبضت على اليد المدودة إليّ ولثمت ظاهرها، ورفعت إليه عينيّ فوجدته مبتسماً، وسمعته يقول:

- مرحباً بالابن الذي لم يعرف أباه... ما شاء الله (والتفت نحو جدّي مستدرّكاً) صار رجلاً وفرع أباه طويلاً.

صورة لأبي، أو أن أتذكر صورته القديمة التي مرّقتها بيديّ فلم أفلح... وشعرت بنفور شديد من الزيارة وتميّت لو يعدل جدّي عن رأيه.

ولكنّه قرّر أن نقوم بزيارتنا في صباح اليوم التالي، وقال لي وهو يستحثني:

- ينبغي أن نبرّك في الذهاب إليه قبل أن يعييه السكر!

وخرجنا معاً، قطعنا الطريق إلى محطة الترام مشياً على الأقدام. ثمّ أخذنا الترام إلى العتبة، ومنها إلى الحلمية، ثمّ سرنا إلى شارع مبارك. وجعل يوصيني في الطريق بما ينبغي أن أتخلّى به في حضرة أبي من الأدب والتودّد. قال لي:

- أنت خجول جدّاً، منطوٍ على نفسك، وأخاف أن يظنّ ما بك نفوراً منه فيبادلك نفوراً بنفور خصوصاً وأنه لم يهتم يوماً بحبّ إنسان، فانفض عنك الجمود ولاقه بالتودّد والرقة والألفة.

ووقفنا أمام بيت كبير مكوّن من دورين، لا يبدو من دوره الأوّل إلا أعلاه لارتفاع سور البيت، وطرفنا باباً ضحكاً، ففتح عن صرير غليظ، وبرز لنا بواب نويّ طاعن في السنّ، فسلم على جدّي باحترام وترحيب وتنحّى جانباً وهو يقول:

- رؤبة بك في السلامك...

وسكّ الاسم مسمعي، فشعرت على رغمي بما يربطني بهذا البيت. وتمكّنتني رغبة مباحة في الرجوع والتقهقر، ولكنها كانت رغبة لا سبيل إلى تحقيقها، ونظرت فيها أمامي فرايت حديقة كبيرة، وسرعان ما سطعت أنفي رائحة الليمون الزكية. هي حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدحم جوّها بالفروع والأغصان، وتغطّي أرضها بالأوراق الجافّة، وبها وبالجو المحيط بها مسحة حزن وكآبة انسربت إلى نفسي في غير إبطاء. وفي نهايتها يقع البيت، وقد بدا السلامك مقاماً على سوره جدار خشبيّ يحجب ما بداخله عمّن في الحديقة. سبقنا البواب إلى الداخل ليستأذن للقادم، ثمّ عاد بعد قليل وهو يدعونا باحترام، وسار بين يدينا في ممشى من

وليس أشقّ على النفس من تغيير عادة، ولِكَيْ أُؤكِّد لك أنه سرٌّ جدًّا بتعرّفه بك. لا تأخذ عليه صمته وارتبائه فإنّه كالعذراء حياء.

فهزّ أبي رأسه الأصلع المستدير وفوه لا يزال منفرجًا عقب القهقهة، وسألني فيها يشبه التحدي:

- هلّا مكثت معي فترة من عطلتك؟! شهرًا أو أسبوعين؟!

فبادر جدّي قائلاً:

- أمّا هذا فعن طيب خاطر!...

وظننت إلى ما في قول جدّي من إيحاء موجه إليّ، فوجدتني كالفأر في المصيدة. وتولّاني ضيق كاد ينشقّ له صدري، ولعنت ذلك التصميم المزعج الذي حدا بجدّي إلى سوقي إلى هذا البيت الكئيب. وانعقد لساني في يأس وعناد، حتّى قال أبي متهكِّمًا:

- هذا قولك أنت يا عبد الله بك، ولِكَيْ أتساءل عن رأي كامل بك!...

والتي تهكّمه، وانقلبت إلى حال من التعاسة فلم أنطق ولم أرفع رأسي. وتذكّرت أمّي بلهفة المستغيث شأني إذا اشتدّ بي كرب. وفهقه أبي ساخراً وقال:

- ولعلّه يسرّ بمعرفتي ولكن من بعيد...

وتغيّرت لهجته الساخرة فقال بصوت ينمّ عن القوّة:

- ألا تعلم أنّي إذا أردت أن تبقى هنا لم يحل دون ذلك حائل؟!

وترتّب لحظة ريشاً يحدث تصريجه الأثر المطلوب، ثمّ ضحك مستدركًا:

- لا تخف، لا حاجة بي إلى هذا على الإطلاق...

وساد صمت رهيب. ولعلّ جدّي أدرك أنّ الرجل قد كشف بقوله ذلك عن شعور عداثي. وشعرت أنا بغريزتي أنّ كلينا يجد نحو صاحبه نفورًا لا خفاء فيه... وهالني ما صدم جدّي من خيبة مريرة وتوقّعت أن يوسعني تعنيفًا وتقريعًا. ثمّ قال جدّي بصوت منخفض:

- ابنك سيّ الحظّ يا رؤبة بك، فقد حرم نعمّة التعبير عمّا يدور بخلده. إنّه طفل خجول لا يدري عن

فضحك جدّي ضحكته العظيمة وقال:

- أجل إنّه رجل... ولكن لا تثريب عليه إذا كان لم يعرف أباه!

وتفرّس أبي في طولًا وعرضًا، ثمّ دعاننا إلى الجلوس، فجلسنا على مقعدين مقاربين وجلس على كنية في الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف ووضعت عليه قارورة حمراء وكأس ووعاء صينيّ مليء نلجًا.

كانت القارورة مملوءة إلّا قليلاً، وكانت الكأس فارغة إلّا قليلاً. لم أكن رأيت الخمر أبدًا ولِكَيْ أدركت تواءمًا حيال الشراب الملعون الذي فعل بأسرتنا الأعاجيب، وسرعان ما ملأني التقرّز والنفور. واستدرك جدّي قائلاً:

- أي نعم ما ذنبه المسكين؟... إنّه لم يعرف لنفسه أبًا، ولا حيلة له في هذا، ولا داعي لإثارة ذكريات وكت. بيد أنّي وجدته رجلًا كما تقول، وقد حصل هذا العام على الابتدائيّة، وعمّا قليل يلتحق بالمدارس الثانويّة، فاستكثرت أن يظّل على جهله أباه، واقترحت عليه أن أقدمه لك، فرحب باقتراحي مسرورًا، وها أنا قد فعلت والحمد لله.

وكانت عينا أبي لا تتحوّلان عني فلم أنخف من ارتبائي وحيائي، ولما ختم جدّي كلامه لاحت في عينيه الشاردتين نظرة ارتباب وسألني:

- أحقّ سرُّك أن تُقدّم إليّ؟

فأجبت بصوت لا يكاد يسمع:

- نعم...

فسألني وهو ينظر إليّ بمكر:

- أمحبّ أن تمكث معي؟!

وانقبض قلبي، ولاحت في عيني نظرة حائرة. ما عسى أن أقول؟! إنّ وصايا جدّي، لا تزال تطرّف في أذني ولكن هبني أجبت بالإيجاب فدعاني إلى البقاء معه فكيف يكون المصير؟! كلاً، لا يسعني هذا وغضضت طرفي مطبقًا شفتي ولم أنبس بكلمة. وفهقه أبي بصوت ارتعد له جدّي وهو يجدني بنظرة استياء:

- ترفّق به يا رؤبة بك. إنّه لم يفترق عن أمّه قطّ

فاشتدّ حنق جدّي وقال بصوت وشت نبراته
بانفعاله وتأثره:

- أيّ اتّفاق يا هذا؟... نحن لا نتحدّث عن
صفقة تجاريّة، ولكن عن ابنك، فأين الأبوة
والعطف؟
فقال أبي بتهكّم وازدراء:

- الأبوة؟... العطف؟... يا لها من سجايا كريمة
يُبد أن المال يفسدها. يا عبد الله بك لندع الهذر جانبًا
فإنه لا يجمل برجل عسكريّ مثلك خاض حروب
السودان! وإنك لتعرفني حقّ المعرفة فكيف زينت لك
نفسك أن تقصّدي بهذا الرجاء الخائب؟ تفكّر في
الأمر مليًا فإنما تكفّلت «به» كما اتّفقنا أو أتركه لي إذا
شت.

ونظرت إلى جدّي فوجدت وجهه ملتهبًا بحمرة
الغضب، وتوقّعت أن ينفجر في الآخر، ولكنّه ضبط
نفسه بجهد كبير، وقال بهدوء:

- لولا واجبي نحو ابنك لاستكرهت أن أفف منك
موقفي هذا، ولست أستجديك شيئًا لنفسي، ولكنّي
أريد أن أطمئنّ على مستقبل الفتى خصوصًا وأيّ رجل
طاعن في السنّ وقد أموت غدًا...

فقال أبي ضجرًا:

- إذا متّ غدًا تكفّلت به!

فقطّب جدّي مستاء، وهالني تعبير أبي القاسي
فكرهته في تلك اللحظة ضعف ما كرهته طول حياتي،
وكأنما نفذ صبر جدّي فنهض قائمًا مكفهر الوجه،
ونفضت معه كأنني مشدود إليه. وألقى إلى أبي بنظرة
متعالية في ترفعٍ وغطرسة، وقال:

- لا أستطيع أن أقول إنك خيّت ظنيّ لأني لم
أحسن بك الظنّ قطّ ولكنّها أخطاء ترتكبها كارهين
ونحن أدرى بعواقبها. أستودعك الله.

وأخذ بيدي ومضى بي فغادرنا السلامك وأبي يقول
متهكّمًا:

- مع السلامة يا عبد الله بك.

هكذا كان أوّل لقاء بيني وبين أبي. وقد خرجت
منه وبفسي من النفور ما لا يقبل لي به. وما كدت

الدنيا شيئًا فترقّق به واعذره...
فقال أبي بغلظة:

- ما هذا الذي تقول يا عبد الله بك!... خجول،
عذراء، لا يدري شيئًا! ماذا فعلتم به؟ لقد كانت له
أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل، فمن أيّة
جيلة هو؟!

وشعرت بطعنة نجلاء تصيب قلبي. واندفع الدم
إلى وجه جدّي فقطّب غاضبًا وقال بكبرياء:
- لقد اختارت أخته أن تمضي إلى زوجها بعد أن
يثست من عدالة أبيها!
وروّح عنيّ قوله. أمّا أبي فاسترسل ضاحكًا وقد
احتقن الدم بوجهه وبدا فظًا قاسيًا ممقوتًا، ثمّ قال
بسخرية:

- تقول بعد أن يثست من عدالة أبيها!... اسمح
لي أولًا أن أملا كأسًا (وملا الكأس وعّل منها جرعة)
هلاّ شربت معي؟... كلاً؟... كما تشاء فلكلّ
إنسان داء. ولنعد الآن إلى قولك. ماذا قلت يا حسن
بك! بعد أن يثست من عدالة أبيها؟! وأنت؟! ألم
تياأس من عدالة أبيها؟!

فنظر إليه جدّي باستنكار وازدراء وسأله:

- ماذا تعني؟!

- أريد أن أقول إنّ الفتاة إذا كانت قد يثست من
أبيها فإنّ جدّها لم يياأس من عدالته، وآي ذلك أنك
جئتني اليوم بهذا الفتى لا لتقدّمه لي كما قلت، فقد كان
يمكن أن يحدث ذلك في أيّ وقت من الماضي، ولكن
لتخبرني أنّه عمّا قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية...
وهنالک المصروفات... هه!!

فخرج جدّي عن طوره وصاح به مغضبًا:

- لقد أعياني إصلاحك فيما مضى، ومن الحمق أن
أحاول ذلك الآن!... لقد ربّيته حتّى صار رجلاً دون
أن يكلفك مليًا واحدًا...

فصقّق أبي ساخرًا وقال وقد أخذ صوته يعلو:

- آه من مكر الرجال! بالأمس جئتني سائلًا أن أترك

الغلام لكم، واليوم نمّ عليّ أن ربّيته حتّى صار رجلاً!
مرحى... مرحى، هلاّ تذكّرت اتّفاقنا السابق؟

تكوينه الجسدي؟ والحق أني رمته بنظرة غريبة لم يظن إليها أحد. على أني أحبته كثيرًا كما أحبنا كثيرًا. وقد عاتبته أمي على ندرة زيارته لنا فقال لها:

- أنت أدري بأخلاق المجنون!

فضحكت بسرور لا مزيد عليه، ورنوت إلى شقيقي بامتنان، فالتفت نحوي وقال أسفًا:

- علمت بما حدث في المقابلة الأخيرة...

فسألته أمي باهتمام:

- هل أخبرك عنها؟

فقال ضاحكًا:

- حدثني بها عم آدم البواب.

وداخلني استياء شديد فهتفت مستنكرًا:

- البواب!... أكان يسرق السمع!

فقال مدحت:

- كلاً، ليس به من حاجة إلى استراق السمع، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيطه بها أبي، فهو سميره القديم الذي يفضي إليه بمكنون صدره وإن لم ينبج من شر لسانه في غالب الأحيان. ولكم أحزني الموقف الذي وقفه من جدّي، فوددت لو لقيته اليوم هنا لأعترز إليه وأقبل يده.

وتجاذبنا الحديث طويلاً، وكان مدحت محدثاً ماهراً، يدير الحديث بطلاقة وروح مرحة، ويقفه فقهه أينا العالية فيضاهيه في جلجلتها دون برودتها وقسوتها، فسرعان ما غبطته وأعجبت به وتميّت لو كان لي بعض مرحة وطلاقة. وانساق الحديث إلى مستقبله، وكان حصل على شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام، فقال:

- سافرت إلى عمي في القيوّم ليجد لي وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين، لكنّه لم يوافق على توظيفي بالحكومة، وعرض عليّ أن أتمرن في عزبته بأجر عالٍ على أن يؤجّر لي أرضاً في القريب العاجل، ورأيت في عرضه فرصة تفتح لي أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت.

ولكنّ أمي لم ترتح لهذا العرض وقالت معترضة:

أجتاز باب البيت إلى الطريق حتى تهتدت ارتياحاً، ودعوت الله بقلبي ألا يقضي عليّ يوماً بأن أطرق هذا الباب أبداً. وسرنا نحو ميدان الحلمية، وجعل جدّي يحث خطاه منكس الذقن محمّر الوجه، وهو يغمغم بكلام غير مميّز ولا مفهوم وجعلت أسترق إليه النظر محزونًا أسيفًا، وخائفًا في الوقت نفسه لشعوري بثقل مسئوليتي فيما أدى إلى الخصام. ثم أخذ صوته يتضح رويدًا فسمعته يقول وكأنه يحدث نفسه «حيوان أعجم، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالاً؟ لماذا لم يعاقبه بالعقم؟!» ويقول أيضًا: «يا لك من وغد! ليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة؟ إنك لم تتركه لنا استجابة لرجائنا، ولكنك بعته بنفقاته».

وحين بلغنا المحطة لاذ بالصمت، ووقعت عليّ عيناه فحدجني بنظرة قاسية وأصرّ على أسنانه وقال لي بحدّة:

- وأنت يا سي قطران أنظّل عمرك بغلاً! ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة؟ ماذا كان عليك لو تظاهرت بالتودد إليه؟ أحسبته يا أحق سيرتني عليك عشقًا ووطنًا!

وأفزعني غضبه كما يفزعني الغضب عادة، وارتعشت شفتاي كالطفل إذا شرع في البكاء، ورأى حالي فنفض مغيطًا محققًا، وصاح بي:

- ما أسرع أن تبكي!... ما الذي يبكيك؟... هل ظلمتك؟ هل تجنّبت عليك؟... لقد أخطأت خطأ غيبيّ أحق، وما زدت على أن قلت لك أخطأت، فهل كفرت؟!!

ولم أنبس بكلمة طوال الطريق، ولبثت محزونًا منكسر الخاطر، حتى ذكرت أبي عائد إلى أمي، وأنّي سأحدثها بكلّ شيء عمّا قليل، فسُرّي عني.

وزارنا يومًا مدحت أخي، في الأسبوع الذي تلا مقابلتنا لأبي. ولمّا تفرّست في وجهه تلك المرّة أيقنت أنّه صورة طبق الأصل من أبي. وتساءلت في حيرة عن سيرته وأخلاقه، وهل يشابه أباه فيها كما يشابهه في

وحدة إلآها فهي أشتات لا تجتمع. اللهم عفوك
ورضاك!

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة
فالحقني جدِّي بالسعيدية. وقد ذهبنا معًا، وقال لي في
الطريق:

- لو كنت رجلًا حقًا لما أحوجتني إلى الذهاب
معك، ولكنك لا تعرف الطريق إلى الجيزة وأنت ابن
سبعة عشر، وعلى آية حال احفظ الطريق جيدًا. لقد
كنت ضابطًا في مثل سنك!

وكان يتظاهر بالندم والسخط، ولكني شعرت
بقلبي أنه متهيج مسرور، وأحسست بعطفه يشملني،
فأخجلني ما يتحمّله في سبيل من المشقة وهو الشيخ
السبعيني. وحين عودتنا ضربني بعصاه برقة وقال:

- إنك الآن طالب بالسعيدية، فاجتهد ترفع رأسنا.
أريد أن أراك ضابطًا قبل أن أرحل.

ودعوت له بطول العمر من أعماق قلبي. وسكت
مليًا ثم قال بغير مناسبة ظاهرة:

- على أيامنا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل
بحق أكبر الشهادات في هذه الأيام!

وهز رأسه ثم استدرج قائلاً:

- كانت أيامًا، وكنا رجالًا!

١٤

انتهت العطلة الصيفية فألم بي الحزن والكآبة.
كانت المدرسة المنعص الأول لحياتي، فكرهتها كرها
عميقًا صادقًا. حقًا كنت بصدد مدرسة جديدة اقترنت
في ذهني بالرجولة والفخار، ولكنها مدرسة على آية
حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميذ ومدربين
وعقوبات، ودروس تفوق صعوبتها بلا شك سابقاتها
في المدرسة الابتدائية.

وفي صباح السبت الأول من أكتوبر استيقظت
مبكرًا بعد انقطاع هذه العادة الثقيلة أربعة أشهر،
وارتديت البدلة، وتأنقت كعادتي وانتقيت رباط رقبة
فاخرًا من صوان جدِّي! وألقت أمي علي نظرة طويلة
ثم قالت بسرور:

- أليس الأكرم أن تتوظف في الحكومة؟

فضحك أخي طويلًا ثم قال:

- إن دبلومي لا يؤهلني لوظيفة محترمة، أما عمي
فيهيئ لي فرص العمل المثلث والثروة.

- وتعيش في الفيوم حياتك؟!

فقال باستهانة:

- الفيوم من ضواحي القاهرة!

فقلت أمي بحزن:

- طالما مئيت نفسي باليوم الذي تستقل فيه بحياتك
لنعيش معًا!...

فقبل يدها برقة وقال مبتسماً:

- سوف تريني كثيرًا حتى تملي...

ثم ودعنا وانصرف. وتمهدت أمي من الأعماق
وقالت بحزن:

- غاب عمي نصف حياته في بيت المجنون،

وسيعيب النصف الآخر في الفيوم!

وتفكرت قليلاً ثم قالت وكأنها تحدت نفسها:

- إن عمه لم يعرض عليه ما عرض حبًا في سواد
عينيه، ولكنه ينوي بلا شك أن يزوجه إحدى بناته.
وسألته ببساطة:

- وماذا عليه لو فعل؟!

فحدجتي بنظرة غريبة، وهمت بالكلام أكثر من مرة

ثم تنثني عمًا همت به.

وقد صدق ظنّها، فجاءنا بعد ذلك بزمن غير طويل
خطاب مدحت يخرنا بخطبته لابنة عمه، ويسمي لنا
يوم الزفاف ويدعونا لحضوره. ولم تحفب أمي استيائها،
وهاها أن يخطب بدون مشورتها أولًا، وقالت لجدِّي
بغضب:

- أ رأيت إلى شقيق المجنون كيف خطف ابني!

ولم نحضر زفافه، لأنني مرضت قبيل مواعده ولزمت
الفراش أسبوعين فنسيت أمي الزفاف بأفراحه وآلامه.
وهكذا تزوج مدحت دون أن يحضر زفافه لا أبوه ولا
أمه، حتى قال جدِّي متهكمًا كعادته:

- هذه الأسرة خلقها الله أعجوبة للبشر، كل أسرة

- تفضّل بالوقوف لتردّ على خادم أبيك!
ونهضت فزعماً، ولبثت متصلياً دون أن أحر
جواباً، فلطمني على خدي وصاح بي:
- تحدّ شمالاً بماذا؟
ولمّا لم أخرج عن صمتي لطمني على خدي الآخر
وسألني:

- لندع مؤقتاً ما يحدها شمالاً، فما هي التي أسأل
عها يحدها شمالاً؟

ولازمت الصمت وخدّاي يلتهبان، فانها على
لطمه يميناً ولطمه شمالاً وأنا لا أحرّج على تغطية
وجهي بيديّ، حتّى انفتأ غضبه فأمرني بالجلوس.
وضجّ جانب من الفصل بالضحك، وجلست أغلب
دموعي. انقلبت مرّة أخرى إلى أذى المدرّسين وسخرية
التلاميذ. ومضيت أجتزّ الآمي في صمت واليأس
يفتكك بنفسي فتكاً ذريعاً. خبا الأمل وانتهت المحاولة
الجديدة بالإخفاق السريع، وعدت إلى تعاسي
المعهودة. وعلى رغم ذلك تعلّقت بخيط واه فكرّست
كلّ وقتي للمذاكرة. عكفت على كتيبي ساعات
متواصلة، ولكنّه كان مجهوداً ضائعاً إلا أقله، والحقّ
أني كنت أثبت عينيّ على الصفحات على حين يتطاير
خيالي في وديان الأحلام فلا أستطيع لّمه. وهي
أحلام تحرّكها الشهوة وتعبت بها الخادما القدرات،
ثمّ تنتهي بالعادة الجهنميّة التي أدمنت عليها مذ ناهزت
الحلم، فلا تفوت ليلة إلا وأنصهر في أتونها في لذة
مفتعلة وندم موجه طويل.

ولم أفق من رغبتني في صداقة الرفاق موقف الجمود
المطلق، ولكن أخفقت في مسعاي إخفاقاً كاملاً. كان
يقابل تلك الرغبة في نفسي ميل أصيل للوحدة، ونفور
وخوف من الناس، وانطواء على النفس دفعني إلى
الكتان الشديد فلا أحبّ أن يقف إنسان على سرّي
ولا حتّى مسكني أو عمري، لهذا إلى عجز عن
الحديث، وعدم فهم للنكتة فضلاً عن تأليفها، فلم
يجد في أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إليّ، عادوا برموني
بثقل الدم. أخفقت في اكتساب صديق، وعشت
العمر بلا صديق. بيد أنّي لم أكن أدرك حقيقة نفسي،

- كالقمر وحقّ كتاب الله!... وجه أمك على بشرة
بيضاء ليس لي مثله. محروس بعناية الرخن.
ومضت توصيني بالحيلة في المشي والركوب والنزول
وعبور الطريق، ودعت لي طويلاً... ولمّا غادرت
البيت وقفت بالشرفة تراقب سيرتي حتّى غيبي عنها
منعطف الطريق. وواصلت السير مغتماً محزوناً حتّى
بلغت محطة الترام بشارع قصر العيني. ووقفت أنتظر
الترام وحدي لأول مرّة في حياتي، فداخلي إحساس
بالحرّيّة لم يداخلي من قبل. وسرّي عني قليلاً فوجدت
شيئاً من الارتياح، ثمّ لاطفني أمل في بدء حياة
جديدة! حياة لا تكدرها التعاسة التي لازمتني في
مدرسة العقّادين. إني ماضٍ إلى مدرسة جديدة،
وسألني أناساً جدداً، فلماذا لا أبدأ صفحة جديدة؟
اللهمّ إني إذا اجتهدت تحاميت قسوة المدرّسين؟ وإذا
أحسنّت التودّد إلى التلاميذ اكتسبت مودّتهم ودفعت
زرايتهم، وهذا شيء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز
عنه وحدي؟! ورقص بين ضلوعي حماس بهيج،
وقلت لنفسني إذا نجحت فيما أخفقت فيه في ماضي
حياتي هيأت نفسي حياة طيبة وحبّبت إلى قلبي الحياة
المدرسيّة المقضيّ عليّ بها أردت أم لم أرد. وذهبت إلى
السعيدية متفيئاً ظلّ الأمل الجديد الذي انبثق في نفسي
بغته على محطة الترام!...

* * *

ولكنّي وجدت الحياة أشقّ ممّا هيأت لي الأمل، فحال
خجلي الشديد ونفوري من الناس دون اكتساب
صديق، وضيق شروود ذهنيّ عليّ اجتهادي هباء! لشدّ
ما عانيت من شروود ذهني! لقد سلّبتني عقلي وأفقدني
كلّ قدرة على الانتباه وتركيز الفكر، وجعلني صيداً
سهلاً للمدرّسين. وقد استيقظت مرّة من شروودي - في
الأسبوع الثاني من حياتي المدرسيّة الجديدة - على
مسطرة المدرّس وهي تصدم جيني، وصوته وهو
يسألني بلهجة الوعيد:

- قلت تحدّ شمالاً بماذا؟

فحملقت في وجهه بارتباك وفزع حتّى نسيت أن
أنهض قائماً فزعت بي:

وتبادر أُمِّي إلى تأييدي في قولي فيهِز رأسه الأبيض
ويتمتم:

- الأمر لله.

ولذلك كنت أتوقّع موسم الامتحان بقلق وخوف
تتخلّلها الأحلام المزعجة، ولذلك أيضًا كان يغريني
الحياء والغرور بتصنّع التعب والتوعك في الأشهر
السابقة للامتحان لأعتلّ بها على إخفاقي المتوقع.
وكانت أُمِّي من ناحيتها تزور أم هاشم وتنذر النذور،
وتشدّد حول عنقي التعاويذ. ولا أنسى مرّة - وكنت
قريبًا من امتحان الكفاءة - جاءني بامرأة تَمَنّ يقرأ
الغيب مستعيذة بقدرتها على إنجاحي، فحرقت المرأة
بين يديّ البخور، وركّزت في المدفأة عصًا قصيرة
وأمرتني أن أقفز فوقها ثلاث مرّات، وفعلت ما أمرت
به، فقالت لي بيقين: «ستنجح بإذن الرحمن»، ولَمّا
سقطت في الامتحان قلت لأُمِّي متعجبًا: «كيف أسقط
وقد قفزت المرّات الثلاث؟»

وعلى رغم هذا كلّه واصلت الدراسة، وطويت
عهد الثانويّ وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت
الخامسة والعشرين!...

١٥

وداخلني على إخفاقي المتواصل شعور بالزهو
والرجولة. إنّ كثيرين من موظفي الحكومة لا يحملون إلّا
البكالوريا فانا رجل ذو شأن! ولست أطمع من ورائها
انخراطًا في سلك الحكومة ولِكِنِّي أرجو أن أخرج بها
من البيت، أعني أن أتحرّر بها من ربقة التي تشدني
شدًا يكاد يمزّق ضلوعي. أجل لقد ملكني شعور
جامح هفا بفؤادي إلى التجدّد والانطلاق. لم أعد
غلامًا يقاد من أنفه، وها هي الحياة تستفزني للتمرد
والثورة. ولكن أيّ تمرد وأيّة ثورة؟ على ماذا أو لماذا؟
لم أجد جوابًا واضحًا، والحقّ أنّي لم أكن أفكّر، ولم
يكن هياجي فكريًا، ولكن ثورة شعوريّة تبعث من
أعماق نفسي، تروم الانطلاق والتغيير، وتشوّف إلى
المجهول. لم أستبن هدفًا على وجه التحديد، وعانيت
حينئذ مؤلمًا غامضًا كلّمًا تحركّ بصدري شملي بكآبة

فأتهمت الرفاق دون نفسي بالعيوب التي حرمتني
الصداقة، واعتقدت زمنًا أنّه لا صديق لي لأنّه لا
يوجد من هو أهل لصداقتي! ما أعجب غرور
الإنسان! إنّ السماء والأرض لا تسعانه. وعلى عمجزي
ونقائصي كان يخيّل إليّ أحيانًا أنّ الكيال المطلق، فهذا
الحياء القاتل أدب، وهذا الإخفاق في الدراسة عبقرية
بطيئة النمو، وذلك الفقر المدقع في الصداقة والحبّ
تسام، وأمّذي علم النفس - الذي دُرّس لنا عامًا في
السنة الخامسة - بالفاظ غامضة انتفعت بها في إرضاء
غروري الكاذب. ومع ذلك كانت تثقل عليّ ساعات
بأس فأكاد أستشفّ الحقيقة، وقد قلت لأُمِّي يومًا،
وهي الحبيب والصديق والأنيس الذي لم أظفر بسواه:

- لا صديق لي، التلاميذ يزدرونني!

فتولّأها الغضب، وهتفت بي:

- إنّ نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ. إنهم لا
يحبّون من لا يجاريهم في شطارتهم وسوء خلقهم
ويحسدونك لحياثك وأدبك. لا تحزن فلا فضيلة وراء
البعد عن الناس!
فقلت مجزونًا: أشعر أحيانًا بأنّي وحيد فتثقل الوحدة
عليّ!

وهاها قولي ورمقتي بإنكار، وقالت:

- وأين أمك؟... كيف تقول هذا وأمك على قيد
الحياة؟ ألسنت أكرّس حياتي لخدمتك ورعايتك؟
أجل، إنّها تكرّس حياتها لي، وإنّها كلّ شيء في
حياتي، ولكن من لي خارج بيتنا؟
واظردت حياتي المدرسيّة في تعرّ وتناقل على رغم
كونها تتوكّأ على عكاز من المدرسين الخصوصيين.
ولشدّ ما كان يحزن جدّي كلّمًا سقطت في امتحان،
ولم يعد يسخر منّي في مزاح، ولعلّ طعنه في العمر ردّه
شديد الإشفاق على مستقبلنا، فكان يقول لي:
- لماذا تخفق هكذا يا كامل؟ أكلّ عام بعامين؟..
ألا ترى أنّي أتلهّف على رؤيتك موظفًا قبل أن أموت؟
وكان كلامه يقع من نفسي موقعًا محزنًا، ثمّ أقول
له:

- ما ألوت أنّ ذاكرت حتّى منتصف الليل.

- ألا تفضّل مهنة بعينها؟
 واشتدّت حيرتي لأنّ نفسي لم تنزع بي إلى مهنة غير
 الحربيّة وذلك بتأثير جدّي نفسه وإيمانه، فلم أدر بماذا
 أجيّب، وقلت:
 - كنت أمّي نفسي بدخول الحربيّة، أمّا الآن فالمهن
 كلّها بالنسبة إليّ سواء...
 - إليّ أختار لك الحقوق فهي خير ما بقي لنا؟ ولا
 أوصيك بالاجتهاد لأنّه من العار أن يخفق الإنسان في
 الجامعة، وربّنا يعيننا على مصروفاتها!
 أسفت على ضياع المدرسة الحربيّة من يدي، ولكّيتي
 لم أدرك فداحة خسارتي إلّا حين أيقنت أنّي سأواصل
 الدراسة أربعة أعوام أخرى على الأقلّ، أو ثمانية أعوام
 إذا سرت بالمعدّل الذي لازمني في المدرستين الابتدائيّة
 والثانويّة. وكنت بطبعي أكره الدراسة والمدرسة
 فنظرت إلى المستقبل بامتعاض غير قليل. ولم أكن
 أدري عن الجامعة شيئاً، ولكن رجّحت ألاّ تكون
 بغیضة كالمدرسة، وقلت لنفسي إنّ طلابها في سنّ
 الرجال فلا يمكن أن يُتّلموا بي كإخوان لهم من قبل
 خلّفوا في نفسي آثاراً لا تزول، كذلك استبعدت أن
 يكون العقاب ممّا يجوز أن يعامل به رجال أو من هم
 في حكم الرجال. ودأبت على تحييب الدراسة المنتظرة
 إلى نفسي، ولم أُلّ عن تهوين خطبها، حتّى أستطيع أن
 أزردّها في صبر وأناة. وفي صيف ذلك العام قيّدت
 طالباً - بكليّة الحقوق.

١٦

وفي صباح السبت من منتصف أكتوبر غادرت
 البيت مزوّداً بالدعاء قاصداً الجامعة المصريّة. ووقفت
 على طوار المحطّة أنتظر الترام، وهو نفس الترام الذي
 كان يحملني إلى المدرسة السعيدية، ولم أحلّ ذلك
 الصباح - على امتعاضي - من شعور بالزهو. وإني لفي
 انتظاري، إذ طرق مسمعي صفقة مصراع نافذة
 فتحت بعنف فلطمت الجدار، فارتفع بصري إلى
 الدور الثاني من عمارة برتقاليّة اللون تقع أمام المحطّة
 مباشرة، حيث كانت توجد لافتة عيادة طبيب حتّى قبل

ووحشة. وكنت كلّما استبدّت بي تلك الأحاسيس
 وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء، فنار بي الغضب
 لأنفه الأسباب.

وفي تلك الأثناء كان جدّي يهدف إلى الثمانين،
 وكانت أمّي تقطع الخطوات الأولى بعد الخمسين.
 انقلب جدّي شيخاً نحيلاً، ولكّنه حافظ على
 صحّته ونجا من شرّ الأمراض، وتمتّع بما وهبه الله من
 نشاط يحسد عليه، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته
 الهادئة. أجل اضطرّ إلى تبديل نظام معيشته لأنّه لم يعد
 يحتمل السهر الطويل المتواصل، فكان يذهب إلى
 مقهى لونابارك صباحاً ليجتمع بقلة من صحابه،
 ويمضي في النادي مساء ساعتين ثمّ يعود إلى البيت في
 العاشرة، وكان يمشي مشيته العسكريّة في قوّة ووقار
 دون أن ينحني له جذع. أمّا أمّي فقد سارع إليها
 الكبر بنسبة أكبر منه إذا عدّت بالقياس إلى عمرها.
 جفّ عودها، واشتعل مفرق شعرها وسوالفها شيئاً،
 إلّا أنّها تتمتّع بصحة جيّدة، كما حافظ وجهها على
 جماله وبهائه. وكانت ربّما استسلمت في أحيان للإهمال
 فلا تعنى عنايةها المعهودة بهندامها. ولشدّ ما كان
 يتولّاني الحزن والاستياء لذلك، حتّى قلت لها مرّة
 «لايني بالهيئة التي تلقين بها الضيوف»، ولم تحبّب لي
 رجائي ذلك فكانت تبدو لي وهي على أحسن حال،
 وطابت نفسي ورضيت.

وظنّ جدّي أنّ الفرصة تهيّأت ليحقّق الأمل الذي
 طالما حلم به ألا وهو أن أصير ضابطاً، ولكّيتي كنت
 جاوزت السنّ المقرّرة للالتحاق بالمدرسة الحربيّة،
 وحسب أنّ الشفاعة تستطيع أن تذللّ تلك الصعوبة
 التي بدّدت حلمي فسعى إلى كثيرين من كبار
 الضباط، ولكّنه أفهم أنّ القانون لا يتسامح في ذلك.
 وحزن جدّي حزناً شديداً، وقال لي أسفاً:

- لو دخلت الحربيّة لضمنت لك مستقبلاً حسناً،
 ولاطمأنّ قلبي عليك وعلى أمك.

وهزّ رأسه في سخط، ثمّ سألتني:

- علام نويت؟!

فنظرت إليه في حيرة، ولم أحر جواباً، فعاد يسألني:

نظارة ذهبية يزُرر حمالة بنطلونه، فخفضت بصري ورحت أقطع الطوار جيئةً وذهابًا. ولاحت مِنِّي التفاتة إلى المحطّة المقابلة، للترام الذاهب إلى العتبة، فرأيت الفتاة واقفة - وقد عرفتها بقامتها وزيّها - ويدها كتاب. كانت في وقار بدا حلّواً بالقياس إلى عمرها الذي لا يجاوز العشرين، ولم يكن بصرها يعلق بأحد ممّن يحتشد حولها أو يمرّ بها، فأثّر تحفظها في نفسي أثرًا جميلًا ملأني احترامًا وإعجابًا ثمّ شعرت نحوها بانجذاب وحنان. ولم يكن تأثير المرأة فيّ بالأمر الجديد على نفسي، فإنّي أرى الحسان في الطريق أو في الترام، وأتبعهنّ عادة نظرة رجل عابر أمضه الحرمان والوحدة والرغبة، وأرجع منهنّ بالشوشة البديعة والهزّة الموجهة. أمّا هذه الفتاة فلها شأن آخر، فلن يكون موقفى منها موقف العابر، ولكن موقف المقيم ومَن هو في حكم الجار، فإنّي أراها اليوم، وأراها غدًا، وإلى ما شاء الله فضعاف ذلك من اهتمامي بها وحرك في قلبي آمالًا وهمية، ومثاني بسرور متجدّد، فكأنّه نوع من التعارف ولون من الأمل الغامض، وملهاة سرور سليبي لا يطمع في أكثر منه شخص خجول هيّاب مثلي. ثمّ ذهبت إلى الكليّة طيّب الشعور، متسائلًا: هل يمكن يا ترى أن تتبه إليّ؟! ... وقد ذكرتُها في أعماق الليل، في وحدتي النفسية، وهذيان الأحلام الجنسية يعث بخيالي، فوجدت من نفسي اعتراضًا وتمردًا وإباء شديدًا، فأبعدتها عن أتون عاديّ الذميمة، قانعًا هنا بالحيوانات القدرة التي تلهب أحطّ الإحساسات من جسدي ...

وفي صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطّة وكأني من التطلّع على موعد، وأرسلت ناظريّ إلى المحطّة المقابلة، فرأيتها بموقف الأمس بقامتها الفارعة ووجهها البدريّ ووقارها الجذّاب. وسرى في جوانحي الارتياح. ثمّ حدّثني نفسي بأن أجد سبيلًا إلى الاقتراب منها وهي لا تدري بي لأروي ظمأي إلى معرفة وجهها عن كئيب، وحتّيّ الإشفاق من مجيء الترام الذي تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح إليه نفسي دون

شهر تقريبًا، فوقع بصري على فتاة في الشرفة واقفة تحتسي شايًا. أدركت لتويّ أنّ أسرة سكنت الشقّة بعد أن أخلاها الطبيب، وثبتت عيناى على الفتاة، وجعلت أتابعها وهي ترفع القدح إلى شفيتها فترشف رشفة، ثمّ تنفخ السائل الساخن بغم مزوم. وتبدأ وتعيد لاهية بلذّة السراب. وبدا لي منها قامة طويلة وقدّ نحيف رشيق وبشرة قمحية، في سترة وتايير رماديّ، وكأنّها وشيكة الذهاب إلى المدرسة في احتشام الطالبات. وكانت توليني جانب وجهها فلمّا اعتدل رأسها رأيت وجهًا مستديرًا، توحى هيئته بتسويق جميل وإن لم أستطع تبيّن معالمة من موقفي، تعلوه هالة من شعر كسنائيّ، فبعثت في نفسي أثرًا بهيجًا. ولم تبق هدفاً لناظريّ إلا قليلاً، ثمّ دارت على عقبيها ومرفت إلى الداخل. واحتفظت بصورتها في حبّ استطلاع ريثما جاء الترام، ثمّ ركبت متخفّفًا بالأثر البهيج الذي بعثه فيّ من كآبة اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة. على أنّي وجدت في الكليّة مزايا خليقة بأن تُذهب مخاوفي وإن لم تقلّل من أسباب نفوري العامّ من الدراسة. من ذلك أنّ وقت الدراسة مقصور على أربع ساعات في اليوم تنتهي عادة في الساعة الواحدة، ومنه تمتّع الطلبة بحريّة الحضور أو الغياب بلا رقيب، ومنه وهو الأهمّ انعدام فكرة العقاب بل لمست في روح الطلبة أنّ ما يتهدّد أساتذتهم أخطر مما يتهدّدهم هم. سررت بذلك كلّه ومثّيت نفسي بأن تنتهي هذه الدراسة على مرّها كما انتهت الدراسات السابقة، ولم يكن جديدًا عليّ أن أتمجّع دراسة على كره ونفور حتّى الثالثة. وعندما عدت ذلك اليوم إلى المنيل شعرت بسرور مفاجئ هيّا لي أنّي رجل خطير، ونصف أستاذ وربع وكيل نيابة!

وفي صباح اليوم التالي ذكرت الشرفة وأنا أشارك المحطّة فرفعت عينيّ مدفوعًا بتطلّع هادئ طبيعيّ ولكّني وجدتها خالية، وتسأل بصري إلى الداخل فرأيت مرآة في الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضيًّا لامعًا ومصباحًا كهربائيًّا يتدلّى من السقف ذا قبة زرقاء كبيرة، ثمّ بدا في وسط الحجره رجل في الخمسين ذو

مضج بالدم وأنا، فأهوي إلى خدّها ألثمه في إعجاب واحترام وحبّ يسمو عن الشهوات، أجل لا يحبّ خيالي أن يصوّرها لي إلّا في رداثها الطويل تحوط بها هالة الوقار والاحتشام.

وبكرت في الذهاب إلى المحطة في صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية، ونقلت بصري إلى نافذة على يسار الشرفة فرأيت الفتاة من جانب وجهها، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التي يقفها الشخص حيال صورته على وجه المرأة، ومضت تسوي شعرها وتمنحه اللمسات الختامية التي تشبه لمسات التديل والمداعبة فانشرح صدري وتبعّت يدها بجوارحي حتى خلتنى أجد مسّ الشعر الناعم وأشمّ عرقه الطيب. ثم رأيتها تتحوّل عن المرأة وتطلّ من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدّرت من اتجاه وجهها أنّ عينها على طوار المحطة، ونزعت بخجل الفطريّ إلى خفض عينيّ، بيد أنّي تشبعت ببعد المسافة بيني وبينها وثبتّ عينيّ بجهد قليل. ترى هل وقع بصرها عليّ؟ وهل ذكرت فتى الأمس الذي التقت عيناه بعينيها لحظة بديعة؟ كلاً إنّها لا تحسّ لي وجوداً، ولن تحسّ بهذا الوجود. لبثت قليلاً، ثمّ تراجعت إلى الداخل وغابت عن ناظريّ. وقطعت طوار المحطة ذهاباً وجيئة، ثمّ عدت إلى موقفي، وجاء ترام إثر ترام ثانٍ وأنا بمكاني كالمنتظر. وفي أثناء ذلك ظهرت في الشرفة فتاة في العاشرة في مريلة زرقاء أدركت لتويّ أنّها أختها. ثمّ رأيت فتاة تبرز من العمارة وتتّجه صوب المحطة المقابلة. رأيتها تسير لأوّل مرّة، فتحدثت مشية هادئة مترنة توافق وقارها الجميل وتناسب قدها الرشيق وقامتها الطويلة. وتحركّ في أعماقي الإعجاب والإحترام. وأرسلت بناظري حتى جاء الترام وصعدت إليه. استوفيت جزاء الانتظار سروراً وارتياحاً، وركبت الترام مزوّداً بأطيب أزهار الأحلام ولم يخف عنيّ اهتمامي بها وسروري باحتشامها ووقارها، فلم أشكّ في أنّ التطلع لذلك البيت سيكون من الآن فصاعداً هوايتي. وقلت لنفسي: «ما أحوجني إلى رقيقة

تردد، فأتمّجته صوب المحطة الأخرى بقدمين فلتقتين وقلب يغوص في صدري فرقاً، ومررت بها مسترقاً النظر، فرأيت في عجلة المذعور عينين عسلتين صافيتين تقطران ملاحه، وأنفاً صغيراً دقيقاً وشفنتين رقيقتين، ولعلّها أحسّت حرارة بصري فرفعت عينها عرضاً فالتقت عينانا، وسرعان ما استرددت بصري لأنه أيسر عليّ أن أحمق في قرص الشمس إبان اعتدالها من أن أحمّل وقع نظرة عين، ومضيت إلى طرف الطوار ولبثت حائراً لا أدري كيف أعود إلى المحطة الأخرى. وخیل لي أنّي ارتكبت شططاً جنونياً فأوقعت نفسي في ورطة عسيرة المخرج. هكذا كانت تتراعى لي أنفه الأمور. ولبثت متمسراً حتى استقلت الفتاة الترام وخلا الطوار من المنتظرين فعدت إلى مكاني لاهثاً، وجعلت أحدث نفسي: أجلّ بها من ملاحه ورشاقة واحتشام! وعشت مع خيالها يومي فلم أكد أنتبه إلى ما يلقي عليّ من محاضرات. وعلى قدر ما نازعتني النفس إلى تمليّ عواطفني على قدر ما ازددت كرهاً للمحاضرة التي تعترض سبيل أخيلتي، ففاض بي شعور بالتمرد على تلك الحياة الدراسية التي تعذب عقلي وتتجاهل قلبي وشعوري وكأني أنتبه إلى قلبي لأوّل مرّة، فأحسّ به عضواً حيّاً مثل بقية الأعضاء، يجوع جوع المعدة، ويرقّ رقة النفس، ويشوّف تشوّف الروح، فتمنيت أن أكرّس حياتي لسعادته، وأن أستسلم لحنان المتعة التي تتفجّر عنها ينايحه.

تهدّدت من الأعماق وأنا جالس في نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب. وحدّثني نفسي بأنّ وراء هذه الحياة الجافّة الضيقة المكبلة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرّة، فهتمت نفسي إليها في جزع وهلعة. وعدت إلى الفتاة، ولم يقنع خيالي هذه المرّة بالرؤية. فخلق ما شاء له هواه فرأيتني ألفت نظرها إليّ، واقتربت منها كما فعلت في الصباح، ولكنّي لم أرتبك كما ارتبكت فأومأت إليها في جسارة نادرة، ويغلبها ابتسام المودّة فتبسم إليّ، وأهمس لها بما أحبّ وهمس لي كذلك، ونركب الترام معاً، وفي مكان ما على شاطئ النيل أقول لها أحبّك، فتقول لي بوجه

وغادرت البيت في ارتياح مطمئناً إلى ما عسى أن يتركه منظرني من أثر حسن في نفس الفتاة إذا شاء القدر أن يلفت عينها إليّ. بيد أنّ ارتياحي لم يطل، وذكّرت أمراً طالما نغص عليّ صفوي، ففتر حماسي.. ذكرت ما رميت به كثيراً من ثقل الدم، ولم أستبعد في تلك اللحظة أن يكون ذلك العلة في إخفاقي في اكتساب صديق واحد، وسرعان ما تكدر صفوي وتجهمت لي الدنيا.. وسرت بخطأ ثقيلة حتى انتهيت إلى المحطة. ودار بصري ينقب في مكانها حتى استقرّ عليها في الشرفة تحتسي الشاي كما رأيتهما أوّل مرّة. هناك نسيت كدري وهمني، وانشرح صدري، وانبعث السرور في كلّ قطرة من دمي. هناك أدركت أنّها سروري وفرحي وأنّها روحي وحياتي، وأنّ الدنيا من غير طلعة محياها لا تساوي ذرة من رماد!

وواظبت على ذلك الموعد الذي لا يدري به الطرف الآخر شهرين أو يزيد، يوماً بعد يوم دون انقطاع أو تأخير. تطلّعت بناظري حتى كلّ البصر، ووهبتها الإعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتى نُوتُتُ بها، وتعلّيت السرور والأحلام حتى نسيت الحقيقة والواقع، وسحت في دنيا الهيام حتى سلبت العقل والرشاد، حفظتها عن ظهر قلب، طولاً وعرضاً، إيماءة ولفتة، وقفة ومشية، سكوناً وحركة. وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرتهما من أب وأم وأخت وأخ، كلّ هذا وهي لا تدري بي، ولا تحسّ لي وجوداً، وكأنّني بالنسبة إليها ليس من سگان هذا الكوكب. وأمضيت الجسزج والضيق، وأحرقني الرغبة في إثبات وجودي، ولكن شدّني عجزي إلى موقف لا أتعده. حلمت في شرودي كثيراً بأنّي أعترض سبيلها، وأتبعها، أو أنّي أبوح لها بإعجابي واحترامي. أمّا في الحقيقة فلم تكن تبرز من باب العبارة حتى ينقبض قلبي حياءً وخوفاً، وحتى أمّيتاً لغض بصري فيما إذا أتجه بصرها نحوي. ولعلّه كان أسهل عليّ أن أرمي بنفسي من جسر الملك الصالح من أن أصمد لنظرة من عينها. وكنت أتساءل في يأس وجزع متى تنتبه لوجودي؟ متى تدري أنّ

لحياتي في مثل كالمها! وضاعف من حسرتي أنّي عشت حياتي بلا رفيق. على أنّي شعرت بقلق من جرّاء إفصاحي عن هذه الرغبة، كما شعرت بحياء شديد. ولم تكن تلك أوّل مرّة أفصح بها عن الرغبة في الرفيق، ولكنّه كان إفصاحاً عابراً وتشوّفاً عامّاً ورغبة بلا هدف معيّن وشوّفاً غامضاً، أمّا هذه إفصاح خطير. حرّك حياتي وخوفي، وتشوّف خاص، ورغبة يغرّر بها أمل، وشوق يستمدّ الوقود كلّ صباح. وأعجب ما في شعوري أنّه كان شعوراً بيتياً إن صحّ هذا التعبير، فانصبّ من بادئ الأمر على الفتاة وبيتها، وما ذكرتها قطّ إلا وتحضرنى صورة البيت، فامتزجت الصورتان في مخيلتي، ونالتا من اهتمامي وأحلامي نصيباً واحداً! وسرعان ما تمثّلت فيها زوجتي! ولا عجب فإنّي امرؤ إذا وقعت عيناه على فتاة في الترام نشطت أحلامه الشاردة فتصوّر أنّه خطبها وعقد عليها وزفّ إليها والترام لا يزال في منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس! فكيف لا أتمثّل فتاة الصباح زوجة؟! وملكني الإعجاب والاحترام، وقدسيّة الإحساس البيتيّ، وحنان العاطفة الزوجيّة، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الميل الصادق، لعلّه الحبّ الذي لم يعرفه قلبي.

وفي صباح اليوم الخامس أطلت وفتني حيال المرأة قبل أن أغادر البيت، وألقيت على صورتي نظرة متفحّصة. ينبغي أن أعترف هنا بإعجابي الشديد بذاتي!! فلم تكن أناثتي بقاصرة على سلوكي، ولكنّها امتدّت إلى حبّ الصورة والإعجاب بها. ولشدّ ما أنعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين، وهذا الأنف الدقيق المستقيم، وهذا الوجه الطويل المتناسق ذي البشرة البيضاء.. وكان تأتقي مضرب الأمثال في البيت والمدرسة على السواء حتى لأذكر قول أستاذ اللغة العربيّة لي مرّة: «لو أتقنت العربيّة إتقانك لعقد رباط رقبك لما كنت أسوأ تلميذ عندي!» نظرت إلى صورتي طويلاً ذاك الصباح وجعلت أمّي ترمقني بإعجاب وتمازحني بكلمات كالغزل فقلت لنفسي أه لو تدري لمن أنا أتأتق!

مقضيًا عليّ بالهيام الصامت المنفرد وجيبيتي على قيد
خطوة مئي!

١٧

واعترض سبيلي حادث لعلّه في ذاته تافه، ولكنه
غبر مجرى حياتي. وكانت حياتي الدراسية نزاعًا
متواصلًا بين عقلي الراكد ونفسي الشاردة يتمخض -
كما تمخض في الماضي - عن عناء شديد وثمرة قليلة.
وقد بات الشرود لدي ملكة آسرة غلبت على نفسي
جميع قواها العقلية، حتى أشفقت من ألا أنسال
الليسانس قبل الخامسة والثلاثين! على آني عرفت من
خطورة دراسة القانون أشياء غاب عني شيء لا يكاد
يقيم له الطلبة وزناً، بل يقبلون عليه في سرور
ويعدونه رياضة وهواً، ذلك هو درس الخطابة. وكان
يلقى علينا مرة في الأسبوع في مدرج عام يحضره جميع
طلبة القسم الإعدادي. وفي أثناء الشهرين الأولين
استمعنا إلى دراسة نظرية في فن الخطابة ثم بدأ
التدريب العملي. وطفق الأستاذ يدعو الطلبة إلى
ارتجال الخطب في الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون
بطلاقة، وبأصوات جهورية، في ثبات وشجاعة
ورحمت أنصت إليهم في دهشة مقرونة بالإعجاب
البالغ، مأخوذاً بطلاقتهم وشجاعتهم، مذهولاً
لمقدرتهم على التصدي لهذا الموقف الرهيب حيال هذا
الجمع الحاشد، فكنت أتطوع بالتحجل نيابة عنهم حتى
يتفصّد جيبي عرقاً! وما أدري في أحد الأيام إلا
والأستاذ ينادي:

- كامل رؤية لاظ!

ونفضت قائماً بحركة عكسية، في الصف الأخير من
المدرج - المكان المفضل عندي - حيث لا تقع عليّ
عين... وأحدث اسمي اهتماماً ساخراً، فهمس
أحدهم قائلاً:

- هذا حفيد لاطوغي!

وتساءل آخر:

- اسم هذا أم فعل؟!

هنالك قلباً غريباً يكن لها من الوداد أضعاف ما يكنه
لها الوالدان؟!... أليس غريباً أن يمر شخص مرّ
الكرام بقلب يودّ لو يفرش شغافه تحت قدميه؟!

وتركزت أفكاري - تلك الفترة - في قلبي بألامه
وأماله، مخاوفه وأفراحه، وشعرت شعوراً قوياً بحاجتي
إلى نصيح أو مشير، وكانت أمي هي صديقي الوحيد
في دنياي، ولكنّي لم أتوجه إليها بطبيعة الحال في أزمتي
تلك لشعوري بأنها ستقف من رغبات قلبي موقف
العداوة!... بيد آني وجدت في بعض المجلات التي
يقرأها جدّي صفحات مخصصة لأسئلة القراء فأملت
أن أظفر منها بالمشير الذي أتفقد. وأرسلت إلى إحداهما
هذا السؤال الذي أفضّ مضجعي: «رجل ثقيل الدم،
أليس ثمة أمل أن يحبّه محبوبه؟» وكان جواب المجلة
«الحب سرّ من الأسرار لا شأن له بالخفة ولا بالثقل،
وقد يتعامى عن القبح والدمامة فلا تخف على حبك
من ثقل دمك!! وإذا جاز لنا أن نتفلسف عن طبيعة
المرأة فلعلّه يصحّ أن نقول إنها مغرمة بالقوة
والشجاعة!» سررت بمطلع الإجابة، فلما أن بلغت
ختامها خامرتني شعور بالخيبة، وتساءلت عما يعنيه
بالقوة... آه. لست قوياً على أيّ حال، والحق أنّ
إدماي العادة المرذولة جعلني نحيفاً أكثر ممّا ينبغي
وأضفى على بشرتي شحوباً. وعندما ذكرت الشجاعة
لم أتمالك نفسي من ضحكة مريرة، وعددت ما يخفيني
في هذه الدنيا من الأناسي والأجواء والفييران
والصراصير، فعصر اليأس قلبي!

ولكنّي لم أسلم لليأس لأنّ النار التي تستعر بنفسي
كانت أقوى من أن تخمدتها ضربة من قبضة اليأس
الباردة، فأرسلت إلى المجلة هذا السؤال: «كيف
أجذب محبوبتي؟» وكان الجواب: «اذهب إلى أبيها أو
وليّ أمرها واطلب يدها إليه وإني كفيل بأن تحبك». .
ربّاه، ما أفسى المجلة! إنّه لا تدري آني طالب، وأنّ
أمامي أربعة أعوام - أو ثمانية - قبل أن أصير رجلاً
مسئولاً، وآتني فوق هذا كله أقدر عليّ اقتحام أبواب
جهنّم مئي على طرق باب محبوبتي لأطلب يدها... يا
أسفا، ألا يعلم هؤلاء الناس ما التحجل؟! ما أراني إلا

مغشياً عليّ، وتولّاني ذلك الإحساس الحادّ بالقنوط الذي يمسك بخناقنا في الكابوس. ولم يخطر لي لحظة واحدة أن أفكر في الموضوع، ولعليّ أنسيته، ولم يكن يدور بخلدني إلاّ هذا السؤال: متى تنكشف هذه الغمّة! وملّ الأستاذ الانتظار فقال:

- تكلم. لا تخش الخطأ. أفصح عمّا ببالك جميعاً. ربّاه متى ينقضي هذا العذاب؟ هيهات أن يرثي أحد لي. وها هم الطلبة يتغامزون ويتضحكون، وقد قال أحدهم بلهجة من يحذّر إخوانه من الاستهانة بي:

- هكذا بدأ سعد زغلول.

وقال آخر:

- وهكذا انتهى!

وصاح ثالث:

- أنصتوا إلى بلاغة الصمت.

وامتلا المكان ضجّة وضحكات فدار رأسي وأخذت أتفكّر بصعوبة، ثمّ صمّمت على إنهاء ذلك الموقف المحزن فغادرت المنصة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ، وضجّة الشياطين تلاحقني وتصلك أذني، وما زلت أخطب على وجهي محمومًا هاديًا حتّى انتهيت إلى محطة الترام. ورحت أردد بتصميم وحقن «لن أعود... لن أعود، وكان ذلك التصميم البلسم الشافي لجرح ذلك اليوم. أجل لن أعود، ولن تقع أعينهم عليّ مرّة أخرى، ولن أعرض نفسي لبسات الهزء والسخرية، وأيّة فائدة ترجى من العودة إلى الكليّة ما دامت حياة الحقوقي لا تخلو ساعة من هذه المواقف؟! الأفضل أن أسدل الستار على عهد الدراسة كلّ، وحسي ما عانيت من عبوديّة العذاب. وتعرّيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقني من مهانة وإحراج بل نسيته به أليّ وحقني فترطب صدري المحترق بنسمة ارتياح، وعدت إلى البيت وليس أمام عينيّ إلاّ ذلك التصميم... وبعد الغداء قصصت على جدّي وأمي ما لقيت في يومي من شدّة ومكروه، واخشقت صوتي بالبكاء وأنا أقول:

- هذه حياة لا تطاق، ولن أعود إلى الكليّة أبدًا.

وقفت مبهورًا خافق الفؤاد، فقال الأستاذ:

- تعال إلى المنصة...

وتسمّرت في مكاني في ارتباك لا يقبل لي به، رغبت أن أعتذر ولكنّ بعدي عن الأستاذ كان يوجب عليّ أن أعليّ صوتي فيسمعه الجميع، فسكّت على رغمي. ونظر الأستاذ إليّ دهشًا، ثمّ قال:

- ما لك واقفًا لا تتحرّك؟!... تعال إلى المنصة!

واستدارت الرؤوس إليّ حتّى شعرت بأنّي أحترق تحت وقعها، واستحتّني الأستاذ بإشارة من يده، فقلت على كره:

- لماذا؟

وضحك كثيرون من سؤالي، وقال الأستاذ بحدّة:

- لماذا؟! لكي تخطب يا أخي كالأخرين!

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفّين من المدرج:

- لا أدري كيف أخطب!

وطبيعيّ أنّ صوتي لم يبلغ الأستاذ فتطوّع طالب قريب ببلاغ جملي صائغًا بلهجة ساخرة:

- يقول إنّه لا يدري كيف يخطب!

فقال الأستاذ بلهجة تنمّ عن التشجيع:

- هذا درس تدريب، وأخلق أن ينتفع به من لا يجيد الخطابة. تعال...

ولم أر مناصًا من الذهاب، فحرّكت قدمي في جهد وعذاب كأني أساق إلى المشنقة، ثمّ ارتقيت المنصة في حالة ذهول، ووقفت محدّدًا في الأستاذ باستسلام واستعطاف موليًا المدرج جانبي الأيسر. وأدرك الأستاذ ارتبائي فقال بلطف:

- انظر إلى زملائك، واملك جنانك، وتكلم كأنك

وحدك. لا بدّ من اعتياد هذه المواقف لأنّ حياة الحقوقي لا تخلو ساعة منها وإلاّ كانت هراء لا معنى له. كيف تقف غدًا في ساحة القضاء سواء تحت ظلّ النبابة أم المحاماة؟! ادعّ شجاعتك واخطب هذا الجمع حاثًا إيّاه على التبرّع لإحدى الجمعيات الخيريّة.

وتطلّع إليّ الجميع باهتمام شديد لم يحظّ بمثله الخطباء المصاقع، فحملت في الوجوه المتطلّعة دون أن أرى شيئًا، ولقني ذهول وخجل مميت فكذت أفع

مغرورقة العينين. ومع ذلك فلست أشك في أن معارضة جدّي كانت نصف جدّيّة فقط. ولو أنه أراد حقاً أن يكسر عزمي لما وسعني مخالفته. والحق أن أمر مستقبلنا كان يحتلّ من تفكيره مكاناً واسعاً وخاصّة في تلك الأيام الأخيرة التي استوفى فيها شيخوخته، ولعله ارتاح لاقتراح توظيفي ليطمئن على مصير أمي.

وهكذا انقطعت حياتي الدراسية بعد أن قضيت نيّفاً وشهرين بكلّيّة الحقوق، بيد أنني لم أجد السرور الذي كنت أحلم به. أجل لم أفكر لحظة واحدة في الرجوع إلى تجربة الدراسة القاسية، إلا أنني وجدت نفسي بحاجة شديدة إلى انتحال الأعداء الكاذبة عن انقطاعي عن العلم وفراري من معاهده، وتصوير نفسي في صورة الضحية البريئة. ومع أن محاولتي تلك نجحت لحّد ما مع الآخرين أو على الأقلّ مع أمي الصديقة لي بالحقّ أو الباطل، إلا أنها لم تنفع معي إلا قليلاً. ملأني السخط والتبرّم، وثار بي نزوع نحو تأديب النفس ومعاقبتها! واتخذ ذلك النزوع صورة حملة هجائيّة على نفسي، فواجهت نقائصي في تسليم واعتراف لأوّل مرّة.

رأيت حياتي كما هي أحلاماً شاردة سخيّة، وخجلاً وخوفاً يميّتان الهمم، وأنايّة مطلقة قضت عليّ بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق، وجهلاً بالدنيا وما فيها، فلا زمان ولا مكان، ولا سياسة ولا رياضة، حتّى المدينة الكبيرة التي ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شارعين، وكأني أعيش في حجرة بمفازة! وغشيتي كآبة ثقيلة فاجترت أحزاني في وحدة قلبيّة مهلكة. ولكنّ أمي لم تفارقني لحظة واحدة في تلك الأيام السود، ولم تطلق الوقوف منّي موقف المعارضة طويلاً فسرعان ما تحوّلت من جانب المعارضة إلى جانب التأييد، وتظاهرت بالسرور والارتياح، وقالت لي يوماً لتسرّي عني:

- الخير فيها اختار الله، وهل نملك لأنفسنا شيئاً؟! وعمّا قليل تصبح رجلاً مسؤولاً، ويحيى دورك في تدليل أمك لتقضي بعض ما عليك من دين!

وقضينا الساعات الطوال معاً، وأنا أنس بحديثها

وهال جدّي الأمر فقال بانزعاج:

- أنت رجل!! ألا ليتك خلقت بتّاً. إذن لكنت أكمل الفتيات؟... أتريد أن تقطع حياتك التعليميّة في السطور الأخير منها لأنك عجزت عن قول كلمتين... والله لو كانت أمك مكانك لخطبت الموجودين!

وجعلت أمي تقبض أصابع يمينها وتبسطها في تشنّج وتقول:

- حسدوه... حسدوه يا ربّي!

وحاول جدّي أن يشنّي عن عزمي تارة باللين وتارة بالعنف، ولكنّ اليأس ثبت عنادي فلم أثن، ولمّا فرغ صبره قال لي بحدّة:

- إذن ضاعت السنة، وليس ثمّة فائدة من إلحاقك بكلّيّة أخرى بعد انقضاء شهرين وثيف على افتتاح العام الدراسيّ.

فركبني الخوف أن يلقي بي تارة أخرى إلى عذاب التعليم فقلت:

- ليس ثمّة فائدة من مواصلة التعليم.

وقاطعتني أمي هاتفة بألم:

- لا تقل هذا يا كامل. بل لتواصلنّ التعليم سواء في هذا المعهد أم أيّ معهد آخر.

وضرب جدّي كفّاً بكفّ وهو يقول:

- لقد جنّ، وهذه نهاية التذليل.

ولكنّي كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت، ولم يعد بي من صبر أواجه به الطلبة والدروس والامتحانات، فقلت بقنوط:

- لا أستطيع... لا أستطيع... ارحموني!

وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا يقبل لي بها، قوّة مصدرها الخوف واليأس، حتّى سكت جدّي مغيباً محنّفاً. وبعد فترة صمت مرهق سألتني:

- أترغب أن تتوظّف بالبيكالوريا!

فقلت خافض العينين:

- نعم!

واختلست منه نظرة فوجدته صامتاً مقطباً ويده تعبت بشاربه الفضيّ. وحولت عينيّ إلى أمي فرأيتها

الطيب الشافي، وبفضلها وحدها انكشفت عني الغمة وتفتّح قلبي للحياة ونفض عن جوهره غبار الوسواس...

١٨

واستشفع جدي بضابط عظيم من رجالات الجيش ممن «عمل ملازمًا صغيرًا تحت رئاسته في السودان» على حدّ قوله، ليجد لي وظيفة بوزارة الحربيّة وكُلّل مسعاه بالتوفيق ولكنّ الضابط أخبره بأنني ربّما عُيّن في السلم ولمّا قال جدي ذلك تجهمّ وجه أمي وقالت باستنكار:

- السلموم؟! ألا ترى أنّ كامل لا يستطيع العيش بمفرده؟!

وكانت تظنّ السلموم بلدًا قريبًا كالزقازيق أو طنطا على الأكثر، فلمّا عرفت حقيقتها نذت عنها ضحكة عصبية وعدت الأمر مزاحًا. وصاح جدي متبرّمًا:

- وظفّيه بنفسك، أو عيّنيه في حضنك وأريحيني!

ولكنّه لم يأل جهدًا فسعى لدى معارفه القدماء من مواليد القرن التاسع عشر ممن عملوا قديمًا تحت قيادته، ولعلّهم تأثروا بشيخوخته الثمانيّة ونشاطه الموفور. وما أيقظ في صدورهم من ذكريات فوعدهه خيرًا، ووجدوا لي بالفعل وظيفة بإدارة المخازن بديوان الوزارة العامّ. ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث محطّات وعشر دقائق مشيًا على الأقدام فرضيت أمي وقزت عينيّ، وقدمت مسوغات التعيين وتقدّمت للقومسيون الطيّب العامّ كالمتبع، وبالاختصار صرت موظفًا من موظفي الدولة. وكان الشعور الذي لابسني وأنا أغادر البيت ميمّمًا الوزارة لأوّل مرّة شعورًا معقدًا، فيه زهو وخيلاء، وفيه فرح بالتحرّر من عبوديّة البيت والمدرسة على السواء، ولا يخلو من قلق يساورني كلّها أقبلت على جديد من الأمر. ومضيت بقلب خافق إلى محطّة «عجبوتي» لأنّ طريقنا أصبح واحدًا منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطّات معدودات، ولئن لم يكن في الوظيفة إلا هذا لكان حسبي من الهناء والسرور، واحتطت بقلبي الضعيف فوقفت في الطرف

البعيد من «الطوار» حتّى لا يصعقني وجودي على كتب منها. وجاءت بعد حين قليل تنهّدي في مشيتها التي تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبي بخفقان كزغردة اللسان، ولبثت غاضبًا بصري ولكن في نشوة جعلت الدنيا من حولي أطيافًا وترنيمات، وجاء الترام فركبنا معًا، وكانت أوّل مرّة يجمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدي مثل الكهرباء، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقّف. وإلى الأبد. وحين غادرت الترام عبرت الطريق متعجّلًا إلى الطوار وأرسلت بناظريّ إلى مقصورة السيّدات فوقعتا على ظهرها وهي جالسة عاكفة على كتاب بين يديها. ولمّا تحرك الترام التفتت فجأة إلى الورا فوقع بصرها عليّ ثمّ ولّتي ظهرها ثانية. انتفضت من الرأس إلى القدم، وتسمّرت قدمي في الأرض وعلقت عينيّ بالترام حتّى لم أعد أتيتن من معالنه شيئًا، ثمّ واصلت السير غائبًا عمّا حولي، سكران بالنظرة التي جادت بها السماء، وتساءلت في ذهول ودهشة لماذا التفتت؟ أيّ داع دعاها إلى ذلك؟ بل أيّ داع يمكن أن يكون هذا إذا لم يكن تلبية لنداء روجي الخفيّ؟ إنّ الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بُعد الشقّة، فما وجه الاستحالة في أن تلبّي الروح نداء روح أخرى مشحونة بالهيام والرغبة! وازدهاني ذلك الخاطر وأمنت في سعادة لا توصف بأنّ لروحي تأثيرًا على روحها. ولكن رحمتك اللّهمّ، فلشّد ما ارتجفت تحت وقع النظرة الخاطفة! ترى هل أنكرت وجهي أم ذكرت به الفتى الذي تطلّع إليها لحظة على المحطّة منذ ثلاثة أشهر؟! وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتني البيقظة رويدًا، وقلت لنفسي وكأني أودّع ساعة النشوة الموليّة «إني أحبّها، وهذا هو الحبّ بلا زيادة ولا نقصان!»

وخرجت من دنيا الهيام لأدخل دنيا الحكومة. وقدمت نفسي للمدير فقدمني بدوره إلى زملائي في الإدارة وكانوا تسعة. هؤلاء قلّة بالقياس إلى الطلبة وإتهم لرجال حقًا فلا يمكن أن أتوقّع منهم زراية أو سخرية، ورجوت من صميم قلبي أن أبدأ حياة جديدة غنيّة، ولمّا لم يُعهد إليّ بعمل ذلك اليوم

الطيب الشافي، وبفضلها وحدها انكشفت عني الغمة وتفتّح قلبي للحياة ونفض عن جوهره غبار الوسواس...

واستشفع جدي بضابط عظيم من رجالات الجيش ممن «عمل ملازمًا صغيرًا تحت رئاسته في السودان» على حدّ قوله، ليجد لي وظيفة بوزارة الحربيّة وكُلّل مسعاه بالتوفيق ولكنّ الضابط أخبره بأنني ربّما عُيّن في السلم ولمّا قال جدي ذلك تجهمّ وجه أمي وقالت باستنكار:

- السلموم؟! ألا ترى أنّ كامل لا يستطيع العيش بمفرده؟!

وكانت تظنّ السلموم بلدًا قريبًا كالزقازيق أو طنطا على الأكثر، فلمّا عرفت حقيقتها نذت عنها ضحكة عصبية وعدت الأمر مزاحًا. وصاح جدي متبرّمًا:

- وظفّيه بنفسك، أو عيّنيه في حضنك وأريحيني!

ولكنّه لم يأل جهدًا فسعى لدى معارفه القدماء من مواليد القرن التاسع عشر ممن عملوا قديمًا تحت قيادته، ولعلّهم تأثروا بشيخوخته الثمانيّة ونشاطه الموفور. وما أيقظ في صدورهم من ذكريات فوعدهه خيرًا، ووجدوا لي بالفعل وظيفة بإدارة المخازن بديوان الوزارة العامّ. ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث محطّات وعشر دقائق مشيًا على الأقدام فرضيت أمي وقزت عينيّ، وقدمت مسوغات التعيين وتقدّمت للقومسيون الطيّب العامّ كالمتبع، وبالاختصار صرت موظفًا من موظفي الدولة. وكان الشعور الذي لابسني وأنا أغادر البيت ميمّمًا الوزارة لأوّل مرّة شعورًا معقدًا، فيه زهو وخيلاء، وفيه فرح بالتحرّر من عبوديّة البيت والمدرسة على السواء، ولا يخلو من قلق يساورني كلّها أقبلت على جديد من الأمر. ومضيت بقلب خافق إلى محطّة «عجبوتي» لأنّ طريقنا أصبح واحدًا منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطّات معدودات، ولئن لم يكن في الوظيفة إلا هذا لكان حسبي من الهناء والسرور، واحتطت بقلبي الضعيف فوقفت في الطرف

وجدت فسحة لمعاودة خواطري السعيدة عن الحرّية التي أمّي النفس بها، والتي أرجو بها أن أستقذ نفسي من سجن البيت وعبودية المدرسة، ثمّ عن النظرة السعيدة التي أنتزعها روعي من الأعماق قوّة واقتداراً.

* * *

وأقبلت على الحياة الجديدة بأمل جدّاب. وظفرت بأول نوع من الصداقة عرفته في حياتي، وهو ما يسمونه بصداقة «المكاتب» هي صداقة جبريّة تفرضها زمالة الموظّفين في المكتب الواحد. وقد فرحت بها بادئ الأمر لأنّه لم يسعني - أنا الذي لم أعرف في حياتي صديقاً - إلا أن أفرح بين تسعة من الرجال ينادوني بلا كلفة، ويستقبلوني ويودّعونني بأطيب تحيّة. ولكن وأسفاه قام خجلي حاجزاً منيعاً بيني وبينهم. ثمّ أثبتت لي التجربة أنّ تلك صداقة لا تستحقّ الأسف عليها، فهي تبدأ مع الصباح بالتحية والمداعبة وقد تنقلب عند الظهيرة إلى وقية دنيئة تحتم بإنذار أو عقاب. والأدهى من ذلك أنّي لم أعرف لي عملاً مستقلاً، ولكن ما من واحد منهم إلا ويكلفني بعمل آليّ أنفذه صاغراً. وربما قضا أكثر النهار في ثرثرة وتدخين وشرب القهوة وأنا مكبّ على الأوراق في شبه سخرة. ولا شكّ أنّهم فطنوا بمكرهم إلى أنّي «غرّ خجول» فاستغلّوا ضعفي أسوأ استغلال. وضاق صدري، ونخا سروري بالحياة الجديدة في الشهر الأوّل منها، وأيقنت أنّي المستجير من الرمضاء بالنار! زاد من سوء حالي أنّ الشرود لم ينقطع عنيّ أثناء عملي فوقعت مراراً وتكراراً في أخطاء السهو، وتوالت عنيّ الانتقادات الساخرة والإنذارات ممّن يدعونهم «برؤساء اليد» فكانتني رُددت إلى المدرسة بتلاميذها ومدّرسيها، فعاودتني مرارة حياتي الماضية، وصحّ عندي أنّي لن أظفر براحة حقيقية ما دمت على صلة بأحد من الناس. . . . واجتررت آلامي في خفاء. ولم أكن أتور على شيء قطّ ممّا يشقيني، وكان ديدني دائماً أن أطيع بقلب دامٍ كظيم، وسخط مكتوم. وزاد البلاء حدّة أنّي لم أجد لحياتي متحوّلاً، ولا أملاً في الخلاص ولو بعد حين. وقد كنت أتجمّد في المدرسة أحياناً على أمل أنّها ستنتهي يوماً فأصير رجلاً حرّاً

* * *

ولكن كنت أنتِ العزاء والسرور! الحياة صحراء قاحلة مهلكة وأنتِ بها وحدك الواحة الخضراء الرطبية تلوذ بها النفس. ووالله ما حمدت للوظيفة من شيء إلا أن نقلني طريقها إلى محطّتك، فعندها أنتظر كلّ صباح مطلعك حتّى إذا رأيتك مقبلة في حقّة الغزال ووقار الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيما يشبه الذعر ودعوت الله أن يخفّف عنيّ شدّة الخفقان ثمّ أسترّق إليك اللحظ متحامياً أن تلتقي العين بالعين فالتقاؤهما جلل لا يصمد له إلاّ الأكفّاء. وإذا جاء الترام ركبنا معاً ولا تدرين سروري به إذ يحملنا معاً، ثمّ أغادره فيسير بك إلى هدفه المجهول مزوّدة بدعائتي أن يصونك المولى ويسعدك، وتبقى لي بعد ذلك صورتك عالقة بخيالي تدّر عليّ الأنس في وحشة سجنّي الجديد. ولكنّ لإمّ أظّل على تلك الحال؟ لقد صفّق الجزع بقلبي، وأمضيت الانتظار.

وزاد من التياغي أنّي جعلت أراها في الأصائل كما أراها في الأبكار، لأنّني كنت أغادر البيت عصراً كما يحلو لكثير من الموظّفين في غير معارضة من أمّي التي لم

وابتعت بالفعل فراشاً ولكّني ركبته في نفس الحجره
فظلّنت تحوينا معاً، وهي الحجره التي رأيت فيها نور
الدنيا.

١٩

ثمّ كان صباح تاريخي في حياتي إذ وقع بصرها
عليّ. والتقت عينانا وهي قادمة نحو المحطّة،
وارتعشت جوارحي وتساءلت وأنا أعاني الحياء: ترى
الم تذكر الفتى الذي رآته يوم لبّث نداء روعي؟!
وأسكرتني نشوة لم يخمدها مجيء الرجلين المنافسين
نفسه. وحملنا الترام جميعاً حتّى محطّة الوزارة فغادرته،
وهرعت إلى الطوار ثمّ بعثت بناظريّ إلى مقصورة
السيدات، وكانت تجلس في الصّف الآخر ووجهها إلى
ناحيتي فالتقت عينانا مرّة أخرى، وغضضت بصري في
حياء وصدري بالسعادة بتد، ثمّ غمغمت لنفسي وأنا
أجدّ في السير «برح الخفاء وافتضحت!» وقد تذكّرت
سعادتي عصراً وأنا جالس في حجرتي غير بعيد عن
أمّي فقلت لنفسي وأنا أحتلس منها نظرة غريبة «آه لو
تدري بأفكارني!». ألم تعلمني تجاربي الماضية أن مثل
سعادتي هذه ممّا تعدّه هي - أمّي - كفرة لا يُغتفر؟! هذه
حقيقة لم تغب عن خاطري قطّ، ومع ذلك بدت لي
وقنداك غريبة مستنكرة كأنما أكتشفها لأول مرّة،
وسدّدت نحو الوجه الوقور الجميل نظرة احتجاج
واستياء، وقلت لنفسي متغيّظاً: «ربّما كان الضرر يقع
بي أخفّ لديها من كشف حبي!». ولعلّي بالغت
كثيراً، ولكنّ سيرتها الماضية جعلتني لا أرنو إلى الجانب
البهيج من الحياة إلّا في خوف وحياء شديد من
ناحيتها! وكأنما ضقت بكتلاني سعادتي في حضرتها
فغادرت البيت مسروراً وهرعت كالمعتاد إلى المحطّة
القديمة، وسبقني بصري فوق على الشقيقتين وراء
زجاج النافذة فتقدّمت في سعادة غامرة، أمشي على
استحياء. واندسست في زحمة الواقفين وقلبي يتمنّى
ألا أبرح المحطّة حتّى يسدل الليل سدوله. وكان الجوّ
شديد البرودة فداخلي سرور بأنّي أتحمّل قسوة الجوّ في
سبيل نظرة من عينها. ولم أشكّ في أنّ طول قامتي

يعد بوسعها أن تعارض في ذلك. وكنت أهرع إلى
محطّتي القديمة تلقاء بيتها، فأقف بين المنتظرين
مستطلعاً مشرق روعي بطرف مشوّق، فأحياناً أرى
الأمّ أو الأب أو الأخ أو الأخت، وأحياناً أراها في
فستان بسيط أنيق من فساتين البيت يزلزل نفسي زلزلاً
شديداً.

لم أعد أرى لحياتي أملاً إلّا في الرفيق الأنيس،
فهمّئت بها هيأماً، واستأترتني رغبة صادقة حارّة في
السعادة التي لم يكن لها من معنى في نفسي إلّا أن أفتى
فيها وأن تفتى فيّ. بيد أنّي لم أتجاهل العقبات، وهل
كان دأبي إلّا تكبير العقبات؟! فلم أنس أنّي في أوّل
السطريق وأنّ مرتّبي سبعة جنيهات ونصف؟ ثمّ
لاحظت بمزيد القلق أنّ ثمة زجلين يقفان معنا في
المحطّة صباحاً لا يفتان ينبهان النظر في وجه الفتاة
باهتمام. أمّا أحدهما فرأيتته يخرج مرّات من العمارة التي
تقيم فيها، وهو رجل في نحو الأربعين تلوح في وجهه
آي الرزانة والوقار، ويتّسم بطابع الموظّفين الممتازين.
وأما الآخر فشابّ في الثلاثين ميّال للضحامة والبدانة
مع أنافة ووجاهة، إلّا أنّ إيماءاته ونظراته تنمّ عن
العجب والزهو. وعجبت لتطلّعها المتواصل إليها وما
من داعٍ إلى العجب، ولكّني ظننتني - ويا له من ظنّ
مضحك - أوّل من تبيها له كشف ذلك الكنز. وثار بي
الغضب والحق، وتلوّت دودة الغيرة في سويداء قلبي.
إنّما لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل
تجهلها حقاً كما تجهلني؟ خصوصاً هذا الجار الذي
يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقبّض قلبي فزعاً وبأساً
ورمقتها بغيط كأنّها المسئولة عن اهتمام الناس بها؟
وأطردت حياتي بين عمل ممقوت وحبّ حائر
غريب.

وكان بيتنا في ذلك الحين يعدّ من البيوت السعيدة،
اطمأنت قلوب أهله، فسكن خاطر الشيخ الهرم،
وقتعت أمّي بما قسم لي ولها. بيد أنّ جدّي قال لي يوماً
بلهجة ساخرة:

- ألا أحجل يا رجل وابتع لك فراشاً، أنظّل الدهر
تنام في حضن أمك؟! ١٩

وما كان قد كان». ومرة رأيت الأخت الصغيرة في النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصراً، ولسنا المحتني التفتت إلى الوراء كأنها تخاطب شخصاً لا أراه، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة وألقت عليّ نظرة متفحصة. رباه! لقد داخلني شعور الحسني إذا ضُبطت متلبساً بجريمته. ولم يبق ثمة شك في أن البيت يعرفني، وازدادت يقيناً فيما تلا ذلك من أيام! فما كان يقع عليّ بصر أحدهم حتى يتفحصني باهتمام إلا مولاتي طبعاً! وازدادت اضطراباً.

ورحت أسأل نفسي الحيرى عما يقولون، وعما يظنون، لي منظر حسن خداع، ولعلمهم يظنونني موقفاً مغبوطاً ذا مستقبل باهر! أواه، ما كنت موقفاً كبيراً إلا في تقدير أمي، ولعليّ ندمت عند ذلك على قطع حياتي الجامعية، وعزيت نفسي المحزونة بأنني سأرت يوماً ثروة لا بأس بها! مهما يكن من أمر فلا داعي للخوف من البيت. بل إنني لأشعر بأنه سعادتي المرسوفة. وإنني لأحبه من مجامع قلبي، أناسه وأثاثه وحجراته وحتى خادمتة. إنني أعيش فيه بروحي، وأجاذب أهله. في الخيال - أشهى الأحاديث، أما حبيبتي فهي ملء القلب والعقل والخيال. وكنت إذا رأيت الغسيل منشوراً على الشرفة تهفو به نسائم الأصائل أرنو إليه بعين محب. حنون، وبصري يتنقل بين ألوانه وأشكاله مشغولاً بأهداب رفاق يطرب لها قلبي طرباً قدسياً كأنما يشف آذاني سجع ألحان إلهية! ولكم خاطبت حجرة حبيبتي موصياً إياها بها في اليقظة والنمام، وعندما تحلق بها الأحلام، أو حين تتحدث بنبرات التي لم أسعد بسماها.

ويوماً دفعني الهوى إلى البقاء في الترام حتى أوصل حبيبتي إلى مدرستها. واضطربت خوفاً وقلقاً من جراء المخاطرة التي نشبت فيها، وبلغ الترام العتبة الخضراء وعيناي لا تفارقان مقصورة السيدات لأرى أين تنزل حبيبتي. ودار الترام بنا مخترقاً شوارع كنت أراها لأول مرة حتى عبر جسر أبي العلاء. وفي المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام. وهبطت إلى الطوار وأنا أتبعها عينيّ فرأيتها تتجه إلى الطوار الأيمن بطولها الفارع

ومعطفي الأسود خليقان بأن يذكراها بي. ورفعت عينيّ في خوف شديد فرأيتها تنظر صوبي وإن لم أتمكن لبعده المسافة من تحديد تحديقة عينها، ومع ذلك سرت إلى أطرافي رعدة السرور. وجاء الترام على رغمي، ودفعني الخجل دفعاً إلى ركوبه.

لم يعد لحياتي من غاية إلا المحطة وصاحبة المحطة. قصاراي أن أسترق النظر بعينين خجولتين، وأن أخفضها سرياً إذا رنت إليّ العينان اللتان أحبهما أكثر من الحياة نفسها. ولم تعد فتاتي تجهلني كما جهلني أشهراً أربعة، فأحسّت بلا شك أن فتى يتطلع إليها حيثما تحلّ، وأنه يتعمد ذلك في صبر طويل وإن كان لا يبدي حراكاً. بل ابتسم الحظّ فجعلت أفوز بنظرة كلّ يوم تقريباً. وإن بدا أن الاتفاق وحده هو باعثها، نظرة عابرة تلقى على المكان كله فتصادفني في جانب منه! وفيها عدا ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها. أجل ما عادت تجهلني مهما تجاهلني، وإنه لظفر رانع - بالقياس إلى عجزتي - أن تحسّ وجودي بعد ذلك النضال الصامت الطويل. وثابرت على النظر والصبر وكأني أنتظر أن تحييء الخطوة التالية من ناحيتها هي، أو من ربّ السماوات والأرض...

تلك أيام حلوة سعيدة على خلوها من الأمل. أنفقتها في إحساس عميق بهيج وأحلام لا يحيط بها الخيال، رقت على قلبي في طهر وقداسة. وقد أوصدت دونها باب خلوتي الليلية، ولذتي الشيطانية.

وتبين لي بعد حين أن سرّي المكنون يتسرّب من أعماق صدري على تكتّمي وحرصتي. لا أدري كيف حدث ذلك، ولعلّ الأمر لم يعد أنني أنسى نفسي في لحظات الهيام فتقع العين متي على ما أحرص على كتمانها. وما أدري يوماً إلا والرجلان «المنافسان» يرمقاني بريبة، وكأنها فطنا إلى ظهور منافس جديد. ويوماً مرت بي في موقفي من المحطة خادمة الفتاة فألقت عليّ نظرة ذات معنى ذاب لها قلبي ذوباناً، وساءلت نفسي في خوف وسرور: ترى هل بلغ سرّي البيت نفسه؟! ثم غمغمت في حياة بالغ «افتضحت

والصالحه. ولم يجدَ جديد في حياتي إلا مواظبتي على الصلاة بعد أن كنت أقطع عنها في فترات متباعدة. ولعلَّ هيّان صدري بالحَبِّ هو الذي هيأ لي ذلك الاتصال الطاهر بالله خمس مرّات في اليوم، على أنّ نفسي لم تتخفّف من ألمها القديم، وزادتها الصلاة السَّما، لما يفرط منِّي في ساعات اللذة الجنونيّة التي أختلسها ليليل، فلم يعد يسعني الكفّ عنها، بل زدت استسلامًا لها، دون أن يرحمني الندم يومًا واحدًا، وليس أشقى من أن يقرعك الندم وأنت ذو إيمان. وما من شكّ في أنّ ذلك الصراع المتواصل هو الذي جذبني إلى إنعام النظر في نفسي وحياتي، فهالني أول الأمر ما تسير عليه حياتي من منوال رتيب فاليوم فيها بعام والعام بيوم، ألم ينفض عليّ عام منذ توظفني بالحربيّة دون أن يجدَ جديدًا؟! عمر يمضي في ضيق بالعمل المقضيّ به عليّ، وفي وحشة لا تتبدّد إلا ساعتين: ساعة المحطّة، وساعة الأناس بأمي في بيتنا. وحتّى تلك الأوقات السعيدة لم تخل من تنغيص وألم، فعند حبيبي كان يطاردني طيف أُمّي، وعند أُمّي كان يخيفني طيف حبيبي. وتولّد من ذلك قلق محمّر امتزج في نفسي بما يثنّ بها من ندم فشملي بكآبة لا تريم. وإني إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك الأيام أنحيت باللائمة على نفسي، لا لأنّي لم أجِد سببًا وجيهاً لتعاسي، ولكن لسوء صنيعي المعتاد في تضخيم الأحزان والالام، ولأنّي لم أواجه أمرًا في حياتي بما يستوجهه من حزم وشجاعة. ولذلك لم تدر أُمّي علّة لسهومي الذي كان يقلقها، ولطالما قالت لي بحزن وأسف:

- لماذا تبدو أحيانًا كالخزين؟ لعمرى ماذا ينقصك؟ أردت أن تكون موظفًا فكنت، ومتمكّك الله بعطف جدك الذي يهين لنا عيشًا رغيدًا، وفي خدمتك أم لو استوهبتها حياتها لوهبتك إياها عن طيب خاطر، وبين يديك الشباب والصحة أدامها الله لك. فإذا ينقصك؟

وعجبت كيف تتساءل عمّا ينقصني!.. أجل إنَّها عدت لي نعمًا سابغة، بيد أنّي أجهل فضل تلك

وقدّها الرشيق، ثمّ انعطفت إلى طريق جانبيّ يمتدّ بحذاء القصور المقامة على النيل، وسنحت منها التفاتة وهي تنعطف إلى الورااء فوقع بصرها عليّ وأنا واقف أنظر صومها. ارتجفت أوصالي كأنما مسني تيار كهربائيّ، وتساعد دم الخجل إلى وجهي. وسرعان ما غابت عن ناظريّ فتقدّمت خطوات حتّى أمكنني رؤية الطريق فرأيتها تتعدّد بخطواتها الرشيقه، ثمّ مرقت من باب جانبيّ غير بعيد. ولبثت متردّدًا، وفكرت في العودة إلى الوزارة التي تأخرت عن ميعادها بغير اعتذار، ولكن أبّت نفسي أن تنتهي المخاطرة بلا نتيجة. وتقدّمت نحو المدرسة بقلب هيّاب، ثمّ مررت بها متعجّلًا، ولكنّي قرأت اللافتة «معهد التربية العالي للبنات»، ورجعت إلى المحطّة وركبت الترام العائد وأنا أتساءل عن معنى ما قرأت. وعلمت ما فاتني علمه في إدارة المخازن فأخبرني موظّف أنّه معهد لتخريج المعلّمت لمدارس البنات الابتدائيّة، وأتمنّ يدخلنه بعد البكالوريا. وداخلني زهو لأنّ حبيبي ستصير أستاذة، ولكن لم يغب عني الفارق الكبير بيننا في الثقافة، فلعلت نفسي الخائرة التي حملتني على الفرار من الجامعة! وساورني خوف وكآبة. ثمّ لجأت إلى المجلّة مشيري القديم فأرسلت إليها هذا السؤال: «هل يمكن أن تحبّ فتاة مثقّفة ثقافة عالية شابًا من حملة البكالوريا؟». فذكرت المجلّة في جوابها الأميرة التي أحبّت الراعي!...

وحلمت تلك الليلة بحبيبي، فكانت أول زورة في المنام...

تركزت أحلامي في أمرين، أن أتمتّع بدخل حسن - وهو آتٍ يومًا ما - وأن أظفر بعروسي. لم أكن ممن يشقيهم الطموح، وإذا كان لي منه شيء فيما مضى من أيام الأحلام، فقد فُبر في إدارة المخازن بوزارة الحربيّة حيث تعدّد علاوة نصف جنينه من الآمال البعيدة. أجل لم تشب بي الهمة في الطموح، ولكن هفت نفسي إلى السعادة والطمأنينة، إلى المعيشة الطيبة والزوجة المحبّة

- إتهنّ لا يرمن سعادتك ولكتهنّ يردنك مطيّة
لسعادة بناهنّ!
لم أفهم لقولها معنى، وقرأت في عينيها أنّها ترجو أن
أفصح عن عدم اكترائي للأمر، ولكنني تشجعت
ولازمت الصمت، فقالت بلهجة تشي بالفلق:
- الزواج سنّه، ولا يجوز أن يتزوَّج الشخص قبل
أن تكتمل رجولته.

فتساءلت في امتعاض: إذا لم تكتمل رجولتي في
السادسة والعشرين فمتى تكتمل إذن؟ ووددت لو
أصرّح بأفكاري ولكنّ شجاعتني لم تسعفني فواصلت
الصمت. وتفرّست في وجهي ملياً ثمّ استطرقت قائلة
بجزع:

- إني أريد لك عروساً جديرة بك حقاً. يبهر حسنها
الأعين، وتطري أخلاقها الألسن، من أسرة كريمة ذات
محدد، فتهمّني لك قصرًا شامخًا!
فسألته وأنا أداري غيظي:

- وأين توجد مثل هذه العروس؟!

فقالت وهي تعضّ شفقتها:

- ستوجد حين يأذن الله!

وقلت لنفسي هذا تعجيز بلا ريب. واحتدم الغيظ
بصدري وتراءى لي وجهها في حالة الغضب والثورة،
فقلت لنفسي ساخطًا:
- إنّ أمي إذا احتذت توارى جمالها ونضبت سياحة
وجهها.

الزواج! الزواج! لم يعد لي فكرة سواه، ولم أجد
لحياتي معنى إلا أن تتمّ به. إذا لم تنزوّج فلماذا إذن
نحيا، بل لماذا وجدنا في الحياة؟ إني أحنّ إليه حنينًا
موجعًا تندى له الضلوع فتسحّ أشواقًا: إنه جنة المبتلي
بنار الجحيم. ولست أكفّ لحظة عن تحمّله في أحلام
اليقظة الشاردة التي تغيب بي عن الوجود. إني أراني
لصق حبيتي وعلى وجهها الأنيق نقاب الحرير المطرّز
بالفلّ، والشمع يزهر من حولنا. وأراني أمضي بها إلى
مسكن في آخر القاهرة ولا أدري لماذا أحبّ أن يكون

النعم، وكانت لي بمثابة الهواء الذي نعم به في كلّ
لحظة من لحظات حياتنا دون أن يختر لنا أن نشكر
عليه. ولكنّي لا أنفك عن التفكير فيما ينقصني فيعميني
ما أتطلّع إليه عمّا أنعم به. إني شخص لم يقدر له أن
يعرف شيئًا عن حكمة الحياة، فلم يخرج قطّ عن دائرة
نفسه الضيقة، وفي ذلك سرّ دائي، هو الذي حال
بيني وبين مسرّات الحياة، وما فيها من فضائل ومعاني
وصداقات، وطوى صدري على النفور من الناس
والخوف منهم، بل جعلني أعدّ الدنيا عدوًا يتربّص
بي. ولعلّه لم يكن يرضيني إلا أن تخلي الدنيا نفسها من
همومها لتكرّس حياتها لسعادتي، ولما لم يسعها ذلك
قاطعته في عجز وخوف وناصبته العدا، وانكلمت
في أعماق ذاتي جاهلاً ما يمتلئ صدرها من أناس وآمال
وفضائل، وحتى الحبّ وهو أول إحساس سامٍ ألهمه
وقفت حياه جامدًا خائفًا، أنظر في يأس أن يبادر هو
إليّ...

ثمّ جاء دور أمي ولو متأخرًا، فأخذت أتمرد عليها
وإن لبث تمردني نازًا مكنونة لا يتطير لها شرر. ونشأ
ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرها بزواجي
عاجلاً أو آجلاً. وقد لمست ذلك بنفسني حين حدّثتها
خالتي - في إحدى زياراتها الرسمية - عن رغبتها في
زواجي من ابنتها التي صارت شابّة ناضجة، فرأيت
كيف تلقت الاقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن
تحافظ على ما ينبغي المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من
مودّة أو مجاملة فغادرتنا خالتي مغضبة.

ولسته مرّة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة -
كانت تزورنا في مواسم الكساء - أن تخطب لي عروسًا
لائقة، فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى
انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكًا.

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ، واستنكرته استنكارًا
شديدًا، ولم أجد له تفسيرًا ارتاح إليه. ولم تكن بي
رغبة إلى ابنة خالتي، ولا إلى عروس من عرائس
الدلالة، ولكنّي أنست منها كرهًا لزواجي، فاشفقت
على آمالي، وثارت ثائرتي وبدا لي أنّ قلبها توجّس
خيفة فقالت لي يومًا:

وترددت لحظة ثم استطردت متسائلة:
- ولكن... لماذا تلقي عليّ هذا السؤال؟
وحولت عنها بصري كأنني خفت أن تقرأ ما في
ضميري، وقلت بعدم اكتراث:
- سؤال لا أكثر. أحبّ دائماً أن أعرف ما يجول
بخاطرك.

فتهذج صوتها وهي تقول:
- ليس بخاطري إلا فوق ما تحبّ لنفسك من
السعادة والهناء... ولكن ليس الزواج لهواً ولعباً،
واليك مأساة أمك فهي أكبر دليل على ما أقول. واذكر
دائماً أنّ اختيار الزوجة مهمة شاقّة، وهي من شأن الأمّ
قبل أيّ إنسان آخر، لأنّ هذا ميدان تجارها، وهي
تعرف ابنا أكثر ممّا يعرف نفسه، وتستهدف سعادته
قبل سعادتها هي، كذلك السنّ أمر عظيم الخطورة،
وأنت بعد في حكم الأطفال... لماذا تلقي عليّ هذا
السؤال «وهنا ازداد صوتها تهذجاً»... إليك مأساة
أمك فهي لا ينبغي أن تغيب عن وعيك. كم
تعذبت، وكم تألّمت، وكم كابدت الإهانة تلو الإهانة!
كم بكيت حينئذٍ إلى أطفال الذين عاشوا غرباء عني
ونحن في مدينة واحدة! وحتى أنت كان شبح فراقك
يطاردني ويقصّ مضجعي، ولو أخذوك منّي لقضيت
غماً وكمداً. وكم تمّيت الموت صادقة لأرتاح من
وساوس حياتي المقلقة «خيّل إليّ أنّها تعني حياتها
الراهنة بقولها الأخير» ولذلك كرّست حياتي لرعايتك،
وضحيت بسعادتي في سبيلك، و... «ترددت لحظة
ولعلها همّت بتذكيري بالرجل الذي رفضته من أجلي ثمّ
عدلت». ولا تحسب أنّي أمنّ عليك، فالأمومة تستنكر
المنّ. ليته كان للنبوة بعض ما للأمومة من عطف.
لشدّ ما تنسى... ربّاه لا تؤاخذني، أنا لا أدري ماذا
أقول. ولكن لا تظنّ بأمر الظنون. إنّنا نعطي كلّ
شيء عن طيب خاطر، حتى إذا شبّ السلود عن
الطوق لم يفكر إلا في أن يولينا ظهره ويمجد لنفسه
مهرباً. أقول مرّة أخرى لا تؤاخذني. لست أحسن
ضبط نفسي وأفساه. ولكن لقد عشنا معاً طوال هذا
العمر. وليس لي أمل في هذه الدنيا سواك، فإذا نبذتني

في آخر القاهرة. ثمّ أراها تنتظرنني بالشرفة فأهرع
نحوها وقد انطلقت من قفص إدارة المخازن فتجود لي
سعادة هفهافة يعجزني تصوّرها حتى في الأحلام بيد
أنّي لم أتملّ الأحلام صافية فطالما أعقبت نشوة الفرح
الوهمي كآبة غامضة لا أدرها، ولم يخل خاطري قطّ
من وجه أمي المحبوب فكان ينتابني حياء شديد
يتصبّب له جبيني عرفاً، ويخامرني شعور بالذنب تعافه
النفس. فيتلوّى بوزي اشمتراراً... .

وفضلاً عن هذا كلّه فإنني لم أتخلّص من بعض
هوى للعزوبة نفسها! إنّ حبّ الوحدة داء، إنّه أشبه
بالمخدر تودّ منه فراواً ولا تستطيع عنه فكاًكاً، وتبغضه
لنفسك وأنت تعاني الحنين إليه. أتؤايتني الجرأة حقاً
على نبذ ماضيّ الطويل؟.. إنّ نفسي تهفو إلى البيت
الزوجيّ السعيد حينئذٍ، ثمّ يتملكها الإشفاق على
الوحدة المهادنة والطمانينة المعفاة من المسؤوليات حينئذٍ
آخر. وإنّ الهرب من المسؤوليات داء قديم حتى لأضيق
بحلاقة الذقن أو عقد رباط الرقبة، فكيف أنبري
لحمل تبعات البيت والزوجة والذريّة وما يجرّ ذلك من
حياة اجتماعية متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليد!
إنّي أتخيّل تلك الواجبات فتبرد أطرافني، ولكنّي في
الوقت نفسه لا أكفّ دقيقة عن الحنين إلى الحياة
الزوجية.

بتّ أشعر بأنّي فريسة هين قاتلين: ترددي وأمّي.
ومن يدري فلعلّ أمّي هي الهمّ كلّها. وتجمّعت نفسي
الحيريّ تروم سلاماً تلوذ به، فأجمعت على أن أقابل
الخطر وجهاً لوجه وليكن ما يكون... .
وإني لجالس إلى أمّي ليلة إذ قلت لها بلا سابق
إنذار:

- ألاحظ يا أمّاه أنّك لا ترغيبين في زواجي.
فأنتسعت عينها الخضراوان الجميلتان دهشة،
وقلقت فيها نظرة حائرة، ثمّ قالت بصوت متغيّر:
- إنّي أرغب في سعادتك دائماً، وهذا شغلي
الشاغل. وإذا كنت لم أوافق على ما عرض لي من هذا
الأمر في الماضي فلأني وجدته دون ما أرجوه لك، ولا
شكّ أنّك تدرك هذا تمام الإدراك. ولكن... .

شديد الذبول والهزال لنحوها الطبيعي فتوَجَّع قلبي
توجَّعًا أليماً. ولم أطق أن أراها محرومة من جمالها
وصحَّتها، فأحزنتني منظرها وساءني إهمالها نفسها.
وكانت تعصب رأسها بمندبل فبرزت تحت طرفه
خصلات من شعرها وَخَطَّها المشيب وشعَّتها الإهمال
فضقت صدرًا ونجَّهم لي وجه الدنيا. ويومًا - وكنت
جالسًا إلى جانبها - جرت في تيار شعوري خواطر
غريبة لعلَّ باعثها الخوف والإشفاق، فطرحت على
نفسي هذا السؤال الخطير: كيف تكون الحياة لو خلت
من هذه الأمِّ الحنون؟ واقشعرَ بدني، بيد أنَّ خيالي لم
يمسك عن هذيانه، فتتابع المناظر أمام عيني
واستسلمت لمشاهدها في حزن صامت ثقيل. رأيت
بيتًا مفقراً ورأيتني تائهاً حائراً كمن ضلَّ سبيله في
مفازة، وهذا جدِّي متبرِّمًا ساخطًا يصبُّ جام غضبه
على الخادم العجوز والطاهي. ولمست عجزتي عن
مواصلة هذه الحياة المحشَّة فاقترحت على جدِّي أن
أتزوِّج لنجد من يكفلنا برعايته. ثمَّ رأيت حبيبتني
بقامتها الرشيقة ووقارها المحبوب تتعهد البيت وآله
بعطف سابع وحبٍّ شامل. ثمَّ رأيتنا جميعًا - أنا
وزوجي وجدِّي - واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا.
وانتهبت إلى نفسي في فزع فأحسست بالدمع حائرًا بين
جفني. وعضَّ الندم قلبي، وامتلات نفسي امتعاضًا
وثورة، وغمغمت لنفسي «اللَّهُمَّ غفرانك، اللَّهُمَّ اكتب
لها طول العمر»، ثمَّ هويت على وجهها فقبَّلته بحنان،
وقد طاردتني ذكرى تلك الخيالات كثيرًا حتى تركتُ في
أنارًا عميقة من الألم والحنق. ولازميني همٌّ مقيم حتى
بعد أن برأت وعاودها نشاطها وجمالها. وكدت أعود
إلى ذلك التفكير السقيم في الحياة الذي يقف عند
طرفيها - الميلاد والموت - ويرى ما عدا ذلك هباء في
هباء، وهو ذلك التفكير الذي تأذى بي فيها مضى إلى
محاولة الانتحار لولا أن الله سلَّم.

جاء الصيف، ومعناه - بمقياس القلب - أن حبيبتني
ستنقطع عن الذهاب إلى المعهد فلا تتاح لي رؤيتها إلا

لم أجد لي مأوى. أنتم حياتنا في صغرنا وكبرنا على
السواء، أما نحن فتحبوننا صغارًا وتكرهوننا كبارًا، أو
أنكم تحبوننا حين لا تجدون من تحبونه غيرنا، ماذا
قلت؟... أستغفر الله... سامحني يا كامل، إنِّي
مضطربة، لست أحسن الحديث على الإطلاق...

وعجبت كيف انحدر بها الحديث ذاك المنحدر
الصعب. بدأ الكلام مقبولًا ثمَّ تشنَّج. وحاولت أن
أحول دون استرسالها فلم تجِد محاولتي، فاضطرت أن
أتمجَّعه على ما أثار من ألم وحزن، وتبادلنا نظرة طويلة،
دلَّت على العتاب من ناحيتي، وعلى الذهول من
ناحيتها. لم تكن في كامل وعيها وأسفاه. وقلت
بأسى:

- أهذا جزء من يسأل سؤالاً بريئاً؟!

فاغرورقت عيناها، وقالت وهي خافضة العينين:

- أنا لا أحسن الحديث أحيانًا ويحسن بي أن
أمسك. لا تخش جانبي، وإذا راق لك يومًا أن أغيب
عن وجهك فما عليك إلا أن تومئ إليّ ولن تجد لي
أثرًا...

ووضعت يدي على فمها وصحت بها:

- سامحك الله. حسبنا كلامًا. لقد أخطأت بسؤالي

البريء خطأ كبيرًا!

ثمَّ تظاهرتُ بعدم الاكتراث، بل ضحكتُ طويلًا،
وكأنَّ ما كان لم يكن، وراح قلبي وحده يجترُّ آلامه.
أثر في كلامها حتى هزَّني هزًّا عنيفًا فحزنتُ حزناً لم
أشعر بمثله من قبل. وعجبت كيف يغلبها الانفعال
على نفسها فتلقي في وجهي بتلك الاتهامات الجارحة.
ولم أنحلَّ من سخط عليها لا لأنَّها اتهمتني بالباطل -
فذاك نثار غضبٍ وقتي لا قيمة له - ولكن لأنَّها قابلت
رغباتي الكامنة بثورة تجاوزت حدود الحكمة! وتماديت
في سخطي فقلت إنَّها ذكرت نفسها أكثر ممَّا ينبغي
ونسيتي أكثر ممَّا ينبغي... واستسلمتُ كالعهد بي
لداعي أنانيتي فرميتها بالأنانية..

وعقب حديثنا الغريب بيومين أصابتها وعكة مرض
ألزمتها الفراش فلم أفارقها أثناء مرضها إلا في أوقات
العمل. ومع أنَّ الحالة كانت خفيفة إلا أنَّ وجهها بدا

في الشرفة أو النافذة. إنها تعرفني الآن حق المعرفة كما يعرفني البيت جميعاً، ذلك الفتى الذي يتطلع إليها دوماً، ويرنو صوبها بعينين يتجلى فيهما الإعجاب والحب، ويثابر على ذلك في صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدي حراكاً، والأعجب من هذا كله أنني كنت أضبط عينها في لفتات عارضة وهما ترنوان إليّ فأجنّ جنوناً. ولإني أكاد أسمعها تتساءل عما أريد، بل أسمعهم جميعاً يتساءلون، وهذا يسعدني ويشقيني معاً، والحق أنني أحبك يا حبيبي، أحبك بكل قوة نفسي، فإذا سألت بعد لماذا لا أبدي حراكاً؟ أحببتك بأنني لم أدر كيف أبدي حراكاً في حياتي، وورائي أم، وحظ محدود، فكيف يمكن تذليل هذه الصعاب؟... خبّرني يا حبيبي أطر إليك بغير جناحين!

وكان يوم غريب في حياتي...

وبدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلع العشق. ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعني أحاسيس السعادة والشقاء شأني كل صباح، وراح الموظفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة، فقال أحدهم وكان يليني في مجلسه: - سكرت أمس حتى تارجحت بي الكرة الأرضية! وثار اهتمامي فجأة وحضرتني أبي بصورته وذكرياته. ترك في قوله أثراً لم يدركه أحد ممن يجلسون حولي، ولا عجب فالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وفزرت مصائرها، والتفت نحو الموظف ونذرتني هذا السؤال همساً بلا وعي تقريباً:

- لماذا تشرب حضرتك الخمر؟

ثم أدركت في التوتّر عيني وخطئي فعلاني الارتباك والحياء. ولم أكن خاطبت أحداً في الإدارة منذ التحاقني بالخدمة في غير شئون العمل حتى أطلقوا عليّ «غاندي» لما عُرف عن الزعيم من أنه ينذر يوماً في الأسبوع للصمت. وفرح الرجل بتطفلي عليه وقال بصوت مرتفع وهو يوميء إليّ:

- أخيراً تكلم!

وسأله أحدهم وهم يصوّبون أنظارهم نحوي:

- من؟

- غاندي.

- وماذا قال؟

فقال الرجل ضاحكاً:

- يسألني لماذا أشرب الخمر!

فقال آخر:

- سكت دهرًا ونطق كفرةً!!

وفهقوا ضاحكين، بينما ذهبت في مقعدي صامتاً، وراح أكثرهم يحدّثني عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان. ندمت على ما بدر مني مما وضعني موضع سخريه ومزاح. وتفكّرت في الأمر طويلاً، ثم أفقت إلى نفسي فوجدتها - لدهشتي - تتلهّف على تجربة الخمر!! ولشدّ ما عجبت فيما أعقب ذلك من أيام لتلك اللفهة الغريبة بعد ستة وعشرين عاماً، قطعتها فيما يشبه النسك إذا استثنيت اللذة السريّة التي جرّعتني مرارة الذنب والندم. هل نشبت تلك الرغبة في نفسي فجأة؟ إن ظاهر الأمر يدلّ على أنّ ذلك الحديث الذي دار بين الموظّفين كان الباعث على تلك اللفهة، ولكن هل يعقل أن يهوي إنسان مستقيم مثلي لعارض تافه كذلك العارض؟! لقد ركبتني جنون، فتمنيت أن ينقضي النهار سريعاً لأقرع باب اللذات الموصد، ولأحطم الأغلال التي أذعنت لها طوال عمري، وقلت لنفسي وكأنّ الذي يتحدّث شخص غريب: «سأجرب الليلة الخمر والنساء!» وأراحتي التصميم لأنّه خير من القلق والتردد، ولأني متيت نفسي بأن أجد وراءه متنفساً للضغط الشديد الذي يؤودني، ولم أعرف التردد - ذلك الرفيق البغيض - طوال يومي، فعند الأصيل كان الترام يحملني إلى العتبة، ووقفت في الميدان حائراً لا أدري أين توجد الحانات! ثم رأيت عربة فناديت الحوذني وركبت ثم قلت له بصوت منخفض في حياء شديد:

- حانة... آية حانة من فضلك!

فحدجني الرجل بنظرة غريبة ثم قال وهو يلهب

ظهر الجوادين بسوطة:

- سأذهب إلى شارع ألفي بك وهناك تختار الحانة

التي تعجبك!

كونياك... جعة... نبيذ؟!
فسألته في ارتباك أشد:
- أيها أفضل؟
- هذا يتعلّق برغبتك، ولكنّ الجوّ حارّ فالجعة
شراب مفضّل.

وخرجت من حيرتي وطلبت جعة، وغاب دقائق ثمّ
عاد بقدح يفور ووضعه أمامي، وقبل أن يبتعد سألته:
- كم قدحًا من هذه يُسكر؟
فنظر صوبي كما نظر الخوذي من قبل وقال:
- تختلف النسبة تبعًا للناس، ولكن إذا كنت مبتدئًا
يجسّن آلاّ تجاوز القدح الثالث.

فقبضت على القدح فوجدته باردًا لطيفًا، وأدנית
منه أنفي فشممت رائحة حمضية لم أرتح لها، ولكن
فات وقت التردّد، وقربت وجهي وأدليت لساني،
ولعقت من رغوتها لعقة في خوف وحذر. واشتدّ توتّر
أعصابي فرفعت القدح إلى فمي وأفرغت ما فيه دفعة
واحدة في تقرّز كأنما أتجرّع شربة. وأنعشتني برودته،
وشعرت به في بطني يتلوى نائفًا حرارة غريبة.
وانتظرت ذاك الأثر السحريّ الذي سمعت عنه
الكثير. وفي تلك اللحظة جاءت لمة من الأجناب
يرطنون ويتضحكون وتحلّقوا مائدة كبيرة، فداخلي
شعور بالضيق، بيد أنهم لم يلتفتوا نحوني على
الإطلاق، فسكن روعي، وعاد شعوري إلى الحرارة
الطيّبة التي تنتشر في بطني. وحمل الدم المتصاعد إلى
الرأس نفحة من هذه الحرارة إلى المخّ فتمطى كما
يتمطى المستيقظ لدى تلقّيه أوّل شعاع من الشمس،
ونفض عنه القلق والحذر، فأحسست ارتياحًا عامًّا
لذيذًا، وانبسطت أسارير وجهي... وما لبثت أن
طلبت قدحًا آخر بشجاعة لم أعدها في نفسي من
قبل، وما كاد النويّ يضعه أمامي حتّى رفعته إلى فمي
ونجّرعته على دفعتين. وانتظرت في ارتياح شامل
وإحساس مركّز في باطني، وسرى في جسمي سرور
عجيب أغمضت له جفني استسلامًا، سرور دار مع
دمي، ورقص في نحّي، باعثًا لذّة هي الجنون نفسه،
حتّى وجدتني مخلوقًا أثريًّا طليقًا من متاعب عقله وقلبه

وانطلقت العربة فدترتني بالخانطور القديم وأيامه
الحوالي. وكان بحافظتي عشرون جنيهاً غير «الفكّة»
لأنّ مرتبي وإن كان صغيرًا في ذاته إلاّ أنّه كان يُترك لي
كلّه فكفاني وزاد عن كفايتي. ولما شعرت بأنّ العربة
تقترب من الهدف الذي تلهفت عليه اليوم كلّه دقّ
قلبي بعنف واعتراني اضطراب شغلني عن رؤية
الشوارع التي تخترقها العربة. ووقفت العربة عند رأس
طريق طويل يتوسّطه صفّ طويل من السيّارات
والعربات. وقال الخوذي وهو يلوّح بسوطه:
- إليك الحانات على الجانبين...

وغادرت العربة بعد أن نقدته الأجرة فوجدت
نفسي حيال حانة صغيرة لا تزيد في الحجم على حجرة
كبيرة وقد وقف التُدلّ بابها لأنّه لم يكن أمّها أحد
بعد، وانتابني التردّد لأوّل مرّة ففكرت في أن أعود من
حيث أتيت. ووقفت متحيرًا ثمّ تولّاني الشعور الذي
ملكني يوم اندفعت إلى سور جسر الملك الصالح
لأرمي بنفسي إلى النيل فانطلقت صوب الحانة
ودخلت. وتبيّن لي أنّه يوجد في نهايتها مدخل إلى
حديقة صغيرة في حجم المكان الخارجيّ في وسطها
نافورة، وتطلّها عريشة عنب، وفي جنباتها الموائد،
فوجدتها آمن للمختلس، وانتقلت إليها وجلست إلى
إحدى الموائد بعيدًا عن مدخلها. كنت متوتّر
الأعصاب ولكن لم أعد أفكر في الهرب، وجاءني نويّ
في سرّوأل أسود وسترة بيضاء فابتسم في أدب ووقف
منتظرًا أمرّي. فقلت بصوت مهموس والدم يتصاعد
إلى وجهي:

- حمزًا!

فلم يبد عليه أنّه فهم شيئًا، وتساءل في نبرات
كرنين النحاس:

- ويسكي؟... كونياك؟... جعة؟...
نبيذ؟...

وتولّتني حيرة الجاهل، فقلت بارتباك:

- أريد حمزًا...

فابتسم الرجل ابتسامة ألتني وتساءل:

- أيّ نوع منها تريد؟... ويسكي...

فسألني الشاب:
- أين هي؟... وأنا كفيلاً بإحضارها...
فقلت:
- البيت أمام المحطة!
فسألني مبتسماً:
- آية محطة؟
فتفكرت قليلاً حتى عثرت على شاهد للمحطة
فقلت:

- المحطة أمام المرحاض العمومي!
فضحكوا جميعاً، وانهلوا عليّ قفئاً وتنكيتاً،
وشاركهم ضحكهم بغير مبالاة، ثم آثرت أن أغادر
المكان، فدعوت النادل ونقدته الثمن وحييت رفقاء
السكر، وذهبت وقفشاتهم تواصل توديعي بلا رحمة،
كنت أترنح، فقصدت عربة في الموقف، وتوسّطت
مقعدها في خيلاء، وقلت للحوذيّ بصوت مرتفع:

- إلى بؤر الفساد!
وتحرّكت العربة وسرعان ما ارتحمت إلى سيرها
الواني، وجعلت أنظر إلى الطريق في لذة وبهجة، حتى
وددت أن يطول المسير إلى غير نهاية، وأدرت آني
مقبل على تجربة جديدة لا تقلّ خطورة عن الأخرى،
فساورني بعض القلق، ثم غلبتني اللهفة. ووقفت
العربة في شارع معربد، ولوح الحوذيّ بسوطه وهو
يقول ضاحكاً:

- هنا الفساد الأصلي...
وسألته بعد تردّد:
- ألدبك فكرة عن الأسعار؟
فقال مقهقهاً:
- أغلى مرّة بريال!

وألني التعبير على رغم سكري، وغادرت العربة
فوجدتني في دنيا تتوهج بالأنوار كالصواريخ، وتزدحم
بالسكارى والعابثين، وتختلط بها أصوات الضحك
بالشتم والصراخ، وتنبعث من جنباتها دقات الدفوف
وأنغام مبتذلة من كان مسلول أو بيان محشرح. وقد
سطع أنفي شذا بخور طيب. ولم أجد من نفسي الجرأة
على التخبّط وسط الجموع المعرّبة، فعزّجت إلى أقرب

وحياته. وداخلي إحساس لا عهد لي به بالثقة
والعظمة فرفعت رأسي عاليًا في سلطنة وأنا أعجب
للنشوة السحرية التي لم يدر بخلدي قطّ أنّها توجد في
هذه الدنيا. ثمّ فركت يديّ في سرور ومددت ساقيّ لا
أبالي أين تقعان... وبغته تخاليلت لعينيّ صورة حبيبي
بقامتها الهيفاء ونظرتها المستقيمة المحتشمة فأترع قلبي
حنانًا وشوقًا وهزّنتي نشوة فوق نشوة الخمر. ما أطفك
يا حبيبي! إيّ أدرك الآن سرّ نشوة الخمر. إنّه الحبّ.
الحبّ ونشوة الخمر من عصير واحد يقطر من صميم
الروح، وهل الحبّ الموقّ إلّا سكرة طويلة؟! فإن
فاتني الحبّ بين يديك فلن يفوتني في الخمر! لماذا
أخاف دائئًا؟ إلّا أنّ المخاوف جميعًا لأوهام، وإلّا فما لها
اختفت من أفقي في غمضة عين؟! لقد تكشّف لي
وجه الحكمة ولن أتردّد بعد اليوم، سأومئ لحبيبي إذا
وقعت عليها عيناى أو ألوح لها بيدي. ستعقد الدهشة
لسانها ويجمّر منها الخدان! ويحيء دورها في الخجل،
دقة بدقة والبادئ أظلم. وسوف تتساءل في استغراب
هل تحرك أخيرًا، أجل يا حبيبي، تحرك، ولن يوقفه
شيء، ورأيت عند ذلك النادل يحوم حواليّ فطلبت
القدح الثالث ثمّ ألحقته بصاحبيه. وعدت إلى خيال
حبيبي بجسم كلّه قلوب، وما به من عقل. وقلت
بصوت مهموس وكأني أعظ جليسا غير منظور «إذا
أحببت فبُحّ بحبك إلى حبيبي وليكن ما يكون» ثمّ
ذكرت أمي، ولكن دون خوف هذه المرّة، لم أشكّ في
أنّها ستحبّ حبيبي إذا رأتها، وستذهب مخاوفي القديمة
إلى غير رجعة، أمّا جدّي فما أحراه إذا علم بالنبا
السعيد أن يقهقه ضاحكًا، وهنا ضحكت بصوت
مسموع لفت إليّ الحاضرين. وألقيت نظرة على ما
حولي فرأيت الحديقة اكتظّت بالوافدين... وقد
تضاحك الأقربون، ولكنّي لم أرتبك، بل ابتسمت
إليهم وقلت بجسارة غريبة «اضحكوا!» فضحكوا،
وتساءل أحدهم مبتسماً:
- هل من أمر آخر؟
وكنت من السكر في غاية فقلت بلسان ملعتم:
- هاتوا لي حبيبي!

«تأخّرت كثيراً» ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتى خذلتني قدماي فارتميت على المقعد، واستجمعت قواي ونهضت، ولكنّي ترتّحت في موقفني وكذبت أهوي إلى الأرض لولا أن أمسكتُ بعمود السرير. وانزلت أُمّي من فراشها وأقبلت نحوي متسعة العينين دهشة وفرغاً، وتفوّست في وجهي قليلاً دون أن تنبس بكلمة، ثمّ أجلسني على المقعد وراحت تنزع عنيّ ملابسني، ثمّ أنامتني على فراشي، فما مسّ جانبي الخشبيّة حتى سارع إليّ النوم. وخيل إليّ، أو حلمت، أنّ أُمّي تتحبب...

٢٣

استيقظت مبكراً على غير ما كان يُتوقّع. وتذكّرت الأمس كلّ في ثوانٍ. والتفت برأسي في خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصري في طريقه بأُمّي وهي تصلّي. والتهب وجهي حياءً، وغادرت الفراش في عجلة ومضيت إلى الحمام في حيرة بالغة. ورجعت إلى الحجر فوجدتها منتظرة، تحاول أن تبدو هادئة لولا أن خانتها عينها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب، وتحمّيت نظراتها، وحبيبتها تحية الصباح بصوت لا يكاد يُسمع، فتهدّدت بصوت مسموع، واقتربت منّي، ووضعت يدها على كتفي وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء:

- دعوت لك بعد صلاتي طويلاً والله سمع مجيب. ليس لدينا متسع من الوقت فأصغِر إليّ يا كامل بقلبك قبل أذنيك. فات ما فات. ما كنت أتصوّر ذلك على الإطلاق، ولكنّ أوساط الموظفين أوساط غواية وفساد. إنّها زلّة شيطان فُتّب إلى الله عنها. هل من حاجة إلى تذكرك بمأساة أبيك وأنت من شهودها وأمّك من ضحاياها؟! ولكنّ قلبي مطمئنّ رغم ما حصل، لأنّك مؤمن تخاف الله ولأنّك ابن أمّك لا ابن أبيك، وخليق بمن يصليّ بين يدي الله خمس مرّات في اليوم مثلك أن يحرص على المثول بين يديه نقيّاً طاهرّاً. لا تنس أنّ هفوة الأمس شرّ كبير، وأنها ستظلّ سكيناً تقطّع قلبي. لم يعد في وسعي وأسفاها أن أستبقيك إلى جانبي، فإذا

باب ودخلت، وجدت نفسي عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة، وعلى محيط دائرته صفت الأرائك والكراسيّ يحتلّها رجال ونساء، وفرشت أرضه برمل أصفر فاقع، وراحت ترقص عليه امرأة نصف عارية، وكأنّ الجسارة التي خلقتها الخمر قد طارت فتسمّرت في مكاني لا أجازه ولم أدر ما أنا فاعل. ثمّ ثبتت عيناي على الراقصة في دهشة لأنيّ كنت أشاهد الرقص أوّل مرّة، ألقىت على الجسد اللتوي، الشبه العاري نظرة اشمئزاز وخوف، وأزعجتني حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح، وانفرجت شفتاها عن أسنان ذهبية فكانت بعرائس الحلوى أشبه. وفجأة لاح أمامي رجل ذو جلباب مقلّم زاهي الألوان تنطق قساوته بالدمامة والدناءة ودعائي للجلوس، فتراجعت مبتعداً عنه فاصطدمت بشخص ورائي. فدرت على أعقابي لأتفادى منه فأريت امرأة من جنس الراقصة ولا شكّ حالت بذراعها بيني وبين الذهب. كانت تبتسم ابتسامة كريمة، وتمضغ لادناً مفرقة بأسنانها، فبردت أطرافي، وانقبض قلبي جفولاً، وقرأت في وجهي الخوف والحنجل فأطلقت ضحكة كالصفير، ومدّت يدها بسرعة فخطفت طربوشي، ووضعت على رأسها ومضت صوب باب قريب في خطوات سريعة. وقال لي الرجل وهو ما يزال بموقفه:

- اتبعها بلا تردّد، هذه زوزو المنبهجة، لا مثيل لها ولا في المذبح!

ولم أطق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا السوي على شيء، غير مكترث لفقدان طربوشي، وركبت أوّل عربة صادفتني وقلت للحوذيّ «إلى المنزل». عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهيب الجناح، يمضّي الشعور بالهزيمة والإخفاق والخبية. لم أكن أتصوّر أن يتمخّض الحلم المرموق عن هذه البشاعة الفظيعة. وكانت النشوة الساحرة قد طارت مخلفة وراءها خماراً ثقيلاً باخت له روحي، ولم أدر كيف أيقظت أُمّي وأنا أخلع ملابسني، فجلست في فراشها ونظرت في «المنبه» وهي تغعم متشاببة:

تَلَّيْهَا وتَعَقَّدْهَا وطلَّانْهَا الكاذب وشقائِهَا الدفين فلماذا
إذن أقوم إغراء النشوة الساحرة!؟

ودعني أُمِّي عصر ذلك اليوم إلى زيارة «أم هاشم»
فخرجنا معًا بعد أن انقطعت عن الخروج في صحبتها
أعوامًا، وركبنا عربة، فجلسنا ملتصقين جلسة أعادت
لنفسنا ذكريات «الحنطور» القديم، فخَفَّت رَقَّتْهَا من
قلق النفس المستحوذ عليّ. كانت أُمِّي ترتدي معطفًا
صيفيًّا رقيقًا تقمصه جسمها التحيل في رشاقة لطيفة.
وبدا وجهها المليح هادئًا مستسلمًا وعيناها الخضراوان
صافيتين تلوح فيهما نظرة حاملة يشوبها شيء من
الحزن. وقد تَلَفَع رأسها بخمار أسود أحاط وجهها
بوقار لم يخلُ من أثر للأربعة والخمسين عامًا التي
قطعتها فيما نُسَم لها من حياة. وحنَّ قلبي لها فوددت
لو أستطيع تقبيلها، وتفكَّرت في تقدِّم عمرها نحو
الشيخوخة بأسى عميق، ثم ذكرت الخواطر الخائنة
التي دارت برأسي على فراش مرضها، فعضضت على
شفتي بقسوة وحنق. يا لها من خواطر مقبلة! إنَّها من
صميم الألم الذي ألتمس في الهرب منه أيَّ سبيل،
وهوَّ من وجدي ما كان يخيَّل إليّ من أنَّها سترت عمر
جدي الذي يهدف إلى التسعين.

كبر عليّ في تلك اللحظة عصيانها، بيد أنني شعرت
في أعماق نفسي بأنِّي ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسعني إلاَّ
الإذعان لها. وساءني ذلك وأحزنتني. كيف ألقى أمَّ
هاشم بهذا القلب الخائن وهي التي لا تخفى عليها
خافية؟ كيف انقلبت بين عشية وضحاها من ورع
طيب إلى شيطان مولع بالمعصية!؟ وانتهينا إلى الجامع.
ودخلنا ونحن نقرأ الفائحة، وقصدنا الضريح يتوزَّع
قلبي الحبِّ والإيمان والخوف. ونسَّمت على قلبي
ذكريات الأيام الخوالي حين كنت أنفذ للجامع الطاهر
بقلب سعيد لم يعانِ بعد الشعور بالذنب وعذاب
الضمير. وتقدَّمتني أُمِّي إلى المقام وهي تمس بحرارة:
«جئتك يا أمَّ هاشم بكامل، ليتوب عن هفوته بين
يديك فباركبه وسددي خطاه!». ثم دفعتني نحو باب
المقام فسبطت راحتي عليه، وشعرت ببرودة تسري إلى

خرجت إلى الدنيا فلاقها بقلب التقيِّ المؤمن. ستهذب
اليوم إلى السيِّدة أمَّ هاشم لتقدِّم توبتك على يديها.

لم تلتق عيناها بعينيها ذاك الصباح. ومضيت إلى
الوزارة محزونًا، أستعيد قولها كلمة كلمة، وأنعم فيه
الفكر. هالني افتضاح أمري، وقدرت عنف الصدمة
التي تلقتها أُمِّي البائسة. وذكرت الحبية التي منيت بها
في فناء البيت الغريب، فتلوت شفتاي تقرِّزًا. على أيّ
لم أنس نشوة الخمر. لم أنسها رغم ما أعقبها من خمار
وتعب وفضيحة. ولم ينفذ مقتها إلى قلبي حتَّى بعد
صلاة الصبح التي أدبتها في صدق وإيمان. ولم يكن
ضميري مستريحًا، ومتى كان مستريحًا!؟ ولكنَّ أحلام
النشوة الساحرة هجمت عليّ فاجتاحت في سبيلها
ضميري والآمي وأُمِّي. هي النشوة التي تظَلَّ معاني
السعادة والطرب مغلقة حتَّى تجري في الدم فتفتح
أبوابها السايوية. إنَّها مطلبي. ربَّاه كيف أهجرها
وأتوب عنها؟ وما عسى أن يبقى لي بعدها غير اللهفة
الكظيمة والحسرة القاتلة والقلق الذي يمزق حياتي
إربًا!؟ وحتى لو استسلمت لإغرائها الشيطانيِّ،
فهيئات أن تخلص لي صافية، بل ستضيف إلى
ضميري نزاعًا جديدًا ما كان أغناه عنه، كنت وما
أزال في جذب ودفع متواصلين، بين اقتحام الدنيا
والجفول منها، بين حبيبي وأُمِّي، بين إدمان العادة
الجهنمية ورغبة الإقلاع عنها، فجاءني نزاع جديد بين
الميل إلى الخمر والتوبة عنها زادني رهقًا، حتَّى انقلبتُ
أرجوحة تدفعها الشياطين وتجدبها الملائكة، ولا تكفَّ
عن التأرجح لحظة واحدة. وبلغ بي القلق غايته
فتأوهت متسائلًا في حيرة بالغة: لماذا لم يخلق الله الحياة
نشوة خالصة تدوم جيلًا فجيلًا؟ لماذا لا نفوز بالسعادة
بلا عناء ولا قنوط؟ لماذا يحنق الحبُّ في قلوبنا يأسًا،
والحبيب يغدو ويروح على مرمي قبلة منَّا!؟

ليكن ما يكون، الخمر مفتاح الفرج. هي العزاء
هي كلمة السرِّ التي تفتح لي باب حبيبي الموصد. لا
أريد الدنيا ما دامت تأتي أن تغرَّ ما بنفسها. إنَّ مقبي
للواقع ليس دون مقبي لتلك الراقصة المخيفة. الدنيا
نفسها تتكشَّف لي عن صورة شبيهة بتلك الراقصة في

فحملت في وجهه بفرع، وانعقد لساني، فربت على كتفي وقال بصوت حزين:
- تشجع يا بني من أجل والدتك، وكن رجلاً كما نرجو لك، كان جدك يتوسط مجلسنا كعادته كل صباح بلونابارك، فشعر بضيق في التنفس وطلب قدحاً من الماء، ولم تكذ تمضي لحظات حتى سقط على المائدة فحسبناه أصيب بإغواء، ثم تبين أن السرّ الإلهي قد صعد إلى بارئه . . .

هتفت بصوت مبحوح:

- وأين هو يا سيدي؟

فتمتم الرجل:

- أحضرناه معنا في سيارة.

وما كاد الرجل يتمّ قوله حتى رأيت في أسفل السلم رجلاً أربعة يحملون جدي ويرتقون السلم على مهل وحذر، فسارعت إليهم ذاهلاً، وشاركتهم في حمله وأطرافي ترتعد جميعاً، ثم دخلنا الشقة وهو بين أيدينا، رأيت أمي في نهاية الصالة، وقد نذت عنها صرخة فزعاً، وأقبلت نحونا لا تبالي بالأغراب، وسألتنا بجزع:

- ما له ١؟ ماذا به ١؟

ولكنها لم تسمع جواباً، أو وجدت في الصمت جواباً فصرخت صرخة مدوية، وولولت في توجع «أبي . . . أبي». وأمناه على الفراش، ثم أقبل الرجال عليه يقبلون جبينه واحداً في أثر آخر، وعزوا أمي، وخرجوا من الحجرة صامتين، وسألني بعضهم عما إذا كنت في حاجة إلى شيء فشكرتهم، وتطوّع البك الذي قابلته أولاً فدلتني على الإجراءات المتبعة، وأخبرني بأنه سيقوم بإبلاغ وزارة الحربية؛ وأنه يستحسن أن تشيع الجنائز في العاشرة من صباح الغد. ورجعت إلى حجرة جدي مهرولاً فوجدت أمي تبكي بكاء مرّاً فلم أتمالك أن أجهشت في البكاء، ولكنّها لم تسمح لي بالبقاء في الحجرة، ولكي تشغلني عن الحزن أمرتني أن أبرق بالخبر إلى خالتي وأخي وأن أذهب إلى أختي لأنها بموت جدّها. وغادرت البيت لأداء هذه الواجبات، وعدت إليه مرّة أخرى ومعني أختي راضية

فؤادي، فوقفت صامتاً ملياً، حيال جلال تخشع له القلوب، وخلت الجذث الطاهر يرمقني بعينين متألقتين لم يغيرهما الموت فدعوت بقلبي «أم هاشم» أن تلهمني الصواب وأن تنقذني من حيرتي وشقائي، وأن تتوب عليّ. وتردّدت لحظة ثمّ سألتها أن ترعى حيي التعيس بعين الرحمة!
وغادرتنا المشوى الطاهر وأمّي تحفّف عينيها، ثمّ سألتني:

- هل تبت إلى الله؟

فأجبتها دون أن أحول إليها عيني:

- نعم.

فتمتمت برجاء:

- توبة صادقة إن شاء الله.

٢٤

لم يسعني مقاومة النزوة الجديدة. ولم يغن عني شيئاً لا ضميري ولا توبتي، ولا ما جُبلت عليه من مخافة الله. كنت من حياتي في قنوط، فعملي جدّ بغيض، وحيي حسرة طويلة، وإنّ الأيام لتتمرّ ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل، فتتظر عيناى ويخفق فؤادي، ويوعي إرادتي العجز والخوف، فلم أجد من سلوى إلّا نشوة الخمر وتهالكت عليها! على أنّ ذاك العزاء التعيس لم يخلص لي طويلاً، ولم تمل الأقدار لي في الاستمتاع به، ففي مطلع الحريف من ذلك العام، وفي يوم من أيام الجمع - وكنت جالساً مع أمي نتحدّث كعادتنا - دقّ جرس الشقة، وفتح الخادم الباب ثمّ جاء يدعوني لمقابلة واحد «بك». وذهبت من فوري فوجدت رجلاً مهيباً في الستين أو السبعين، فحيّته بأدب وألفيت عليه نظرة متسائلة، فبادرتني متسائلاً:

- حضرتك كامل أفندي؟

فقلت وأنا أتفرّس في وجهه:

- كامل رؤية. هذا بيت الأميرالاي عبد الله بك حسن.

فأخذني من يدي إلى الخارج ثمّ مال نحوي قائلاً:

- لكم طول البقاء، لقد توفّي جدك يا بني . . .

وزوجها. ووجدت في الشاب خير عون في القيام بالإجراءات المتبعة، أو بالأحرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن أأزيمه دون وعي. وما كاد يحتم المساء حتى امتلأ البيت بالأهل، فحضرت خالتي وزوجها وأخي مدحت وزوجه وعمي، ولم يتخلف إلا أبي، وقد قال لمدحت وهو يعني إليهِ جدي «البقية في حياتك، أرجو أن تعزي أمك وأحاك وأختك، لأني لا أحضر لا جنازات ولا أعراساً» وكانت أمي أشد الأهل فجيعة وحرناً لأنها لم تفارقه طوال عمرها اللهم إلا ثلاثة أشهر قضتها على مضض في بيت أبي... هكذا مات جدي. وقد تمت بحياة طويلة فلم يعجزه الكبر، ولم يقعه المرض. وفارق الحياة في مجلسه الأثير بالمقهى بين صحبه المخلصين، في سر قل أن يحظى به المحضرون... وكنت لا أزال كلّمها خطر على فكري حنيت الرأس إجلالاً لذكراه، واستمطرت الرحمة والعمو روحه الكبير. كان جدي، وكان أبي، وكان جناح العطف الذي أظلني فنعمت في ظلّه بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة. ولا أنسى أنني اتهمت في الساعات السود التي كدّرت صفو حياتي بأنه أساء تربيتي، أو أنه تركني لأمي تفسد حياتي بتدليلها ولكنني إذ تدبرت الأمر لم يسعني إلا إقامة العذر له، لأني رأيت نور الدنيا وهو يتخطى الستين. وإنه لمن أشق الأمور أن يعرف الإنسان حقيقة جدّه، لأنه غالباً ما يبدو في حالة من التبجيل والقداسة، لأن مؤرخيه من الأهل يكونون عادة ممن يبجلونه ويقدّسونه. فإذا ركنت إلى ما لمستة بنفسي من حياته أمكنني الثناء عليه في غير تحفظ. وطالما كانت صحته وجبه النظام ودقته العسكرية التي لم تبلغ قط الصرامة أو القسوة مثار إعجابي الشديد. وكان حديه علينا لما تهون إلى جانبه مصائب الحياة، وبحسبي أنني لم أعرف مرارة الحياة الحقة حتى ودّعناه إلى مشواه الأخير. ومهما يطل بي العمر فلن تمحي من تخيلتي صورته في أيامه الأخيرة وقد كلّلت الشيخوخة هامته بتاج ناصع البياض وأضفت عليه وقاراً وجمالاً، وأذكت في عينيه الخضراوين بريق دعابة وعطف. فلم أدهش لحزن

رفاقه عليه، وأدركت - إن كان فاتني ذلك - أنه كان من الذين يألّفون ويؤلفون، تلك الهبة الربانية التي حُرمتها وذهبت نفسي حسرة عليها مدى عمري. وقد تقرّر تشييع جنازته في العاشرة صباحاً، ولما حمّ الوداع امتلأت الشرفة بالبائيات وأطلقت المدافع تحية لجدته، ومُحِل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش. وألقيت على جثمانه نظرة الوداع - وهو يخفي في القبر - وأنا أنتحب كالاطفال.

٢٥

قالت لي في حزن بالغ:

- ليس لنا إلا الله.

فقلت وقلبي يستشعر خوفاً لا يدره:

- هو نعم المولى والنصير.

ومضت تتكشّف لي الحقائق، فعلمت أنّ معاش

جدي قد انقطع بوفاته. وأحصيت تركته فوجدت أنه ترك بالمصرف أربعمئة جنيه، ولما كانت أمي وخالتي وريثتي الوحيدتين فقد خصّ الواحدة منها مائتي جنيه صارت كلّ ما لنا عدا ماهيتي الصغيرة! صرت إذن رب أسرة، وقد لفت عمي نظري لهذه الحقيقة وهو يودّعني، فكرّر لي العزاء، ووصاني بأمي قائلاً:

- أكرم أمك ما وسعك، فأنت رب البيت، وأنت خلّف جدك!

وتلقّيت قوله بخوف وتشاؤم، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتعاض، وآلني أن أجد نفسي مسئولاً عن غيري أنا الذي ألفت أن توكل مسئوليتي بغيري! ولما خلا البيت من المعزين ورحل كلّ إلى طبيته، وجلستُ وأمّي منفردين نتبادل الرأي قالت بلهجة أسيفة:

- اللهم عونك.

ورفعت إليها بصري الخائر في خوف وكآبة، سألتها

بإشفاق:

- ماذا ترين يا أمّاه.

فقالَت بأسى:

- لن تمضي الحياة في سر كما عهدناها. هذا أمر الله

واكتئاب، فتقبّض قلبي جفولاً من هذه الحياة السخيفة التي لا معنى لها. ألم أكن أنفق مرتبتي كلّ في الشراب والطعام والعربات؟ ألم أكن مع ذلك شاكياً متبرماً تعيساً؟ ربّاه، كان الماضي عهداً غير منكور النعيم؟ ولكّني لم أفطن إلى نعيمه إلا الآن حيث لم يبق منه إلا ذكريات، إنّي أعمى ما في ذلك من شكّ، تعميني الأحلام الطائشة عمّا بين يديّ، ومن كان مثلي قُضي عليه بالألذوق للسعادة طعمياً في هذه الحياة. تجهم لي وجه الدنيا، وخارت عزيمتي، وامتلأت نفسي تشاؤماً حتى توقعت شراً وراء كلّ خطوة أخطوها. أجل ألا يجوز أن تستغني عني الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل؟... ألا يُحتمل أن يصادفني حادث في الطريق يقضي عليّ بعاهة تقعدني عن السعي من أجل الحياة؟! لماذا وجدنا على الأرض؟ ولعلّ هذه الأفكار السود التي جعلتني أسأل أمي قائلاً:

- ماذا يُنتظر أن أرث عن أبي بعد وفاته؟

ولم ترتج أمي لمجرد أفكارني وقالت باستياء:

- لا تبن آمالك في الحياة على موت إنسان. الأعمار

بيد الله. وإنّي أستحلفك بالله إلا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر.

بيد أنّي استخففت بمخاوفها وألححتُ عليها أن تجيبني على ما سألت، فقالت مدعنةً لإلحاحي:

- لأبيك أوقاف تدرّ عليه أربعين جنيهاً كلّ شهر، غير البيت الذي يسكنه...

وقدّرت بعملية حسابية ما يصيبني من هذا الميراث، فوجدته ستة عشر جنيهاً نصيبني من البيت، إذا أضيفت إلى مرتبتي الصغير صار كبيراً بلا شكّ. واستسلمت للأحلام كالاعتاد، ولكنّها لم تغتفر من الواقع شيئاً. وسألته مرةً أخرى:

- ما عمر أبي؟

وأجابني على كره:

- لا يقلّ عن السبعين.

ترى هل يعمر كجدي مثلاً؟ ماذا يكون حالي لو عمّر طويلاً وحرمني ميراثي عشرة أعوام أو عشرين؟! وتذكّرت ما قيل لي من أنّه انتظر يوماً على مضض

وعلينا أن ندع ونصبر ونشكر، وإنّه ليسوءني أن أكون حملاً ثقيلاً عليك. ولكن ما باليد حيلة.

فقلت بحرارة:

- لا تقولي هذا. أنت كلّ ما تبقى لي في الحياة، ولولاك ما عرفت لنفسي مأوى أوي إليه.

فافتّر ثغرها عن ابتسامة حزينة، ودعت لي طويلاً. ثمّ قالت:

- سيكون ما ورثته من مال قليل رهن إشارتك تستعين به عند الحاجة، حتى يكبر مرتبك!

ولذت بالصمت متفكراً، وعيناها الحزینتان لا تفارقان وجهي، ثمّ استدركتُ بصوت متهدج:

- لم يعد هذا البيت بالمسكن المناسب لنا، فهو كما ترى كبير، وأجرته تعادل مرتبك، ولعلنا نجد شقة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشاً في حيننا هذا...

وساد الصمت مرةً أخرى، ورحت أتساءل عمّا أعاني عن هذا المصير الذي كان متوقّعا من قبل، حتى عادت أمي تقول بصوت منخفض:

- وينبغي أن نستغني عن الخدم، ولن نحتاج في المستقبل إلا لخدم صغير.

يا له من ضيق لا أدري كيف يتحمّله صدري! لست أعلم شيئاً على الإطلاق عن الكفاح الذي يشقى به الناس في سبيل الحياة، فلذلك حدجت أمي بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألته:

- بماذا تقدّرين تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخدام وغيرها؟

وتفكّرت أمي طويلاً، ثمّ قالت بصوت منخفض:

- بما لا يقلّ عن ستة جنيهاً!

ثمّ استدرجت كأنما لتخفّف من وقع كلامها:

- سأرصد مالي لكساننا وللحوائج الضرورية فيما يخرج عن المصروفات اليومية...

ولكّني لم ألقِ بالألّ إلى قولها، ومضيت أفكر فيما يتبقّى لي من مرتبتي بعد تكاليف المعيشة، في الجنينة والنصف، وما ينفق منه على المواصلات، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسي. فكّرت بامتعاض

مأرب.

وتجسّعت هذه الحياة الجديدة قطرة قطرة، وقد أضافت إلى حسرائي القديمة حصرة جديدة، هي حسرتي على العيش الرغيد والشراب خاصّة، وأجمعت على أن أقرّر على نفسي كي تهنيأ لي ولو سكرة واحدة في الشهر، ولا عجب فلم تكن الخمر بالنسبة إليّ هلوأ وعبئاً، ولكن حياة وهمية أفر إلى أحضانها من آلام الواقع البغيض.

ويوماً قالت لي أمي وقد أنست مني استنامة إلى حديثها:

- لعلك لمست الحكمة التي أملت عليّ أن أرفض أيّ زواج لا يليق بك!

وأدركت ما تعني لتوي، فكأنما تقول لي: «ماذا كنت تصنع بحياتك لو كنت رب أسرة!». ولم يداخلي شك في صدق ملاحظتها، ولو كنت رب أسرة لشقيت بالعيش أضعاف الشقاء الراهن، ومع ذلك لم أرتح لقولها، ووقع من نفسي المهيضة موقع الشماتة المريرة، فلفني الحنق والغضب، وكابدت مشقة في كظم عواطفني.

٢٦

وهلّ الخريف. ذلك الفصل الذي أحبته لأنّه البشير بافتتاح المدارس، وستعود حبيبي إلى الملتقى المعهود على طوار المحطة. حبيبي هي الزهرة الوحيدة التي تتفتح في الخريف حين تعرى الأشجار وتذبل الأزهار. ولاحظت أنّ مواعيد خروجها لم تعد منتظمة كما كانت، ترى هل بدأت حبيبي حياتها كأستاذة؟ ولذني ذاك الخاطر فاهترّ عطفائي سروراً. بيد أنني لا يمكن أن أنسى أنّ مجرى حياتي قد تغير، وأنني أروح تحت وقر الفقر والقنوط، فحبيبي ميثوس منها، ولكن ما كان اليأس إلّا ليزيدني هيأماً وولعاً، ويشبّ في قلبي أشواقاً وأحزاناً. ما أسرع أن ينقلب الحبّ اليأس ثورة على الحياة. أليس من الهزء بنا أن نخلق حياة ثمّ يحال بيننا وبينها؟ وزاد من لوعتي أنّه كان يحيل إليّ في

موت أبيه، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع في الجريمة التي قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة! إني أعاني نفس المشاعر التي عاناها قبل ثلاثين عاماً، ولعله لو كان لي بعض قوته لسلكت الطريق الذي سلك!

ثمّ استدعت أمي الطاهي العجوز وأمّ زينب وأخبرتني في استحياء وأمّ بأننا سننتقل إلى بيت شقيقي «أثرت الكذب على الاعتراف بالفقر»، وأتأ مضطرة إلى الاستغناء عنها، وذكرت عهد خدمتها الطويل بالأسف، وأثنت عليهما الثناء الجميل، ودعت لهما بالتوفيق، ثمّ نفتحها بما يستعينان به حتّى يجدا عملاً جديداً. وقد انتحيت المرأة باكية، ودمعت عينا الرجل العجوز ودعا لجلدي بالرحمة والعفو، وقال بصدق وإخلاص:

- وددت يا سيدي لو متّ قبل أن يغلق هذا البيت الكريم أبوابه...

ولم تتمالك أمي نفسها فبكت، وانتقلت العدوى إليّ فبكت، ومرّت بي ساعة سوء كابدت فيها ألماً وخزياً لم أشعر بمثلها من قبل. وانتقلنا قبل ختام الشهر إلى شقة صغيرة في الدور الأوسط من بيت قديم ذي أدوار ثلاثة بشارع القاسم المنفرع من شارع المنيل. وكان البيت يقع في وسط الطريق ما بين شارع المنيل والنيل، أمّا الشقة فتتكوّن من ثلاث حجرات صغيرة فرشناها ببعض أثاثنا القديم، وبعنا بقيته بثمن بخس. وساءلت نفسي في وجوم: هل تستطيع أمي النهوض بأعباء الخدمة المنزلية بعد ذلك العمر الطويل من الراحة والهدوء؟ إنّها تهدف إلى منتصف الحلقة السادسة ولم يعد لها من معين إلّا خادم صغير فكيف تتحمّل هذه الحياة؟ وزادت حياتي تنغيصاً وداخلي سخط شامل على الوجود كلّ. على أنّ أمي أقبلت على العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت في إيهامي بأنّها مسرورة بالحياة الجديدة، وكأنّما كانت تكبت طوال عمرها رغبة حارة في الخدمة والعمل. وقالت لي بارتياح لمسته في نبرات صوتها وابتسامه عينيها:

- إنّ خدمة بيتك في السعادة التي ليس لي وراءها

أواني للخمر من نوع جديد هي الدوارق، فدورق الكونياك بعشرة قروش، وهو ثمن بخس أستطيع معه أن أعاود الحانة مرتين أو أكثر في الشهر. وشربت واستسلمت لشوارد الأحلام في لذة وشوق. وأمدتني المصادفة بزاز جديد للأحلام فأقبل عليّ بائع نصيب ولوح لي بورقة وهو يهتف «ألف جنيه» فمددت يدي وتناولتها منه ونقدته ثمنها، ثم طويتها ودسستها في جيبي. زاد جديد للأحلام يضاهاى نشوة الخمر. رباه! ماذا كانت تكون الدنيا بغير الأحلام! إنني أملك ألف جنيه بلا شريك الأرض ثابتة تحت قدمي لا يززعها الخوف والفقر، والدنيا تبتسم، ولسوف تفهقه ضاحكة إذا انتهى أبي! لا يجوز أن أتردد بعد اليوم، سأقابل الرجل الوقور والد حبيبي وأقول له بصراحة: «إنني أبتغي شرف مصاهرتك!» وأقدم له بطاقتي، ومنذ الذي لا يعرف أسرة لاظ؟! أجل إن الوظيفة صغيرة ولكنني أملك ثروة لا بأس بها وسأرت ثروة أخرى، فلا يسع الرجل إلا أن يتقبلني قبولاً حسناً. ورأيتني أرت وسط الشموع وعروسي تتهادى كالقمر. ولم أطق البقاء بعد أن أفرغت الدورق في جوفي فغادرت الحانة، وهمت في الطرق على وجهي متفرجاً حالماً، مسروراً بنفسي وبالدينا. ولم أكن لأرجع إلى البيت حتى أفيق، ولكنني وجدت نفسي أمام بيت الحبيبة وبالرأس بقية من نشوة فلم أنعطف إلى المنيل. كانت الساعة تقترب من الثانية صباحاً، والطريق مقفراً، والظلمة شديدة شاملة، والصمت عميقاً يكاد لعمقه أن يسمع دبيب الخواطر بالنفس. ووقفت على الطوار متطلماً إلى البيت النائم، واستقرت بصري على نافذة مخدعها، وتسَلَّلت روحي خلالها فخلتني أحسن تردد أنفاسها العطرة. إن إيماني بالروح لا حد له. ألم تجذب رأسها نحوي فيما مضى؟ فيمكنها الآن أن تندس في أحلامها فتراني، بل وأن تسمعني إذا ناجيتها وبادرتها قائلاً:

- «إنني أحبك يا حياتي، أحبك حباً هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء، ولشد ما أتمنى أن أقول لك (أحبك) في يقظتي ولكتي لا أستطيع، إن الخجل أبكم يا حياتي، والفقر سجن شاهق الجدران،

أحيان كثيرة أن عينها ترنوان إلى بنظرة فيها حياة. أبة حياة؟ لست أدري، ولكنها كفاية لبعث الجنون في خيالي، فيمثل بنشوة سحرية لا أفيق منها حتى تصدمني حقيقة مرة من حقائق حياتي. واشتد تطلع أهل البيت نحوي، وبت وكأني أسمعهم يتساءلون: ماذا تريد؟ لماذا تلتهمها بعينيك؟ أي رجل أنت؟ ألم يكفك عام ونصف عام؟! صدقتم والله، والحق معكم، ولكن ما حيلتي أنا؟ ضعوا أنفسكم في مكاني وخبروني ماذا تفعلون! هل لديكم علاج للعجز والفقير؟

ولم يتركني الرجلان المعجبان بفتاتي في راحة، فلم يزالا يجومان حولها، حتى بت أخافها خوفاً العجز والفقير، وأكرهها كرهها للشقاء الذي يضيق عليّ الخناق، مثل هذه الحياة ألد ما فيها الحرب منها! لذلك تلمست السبيل إلى الحانة مهاكلتني الأمر من العناء. ولم يعد شارع الألفي بك بالمرتاب المناسب لحالي، فلجأت إلى حوذني - مشيربي في الدنيا بعد أمي - وطلبت إليه أن يحملي إلى حانة متواضعة، وساقني الرجل إلى سوق الخضرا وكان هو نفسه - كما أخبرني - يرتادها من آن لآن، وقال لي مدلاً على حسن اختياره:

- الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لا تبرز الأموال، والخمر هي الخمر، وخيرها ما أسكر بأبخس الأثمان! وأنصت إلى محاضرتي في خجل أليم تجاوب صداه أسي عميقاً في نفسي، فتهماً لي حيناً أنه يرثي نهايتي ويعزيني عما سلف من زماني. وغادرته متعجبلاً، وسرت صوب حانة صغيرة في مطلع ممّ من الممرات المفضية إلى السوق. وساورني شعور محزن بأنني أنحدر إلى الهاوية التي ابتلعت أبي من قبل، ولكنني لم يكن هذا ولا غيره بمانعي من المقدور، وكانت الحانة صغيرة مرتبة الشكل بها موائد معدودات، تبدو رثة باهتة نادها يوناني عجوز أعمش، ورؤاها من الشعب الأدنى أو بعض الموظفين البائسين. ولكن الخمر هي الخمر كما قال الحوذني. ولا أنكر أنني فرحت بمنظر القوارير على الرف الطويل، وسرت بها سروراً أنساني آلام الضعة التي شديتني ضيق ذات اليد إليها. ورأيت

الكبير ذو السور تلوح وراءه رؤوس الأشجار الضخمة. ورأيت البواب العجوز جالساً أمام الباب وقد طعن في السن حتى صار هيكلاً أسود. وخانتي شجاعتي إذ غدوت منه على بعد خطوتين، فلم أتوقف عن السير، وجاوزته، وقد تملكني شعور اليأس فحدثتني نفسي بالعودة من حيث أتيت. وما جدوى بذل محاولة فاشلة حتّى! ولكنّي لم أمعن في الهرب ولعلّ اليأس نفسه أمّذي بقوة غير منتظرة، فرجعت إلى البواب مستشعراً عزمًا جديدًا، مستنكرًا الخور الذي يباعد بيني وبين بيت لي فيه حقّ غير منكور. حيّيت البواب فردّ تحيّي جالساً، فقلت له بلهجة لم تخل من كبرياء:

- كامل رؤبة لاظ، خبّر البك من فضلك!

ونفض البواب مبتسماً، ودعاني إلى دخول الحديقة، ومضى ليخبر البك. هي الحديقة نفسها، لا تزال تسطع جنباتها بشذا الليمون، تمتلئ سهاؤها برؤوس النخيل، وتسرّب منها إلى النفس كآبة ووحشة. وأرسلت بصري إلى الفراندا في نهاية الحديقة فرأيت البواب يدعوني، فتقدّمت وأنا أطرد عن قلبي شعوراً بعدم الارتباك. وارتقيت السلم، فطالعني المنظر القديم، الرجل والخوان المزركش والقارورة والكأس، مدّ لي يده وعلى فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه، ثم دعاني للجلوس فجلست على مقعد إلى يمين الخوان. وألقيت عليه نظرة سريعة فرأيت الجسم المكتنز وقد ترهل. واشتدّ احتقان الدم بالوجه الممتلئ، وغابت العينان في نظرة ذاهلة، وبان للكبر في صفحة وجهه غضون في الجبين وحول العينين، وذبول الخدين. لم أرتح لمنظره، ولكنّي حرصت على ألا يبدو في وجهي أثر مما في نفسي... ولاحت منّي نظرة إلى القارورة الممتلئة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة، وذكرت كيف تراءت لعيني في الزورة الأولى فقلت لنفسي: لشدّ ما يسارع الفساد للإنسان! وكان يتلفّع بروب حريري وقاية من رطوبة الخريف في تلك الساعة من الأصيل. ولم يداخطني ريب في أنّه مفعم خمرًا حتى قمّته، فساورني القلق، وتساءلت عمّا دهاني من جنون حتى

ولا حقّ لامرئ لا يملك من مرتبه إلاّ جنيهاً ونصفاً أن يبوح بحبه للملاك كريم مثلك، ولكنّي أحبّك بالرغم من هذا كله، ولا أطيق أن تعرضني عن حيي، وأكاد أجنّ حين أرى تطلع الرجلين الثقيلين إليك، فشجّعيني يا حياتي، أشيري إليّ، ابتمسي في وجهي، ما في ذلك من بأس ما دمت محباً صادقاً كما لا بدّ تعلمين، وما دمت عاجزاً ميثوساً منه كما لا بدّ تدركين... آه...» وقفت طويلاً دون أن تتحوّل عيني عن النافذة الموصدة، فثقلت جفوني وداخلي إحساس خفيف بالدوران والتعب من مشقة المشي وخمار الشراب. ثمّ قرع سمعي وقع أقدام ثقيلة فالتفت صوبها في توجّس فرأيت شبح الشرطيّ مقبلاً، فتحوّلت عن موقفني وحشت خطاي.

٢٧

ماذا يحول بيني وبينك؟ الفقرا هكذا كان الجواب، ولم أجازه إلى غيره من الأسباب، لأنّه كان العائق الوحيد الذي لأعدّ عنه مستولاً، أو هذا ما اعتقدته. كيف أحصل على المال إذن؟ وتفكرت مغتماً، ثمّ مال بي الفكر إلى أبي! ذلك الذي تمّنت موته طويلاً ولكن لم يغن عني التمتي شيئاً، فلماذا لا أزوره؟... لماذا لا أستوّهه المال الذي أريد؟. وبدا الخاطر غريباً لا يصدّق، وخاصّة بالقياس إليّ أنا الذي أخافه أكثر من الجميع، ولم أوّمله قطّ، بيد أنّ الجزع كان بلغ منّي منتهاه في تلك الأيام، وجرى الحبّ منّي مجرى الدم، واشتدّ إحساسي بفوات العمر لدرجة تستحقّ الرثاء، فداخطني شعور بأنّي إذا بلغت الثلاثين فقد انتهيت. أمضتني هذه المخاوف، وكانت النظرات الحلوة التي تجود عليّ بها الحبيبة توسعني في أثناء ذلك سعادة وتأنيباً صامتاً. فلم أرُ بدءاً في النهاية من أن أفكر جدّياً في زيارة أبي.

وذهبت دون أن أعلن ما في ضميري لأمي، واهتديت إلى الحلمية مسترشداً بكمساري الترام، ولما بلغت شارع عليّ مبارك ذكرت لتويّ الطريق الذي قطعته مع جدّي منذ تسعة أعوام، وتراءى لعينيّ البيت

التعاسة أن تنجب بنات، هذا عار كبير مهما قالوا إن الزواج نصف الدين!! إلا إذا كان النصف الآخر هو الطلاق!... «ثم غير لهجته»... لماذا لا تطلب يد إحدى بنات عمك؟ ألا تعلم بأن ميراث الواحدة منهن لا يقل عن مائة جنيه كل شهر؟ ولكن دعنا من هذا كله واسمح لي أن أنظر في وجهك قليلاً فإني لا أكاد أعرفك. ما شاء الله، أنت رجل لا ينفصك إلا

الشارب، لماذا لم ترسل شاربك؟... ثم إنك رجل جميل، ولكنك نحيل مهزول كأنك لا تأخذ كفايتك من الطعام؟ عار أن يكون شاب في مثل سنك نحيلًا. ومع ذلك فيا لها من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلاً، خصوصاً إذا كان يراه لأول أو لثاني مرة! ألا ترى أنني أب عجيب؟ لقد أنجبت ثلاثة ولكني وحيد مهجور. ولست ساخطاً على حظي، لأنه من السعادة أن تبقى وحيداً، وما من مرة خلوت بإنسان قط إلا وافترقنا خصمين، وهم يقولون عادة إنني مخطئ، وأنا أقول إنهم لمخطئون، فالله يفصل بيننا يوم القيامة. لا تدهش إذا سمعتني أقتبس من القرآن! فإنما الفضل في ذلك إلى الراديو، ولقد बादتُ بيني وبين الدنيا ولكن الدنيا تأتي إلا أن تقتحم عليّ داري في الراديو. أهلاً أهلاً. أنت ولد بازٍ يا كامل، ولكن ينبغي أن تعتنى بصحتك، وتأخذ كفايتك من الطعام حتى تسمن. لم يترك جدك ثروة؟

كنت جزعاً يائساً لا أدري كيف أطرق الموضوع الذي جئت من أجله في ضوضاء تلك الترتبة التي لا ضابط لها، واشتدّ جزعي ويأسي حين رأيته - في أثناء ترثته - يملأ كأساً جديدة، ولكنني انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك:

- لم يترك جدّي شيئاً على الإطلاق...
فهز رأسه الأصغر كأنه يقول «هذا ما توقعته»
ثم قال:

- مرتّب عال، ذرّيّة قليلة، معاش ضخم، ثم لا يترك شيئاً، كان رحمه الله مقامراً، والمقامر يفضل أن يخسر نقوده على المائدة على أن يكتزها في المصرف، وما هو إلا طفل قد تمكّن من قلبه حبّ اللعب، ولست

قمت بهذه الزيارة التي لا رجاء منها. وجعل ينظر صوبي باهتمام، أو لعلّه حبّ استطلاع، فعجبت لذلك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل، وتساءلت في نفسي في دهشة وعدم تصديق عمّا يقال عن الحبّ بين الآباء والأبناء. ولم أدر بطبيعة الحال كيف أبدأ الحديث، ولكنّه أخذ يتكلّم فأنقذني من حيرتي. وقال بصوت غليظ:

- كيف حالكم؟ مات جدك! كان رجلاً لطيفاً، وأحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان، ولكني لم أشهد جنازته وهو ما لا يفره كثيرون، على أن الإنسان في مثل سني ينبغي أن يعفى من الواجبات، والشيخ والطفل سيان في ذلك، ولا تنس من ناحية أخرى أن جنازتي لا يُنتظر أن يشيعها أحد اللهم إلا عمّ آدم المواب، ولا يبعد أن يُشغل عنها عمّ آدم نفسه بتفتيش جيوب وسرقة ما يظنّه بها من نقود. هل تشيع أنت نعشي؟!

دهني سؤاله بعد قلق استحوذ عليّ بتأثير لهجته الثملة، فأيقنت أن مهمتي ستكون شاقّة مخيفة، ولكنني بادرت قائلاً:

- أطال الله بقاءك!

فقهقه ضاحكاً، ورأيت أنه فقد ضروسه، فسأني منظره وضحكه واستدرك قائلاً:

- يا لك من ولد بازٍ، فجميل جداً أن تحبّ أبك وتدعوه بطول العمر! والبرّ بالأب سجيّة فاضلة لم يكن لي منها نصيب وأسفاه، ولو أوتيت قدرًا من الرياء أو حظًا من الصبر لكنت الآن من أغنياء البلد المعروفين، مثل عمك قاتله الله، ألم تر إليه كيف لم يقنع بما ورث من مال لا تغنيه النار حتى استأثر بأخيك مدحت - ذلك الثور - فزوجه ابنته؟! ولقد ظننته يوماً سيعتق مذهب الطلاق كأبيه ولكنّه يبدو خانعاً كالنساء، وانقلب فلاحاً مزارعاً يشارك القطعان معيشتها، ولعلّه يلجم بثروة عريضة بعد موت عمّه، ولكن خاب فآله، فلزوجه أخوات ستّ كلهنّ مطمع الفحول من عشاق المال والنساء! ولذلك أقول إنّه من

الخمير، ولو أحبّ الناس جميعًا الخمر كما أحبّها، واستهانوا بالمال، لأمكن حلّ مشكلة الدنيا بكلمة واحدة. تصوّر معي بلدًا سعيدًا، يشطرونه شطرين فيشيدون المساكن على اليمين والحانات على اليسار والحكومة في الوسط، ولا يكون للناس من واجب إلا أن يشربوا، هذا بلد يريح ويستريح، ألا تشرب يا بني؟ كلاً. فماذا تعتق من الشرور؟ إن قيمة المرء الحقيقية فيما يعمل من شرّ، هبني متّ غداً ولم أكن سكيرًا، فما عسى أن يقول عني الناس؟ لا شيء! أما وأنا شرّيب فسيقولون حتّماً: «كان شرّيباً سكيراً». بل ولو كنت أتصدّقُ بما لي هذا على الفقراء لما ذكرني أحد بكلمة. الناس ينسون الخير بسرعة ولو كانوا من صنائعه، فالشيء الوحيد الذي يخلّد ذكرك هو الشرّ... ما رأيك في كلامي هذا؟!

ولم أجد من الإجابة مفراً، فقلت:

- يجب أن نخاف الله ونطيعه...

فأمن على قولي بهزة من رأسه المستدير بدت هزلية واستدرك قائلاً:

- صدقت. هذا سرّ الوجود. أما والله لو كان حقاً ما يقولون عن الله فإنّ مصيرنا لأسودا بيد أنني عظيم الثقة والاطمئنان، وما أفقد ثقتي وطمانيتي إلا إذا ساء هضمي، هنالك تبدو الدنيا عابسة كالحة! وذلك لأنّي أومن بأنّ الله لا يعذب عباده. كيف أصدق أنّ إلهاً عظيماً سبحانه يحرق مخلوقاً مثلي لأنه أحبّ الخمر؟ ألا يعجبك كلامي؟ أنت آنستنا. أرى الملل في وجهك. ترى ما الذي دعاك إلى تذكّر أبيك بعد نسيان العمر كلّهُ؟!

ونحق قلبي، ولم أعد أطيق السكوت. ولعلّه لم يكن من الفطنة أن أطرق موضوعي أثر ذاك السؤال، لكنّي قلت في عدم تبصّر:

- أراي في ضيق شديد. وإذا كانت الظروف السيئة قد فرّقت بيننا فإنّك أبي على رغم هذه الظروف السيئة.

وقهقه ضاحكاً فكرهت منظره للمرّة الثانية. ثمّ قال بلهجته الهاذية التي تنزع من سامعه آية ثقة فيما يقول:

لومه لأنّي بدوري شرّيب سكير، والفرق بين المقامر والسكير، أنّ الأوّل عمليّ يضارب ويخادع ويكسب ويخسر، أمّا الآخر فنظريّ يحلم ويحلم ويحلم. إذا طمع المقامر في الثراء قام بثروته في اللعب فيخسرهما على الغالب، ويمتني نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خساراً حتّى إذا مات لم يترك شيئاً، يترك ديناً ثقيلاً، والغريب في الأمر أنّ المقامرين جميعاً يخسرون ولا أدري من يربح إذن! أمّا الشرّيب فإذا طمع في الثراء وجده محضراً بين يديه دون أن يكلفه ذلك أكثر من ثلاثين قرشاً ثمن قارورة كهذه. أتقول إنّ ذلك محض وهم؟! ليكن، وهل ثمة شيء في الدنيا إلا وهو وهم وخيال؟! أين جدّك؟... كان جدّك حقيقة ملموسة فأين هو الآن؟ شمّر للبحث عنه فلن تجد له أثراً. فتش عنه في البيت، وفي المقهى، وفي النادي، بل انظر في القبر نفسه، وهالك رقبتي إن وجدت له أثراً، فكيف يكون حقيقة! رحمه الله! وماذا فعلتم بعده؟ أما زلت طالباً؟!

فقلت وأنا أداري حقّي وجزعي بابتسامة باهتة:

- تعيّنت موظّفاً بوزارة الحربيّة!

فرفع كأسه ضاحكاً وقال:

- نخب مستقبلك! ما شاء الله! أسرّتنا مجيدة ولكن ليس بها من موظّف واحد، فأنت الذي تشقّ طريقها إلى الحكومة!

ولم أمالك أن قلت بضيق:

- لست إلاّ موظّفاً صغيراً، وليس لي مرتّب يذكر! فرمقي بنظرة توجّس من تحت حاجبيه الأشيبين وقال بغير مبالاة:

- لا تجزع، الصغير يكبر حتّماً. قضت حكمة الدنيا بأنّ الصغير يكبر والكبير يصغر... والظاهر أنّ الله خلق ثروة محدودة واحدة، لا يتغيّر مقدارها، ويتغيّر حظّ الناس منها، وإلاّ فلماذا لا يثرى الناس جميعاً؟ فاصبر يا بنيّ ولا تشغل نفسك بالتفكير في المال. التفكير في المال مهلكة كادت توردني في يوم من الأيام، إنّي أعجب لماذا يحبّ الناس المال هذا الحبّ الكبير! لست في حاضري من محبّي المال، أنا لا أحبّ إلاّ

شهريّ مقداره أربعون جنيهاً غير أجرة الطباخ العلويّ، ولكن لا تغيب عنك نفقاتي، إليك الطباخ مثلاً فهو يسلمني عشرين جنيهاً كلّ شهر، وإذا خطر لي أن أراجعه مرّة دوّخ دماغني بحساب طويل لا أفقه عنه شيئاً. وإليك الخمر أيضاً فإنه يلزمني منها زجاجتان في اليوم أو ما يزيد على خمسة عشر جنيهاً في الشهر، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يفي بالضرورات الأخرى كالكساء والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخادم وأجرة العربة التي تجوب بي بعض الشوارع القريبة كلما سئمت طول المكث في البيت. ليس لي من رصيد في المصرف، حتّى إنّي أعالج سوء الهضم بالوصفات البلدية. لا تسألني مالاً يا بتيّ، وإنّي أقول هذا أسفاً علم الله، ولكن لماذا لا تتزوّج كما تزوّج أخوك من غير أن يبذل مليّاً واحداً؟! وإن احترمت نصيحتي فلا تتزوّج على الإطلاق!

وحدجني ببصره الزائغ، فبدا لي فظيماً كريهاً. ثم استخرج علبة سجائره، وأخذ سيجارة وأشعلها وراح يدخنها بتلذذ. وجعل يراقب دخان السيجارة بعينه الحابيتين، فخيّل إليّ أنّه نسيتي. ثم وقع في نفسي أنّه يعدّ بتيّ! وملأني الخنق، ولكتّي بقيت على جمودي، وازددت إحساساً باليأس والحيرة. وساد الصمت مليّاً، ثم التفت نحوي، وألقى عليّ نظرة لا معنى لها، ثم ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة وسألني:

- ألا تدخن؟

- كلاً...

وعدنا إلى الصمت. ألا يجدر بي أن أذهب؟ وتوتّبت للنهوض لولا أن لاح في وجهه ما جعلني أنظر إليه بدهشة وانزعاج. بدا متعباً وتفصّد جبينه عرقاً ودارت عيناه في أنحاء المكان وكأتهما لا تريان شيئاً. ورأيت خدّه الأيمن يتصل بفمه يرتعش ارتعاشة عصبية. ثم دمت عينه اليمنى... آ... توقّعت شيئاً مخيفاً لا أدري كنهه، ولكن لم تطل به تلك الحال، انبسط وجهه وعادت إلى عينيه الحياة الطفيفة التي تبدو فيها: ونظر صوب مرّة أخرى، زابلي الخوف الغامض، وعاودتني أحاسيس اليأس والحيرة

- معك حقّ. الويسكي هذا حكمة غالية، إنّه كاللدينا في مرارته، ولكنّ الحكيم الحكيم من يستطيعه ويألفه كما يستطيع الحكماء الدنيا ويألفونها، ويل لمن يجزعون لمرارته أو يقبون، لن يصبروا إذن مع الحياة. قلت يا بتيّ إنّ معك حقاً. يعجبني والله حسن تمهيدك ولباقتك. تقاطعني مختاراً ثلاثين عاماً أو ما يقارب هذا، لا تؤاخذني على الخطأ لأنّ الحساب لا وزن له عند الشريب فليس حتّى أن يساوي واحد وواحد اثنين، وعسى واحداً يساوي عشرة، قلت إنك تقاطعني عمراً ثمّ تخيئي معتدراً بجملة لطيفة. على أيّ أقبل العذر، ولم لا؟ الحقّ لا آسف على مقاطعة الناس لي. أمّا الضيق الذي تشكو فأمر يهمني جدّاً. فما يضايق ابني يضايقي بالتالي، فماذا تعني يا بتيّ؟

حدّثني نفسي بالذهاب لأني لم أجد في ذلك الهديان فائدة ترجى. بيد أنّي نبذت الفكرة في احتجاج وغضب. وعزّ عليّ أن أنكص على عقبي بعد أن أقدمت على ما أقدمت عليه. واستجمعت قواي، وبذلت فوق ما أحتمل عادة في مقاومة الخجل والارتباك وقلت بصوت منخفض:

- أريد أن أتزوّج!

وعاد الرجل السكران إلى قهقهته الكريهة، ثم قال بدهشة:

- ما بال أسرتنا لا تنجو أبداً من هذا الداء الويل؟! إنّ أختك لم تطق صبراً حتّى أختار لها بعلاً كما ينبغي فهربت مع رجل غريب وتزوّجته. وهذا أخوك ما كاد يشبّ عن الطوق حتّى كان راقداً في حضن عروسه. ولا أبرئ نفسي فقد حاولت أن أكون زوجاً مرّة أخرى وثالثة، أعجّب بها من أسرة! ولعلك تحتاج مالاً ليتمّ لك ما تريد من زواج؟! لا أستبعد هذا فالزواج وإن كان داء كما قلت إلّا أنّنا ننفق عليه أموالاً طائلة، وفي هذا وحده الدليل الناطق على جنون الإنسان! ولعلك جئتني وحملت نفسك ما لا تؤدّ من رؤيتي لتسألني مالاً تزفّ به إلى عروسك... لا أستبعد هذا، ولكن من أين لي بالمال الذي تريد؟ هل «قالوا» لك إنّ غنيّ ميسور؟ لا أنكر أنّي أتمتّع بدخل

خلصت إلى الطريق محطّم النفس والقلب والأمل .
وقطعت الطريق إلى المحطّة وأنا أسبّ والعن وأتميّز
غيظًا وحنقًا: «لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة!» .

ربّاه! . . لو أنّ ألف صفقة أهبت قفائي في ميدان
عموميّ لما أدتني كما أدتني تلك العبارة! وبلغ منّي التأثير
مداه فازدحمت الدموع بعينيّ، واستسلمت للبكاء
مستخفيًا بالظلمة التي تغشى الكون . ليس ثمة فائدة
ترجى منه . موته وحده بيده أن يغيّر وجه حياتي! أجل
لا أمل البتّة إلا في موته . واستقللت الترام وشرودي
المعهود ينقّس عن كرّبي بأحلامه النათية، فرأيت نفسي
جالسًا مع مدحت وشقيقتي راضية نتقاسم ميراث أبي
بعد وفاته! واقترحت عليها أن نبيع البيت الكبير
فوافقاني في الحال وأصبحت في غمضة عين مالكًا لألف
جنيه! ولم يكن في الحلم أثر لأمي! فقابلت والد حبيبي
وفاتحته بشجاعة عن رغبتني في مصاهرته وتمّ كلّ شيء
دون عراقيل! وشعرت بارتياح خفّف من توتر أعصابي
الذي أورثتني تلك الزيارة المخيفة الفاشلة، بيد أنّي
تذكّرت بسرعة كيف أنّ الحلم لم يجعل لأمي وجودًا،
وسرت في بدني رعدة خوف وتقزّر، وتقلّص قلبي
امتعاضًا وندمًا، كيف سمحت لهذا الخاطر الشيطانيّ
بأن يلوّث نفسي مرّة ثانية؟! ولازمي الامتعاض
والغضب طسوال الطريق . وجعلت أردّد في نفسي:
«اللهمّ بارك لي في عمرها»، ولم يغن عنيّ ذلك شيئًا
فعدت إلى البيت موزّع النّفس مشتّت البال، ولم يرتح
لي جانب حتّى طبع على جبينها قبلة طويلة حازة . . .

٢٨

وفي عصر اليوم التالي ذهبت إلى محطّة الترام لأفوز
بدقائق السعادة التي لا يجود اليوم إلا بها . لم يعد لقاء
الصباح بالمتاح إلا فيما ندر، وذلك منذ غدت حبيبي
جالسة في الشرفة تحادث شقيقتها، فوقفت متطلّعًا،
منتظرًا زادي من نظرة عينها الذي يمدّي بماء الحياة،
وانعطف الرأس المحبوب نحوي، ولكنّه ما كاد يراني
حتّى تحوّل عنيّ فيما يشبه الحدّة . ثمّ نهضت قائمة
وغادرت الشرفة . خفضت بصري ذاهلًا وقد خبا

والكراهية . ثمّ تأملت بعين الاستغراب الحقيقة المائلة
أمامي، وهي أنّ هذا الرجل هو أبي الذي أوجدني في
هذه الدنيا ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى مما يتصل
بها، بدت في صور محسوسة؛ فساءني منظرها، وألمني
وأحزنتني . ولبثت هنيهة من الألم في شبه ذهول، ثمّ
تنهدت على غير وعي منّي بصوت مسموع، وتنبّه إليّ
وسألني للمرّة الثانية:

- ألا تدخّن؟

فهزرت رأسي سلبيًا، فقال في تهكم:

- نعم الفتى أنت! لا عيب فيك إلا أنّك ترغب في
الزواج! حدّثني عن زواجك أهو رغبة عامّة؟ أم هو
رغبة خاصّة في بنت من بنات حواء؟ «هنا خفقت قلبي
بعنف وكادت الدموع تسارع إلى عينيّ»، هذا ما يبدو
لي، ترى كيف الحبّ هذه الأيام! لا شكّ أنّه لا يزال
محتفظًا بخطورته وقوّته في خداع البشر! ومع ذلك أكثّر
عليك النصيحة بالألا تتزوّج على الإطلاق . هذه نصيحة
رجل مجرب . الزواج سخرة . تصوّر أنّ امرأة تملكك
ودع ما يقال من أنّك أنت الذي تملكها فهو كذب
سمح، تنك فواك وتسلبك مالك وتستبدّ بحرّيتك ثمّ
تستدرجك لاستعباد روحك وما تملك لرعاية شخصها
وأبنائها . فإذا متّ سعت إلى رجل غيرك قبل أن تحفّ
دموعها، الزواج شيء سخيف لم أحتمله أكثر من ليلة
واحدة!

ترنّح قلبي تحت وقع الطعنة التي نفذت إلى
صميمه، وندت عنيّ على رغمي آهة من الأعياق،
فنظر إليّ في شبه بلاهة . ورمقته بنظرة ناريتة حتّى
حادثتني نفسي بأن أقذفه بالقارورة في وجهه، ولكنّي لم
أكن الرجل الذي ينفذ مثل ذلك الخاطر، وشعرت
بالقهر لعجزني، وبرغبة في البكاء قاومتها ما وسعني
الجهد . وسألني في دهشة:

- هل آلتك يا بنيّ؟

فنهضت قائمًا في حنق وصححت به:

- السلام عليكم . . .

ثمّ ندمت على إفلات هذا السلام منّي في اللحظة
التالية، وغادرت المكان لا ألوي على شيء، ثمّ

يجعلني أصول وأجول في البيت بلا داعٍ حتى إذا اصطدم بأحقر موقف في الدولة انقلب ذلاً وخنوفاً، استسلمت لذلك التفكير الحزين طويلاً حتى بدت لي نفسي قطعة من البشاعة والهوان، إنني شخص لا يستحق أن يعيش، إن أتفه الأعمال يملاني ذعراً وجفولاً، حتى تمنيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كي لا أجد نفسي أبداً مسئولاً عن عمل كبير، ولن أنسى أنني بذلت قصارى جهدي حتى وكّلوا بي في إدارة المخازن الآلة الكاتبة تفادياً لأعمال حقيرة لا تعدو الضرب والجمع والطرح، لست إلا مخلوقاً غريباً شذو على قافلة الحياة الحقّة، ومن أي ذلك أني لا أحفل بشيء في الدنيا إلا نفسي وما يتصل بها من قريب، ومن أي ذلك أيضاً أني لا أقرأ الجرائد على الإطلاق! ولشد ما كانت دهشة زملائي من الموظفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقاً أني أجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلي كثيراً وأنا صامت كظيم، وكأني لست من هذا المجتمع، فلا أدري شيئاً عن آماله وآلامه، قاداته وزعمائه، أحزابه وهيئاته. ولكم طرقت أذني أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار القطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها في نفسي صدى، لا وطن لي ولا مجتمع، لا لأنني أسبق الوطنية ولكن لأنني لم أدركها بعد! ولعلني أشعر أحياناً بأنني أحب الناس جميعاً، الناس كشيء معنوي عام، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس - إذا اتصلت أسبابه بأسبابي - إلا ليثير في نفسي الجفاء والنفور. وحتى إيماني العميق لم يستطع أن يستقلني من هذه الوحشية المخيفة، فضلاً عن أنه أثقل ضميري بالقلق والتأنيب، وأوسعني إحساساً حاداً بالخطيئة من جراء العادة المجنونة التي استبدت بي...

لذلك إذا كان جاء يوم الأحلام انطلقت إلى حانتي الجديدة بسوق الخضرا لا ألوي على شيء، وطلبت الدورق الجهتمى الذي لم يعد لي عزاء سواه...

حماسي وفتري. ما الذي أغضبها؟ ألم تحتلم جمودي؟ هل يقضى عليّ بالحرمان من نظراتها الحلوة؟ هل قررت أن تقابل جمودي بالإعراض والتجاهل؟ وتولاني الحزن والقنوط والخجل. كان موقفي مخجلاً بلا ريب، ثم خطر لي خاطر بردت له أطرافي، وتساءلت في خوف أكون لأحد الرجلين اللذين ينافسان في الإعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد؟ لئن صحّ هذا، فماذا يبقى لي في الحياة؟! خبّرني يا حبيبي بحق شبابك الريان، أهي جفوة عطف خانة الصبر أم إعراض قلب ظفر بمبتغاه في ناحية أخرى؟ لن أنسى بؤس ذلك اليوم، ولا الأيام التي تلتها. اختفت حبيبي من أفق حياتي، وتحامت الظهور بالشرقة حين أكون في المحطة، وفي مرّات التلاقي النادرة في الصباح حرصت ألا يقع بصرها عليّ. رحمت أكل الشرفة والنافذة بعينين جائعتين أضناهما التطلع. وكنت أرى الأم أحياناً وهي ترمقني بنظراتها المتفحصة، والأخ وهو يلقي عليّ نظرة غريبة، والشقيقة الصغرى وهي ترمقني بنظرة اهتمام، أما حبيبي فقد توارت، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية، قشوراً صفراء وعروفاً ذابلة، رباباً ليس هذا بعدم اكتراث، لو كان عدم اكتراث حقاً لما أوجب هذا الحذر كلّه، ولوقع عليّ بصرها كما يقع اتفاقاً على المخلوقات والأشياء بالطريق. إنها تتجشني عامدة قاصدة، إنها غضبي بريمة، ولا شك أن قصة الفتى الذي يبدو محباً قد ملأت البيت. ولا شك أن جموده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام! كيف فاتني أن أقدر حرج حبيبي وحيرتها؟ وتهدت من الأعماق، وتندى جيبني خجلاً، وامتلات سخطاً على حظي التعس، وامتدت السنة سخطي إلى أمي المتوارية وراء كل شيء! وانطويت على كدر كأنما سفت ربح الخمسين غبارها على نفسي، فلم أجد ذاتي هدفاً لسخطي وكدرتي وغضبي، وهي عادة قديمة لي إذا ضاقت بي الدنيا أن أوسع نفسي نقداً وهجاء وكشفاً عن عيوبها ومناقصها، فعدت إلى التنديد بعجزتي المطلق، وخوفي الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى، وذلك الكبرياء الكاذب الذي

الوجه، دقيق القسيات صغيرها، وكان يحلّي أصبعه بخاتم ذي فصّ ماسيّ، ويضع على عينيه نظارة سميكة أحدثت من نظرة عينيه، ويعبث بسلسلة ساعته الذهبية المدلاة من عروة صدرته. سألتني بأدب عمّا أفضّله من المشروبات، ولمّا لم أحر جوابًا طلب شيئًا، ثمّ قال:

- اعذرني عن تطفلي هذا، ولكنك ستقدّر موقفي بلا شكّ إذا علمت بما حداني إلى دعوتك. واسمح لي قبل كلّ شيء أن أقدم لك نفسي. . محمد جودت مدير أعمال بوزارة الأشغال.

ووقعت كلمة «مدير» من نفسي موقعًا مروّعًا، فقلت:

- تشرّفنا يا بك. . . أنا كامل رؤية لآظ موظّف بوزارة الحربية.

وجاء النادل بأقداح الشاي، ولكنّي كنت أفكر في الفرق الكبير الذي يفصل بيننا كموظّفين. هو مدير أعمال، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بإدارة المخازن. ولمحت وراءه مرآة مثبتة في الجدار، ورأيت صورتي معكوسة على صفحتها، فنظرت إلى وجهي المستطيل وعيني الخضراوين، وسرعان ما سرى عني شعور بالارتياح والإعجاب! أمّا صاحبي فقال لي:

- يا أستاذ كامل، إنّي دعوتك لمشاورة أخوية، وأرجو أن تقدّر رغبة رجل مثلي - اعتبره أخاك الأكبر - في التفاهم الصريح. لست بالمتجنّي على أحد، ولكنّي أرجو أن نكون صرحاء!

واصطنعت الدهشة وقلت:

- أرجو أن تفصح يا سيّدي عمّا تريد وستجدني رهن إشارتك. . .

فضحك ضحكة قصيرة خافتة، ثمّ قال بعد تردّد قليل:

- أتفصح عنيّ إذا سألته سؤالًا ليس لي حقّ في توجيهه؟

ربّاه إنّي أتلهّف على ساعه: أجل إنّي أوقن بأنّه لن يحمل لي نبأ سارًا ومع ذلك بدا لي كاشهي المنى. قلت

كنت واقفًا في المحطّة قبيل المغرب، لم آل أن أتطلّع إلى الشرفة والنافذة، ولكنّ حبيبي لم ترق لي منذ جفتني، قاطعتني مقاطعة قاسية، وأضنت حياتي كمدًا، وكان الشتاء في إبانته: وفي الساء سحاب جون انعكس ظلّه الثقيل على الأرض، وهبّت ريح باردة، وقفت ملتفًا في معطفي الأسود، أرفع للبيت المحبوب من آن لآخر بصرا مشوقًا يائسًا، وعلى حين فجأة سمعت صوتًا رقيقًا يقول:

- من فضلك يا أستاذ. . .

فالتفت ورائي بدهشة، ولكنّ دهشتي تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامي أحد الرجلين اللذين اتهمتهما بحبّ حبيبي، ذلك الرجل الوقور الذي يقطن في عمارتها وغمغمت بارتباك:

- أفندم؟

فقال بصوته الهادئ الرقيق، وبلهجة تنمّ على الوقار:

- تسمح ثمّني قليلاً معًا. . .

فتساءلت بحيرة وإن حدس قلبي الخبر:

- لماذا؟

فقال مبتسمًا:

- لديّ أمر أوّد أن أحدثك عنه. . .

فلم أجد مناصًا من أن أقول:

- بكلّ سرور.

فقال وهو يرفع بصره إلى السماء:

- الجوّ بارد جدًّا، فهلّا وافقت على أن نستقلّ الترام

إلى ميدان إسماعيل، وهناك نجلس في مشرب الشاي فأحدثك دقيقتين؟ ألدّيك مانع؟

وركبنا ونزلنا، وجلسنا. حدّثتني نفسي سلفًا

بموضوع الحديث، وداخلني إحساس بالخوف، بيد أنّ

شعوري بأنّ الحديث سيدور حول حبيبي حملني على

الذهاب معه بلا تردّد، بل وبرغبة لا تُقاوم، ولكنّي

تساءلت طويلًا عمّا هو قائل، وعمّا يرمي إليه من وراء

حديثه، وألقيت عليه أوّل نظرة من قريب ونحن

جالسان حول مائدة صغيرة، كان في الأربعين، معروف

مبتسماً في ارتباك:

- بكل سرور يا بك . . .

فارتفق المائدة شابكاً أصابع يديه، وقال:

- لاحظت أنك تبدي اهتماماً خاصاً بشخص ما، ولعلك أدركت من أعني «هنا خفق قلبي خفقة عنيفة» فلا تؤاخذني إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا، هل هناك رغبة أو نية أو صلة؟!

أوشكت أن أظهار بالدهشة، وأعلن تجاهلي، ولكنني عدلت عن ذلك في اللحظة التالية. طالما التقت عينانا في المحطة، وطالما رأيته يراقبني وأنا أتطلع إلى الشرفة، كما رأي أراقبه وهو يسد عينيه لنفس الهدف، فهو يعرف كل شيء، ويعرف أنني أعرف، فما جدوى التجاهل إلا أن يكشف عن كذبي؟ فقلت متكلماً ابتساماً كاذبة:

- حضرتك أخطأت الفهم، فقدرت أنني أبدي اهتماماً بشخص ما على حين أنني أنظر إليه كما أنظر إلى سواه. إنها محض عادة سيئة!

وضحكت متظاهراً بالاستهانة، فابتسم إلي، وقرأت في عينيه عدم التصديق ثم بادرنى قائلاً:

- إنك جتلمان كما قدرت، فأرجو أن تجربني صراحة هل لك بالأنسة علاقة ما؟ إذا أجبتني بالإيجاب شددت على يدك مهنتاً وانصرفت إلى حال سبيلي.

فقلت وقلبي يتقطع ألماً:

- ليس لي بها أية علاقة . . .

فتردد لحظات ثم سأل في حرج غير قليل:

- ألم تفكر في طلب يدها؟

تناوبتني أحاسيس متباينة. شعرت أول الأمر بعذاب لا يوصف، ثم داخلني سرور خفي لأنني أيقنت أن الرجل الذي يخاطبني رعديد مثلي وإلا لشيئ طريقه إلى بيت حبيبتي دون أن يعبا بي، بل أيقنت أنه يخافني، فأرضى ذلك غروري إرضاء خفف عني بعض ألمي. ثم وجدته مدفوعاً إلى الادعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين:

- لو فكرت فيما تقول لما منعتني مانع من طلب يدها

من زمن طويل!

وساد صمت. ومضى يتفرد في وجهي وقد تألقت في عينيه نظرة ارتياح. أي مانع يعني؟ يا للسخرية! إن كل شيء يبدو كحللم غريب، هل حقاً نحن نتكلم عن حبيبتي، وهل حقاً أنني لم أفكر في طلب يدها وليس لي من رغبة في ذلك. رباه ما أشد عذابي! ومثلكني شعور باليأس لم أشعر بمثله طول حياتي الحافلة باليأس. وأخيراً خرج «البك» من صمته قائلاً:

- أكرر المعذرة عن تطفلي. الحق أن نيتي قد صدقت أخيراً على طلب يد الأنسة بعد أن زالت من طريقي أسباب صدتني طويلاً عن التفكير في الزواج، وبدا لي أن أحدثك به حتى لا أضع رجلي في غير موضعها، والآن لا يسعني إلا شكرك.

إنه من فصيلة العجزة - هكذا حدثني قلبي - إلا أنه صادف من هو أعجز منه، فهو سعيد الحظ بلا ريب. فلم يعد لبقائي من مسوغ، فهضمت مستأذناً في الانصراف وأنا أقول:

- مبارك يا سيدي.

فنهض في أدب، وبسط لي راحته، وشد على يدي بامتنان فخلته يشد على عنقي، وشعرت نحو السرور الضاحك في عينيه بحقد ناري، ثم ودعته وغادرت المشرب. وساقنتي قدماي على غير هدى فاستسلمت لها، لأنه لم يكن لي غاية أقصدها، وأخذت نفساً عميقاً وقلت لنفسي: «الحمد لله»، وأعدت القول بصوت مسموع كأنني أهني نفسي! ولعلي كنت أهني نفسي حقاً على اليأس، وأمنيتها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التي لازمتني منذ أشهر طوال، أو منذ سكن الحب قلبي. وقلت لنفسي أيضاً: «إني سعيد، وليس أحق مني بالسرور أحد، انتهت آلامي إلى الأبد!» وخيّل إلي أنني لو ألقيت بنفسي من جسر الملك الصالح - كما كان ينبغي أن أفعل في يوم مضى - لحلقت بدل أن أهوي من شدة السرور ذقت لذة اليأس في سرور هذياني غريب، ومرت بي لحظات جنونية. والآن علمت لماذا توارت عن عيني؟! فأخذت أفيق من نشوتي الجنونية الكاذبة. ثم نشبت في قلبي

العاشرة بقليل فوقف لي عمّ آدم احتراماً، فحيّته ودخلت بلا طلب استئذان، إمّا لأنّي أبيت أن أستأذن في دخول بيت أعمّه بيتي، وإمّا لأنّي تناسيت ذلك في قلقي وغمّي. ومضيت إلى الفراندا وارتقيت السلم متنحنحاً، ولكّني وجدتها خالية، فوقفّت مرتبجاً. وأدركني آدم فدفع باباً يفضي إلى الداخل وسبقني وهو يقول:

- كامل بك حضر.

وتنحّى لي، فاجترت العتبة بقدمين ثابتتين. وجدت نفسي في حجرة كبيرة مستطيلة تنتهي ببايين في الجدار المقابل علّقت بينهما صورة بالحجم الطبيعي لأبي في عزّ شبابه. وقد غطّيت أرضها ببساط نفيس منمنم، وصُفّت على جانبيها الكنبات، وأسدلت الستائر على نوافذها وأبوابها. ورأيت أبي مرتبجاً على كنبه تتوسّط الجناح الأيسر للحجرة، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنّها - لعدم انفصالها عنه - عضو من أعضائه. ولم يكن بمفرده، كان الحلاق على كنب منه يجمع أدواته في حقيبته، ثمّ حيّاه بأدب وذهب، وعلى أثر ذهابه تراجع عمّ آدم وردّ الباب. وانجّه بصري وأنا أقرب منه صوب القارورة فوجدتها لم تُمسّ، وداخلي لذلك ارتياح وأمل. ومددت له يدي فتناولها بكفّه الغليظة، وجرت على شفّته ابتسامة باهتة وهو يقول:

- أهلاً بك، أنت في إجازة؟

لم أرتح إلى استقباله، ولكّني غضضت عن ذلك، والحقّ أنّ آلام الليلة الماضية، والصداع الناشب في رأسي ويأسي المرير، تغلّبت على ما طُبعتُ عليه من خجل وخوف وتخاذل، فقلت:

- نعم في إجازة خاصّة كي أقابلك في الحال.

فرمقني بنظرة لم يحاول إخفاء ما لاح فيها من قلق ممّا أثار حنقي وغبظي، وتساءل باقتضاب:

- أمر هام؟

تناسيت كلّ شيء إلاّ ألمي المرّح وألمي الباقي فقلت بانفعال تمّت عنه نبرات صوتي:

- هام جدّاً، أو بالأحرى هو حياتي ومستقبلي.

أنياب الغيرة الساقمة، أيمن أن يتمّ هذا حقّاً! لم أستطع أن أصلّق هذا. لماذا؟... ربّما كان مرجع هذا إلى ثقّي التي لا تترزعزع في الله الرحيم ورعايته، ولكنّ من كان يصدّق أن ينتهي بنا الحظّ إلى الحال التي نعيش عليها! وتنهّدت من الأعماق في يأس مرير، ثمّ سرت في جسمي رعدة من البرد القارص الذي تنهّبت إليه لأوّل مرّة بعد مغادرتي المشرب فأحكمت المعطف حول نفسي خوف البرد لكثرة ما يتهدّدي الزكام في الشتاء. وألمّت بي رغبة غريبة، هي أن أجد نفسي طريح الفراش!... وتخيّلت بارتياح رقاوي تحوط به العناية والحنان! وعلى حين فجأة انهارت أعصابي تحت الضغط الشديد الذي تحمّلته، فوجدت ميلاً لا يقاوم إلى البكاء، فاستسلمت له متشجّعاً بالظلمة التي تلتفني وبكيت، ثمّ ازدددت استسلاماً فأجهشت في البكاء حتّى انتحبت وشهقت كالأطفال.

٣٠

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى الحلمية، إلى أبي، كيف انتهيت إلى هذا، خاصّة وأنّه لم يكّد يمضي شهر على الزيارة المخيفة! إنّه اليأس... قضيت ليلة مسهّدة معدّبة لم يغمض لي فيها جفن، وتفكّرت في أمري طويلاً حتّى تجمّست لي الأفكار شخوصاً تصرخ بي أن اذهب إلى أبيك، مهما كلفك الأمر، وليكن ما يكون. ولم يكن التردّد بممكن في مثل حالتي، لقد فقدت رشادي، وأذهلني الألم عن مشاعري الطبيعيّة بالتردّد والخجل والخوف فكان أبي - على رغم كلّ شيء - الأمل الوحيد الباقي لي.

واخترت أن أزوره في الصباح لأنّي أملت أن أجده قبل سكره في حال خير من تلك التي وجدته عليها في الزيارة السابقة المششومة، وفضلاً عن هذا كلّ فلم يكن بي من صبر أستطيع أن أنتظر به حتّى الأصيل، فنلتنت إلى إدارة المخازن معتذراً ومضيت لطبّي. وكان الصداع يدقّ غلاف رأسي بمطرقة، بعد ليلة سهاد وهمّ، بيد أنّي تماسكت، واستمددت من يآسي قوّة لم أعهد لها في نفسي من قبل. وبلغت البيت بعد

والحقّ فقلت بصوت مرتفع ملأ الحجرة الكبيرة:
- إنك لم تنفق عليّ مليّاً واحداً، فماذا يضربك لو
تنازلت لي عن بضع مئات من الجنيهات؟!
ونفخ الرجل عابساً، واشتدّ احمرار وجهه، ثمّ قال
بصوت غليظ:

- يبدو لي أنّك لا تفهم ما يقال، ولا تعي ما
تقول، قلت لك ليس عندي مال... ليس عندي
مال... ليس عندي مال!

وأفلت منّي زمام نفسي فكسّرت قبضتي وضربت
فخذي وصحت به:

- أليس ثمّة رحمة في قلبك؟!
فحدجني بنظرة كأنما يقول لي: «لقد أعياني
إقناعك»، وقال باقتضاب وعدم مبالاة:
- كلّاً:

فرمقته بنظرة جامدة وشت بلا شكّ بأحاسيس
الكرامية والحقّ التي تفور بصدري حتّى رأيتّه يعبس
ويتجهّم وجهه، ثمّ صاح بصوت كالخوار:
- ألا تريجونني كي أعيش البقية الباقية من حياتي في
هدوء؟!
فصحت به كمن فقد وعيه:

- متى أزعجت حياتك؟ أنت الذي أزعجت حياتنا.
إنّي في حاجة لبعض المال الذي تنفقه على الخمر بغير
حساب ولا بدّ أن آخذ ما أحتاج إليه.

فقبض على الكأس الفارغة بأصابع متشنّجة وزعق
قائلاً:

- هذا كلام مجانين! أتسبني في وجهي؟ أتهددني؟
اغربّ عن وجهي ولا تعد إلى هذا البيت ما دمّت
حيّاً!

فاشتدّ بي الغضب وصحت بانفعال شديد:
- هذا بيتي، وما به من مال فهو مالي، ولن تمنعني
قوّة عمّا أريد، أفاهم أنت؟ أفاهم أنت؟
فنهض قائماً والشرر يتطاير من عينيه، وصفق بقوّة
جنونيّة وصرخ فيّ قائلاً:

- اغربّ يا ولد عن وجهي وإيّاك أن تعود إلى هذا
البيت آدم... آدم...

فردّد قولي دون أن يخرج من جموده، وذهوله الذي
استحال طبيعة أخرى له:
- حياتك ومستقبلك!
فقلت برجاء وإشفاق:

- زواجي الذي حدّثتك عنه! إنّ رجلاً يوشك أن
يطلب يد الفتاة التي أريد أن أتزوجها، فإذا لم أتقدّم
في التوّ والساعة أفلتت الفرصة من يدي، وضاعت
حياتي...

أتراه قاذفي بإجابة ساخرة كعادته؟ وانقبض قلبي في
فزع. ولكنّه لم يكن هادياً ولا معربداً، ومع ذلك بدا
جامداً سقيماً ذاهلاً، بل ميتاً. كان كلّ شيء يسوّغ لي
اليأس، بيد أنّي أبيت أن أبأس، وثبت ذهني المكدود
على فكرة واحدة عميت عمّا عداها في السباق الجنونيّ
الذي أكابده. انتظرت على جزع حتّى قال:

- اطمنئنّ فإنّ حياة الإنسان لا تضع لضياع امرأة.
فهمت بحرارة:

- إنّي أعلم الناس بحياتي!
فقال بعدم اكتراث:

- أنت وشأنك يا بنيّ. لن أتدخلّ فيها لا يعنيني!
فقلت بعناد:

- إنّي في حاجة قصوى إلى المال، سبق أن أخبرت
حضرتك بذلك.

فسألني بلهجة تمّت عن الملل:
- وماذا قلت لك؟

فتملّكتي الحقن. وبدا لي في صحوه أفضح منه في
سكره، وقلت مدافعاً عن نفسي بإصرار وقنوط:

- لا بدّ أن أحصل على المال الذي أريد. أرجو أن
تقدّر حرجي وشدّتي، فإذا ضاعت منّي هذه الفرصة
انعدم أملي في الحياة.

وألقي نظرة على القارورة، ثمّ قطّب قليلاً وقال:
- أنت تطلب مالاً وليس عندي مال!

- هذا غير معقول...
- هو الحقّ الذي لا شكّ فيه!

وأيقنت من لهجته واستهائه وتبرّمه أنّ الساء أقرب
إلى إثارة اهتمامه وعطفه، وتألّب عليّ القنوط والصداع

أين أذهب، فما وجدت إلا جواباً واحداً. ناديتي الحانة نداء مغربياً، واستصرختي قلبي أن أطيح وأطيع. بيد أنني لم أغفل عن الحقيقة الراهنة وهي أن ميزانيتي - ذلك الشهر - ستختل حتماً بعد السكرة المشتهة فلا أجد ما أنفقه حتى قبض المرتب الجديد... على أن النداء ظلّ عنيماً لا يقاوم، وبدا لي في تلك اللحظة التعيسة أن نشوة ساعة خير من حياة لا خير فيها... وتحسست يدي ساعتى الذهبية فقفز إلى خاطري أن أبيعها إذا أعوزني المال، وداخلني ارتياح فابتسمت لأول مرّة في يومي. على أنني تساءلت في اللحظة التالية عما أقول لأمي إذا افتقدت ساعتى، ولا بد أن تفتقدها يوماً؟ ولكنني نفخت ضجراً وهتفت حانقاً: «أمي، أمي، دائماً أمي! سأفعل ما أشاء». واستقللت الترام بلا تردد. وفي الطريق هفت على نفسي ذكرى جذي لغير ما سبب واضح، فذكرت أيام الرغد والهناء التي فقدتها بفقدته ثم وجدتني أتمنى لو كان قبض يده الكريمة عني ونشأني على البخل والتقتير، أما كنت أكون أقدر على تحمّل حياتي الراهنة! وقرأت الفاتحة على روجه المحبوبة. ثم غادرت الترام في العتبة وقصدت سوق الخضار حيث توجد حانتي المتواضعة وما انتهيت من نزع معطفي والجلوس إلى مائدة خالية حتى جاء النادل اليوناني بالدورق. حانتي شعبية بلا ريب، ولكنّها محترمة لدرجة ما، فألى جانب الحوذنة والمجلبين تجد لمة من الموظفين الكهول الذين لا تسمح لهم ظروف المعيشة وأعباء الأسر بارتياح الحانات الغالية. ومن هؤلاء موظف عجوز مغرم بالغناء والطرب. ما يكاد يسكر حتى يسترسل في ترديد الأدوار القديمة مثل: «في العشق يا ما كنت أنوح» و«يا ما أنت واحشني»، ولم يكن صوته يخلو من تطريب وأداء يش له الجلوس ويتطوّر نفر منهم لترديد المذهب في انسجام لذيذ. أخذت في الشرب، وكالعادة تولّاني الشعور بالارتياح والمرح، ذلك الشعور الذي لا أجده إلا بين السكارى في الحانة، المكان الأوحده الذي تخفّف فيه من وقار الخجل والعني والحصر والقلق والمخاوف ونعمت بطمأنينة وسرور كآتني أرّده إلى أهلي وعشيرتي

وفتح الباب ودخل عمّ آدم كأنه في الانتظار، واقترب منّا وهو يقول:

- أفندم يا بك... خير إن شاء الله.

وبردت فجأة كأن «دشاً» انهال عليّ. سكت عني الغضب، وخذ الهياج، وولّى قلبي فرازاً. وقبضت يد الخوف الباردة على عنقي فتسمّرت في مكاني مرتبكاً ذاهلاً زائغ البصر. ذهب كامل الذي اصطنعه الغضب واليأس، وبقي كامل الآخر كما خلقته الطبيعة. ولم يرحم الرجل الهائج ضعفي فصاح بالبواب قائلاً:

- أوصل هذا إلى الباب ولا تسمح له بالدخول مرّة أخرى. إنّه يتهدّدي بالقتل.

وحلقت في وجهه بذهول وانزعاج لا أكاد أصدّق أذني، فلاح لي في هياجه الجنوني كشيطان رجيم. وصرخ في وجهي:

- اغرب عن وجهي.

ولكنني لم أبدأ حراكاً، أو بالأحرى لم أستطع أن أبدي حراكاً، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني، ومّت خوفاً وكمدًا وخجلاً. وانتظر الرجل عابساً، فلما رأي لا تحرك ولآني ظهره وغادر الحجرة إلى الداخل على حين تفهقر البواب إلى الفراندا. وجدت نفسي وحيداً فعضضت على شفقي، واستعدت وعيي فاستطعت أن أنهض قائماً في وجوم، ثم غادرت الحجرة متحامياً النظر ناحية البواب. وحشت خطاي في الحديقة والبواب يتبعني مغمماً بالاعتذار والتأسف، منتحلاً للبك الأعدار قائلاً: «إنّه دائماً هكذا».

وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة...

قطعت نصف النهار الأول متسكّماً في الطرق مخنق الأنفاس من اليأس والحنق والقهر والحزني والخجل... وعدت إلى البيت في الموعد المعتاد حتى لا تساءل أمي عما جاء بي قبله. وغلبني النوم بعد الغداء فاستغرقت فيه حتى أول المساء، ثم غادرت البيت مثقل النفس كأنما أحمل الأرض على رأسي، وتساءلت

ساقني عليه في جلسة سلطنة وأبهة غير شاعر ببرودة
الجو وداخلني ارتياح لحركة العربة الحاملة، وسرعان ما
خامرتي ميل إلى العبث فقلت للحوذني في حذر
كاذب:

- إن امرأة تنتظري في الطريق وسأخذها معي...
فقال الرجل:
- رهن أمرك يا بك...

فقلت لنفسي في سخرية إن كل شيء على ما يرام،
عربة مريحة وحوذني طيع وليل ستار فلا ينقصنا إلا
المرأة. ثم قلت مستسلماً لداعي الكذب:
- هي سيّدة من الطبقة الراقية فهلاً وجدت لنا
طريقاً آمناً؟

فقال ضاحكاً:

- أظنّ جاردين ستي آمن طريق قريب!
فهتفت به:

- خاب فألك، إن قصرها بجاردين ستي؟
فقال باهتمام:

- أماننا جزيرة الروضة وإن كان الجو بارداً وأنا
رجل عجوز لا أحتمل البرد!
فقلت مشجعاً:

- سأعطيك جنيتها كاملاً!

وشكر الرجل لي بحماسة وقد تهيأ له أنه عثر على
كنز، وجعلت أضحك في سرّي وأتحسّس بأصابعي
الريال الذي لم يبق لي غيره حتى نهاية الشهر. ومزّ زمن
ثم رأيت العمارة المحبوبة - عمارة حبيبي - تقترب،
ودبّت في قلبي يقظة غريبة وعلقت بها عيناها. لم أعد
أملك حرّية النظر إليها - وكان كلّ عزائي - بعد ما
كان بيني وبين خطيبتها المرتقب! لم يعد بوسعي أن
أنتطح إلى الشرفة أو النافذة. ترى هل خاطب سعادة
مدير الأعمال أباهما؟ هل صارت حبيبي مخطوبة حقاً،
أم تذكر المحبّ القديم - الصامت العاجز - وهي تنتقل
إلى دنياها الجديدة؟ ألم تجد نحوه شيئاً من الأسف؟
وشعرت برغبة في الانتقام من الدنيا جميعاً، وتولّاني
إحساس بالذهول والانتباض فلبثت جامداً حتى بلغت
العربة شارعنا، فأمرت الحوذني بالوقوف وغادرت

بعد اغتراب ثقيل، وتمتّيت لو كان في الإمكان ألا
أبرحهم مدى الحياة. وما لبثت أن غمرتني النشوة
الساحرة، وأفعم وجداني طرباً. ولم يكن الموظّف
الفنان قد بدأ الغناء بعد، وكان يحدث رفاقه بصوت
مرتفع يسمعه الجالسون جميعاً، ولا بأس من أن
يشاركوا فيه كما يشتركون في الغناء. قال:
- تصوّروا يا هوه أنّ الطبيب ينصحني بالكفّ عن
الخمر!

- لماذا كفى الله الشرّ؟

- وجد عندي ضغط دم وتصلّباً في الشرايين.
- اشرب حلبة على الرقيق تضمن صحتك طول
العمر.

- وقال لي إذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة.

- العمر بيد الله!

- فقلت: وإذا لم أوصل الشراب فسأهلك يوماً لا
محالة.

- إجابة تستاهل عليها دورق كورنيك على شرط أن
تدفع ثمنه.

- هل تصدّقون أنّي رأيت هذا الطبيب ذات مساء
جالساً في سانت جيمس يشرب ويسكي؟!
- وهكذا الأطباء جميعاً! ينتش أحدهم جنهيك
ويقول لك «إياك والخمر»، ويمضي به إلى سانت
جيمس ويشرب قارورتين...

واعتدل الموظّف العجوز في جلسته قليلاً، وراح
ينقر على المائدة ويهزّ رأسه، ثم غنّى قائلاً: «أنصف
محبك يا جميل»، وأتجهت نحوه الأبصار، وأخذت
الجوقة أهبتها للترديد. وكنت أشرب، وأجاذب من
يماذبني الحديث، وأضحك ملاء قلبي ودار رأسي
كالعادة بسرعة، ورقصت النشوة في قلبي، وطرت إلى
سواء السرور واللامبالاة. ومكثت على ذلك زمناً طويلاً
أو قصيراً لا أدري لأنّ السكران يفقد حاسة الزمن،
ثم ودّعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب
يلاحقني. وضربت على وجهي زمناً آخر، ثم ناديت
عربة وركبت دون مبالاة بالميزانية المنتحرة، وأمرته أن
يذهب إلى المنيل. وسوّيت المقعد الخلفي ومددت

وذاك أنني كنت خالي الذهن حتى بعد أن دخلت الشقة، ولم يثب إلى خاطري أن أوقفها إلا عندما وقع بصري عليها، فلما أن لبّيت ندائي قلت ما قلت بلا تردّد وربّما بلا إدراك ولكنّي كنت مدفوعًا بقوة لا تقاوم!... ولم أستشعر ندمًا وقتذاك، وجعلت أنفّرس في وجهها المتألم وهي تنزع ملاسبي جامد الإحساس متحرّج الشعور. ثمّ ابتعدت عنها صوب المشجب فتناولت البيجاما وارتديتها صامتًا، وصعدت إلى فراشي واندستت تحت الغطاء... واقتربت منّي، ووضعت راحتها على جبيني، وسألني بصوت مرتجف النبرات:

- أتشكو شيئًا. هل أصنع لك قهوة تسند رأسك؟
فقلت لها:
- شكرًا. لا أريد شيئًا على الإطلاق.

٣٢

مضى على تلك الليلة وما خلفت من شجن أسبوع، أو أكثر لا أذكر وكنت قد انتهيت من عملي اليوميّ وجلست أنتظر موعد الانصراف في ملل وتعب، وقبيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى التليفون فانتقلت إليه في دهشة لأنّه لم يحدث قبل هذه المرّة أن طلبني أحد بالتليفون ولأنني لم أكن أنتظر آية مكالمة تليفونية إطلاقًا. ووجدت المتحدث شقيقي مدحت وقد قال لي باقتضاب:

- والدنا توفي، احضر إلى الحليمية...
وعقدت الدهشة لساني فلم أزد أن قلت:
- سأحضر في الحال.

وأعدت السّاعة إلى موضعها ولبثت واقفًا في مكاني. واتّجهت نحووي الأبخار وسألني الزملاء عمّا هناك؟ فقلت في ذهول:

- مات أبي...

وتلقّيت التعازي كالمعتاد، وما لبثت دهشتي أن استحالحت خوفًا، لأنّ الموت يخيفني دائمًا، وغادرت الوزارة وانطلقت صوب المحطّة. مات أبي إذن! هذه حقيقة لا شكّ فيها. وأخذت أفيق من وقع الدهشة،

العربة، ونقدته ثمانية قروش فتناولها في دهشة وتمتم متسائلًا:

- والمشوار الآخر؟

وانطلقت منّي ضحكة خافتة على رغمي ومضيت إلى حال سبيلي. وارتقيت السلم في تشاقل وتعب، وفتحت الباب بمفتاح في جيبي ورددته بلا حذر، ثمّ سرت إلى حجرة النوم وأترت الكهرباء فوق بصري على آمي وهي مستسلمة لنوم عميق ينمّ عمقه على الجهد الذي تبذله في يومها الشاقّ الطويل، فوقفت لحظة أنفّرس في وجهها، ثمّ هتفت بها قائلاً:

- نينة!

وفتحت عينيها وهي تغمغم:

- من!... كامل!

فقلت بهدوء واستهانة:

- إني سكران...

فحملقت في وجهي بانزعاج، ثمّ جلست في الفراش باضطراب وقالت:

- إنك ترعبي بدعابتك.

فقلت بغير مبالاة:

- ليس في الأمر دعابة على الإطلاق، لقد شربت دورقي كونياك أوتار.

وانزلقت من الفراش، واقتربت منّي بارتياح وعيناها لا تتحوّلان عن عينيّ حتى شعرت بأنفاسها تتردّد على وجهي، ثمّ امتقع لونها وقالت بصوت متهدّج:

- لم فعلت هذا بنفسك؟.. كيف تطيع الشيطان

بعد أن تبت إلى الله؟

فلم أنبس بكلمة، واشتدّ بي الدهول، واستدركت

هي تقول:

- اخلع ملابسك... دعني أساعدك...

وراحت تنزع عنيّ ملاسبي وأنا صامت ذاهل. لماذا

فضحت نفسي على ذلك النحو الغريب؟... لم أكن في

حالة سكر يتعدّر معها ضبط نفسي، بل من المؤكّد أنّي

رجعت في ليالي سابقة في حالة أشدّ سكرًا فما أحدثت

منكرًا، وما تهاونت في حذري كي لا تستيقظ من

نومها، فما الذي دهاني تلك الليلة؟ والأعجب من هذا

لم يعد على خلاف عادته، وانتظره الرجل قلقًا حتَّى قبيل الفجر ثم أرسل لنا البرقيّة في الصباح الباكر، وأنا أعلم أنّ والدنا كان يجلو له الخروج من آن لأن عند الأصائل، وهو ثمل - كما تعلم - فيسير قليلاً على قدميه ثم يستقلّ عربة تنطلق به حيثما اتَّفَقَ ثم يعود إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، ولكنّه لم يحدث أبدًا أن قضى الليل خارج بيته، ولذلك أثار غيابه قلق الرجل وأوقعنا في حيرة شديدة. ولم نكن نعلم له من صديق أو جهة، ولكن وقع في ظننا أنّه ربّما يكون ذهب إلى راضية فمضينا إليها ولكنّها لم تكن رأته منذ مفارقتها البيت، ولم نشأ أن نضَيِّع الوقت سدّي فاتفقنا أن تذهب هي إلى أمنا من باب التقصي، وأن نستفسر - أنا وعمك - عنه في قسم الخليفة، وهناك أخبرنا الباشجويش أنّ حوذيًا جاء إلى القسم أمس يحمل رجلًا له أوصاف أبينا وقد فارق الحياة، وقال الحوذيّ إنّه استقلّ عربته في ميدان باب الخلق وسار به كرجلته في اتجاه الأمام، ولمّا أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد في أثناء الطريق وجده كالثائم، وناداه ليوقظه فلم يغن عنه النداء، فأوقف العربة وانتقل إليه وهزّه برفق، ثم تبين له أنّه فارق الحياة، فلم يَزْ بدأ من أن يحمله إلى القسم، وقد قبضوا على الحوذيّ على سبيل الاحتياط، ومُهل أبي إلى القصر العيني حيث اتّضح موته ميتة طبيعيّة بالسكتة القلبية، وانتقلنا إلى القصر العيني فادخلونا إلى بهو الجثث المشرحة . . .

وسكت مدحت وقد لاحت في عينيه أي الألم والتفجّع، ثم استدرك في شبه ثورة مكتومة:
- يا له من منظر! . . . لا أدري كيف عرفنا

أبي! . . . كان شيئًا آخر!

واغرورقت عيناه بالدموع، ولم أكن رأيته إلا ضاحكًا فاشتدّ بي التأثر وطفرت الدموع إلى عينيّ. ولزم الصمت حتّى استعاد رباطة جأشه، ثم أخبرني بما تمّ الاتِّفاق عليه من تشييع الجنازة في الساعة الرابعة، ثم قال لي:
- إنّه راقد الآن في مخدعه فاذهب لتلقي عليه النظرة الأخيرة . . .

وأستشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسي! بيد أنّ صورته تمثّلت لعمريّ في وضوح بصلعته المستديرة ونظرته الغائبة، وخيّل إليّ لحظة أنّي أستمع إلى صوته الأَجْش وضحكته الساخرة. ترى متى مات؟ وكيف مات؟ ألا ما أغرب الموت! إنّ الموت لا يتخلّى عمّا له من خواصّ المأساة حتّى في حال رجل كأبي عاش جلّ عمره عيشة الأموات بعيدًا عن الدنيا والناس، فعيشة الأموات شيء والموت نفسه شيء آخر. وطرحت على نفسي هذا السؤال: من عسى أن يجزّن لموت أبي؟ . . . مدحت؟ راضية؟ بدا لي أنّه سيغادر الدنيا غير مودّع بحزن أو أسى، وبدا لي ذاك مأساة أظع من مأساة الموت نفسها. أليس مستنكرًا أن يجيا إنسان في هذه الدنيا أكثر من سبعين عامًا ثم لا يترك وراءه رائيًا! وجدت عند ذلك عطفًا وحزنًا! وإنّها لعاطفة غريبة لم تحتلج له في صدري من قبل، ولعلّها كانت وليدة الارتياح لا الأسى، لأنّه في مثل حالتي قد تجود النفس بالحزن لتداري سرورها، أو لتعبرّ عن هذا السرور بطريق ملتوٍ، ولعلّها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت - بموته - العوائق التي كانت تعاقها. مضيت إلى الخلميّة، ولمّا أقبلت على البيت القديم رأيت نفرًا من الأسرة يجلسون صفًا على الكراسي الخيزران، يتوسّطهم رجل وقعت عليه عيناى أول مرّة وعلمت أنّه عمي بعد ذلك، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويليه زوج أختي. وسلّمت واجمًا مرتبكا حتّى نهض شقيقي ومضى بي إلى الحديقة وقال لي:

- كان يومًا شاقًا مريّرًا، ولكن انتهى كلّ شيء . . . فسألته:

- لماذا لم تستدعني قبل ذلك؟

فتنهّد مدحت وقال:

- كنت في شغل شاغل، ولولا أنّ راضية ذهبت بنفسها إلى أمنا فجاءتا معًا لما علمت حتّى الآن بالخبر. ألا تدري ماذا حصل؟ لقد تلقيت برقيّة في الصباح الباكر من عمّ آدم يطلب إليّ الحضور تويًا لأنّ والدي لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس، فحضرنا جميعًا، وأخبرنا عمّ آدم بأنّ والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وأنّه

أفضل، حال الصباح أم حال المساء؟! ولم أستطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور! على أن شعوري الديني العميق احتج احتجاجاً صارخاً وبث في حناي الخوف والقلق فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم. ورحت أتهرب من إحساس السرور والارتياح الذي يلاحقني، فقطبت متجهماً وأنا لا أدري، ولكن دون جدوى، فسرعان ما هزأ عقلي بهذه المحاولات الصبائية وانطلق يفكر في الثروة المنتظرة. وذكرت ما

سبق أن حلمت به من بيع البيت، فتساءلت: ترى هل يتحقق الحلم؟ هل أصبح مالكاً لآلاف من الجنيهات وثيقاً؟ ولكن هل تلكاً مناصفي في اتخاذ الخطوة الحاسمة أم قضي الأمر وليس ثمة أمل! أتكون الثروة المنتظرة وسيلتي للسعادة المرموقة، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة! لقد سخر من فقري وعجزتي، وإنه لقادر على أن يسخر من ثرائي وقوتي، ليُريني أنني على الحالين مقضي عليّ بالحسرة والتعاسة! وفتر حاسي وخمد، وعراي وجوم وقلق، ودعوت الله في رجاء وإشفاق أن يجعل فتاتي من قسمتي ونصيبتي... وانتهيت من أفكارني على توقّف سير الجنائز أمام الجامع. وأدخل النعش للصلاة عليه، على حين انفصل عمّا المعزّون مشكورين. ثم أودع النعش سيارة السوق، وانطلقت بنا وبه إلى الأمام، وانتهى المطاف...

واجتمعت الأسرة ليلاً في الحجرة الكبيرة التي قابلت فيها أبي لآخر مرة، فجلست وعمي وشقيقي وزوج أختي في جانب منها وجلست أمي وأختي وزوجنا وعمي وأخي في الجانب الآخر. وكان عمي رجلاً عملياً. وقد ذكرني مظهره بأبي. فتحدّث عن الإجراءات الواجبة لإثبات الوراثة واقترح أن يقدمنا إلى صديق له في وزارة الأوقاف ليسر لنا قبض مرتباتنا الشهرية. وتحدّث أخي مدحت فقال إنه يرى أن نبيع البيت ما دام أحدنا لا يرغب في سكنه، ووقع رأيه من نفسي موقفاً حسناً لم أحلم به، فوافقت عليه

ونحقت قلبي خفقة عنيفة، وتملكني خوف شديد، ولكنني لم أستطع رفع بصري إليه، ولم أجد مناصاً من التظاهر بالترحيب بفكرته، فأتجهت صوب الفراندا متعزّراً في خوفي وارتباكني، وارتقيت السلم مزدرّداً ريقني فلمحت شقيقتي ولمحتني في وقت واحد، والظاهر أنها أخبرت أمي بحضورني فجاءت على عجل وقابلتني في الفراندا وسألتنني في قلق عن وجهتي، فقلت:

- أريد أن أرى أبي...

فقال: برجاء وإشفاق:

- هلاً عدلت عن هذا يا كامل؟... إن قلبك أضعف من أن يحتمل مشهد المتقلين إلى رحمة الله... وتهدّدت في ارتياح، وارتفع عن عاتقي حمل ثقيل. لم يكن ما بي شيء غير الخوف. وهل يستطيع أن يواجه الموت في أبشع حالاته وأفظعها قلب تتولاه الرحمة حيال فأر أو خنفساء؟! ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمي وأخي صامتاً، وقبل الموعد المحدّد لسير الجنائز بنصف ساعة أخذ المشيعون يتوافدون علينا، فجاء بعض الجيران وموظفو إدارة المخازن بالحريّة، ولما لم يكن لأبي معارف، لم يكن لعمي أصدقاء في القاهرة، فلم يزد عدد المشيعين على عشرين. وقال عمي متأثراً أنه سيحیی ليلة المأتم في بيته بالقيوم. ثم أذفت اللحظة الأخيرة، وارتفع صوت أختي راضية يمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبي تأثراً ودمعت عيناي.

ولم نلبث أن انتظمتنا الجنائز. وغشيتني بادئ الأمر كآبة ثقيلة استثارها في نفسي منظر النعش، وظلّ الموت، وما عاودني من ذكريات جدّي ووفاته. ثم جعلت الغشاوة تنقش والسكينة تعاودني، واسترقت النظر إلى من يحيطون بي فرأيت وجوهاً هادئة، وأخرى باسمه لسبب أو لآخر، فسُرّي عني وثابت إليّ نفسي. وذكرت بغتة كيف كنت أسير في الصباح صوب الوزارة خالي الذهن ممّا يترصدني من أحداث اليوم، وكيف أسير الآن وراء النعش فعمجت لحياتنا الغربية، وخيل إليّ في تلك اللحظة أنّ الحياة تبرز لسانها في شطارة وتهكم مغرقة في الضحك! ثم ساءلت نفسي عن أيّ الحالين

في المقت لأبي، لكن لم يخطر لي على بال أن أذكرها بهذه الحقيقة العجيبة. ثم عدنا إلى بيتنا دون أن ينس أحدنا بكلمة...

٣٣

لم أعد الفقير المعوز الذي كنت، رفع عن كاهلي عبء الحاجة والحرمان، غدوت ذا دخل لا بأس به غير الثروة التي ستوافيني في خلال شهر أو شهرين، ولكن مسني جنون لم يكن لي به عهد، جنون محب لا يُقعد الفقرا كان لي من الفقر رادع يحذ من طموحي، ويجعل من حبي حسرة طويلة منظرية في ذات نفسي، ولذلك سلمت بالهزيمة حيال منافسي محمد جودت دون مكابرة، وانطلقت في الطريق أنشج كالأطفال، فلما قُتل الفقر غدا الحب مطمعا غير محال. فتناسيت العوائق الأخرى، وركبني جنون جديد، جنون من تبدو له السعادة ممكنة، ولا يحول بينه وبينها إلا أن يتغلب على خجله فيفتح سبيله ويجزب حظه، لزمّت المحطة طويلاً في عصر اليوم التالي للوفاة، وجعلت أتطلع إلى النافذة المحبوبة برغبة جنونية، ما عدت أرى حبيبي، وما أدري إن كان الذي أخشى قد وقع، ولكن كان فلن أجنبي من ثروتي إلا السمّ الزعاف، ولكن هبها لاحت وراء النافذة فما عسى أن أصنع! هل تواتني الشجاعة على أن أومئ لها بطرف خفي... لشد ما يتقبض قلبي خوفاً وجفولاً... لست من ذلك في شيء... لو كان بي ذرة من شجاعة لاقتحمت باب العمارة دون تردد ولاستأذنت في مقابلة البك وعرضت عليه ما يجول بخاطري. هل يُعدّ هذا من الخطورة بحيث يستدعي كلّ هذا الخوف؟ وهبه على أسوأ فرض قد اعتذر من عدم القبول، فلماذا أعدّ هذا الرفض أشد من الموت وأقتل من القتل!... لماذا لا يكاد يجول بخاطري حتى أتصبب عرقاً ويتنزى قلبي في صدري! يا لله!... أما يتزوج الناس كلّ يوم بالعشرات والمئات!... كيف يتلمس الأزواج الوسائل ويقتحمون السبل! ليس بيني وبين مبتغاي إلا أن أطرق هذا الباب. فإما سعادة الأمل أو راحة

بحساس نسيت أن أدأريه، ولم تمنع راضية، وقال عمي:

- إنه بيت قديم ضخم لا يغري إلا شارباً مثيراً، يهده ويشيد مكانه عمارة كبيرة على طراز حديث، على أنه لا يمكن أن يباع بأقل من أربعة آلاف جنيه.

أربعة آلاف، آه لو يكون مناسي تأخرًا وكبر عليّ أن أتصور أن يحب الله رجائي بعد أن حقق أحلامي على هذه الصورة الباهرة، إن ثقتي بالله لا حد لها وهو الخبير المطلع. ولاحت مني التفاتة نحو أمي فوجدتها صامته غارقة في أفكارها وقد ارتفع حاجبها الخفيفان وانفجرت شفتها عن أسنانها الصغيرة اللامعة، ترى فيم تحلم! وما حقيقة مشاعرها حيال المتوق؟... هل أعادها هذا البيت القديم إلى عهود حياتها المنطوية! وشعرت نحوها بعطف وحب، ثم ذكرت الأفكار التي تتملكني فداخلي إحساس بالقلق والخوف...

ولما اقترب الليل من منتصفه اقترح أخي أن نبيت ليلتنا بالبيت، لكن أمي أثرت أن نعود إلى بيتنا على أن نرجع مع الصباح، وبذلك غادرنا البيت القديم وسرنا جنباً إلى جنب صوب المحطة، وحدثني في الطريق قائلة:

- أما كان الأفضل أن تُبقوا على البيت.

فقلت بدهشة:

- وماذا نصنع به؟. إنني في أشد الحاجة إلى نصيبي

من ثمنه...

فقالت:

- حسبك راتبك الشهري، أما هذا القدر الكبير فما أدري والله ما حاجتك إليه!

ترى هل استشعر قلبها خوفاً وساوري القلق والاستياء، واختلست منها نظرة ولكني لم أتبين في الظلمة ما يبدو على وجهها، وواصلت حديثها قائلة في لهجة تنم عن الإشفاق:

- إياك وأن تفرح لموت أحدا لا تذكر أباك من الآن فصاعداً إلا دعوت له بالرحمة، فما أحب لك أن تسرّ لموت إنسان مهما كان هذا الإنسان!

عجبت لهذا الكلام يلقي عليّ من الفم الذي بت

عن كل شيء في الوجود إلا هذا المنظر البهيج الذي ارتعدت له جوارحي فرحاً وخوفاً، ورفعت إلى وجهي عينها عرضاً فالتقت عينانا لحظة قصيرة، وبدا لي أنها ترددت قليلاً على عتبة المقصورة، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم فغادرت المقصورة على رغمها، والتمس بصرها فيما ورائي مكاناً تقف فيه ولكن كان تكتل الواقفين متماسكاً، فاضطرت أن تحتل الموضع الذي كنت شاعله وأسندت ظهرها إلى الباب، ووقفت أمامها ممسكاً بمقبض الباب، على مرمى الأنفاس منها، هي هي دون غيرها، جادت بها السماء لتبلى جوانحي . من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام، وهذه أعجب الحقائق . ماذا بي؟ . . . ترى أهذا سرور أم خوف أم وقدة نار؟ لولا دقة الموقف وشدة حيائي لطاب لي أن أبكي! غبت عن كل شيء، فلم أعد أحس للناس وجوداً على تكتلهم، وحتى حبيبي نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان بيدها، يبدو لي أن للقلب بصراً إذا اشتد تفرسه غطى على بصر العين فينقلب الإنسان أعمى وهو بصير - ولا أدري كيف واثني الشجاعة فاسترقت إليها النظر، ورأيها فحفت قلبي بغير رحمة وهيئ لي أن وجودي هو الباعث على هذا التودد الفاتن وذاك الارتباك المليح، وتهدت على رغمي فتموجت خصلة من شعرها لوقع أنفاسي، ورفعت إلي عينها ثم خفضتها بسرعة فإراة من عيني، آه . . . عثرت أخيراً على من يفر مني! . . . وشاعت في رأسي نشوة اللذ من نشوة الخمر وأحمى، وركبني جنون لا عهد لي به فثبتت على وجهها عيني في جسارة خارقة، بل هي بالنسبة إلي جنونية، ثم وثبتت إلى شعوري رغبة غريبة أن أنطلق وأن أبوح بما يضغط أنفاسي، وازدردت ريتي في توتر عصبي عنيف، وجعلت أتحفز وأتوتب في قلق وهياج نفسي مروع، وأيدني الجنون الذي يضطرب في روحي، ودفعتني ما عانيت في الأيام الماضية من لهفة قلق وفتون ثم تملكني إحساس يشبه إحساس المنتحر إذا تجمع للوثبة الأخيرة، وتحركت شفتاي بصوت خرج همساً قائلاً:

- أريد أن أقول لك كلمة . . .

اليأس، بلالام أتردد وأحجم؟ إنه بيت وليس بحصن، واني طالب زواج ولست بعدو، فلماذا أخاف كل هذا الخوف! ليست غاييتي أن أغزو قارة ولا حتى أن أخوض معركة، ليس المطلوب أن أكون نابليون أو هانيبال، لا يعدو الأمر أن أقدم نفسي، وأن أعرض سؤالي، وأنا محوط بالرعاية التي يتلقاها ضيف من مضيف كريم، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق . . . قلت هذا لنفسني في يسر وتأنيب: ولكن ما إن تحسم لي الخيال حتى التهاب مني الجبين واشتدت ضربات قلبي وأحسست رعدة تسري في أطرافي، وحضرتني بغتة ذكرى ساعة الخطابة المشثومة بكلمة الحقوق التي طوحت بي بعيداً عن الجامعة، فتهتدت من الأعماق في فتون قاتل. إن الإقدام فوق طاقتي، وربما كان بوسعي أن أقضي العمر على هذا «الطوار» باكياً، أما عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع، وبلغ مني الملح أن انقلب القلق الذي يساورني حتى تحرق القلب والرأس، ثم انقضت أيام قلائل عشتها فيما يشبه الهذيان، نسبت الثروة التي وقعت علي، فحمد حماسي للحياة والأمل، وتركز تفكيري في شيء واحد لا يتحول عنه، جعلت أدور حوله دون أن أجرؤ على الدنو منه، أو أستطيع الابتعاد عنه، ووجدت على أمي وجداً لم أحاول إخفاؤه، فقلت لنفسني في حلق بالغ: لو لم أحشها لبعثتها تحطب لي وتكفيني شر الحمى التي تسعر في كياني.

متى تنفثع هذه الغمة؟ لم أكن لأرى لها من نهاية لولا حادث عارض! كنت عائداً من الحلمية، فنزلت في العتبة حين الغروب، وصعدت إلى ترام الجزيرة الذاهب عن طريق الروضة كالعادة. وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والوقوف، فرحت أنزحزح حتى أسندت ظهري إلى باب مقصورة الدرجة الأولى. ولما غادر الترام الميدان بقليل سمعت نقرأ على الباب فأدرت أن أحد الراكبين يستأذن لفتحه فابتعدت عنه قليلاً دائراً على عقي لأفسح للقادم طريقاً، وفتح الباب عن وجه أعرفه، رأيت أمامي حبيبي دون غيرها! وثب قلبي وثبة عنيفة زلزل لها صدري، وغبت

فحزني الإشفاق من إفلات الفرصة إلى الدنو منها،
متشجعًا بالظلام، ثم قلت بصوت متهدج:

- معذرة... لا تؤاخذيني على تهجمي...

- ماذا تريد؟... وما هذا الذي فعلته أمام الناس؟
واشتد بي الارتباك، وكنت أسمع صوتها لأول مرة
فهزنتني به غنة لطيفة على حدته وغضبه، وقلت:

- أسألك المغفرة. إنني أود أن أقول لك كلمة من
زمن طويل ولم تهنيأ لي الفرصة إلا اليوم!

وشعرت بصعوبة شديدة في التعبير والكلام، وبأن
إحساساتي الحساسة يجونها الإفصاح، ووجدت قهراً
وضيقاً. وزاد من ضيقي أنها ولتني ظهرها بغير اكتراث
وعبرت الطريق إلى الطوار عجلة، فبعتها بسرعة
مندفعا، وقلت:

- أرجوك... لحظة واحدة، أصغي إليّ، كلمة
واحدة ثم يذهب كلانا إلى حال سبيله...

فقلت دون أن تنظر إليّ أو تكف عن السير:

- بأي حق تكلمني يا هذا؟

فهتفت بدون وعي مني:

- إنني أعرفك منذ أكثر من عامين...

فقلت بلهجة تنم على الانزعاج:

- ما هذا الافتراء؟

أيمن ألا تكون عرفتي؟! يا لي من غبي!... ألم
تدعن لإرادتي حتى نزلنا في هذه المحطة؟! يدل هذا
على أنها ترغب في سماع كلمتي... إن الفرصة
سانحة ولكنني أفسدها بالعمي والحصر والارتباك.
واستجمعت قواي وقلت بصوتي المتهدج المضطرب
النبات:

- إنني أتلهف على قول كلمة منذ أشهر وأشهر...

ماذا يضريك لو أصغيت إليّ؟!

لماذا لم أتكلّم بدل أن أسوق هذه المقدمات؟ اللهم
إنني أستعينك على حلّ عقدة لساني! وبدا لي أن حبيبي
فطنت لحجلي المميت. لم أدرك البواعث التي حملتها
على التوقف، ولكنني رأيتها تتحوّل نحوني وترمقني
بعينيها الجميلتين اللتين أحبها أكثر من نور البصر، ثم
تسألني بحدة:

رباه... ترى هل بلغ سمعها؟... أجل،...

رمقتني بعين دهشة وقد تورّد وجهها ورمشت عيناها!

ومسرّ وقت قاسٍ غليظ. جفّ حلقي وتوالت

ضربات قلبي في سرعة عنف، أية هاوية أوردني

جنوبي؟ لقد هوى المتجر وجاء دور الاستغاثة. مع

ذلك داخلني ارتياح عميق لأنّي زحزحت أضخم سدّ

اعترض حياتي. تكلمت، نطق الحجر ولو بعد حين،

لن أموت على أية حال وسرّي دفين صدري. ولكنّ

الترام لا يهلهني طويلاً، وإنه وشيك الوصول إلى محطة

حبيبي، وما هي ترمي بنظرها خلل النافذة، وما هي

يدها تتلمس مقبض الباب لتفتحه، سينتهي كل شيء!

وركبي الجنون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب

أمنع فتحه! من أين لي بهذه الجراءة؟! وبدا في الوجه

الجميل الاستياء، ورمقتني غاضبة، فهمست برجاء

كأنه البكاء:

- كلمة واحدة...

وتوقّعت لحظات قاسية أن تنقضّ الساعة على

رأسي! أن تزجرني أو تهزني فتستثير غضب

الحاضرين... ثم عليّ السلام! ما بي قوة لاحتلال مثل

هذا الموقف، ولكن وقع لأمتوتّ حيث أنا! ووقف الترام

ويدي قابضة على الباب، ثم تحرك ثانية وهي بمكانها

مقطبة مستاءة ولكن دون أن تبدي اعتراضاً جدياً أو

ثورة علنية! وسرت في جسدي رعدة السرور والظفر

والجنون وخيل إليّ أني أتحوّل إلى عملاق جبار يخرّ له

الموت نفسه صريعاً بضربة واحدة. وانتظرت حتى

ابتعد الترام محطّتين ثم فتحت الباب وأنا أهمس

«تفضلي» فدارت على عقبيها بحركة عصبية وسارت

تشقّ لها طريقاً وسط الزحام وأنا أتبعها، واعترض

نشوتي خاطر، ألا يكون استسلامها حياءً وارتباكاً

وتفادياً من الفضيحة؟! ألا يُجتمل أن تكون قد كظمت

غضبها حتى تصبّه عليّ في الطريق بعيداً عن أعين

النظارة؟ وأوشكت قواي أن تخذلني، وغادرت الترام

وراءها وأنا قلق مضطرب، كانت الظلمة غاشية

والطريق كالمقفر إلا من سيّارات تذهب وتحجيء،

وابتعدت عني بسرعة وهمّت بعبور الطريق إلى الطوار،

- إني أدرك هذا، بيد أنني خفت أن يكون أحد قد

سبقني...

فقلت بصوت لا يكاد يُسمع:

- هب هذا حصل...

فهتفتُ في إشفاق وحسرة:

- أأفلتت الفرصة من يدي؟!

فنضخت قائلة:

- لا تتبعني إلى أكثر من هذا لأني أقرب من

البيت...

فسألتهما قلبي يفزع بكلّ قواه إلى التملص من

قبضة اليأس:

- أليس ثمّة رجاء؟

فقلت وهي تحمّ خطاها:

- لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن...

وتوقفتُ عن السير، ولبثت هنيهة جامدًا ذاهلاً. ثمّ

صحّت وأنا أفرق بأصابعي: يا لي من غيبي! لو أنّها

أرادت الرفض لما أعوزها الجواب القاطع! ألم تدعن لي

في الترام؟ ألم تصغريّ مني منذ دقائق؟ ألم تقل لي إنّها

ليست هي التي تخاطب في هذا الشأن؟ ففيم أطمع

وراء ذلك؟ إنّها دعوة متوارية لطيفة. وشاع في نفسي

سرور كالخمر، وخيّل إليّ أنني أترنح كالثمل...

٣٤

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجّع

في قلبي أعذب الألحان. تملّكني شعور بالقوّة لا حدّ

له، وازدهاني الغرور والزهو، وحييت في الدقيقة

الواحدة دهرًا طويلًا من السعادة الصافية. وقلت وأنا

أرتقي السلم: «سأفتح أمني بالأمر كلّ». فلتها بلا

خوف ولا تردّد، ربّما بلا رحمة أيضًا، وطرقت الباب،

ففتحت لي بنفسها وهي تتمتم مبتسمة كعادتها:

- أهلاً بنور العين...

وجدتها على الأناقة التي أحبّ أن تلقاني بها،

وتفرّست في وجهها الوديع السووق المشرق بابتسامة

الترحيب، فبدت لي خطورة ما أنا مقدم عليه،

- ماذا تريد؟

ماذا أريد؟! لم يتيسّر لي القول بعد؟! ها هي تنتظر

الكلمة التي أنعبتها في استئذان قولها، ألم أكن

أعددتها؟ وجدت رأسي فراغًا وكأني فقدت النطق.

ماذا ينبغي أن يقال؟ وازدردت ربيّ الجفاف في شبه

قنوط، ثمّ بدا منها ما يدلّ على نفاذ الصبر، والتحفّز

للسير، فخرجت عن صمتي هاتئًا:

- صبرًا، أرجوك... أنا أريد أن أقول... إني

راغب في... (وقفت عبارة «طلب يدك» في

زوري)... إنّك تفهمين بلا شكّ، أليس كذلك؟!

فهل يمكن هذا؟!

فتأففت وقالت:

- لا بدّ أن أعود إلى البيت فلا تتبعني من

فضلك...

وتولّاني الهلع فقلت مندفعًا بلا تردّد هذه المرّة:

- إني أفكر... أعني أنّي أرغب في طلب يدك إذا

سمحت لي...

وتهدّدت بصوت مسموع، وغمرني ارتياح

واستسلام، تكلمت أخيرًا ونفست عن صدري وليكن

ما يكون...

ومضت ثانية من الصمت العميق مثل الهدوء الذي

يعقب عاصفة هوجاء، ثمّ أخذتُ تسير في خطوات

قصيرة دون أن تنبس فعاودني الجزع وتبعتها وأنا أقول

كمن يستجدي الجواب:

- هذه كلمتي...

فقلت بصوت منخفض خيّل إليّ أنّه بلغ أذنيّ هادئًا

لا أثر فيه لحدة أو غضب:

- لا يليق بك أن تتبعني هكذا.

فقلت بعجلة ولهوجة:

- إني استأذنتك فلا تركبني بغير جواب...

فقلت بضيق:

- لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن!

فخفقت قلبي بعنف وفاض به سرور لا يوصف

وقلت:

- ما أسعدني بذلك! هذه هي السعادة حقًا. ترى هل جاءتك هذه النية اليوم؟ الآن؟ لماذا لم تخبرني قبل اليوم؟! مبارك، مبارك يا بني.
وأزعجني تهديج صوتها، واضطراب نبراتهما، وانفعالها الظاهر، فقلت:
- إني أستأذنك لأني أحب دائمًا أن تكوني راضية عني.

فهمتفت في لهوجة:
- وهل تتصور أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاي؟ يا الله، أبعد هذا الحب كله أجزى عنه بالتشكك في إخلاصي؟... ستجدي راضية عنك ولو قتلتني، أتسى أن حياتي كلها لك؟
فازدردت ريفي وقلت وأنا أحتلس منها نظرة قلق:
- إني أعلم هذا وأكثر يا أمه.
فلاح في وجهها وجوم شديد وبدا عليها أنها تحاول عبثًا أن تضبط عواطفها:

- هذا ما يعلمه القاضي والداني. وآية أم لا تفرح لزواج ابنها ولو كانت وحيدة ليس لها سواها! هذه حكمة الحياة، أن أحتضنك العمر كله ثم أسلمك شابًا رائعا لعروسك، إني أبكي من الفرح.
اغرورقت عينها وهي تتكلم، ونظرت إليّ خلال دموعها وكأني ارتاعت لوجومي، فقالت معتذرة:

- معذرة يا كامل، ليست هذه بدموع... إنها دموع الفرح، بيد أنك فجأتني مفاجأة، ولم تلتطف في إخباري، ولكن لا داعي للتلطف، ألا ترى أنني أعتذر بما هو أقيح من الذنب؟ ليغفر لي ذنبي حبي الكبير وحسن نيتي وقلبي الذي وهبتك إيّاه وإن لم تعد بك حاجة إليه... وإنك لتعلم بأنني إذا انفعلت أفلت زمام لساني من يدي. إني أهتلك بمن اخترت لنفسك، ولكن هل نبتت هذه الرغبة الآن فحسب؟ إني لا أطيق أن أتصور أنك زغبت في الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة. أكنت ترغب في الزواج من زمن طويل؟
فقلت وأنا أداري بابتسامة مينة:

- كلاً يا أمه ما فكرت في ذلك إلا من زمن قصير حين بدا لي أنني كبرت...

واعتراني وجوم وخوف، وقلت لها في تردّد غابت عنها أسبابه وبواعثه:
- لننتقل عمّا قريب إلى مسكن لائق، لأعيدنّ إليك خدمك وحشمك!
فابتسمت وقالت:
- هذه أسعد أيام حياتي لأني أقوم فيها على خدمتك.

وخلعت ملابسي، وعدت إلى الصالة فجلسنا على كنبه متجاورين وأنا أقول بقلبي: «اللهم عونك ورحمتك». واستحوذ عليّ القلق والحياء، إنها مهمّة شاقّة، محزنة، ولكن ما منها بدّ. واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة، غافلة عمّا أضمره لها، فوخزني الندم، وكادت تتخلّى عني قوّة التصميم. بيد أنني أشفقت من عواقب التردّد والاستسلام لدواعي الخور، فرميت بنفسي في الهاوية قائلاً:
- أمه أريد أن أحدثك بأمر هام...

ورمقتني بنظرة غريبة، خلتها مريبة متوجّسة، حتى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كله بقوّة إلهام خارقة... أتمت نبرات صوتي على ما يدور بنفسي؟! أم فضحتني نظرة عيني؟! أم لم يكن هناك شيء مما حسبت وشبهه لي الوهم ما لا حقيقة له؟! أنا هي فقالت بهدوء وتساؤل:
- خير إن شاء الله...

وصمّمت أن أجوز منطفة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعراً خوفاً لا مراء فيه:
- سأتوكّل على الله وأتزوج...

رنت كلمة «أتزوج» في أدني رنيناً غريباً، أنكرته، وأخجلني كأنما تفوّهت بلفظة جارحة معيبة! رفعت هي عينيها إليّ في دهشة، وأتسعت حدقتها، ولاح فيها ذمول وغباء كأنها لم تفهم شيئاً، ثم تساءلت:
- تتزوج؟!

وكنت قد تحطّيت أكبر عقبة فأمكنني أن أقول:
- أجل... هذا ما اتبوتته.
ونذت عنها ضحكة منقطعاً بالاضطراب والارتباك أشبه، وقالت بصوت متهدّج:

استسلام، وسألت بصوت هادئ، بل هادئ جداً:
- من؟

- لا أدري بالضبط، الراجح أنها مدرسة، وهي
تقطن العمارة البرتغاليّة أمام القصر العيني.
فاعودتها الدهشة، وتساءلت:

- ألم تحدّث بأمرها أحدًا؟

- مطلقًا!

فتفكّرت مليًّا ثمّ واصلت حديثها:

- ليس من المحتمل أن تكون مخطوبة، «وهنا خفق
قلبي بعنف»... ثمّ ألا تدري عن أهلها شيئًا!...
من أبوها؟

- لا أدري...

- ألم أقل لك إنّك طفل... الزواج أخطر ممّا
تظنّ. لعلّ وجهها أعجبك، وهذا شيء لا وزن له.
المهمّ أن تعلم آية فتاة هي وأيّ قوم أهلها، وما
مكانتها، وما أخلاقهم. الشابّ في الواقع يتزوّج من
أسرة لا من فرد، وينبغي أن يطمئنّ قبل أن يخطو
الخطوة الأخيرة إلى من ستغدو أمًّا لأبنائه ومن يكونون
أحوالًا لهم.

وتولّاني الارتباك، وأحسست بحقن لأوّل مرّة فقلت
بيقين:

- أسرتها كريمة... لا يداخلي في هذا شكّ.

- ومن أدراك؟

فقلت بلهجة من لا يجتمل في ذلك جدلاً:

- إني واثق.

فبدأ في وجهها الاستياء وقالت:

- مدرسة! إنّ بنات الأسر الطيّبة لا يشتغلن
مدرّسات! والمدرّسة إمّا أن تكون عادة دميمة أو
مستهترّة مسترجلة.

فوخزني ألم في صميم الفؤاد وهتفت بحدّة:

- يا لها من آراء فاسدة!... أنت لا تدريين شيئًا
عن الدنيا التي نعيش فيها، لقد تغيّر كلّ شيء، ولا
شكّ أنّها فتاة كاملة ومن أسرة عالية!

وغلّبتها الانفعال على هدوئها المصطنع فقالت
بنرفزة:

فندّبت عنها ضحكة هستريّة، وصاحت:

- اسمعوا يا هوه، كامل يبدو أنّه كبر! وأنا؟! لا بدّ

أني عشت أكثر ممّا ينبغي!

فتأوّهت قائلاً:

- أمّاه، إنّك تحزنييني.

- لا عاش من يحزنك. الأمّ التي تحزن وليدها لا

تستاهل نعمة الحياة... ولكنك تقول على نفسك

بالباطل وتزعم أنّك كبرت. يا لك من طفل

مكابراً!... لكأني أراك تحبو، وأنت تركب منكبي،

ثمّ وأنت تحتال في برّة الضابط وضمفيرتك تهذّل على

كتفك، فكيف تدّعي الكبر؟!

فقلت مغتّبًا:

- ألسّت على عتبة الثامنة والعشرين!

- أصغر أبنائي على عتبة الثامنة والعشرين! يا لي

من امرأة عجوز! لتكن مشيتك. ومهما يكن من

عمرك فستكون أصغر الأزواج، وسأفرح بك فرحًا

ليس وراءه مذهب لفرحان. ولكن ما بالك واجمًا...

أساءك كلامي؟ يعلم الله أنّي لا أحسن الكلام، ولكنّ

الموت أحبّ إليّ من الإساءة إليك...

فقلت بقلب ثقيل:

- ساعحك الله يا أمّاه...

فابتسمت: أي والله ابتسمت وقالت مصطنعة

المرح:

- لنُدع هذا جانبًا، ولنقدّم الأهمّ على المهمّ. أصغ

إليّ يا كامل، تزوّج بالهناء والسرور، وسأخطب لك

إذا أمرتني.

فتردّدت لحظة ثمّ تملكني الضيق فقلت:

- ليس ثمّة اختيار، فقد وقع اختياري.

فرنّت إليّ بدهشة، ولاذت بالصمت مليًّا، ثمّ

تساءلت:

- متى تمّ ذلك؟

- منذ زمن يسير...

فلاحت في عينيها نظرة لوم وعتاب كأنما عزّ عليها

أن أكتمها هذا الأمر الخطير، ثمّ خفضت عينيها في

مرة أجمع الرأي فيها على قرار حتى أجد همسه يفت في عضدي وينغص صفوي... بيد أن سعادي هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر.

٣٥

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المحطة وبي أمل جديد مسكر. وكأنا كانت تنتظري، رأيتها وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض. واستحفني الفرح فابتسم مني الفم والعينان والقلب، وتسامت إليها عيني في شجاعة غير معهودة. وما كان أشد سروري وسعادي حين رأيت الوجه الصييح يجود بابتسامة. انتهى عهد التعاسة والحرمات، وانقضت ظلمة النفس، ولاحت طلعة حبيبي بعد اختفاء طويل معذب، وصرنا أصدقاء تبادل الابتسام! يا لها من حقيقة لا تصدق! حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون لكلام الأمس معنى غير الذي فهمته. أما بعد هذا الانتظار المثير وهذه الابتسامة المشرقة فاستطيع أن أستسلم لنداء السعادة في صفاة لا يشوبه شك. ذهبت إلى الوزارة كالنمل. ما أغربك يا دنيا! إن من يتعسه الحظ برؤية تجهمك لا يتصور أنك تجودين بمثل هذه الابتسامة. وتملت الحقيقة التي لا تصدق، ابتسامة حبيبي، فقلت لنفسي إن معنى هذا أن أبواب السماء مفتحة تسح على قلبي هناء، ولكن لا يجوز أن أجد أو أن أصمت بعد اليوم، وفزت بابتسامة أخرى عند الأصيل، وثالثة في صباح اليوم التالي، وشعرت بأنه ينبغي أن أقطع الجمود بالعمل الحاسم. وجاء صباح الجمعة بعد ذلك اليوم، فغادرت البيت في معطفي الأسود بادي الأناقة، ممتلئاً تصميمياً وعزماً. ووجدت حبيبي في الشرفة تتشمس. فتبادلنا تحية الابتسام ثم ألقبت على ما حولي نظرة حذرة. وأومأت إليها أن تنزل لمقابلتي، يا لها من جراءة! من كان يصدق هذا؟ وثبت نظري عليها في إشفاق وخوف، ورنرت إليّ بهدوء، ثم جرت على شفيتها ابتسامة لطيفة وتراجعت إلى الداخل، هل تحييء لمقابلتي؟... رباه لقد قضيت ليلة الأمس كلها في عمل «البروفات» هذه

- لا داعي لإهانتني من أجل فتاة مدرّسة لا تعرف عنها شيئاً! وما قصدي إلا إرشادك لما فيه خيرك... اشتد بي الحق، ولو أنني استسلمت له لنفوّت بما أندم عليه، ولكنني ضبعت نفسي وقلت برجاء: معاذ الله أن أقصد إهانتك، فأرجو أن تمسكي عن كلام يسوؤني...

فدارت انفعلها بابتسامة، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم:

- إن ما يسوؤك يسوؤني، وما يسعدك يسعدني، ونصيحتي إليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطو موضعها، وفكك الله لما فيه الخير والسعادة. فضغطت على يدها برقة، وقلت بصوت ملؤه التردد:

- إن رضاك عني بالدنيا وما فيها... فابتسمت قائلة:

- سيدعوك قلبي آنا الليل وأطراف النهار... وساد الصمت ملياً حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطراً يلح عليها أن تفضح عنه، وخالستني نظرة قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت في حذر وإشفاق:

- ألا يحسن بك أن تؤجل الشروع في الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك؟ إن أخوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولما ينته الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لهفة؟!

ولم أكد أصدق أذن!... وبدا لي قولها نوعاً من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وعاودني الحلق والغيط، وكادت أنفجر غاضباً، ولكنني استمسكت بالصمت حتى ولت العاصفة، ثم قلت:

- لن يتم الزواج على آية حال قبل مضي عام... وانتهى الحديث عند ذلك كما تمنيت، وشعرت بأنني تحطيت أكبر عقبة في سبيلي. وكان ينبغي أن أكون سعيداً، وقد كنت سعيداً بلا شك، ولكن شاب سعادي إحساس بالقلق طالما عذبني في حياتي. إنه لا يفتأ يطاردني حتى في أحفل ساعاتي بالسرور، وما من

- صباح الخير...

وغمرني ردّ التحية بسرور، فسرنا جنبًا إلى جنب وأنا أقول في نفسي بحرارة: «يا سيّدة يا أمّ هاشم نظرة!» كنت خائفًا حقًا شديد الارتباك والحجل. وحاولت أن أتذكر «بروفات» أمس، ولكنّ الاضطراب غلبني على أمري فوجدت رأسي خاويًا ولساني منعقدًا، وقطعنا مسافة غير يسيرة دون أن أنبس بكلمة. كيف أبدأ الحديث؟ ما عسى أن أقول؟ وتولّاني ضيق شديد لأنّي أدركت بطبيعة الحال أنّه ينبغي أن أتكلّم، وأنّه لا يليق بي أن أصمت هكذا، ومع ذلك فلم يفتح الله عليّ بكلمة واحدة، وبدا كأنّ الكلام وظيفة لم أمارسها قط. وكأنّها أدركت سرّ ارتبائي، فنظرت إليّ وعلى شفيتها ابتسامة رقيقة، فابتسمت في حياء شديد، ولم أجد ما أقوله إلا أن أعيد التحية قائلاً:

- صباح الخير.

فازدادت ابتسامتها اتساعًا وقالت:

- صباح الخير.

ربّاه! أفلس معجمي، وعُدت إلى العذاب مرّة أخرى؟ إنّي أشعر كأنّ يدين حديديّين تشدان على عنقي. ولن أتحمّل هذا الموقف المزري أكثر من هذا. وتملّكني اليأس فغلب في نفسي الحجل واستغثت بها قائلاً:

- أعذريني!... لا أدري ماذا أقول... هذه أوّل مرّة أخاطب فتاة...

ولم تتمالك نفسها فنذت عنها ضحكة قصيرة، ولعلّها تشجعت بحيائي نفسه، فتعلّبت على حيائها، وقالت في دعابة:

- بل هذه ثاني مرّة إن صدقت...

آه! إنّها تشير إلى مطاردتي لها منذ ثلاثة أيّام! وذكرتها بدهشة، كأنّي لم أكن بطلها الجريء. مهسا يكن من أمر فقد شجعتني دعابتها وخففت عني الارتباك والحياء، وأمكنتني أن أقول:

- لا تسيئي بي الظنّ. فوالله لو أسعفني لساني لما وسعتني الدنيا كلامًا...

المقابلة المأمولة. ولاحت الشقيقة الصغرى في الشرفة، ثمّ تبعتها الأمّ بعد قليل، وجعلنا نظران نحوي، هل تعلمان؟ هذا ما أتمناه حتى آمن خطر محمّد جودت. وبدت حبيتي وراء النافذة وهي ترتدي معطفها، فحقق فؤادي خفقة عنيفة، وانتظرتُ كمن في حلم. ومن عجب أنّ إحساسي بالسعادة تغيّر فجأة، فتر، كأنّه صوت جميل اعترضته سعلة، وساورني قلق لم أدر سببه، وحيرة مؤلمة كأنّي أحاول أن أتذكر أمرًا هامًا يضرّ به النسيان، ثمّ شعرت بخطورة الخطوة التي أرفع رجلي لأخطوها، فاستحوذ عليّ التردد والخوف، ونازعني نفسي إلى الهروب! بيد أنّها كانت لحظة عابرة، ولت عني بسرعة، فاستعدت الثقة والسرور، وتنهّدت في ارتياح عميق، ورحت أقطع الطوار محبورًا سعيدًا في انتظار حبيبة القلب المشوّق... ثمّ رأيتها تبرز من باب العمارة في معطف سنجابيّ فارعة أنيقة مليحة، وجاءت المحطّة تحظر في خطواتها الوقور ووقفت بعيدًا عني. وكانت الأمّ في الشرفة كأنّها تبارك اللقاء وتضفي عليه شرفًا، فشعرتُ - إلى سعادتني - بالمسئولية. وجاء الترام الذي سيقلّنا، فنظرت إليه بامتنان ودعوت له بالسلامة ولسائقه بالسعادة وزيادة الأجور! وصعدنا معًا، ورأيتها تتجه على غير عاداتها إلى مقصورة الدرجة الأولى فتبعتها على الأثر، ولم يكن بالمقصورة إلا رجل وامرأة، فجلست فتاتي موزّدة الوجه من الحياء، ولعلّها انتظرت أن أجلس إلى جانبها، وأن أسلمّ عليها، ولكنّ خانتني الشجاعة فجلست على المقعد المقابل في ارتباك وحياء وسخط على نفسي. وسار الترام يطوي الطريق، وأنا أخالسها النظر في صمت وصرير، حتى عبر الترام جسر عبّاس. فهضت قائمة وغادرت المقصورة وأنا في أثرها، ونزلنا في المحطّة التالية. وسارت صوب شارع يمتدّ وشاطئ النيل، فتبعتها، وتدانيت منها بقلب خافق، متعثرًا في حجل قهّار وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير...

فابتسمت دون أن تلتفت إليّ وغمغمت في مثل حيائي:

- ماذا أعلم ترى!

فلذت بالصمت لحظات أستجمع قواي، وقلت:

- ما تعلمين من أيّ...

ورسمت شفّيتاي «أحبك» دون أن تنطقا بها،
ولكنّها رأّت وفهمت بلا أدنى شكّ. وخفضتُ بصري
حياءً، ودقّ قلبي بعنف. وانتزعتني من الوجود غيبوبة
عابرة غيّبتني عنّا حولي. واسترقت إليها النظر فألفيتها
صامتة رزينة مورّدة الوجه. هذه لحظة مقدّسة. أجل
إنّ الزمن لينوء بما يحمل من جلائل اللحظات التي
مرّت بالإنسانيّة في تاريخها، ولكنّ هذه اللحظة من
أجلّ ما عرف الزمن رغم هذا كلّه. ولن ينقص منها
أنّها معادة وأنّها تحدث كلّ يوم آلاف المرّات في بقاع
الأرض الواسعة، فهي الشيء الوحيد المعاد الذي لا
يُملّ، وما ينبغي أن يُملّ وهو يتضمّن سرّ الوجود
الأعظم، ألا وهو الحبّ. لم يكن بوسعي أن أضّمّها
إلى صدري - لا مرور قافلة جمال تحمل برتقالاً - ولكن
لأنّه لم يكن بوسعي أن ألسها على الإطلاق، وقطعنا
شوطاً صامتين، وحال حياتي دون مواصلة الحديث في
هذه النقطة بالذات، وعاودت التفكير في المسألة من
وجوهها الأخرى فقلت مبتسماً:

- وماذا تمّ من أمر محمّد جودت؟

وحدجتني بدهشة عظيمة، وسألني:

- من أدراك به؟

فقصصت عليها نبأ المقاتلة التي تمّت بين محمّد
جودت وبينني وهي تصغي إليّ باهتمام شديد، ثمّ
قالت:

- إنّه رجل فاضل محترم، وموظّف كبير، وقد رحّب
به أبي، أمّا أمّي فقابلت عرضه بفتور لأنّه يكبرني
كثيراً، ولأنّه سبق أن تزوّج وله بنت في الخامسة
عشرة. وقد حادثت أمّي عن لقائنا في الطريق منذ
ثلاثة أيّام... فاشترطت أن يعرفوا عنك كلّ شيء قبل
أن تلعن عن رأيها.

وخفق قلبي في مزيج من سرور وقلق، وسألته وإن
لم أكن في حاجة إلى السؤال:

- وهل تعلم بمقابلتنا هذه؟

وضحكت وهي تصعد في نظرها وتصوّب ثمّ
قالت:

- ألا ترى أننا لم نتعارف بعد؟

أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال. ليت الحديث
يكون أسئلة من ناحيتها وأجوبة من ناحيتي! وقلت
بارتياح:

- كامل رؤية لآظ بوزارة الحربيّة.

وتمنّيت لو كان في الإمكان أن أخبرها بإيرادي
الشهريّ وثروتي المنتظرة، أمّا هي فقالت:

- ربّاب جبر مدرّسة بروضة الأطفال بالعباسيّة.

وأعجبني الاسم، فأحبّيته كما أحبّ صاحبتّه،
وغمغمت كأنّما لأستعيد وقعه في أدنيّ:

- ربّاب!...

ووجدت أنسًا وشجاعة فقلت ببساطة:

- تصوّري!... إنّي أداوم على اختلاس النظرات
من وجهك من عامين وحتىّ اسمك لا أعرفه!

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل وقالت:

- عامين!

فسرّرتي دهشتها وقلت بحماسة:

- أجل من قرابة عامين، ألم تظفني إلى هذا؟!

فقالت ضاحكة وأنا أجمع انتباهي في أدنيّ لأتملّي
الصوت الذي شاقني استماعه طويلاً:

- منذ أشهر فقط! ما أجمل صبرك!

هذه وخزة بلا ريب! كأنّها تقول لي: وما الذي
أسكنتك حتّى أوشكت الفرصة أن تفلت من بين
يديك! وانتهزت الفرصة لأصرّح بما وددت لو كنت
صرّحت به، فقلت وقد أصبح الكلام ممكناً:

- قبل منعني ظروف قاسية، لم يكن بوسعي أن
أ تقدّم وأنا غير كفاء لك، ثمّ تغيّرت الظروف
وتحسنّت الحالة فلم أتردّد عن اعتراض سبيلك في
الترام في جنون أخرجني عن وعيي، فالحقّ أنّي لم أنتظر
وأنا قادر إلّا أيّاماً معدودات وإن كنت... (كدت
أقول: «وإن كنت أحببتك منذ عامين» ولكنّي
عجزت)... وإن كان ما تعلمين منذ عامين.

ونظرّت فيا أمامها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقالت:

- أرشدني الآن إلى ما ينبغي فعله .
 فسألني في دهشة قائلة :
 - ماذا تعني ؟
 فقلت بحيرة :
 - ينبغي أن أتقدم لطلب يدك .
 فنظرت فيا أمامها بحيرة ولم تنبس . وكنت في حيرة
 من أمري فسألتها :
 - كيف . . . كيف يخطف الناس عادة ؟
 فنذت عنها ضحكة رقيقة ، وقالت برقة :
 - بوساطة السيدات أو بالاتصال الشخصي ، ألم تدر
 شيئاً عن هذا ؟
 وذكّرتني قولها «وساطة السيدات» بأمي فانقبض
 قلبي فيها يشبه الذعر . ثم تساءلت ترى هل أستطيع
 أن أقوم بما يتطلبه الاتصال الشخصي من لباقة
 وشجاعة ؟ وذكّرت عند ذلك أنني لا أعرف شيئاً عن
 أيها فسألتها :
 - هلاً تكرّمت وأخبرتني عن والدك !
 فحدجنتني بنظرة ملؤها الشكّ وغمغمت :
 - ألا تعرف عنه شيئاً ؟
 فقلت ببساطة وصدق :
 - كلاً والأسفاه . . .
 وأدركت أنها كانت تظنني نشطت لمعرفة ما ينبغي
 معرفته عن الأسرة التي أطمح للاندماج فيها ؟ وعجبت
 كيف أنني لم أحرك ساكناً طوال عهد حبي قانعاً بالنظر
 واللهفة واليأس . وقالت رباب بلهجة لا تخلو من
 زهو :
 - جرب بك السيد مفتش ريّ بالأشغال . . .
 فقلت بإجلال :
 - تشرفّت .
 واستشعرت ثقل التبعة الملقاة على عاتقي ، ولكنّي لم
 أجد بداً من أن أقول :
 - سأقابلة بنفسي ، متى يحسن أن أقابله ؟
 - في بحر الأسبوع القادم لأنه سيسافر بعد ذلك في
 رحلة تفتيشية كعادته ، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب
 عودته من الوزارة . . .

فابتسمت ولم تحر جواباً ، وذكّرت «وظيفتي» بعدم
 ارتياح وخجل ، ولكن لم يخاطر لي على بال أن أكذب أو
 أبذل من الواقع فقلت :
 - إنّي كما قلت لك موظف بالحريّة ، ولكن لي دخلاً
 ستة عشر جنيهاً من أوقاف ، وأملك إلى ذلك قدرًا من
 المال يجاوز الألف الجنيه ، وليس في سيرتي ما يشين ،
 وسترين إذا ما تحروا عني أنني التزمت الصدق حقاً . . .
 فابتسمت قائلة في إخلاص :
 - لا شكّ في هذا مطلقاً .
 ورنوت إليها بامتنان عميق ، وذكّرت في تلك
 اللحظة آلامي وما عانيت من تشوّق إليها وحسرة
 عليها فهزني سرور يجمل عن الوصف . بيد أنني
 تساءلت في خوف : ترى هل أروق في عيني الأمّ؟ . . .
 ألا تستصغر وظيفتي ، أو لا تجدني أهلاً لهذه الأستاذة
 المحبوبة؟ . . . وانقبض قلبي ذعراً ، وحدّثني نفسي
 بأن أقاتحها فيما يكدر صفوي ، ولكنّ عقّلي الحياء . ثم
 خطر لي خاطر جديد فسألتها على الفور :
 - هل تواصلين العمل في وظيفتك إذا تمّ الأمر كما
 أرجو ؟
 - ولمّ لا ؟ إنّي أحبّ عملي حباً جماً ، وكثيرات من
 زميلاتي . . .
 وأدركت ما كانت على وشكّ قوله فخفق قلبي
 بغبطة ونظرت إليها نظرة حبيّة ملؤها الحبّ والأمل ،
 ثمّ قلت برضا :
 - هذا حسن . . .
 ساد الصمت قليلاً فعلا وقع أقدامنا على أرض
 الطريق المفروشة بأشعة الشمس ، ولاحت منّي التفاتة
 إلى النيل فرأيت صفحته السمراء تترقرق تحت لؤلؤ
 النور المشور ، وأخذت أتصفّح وجوه المارّة القلائل
 الذين يمرّون بنا في حياء وارتباك . وقد لظفت الشمس
 من برودة الجوّ وبنت في حنايانا نشاطاً وجبوراً فشعرت
 بطيب الحياة كما لم أشعر به من قبل ، وامتلاأت امتناناً
 حتّى وددت لو ألتهم الثرى شكرًا . بيد أنني لم أنس ما
 يشغلني من خطير الأمور ، أو ما يبدو لي من خطيرها ،
 فلذلك سألتها :

بسطة لأتمالك أنفاسي . حتى طالعي باب الشقة المغلق
فخارت قواي، ووسوست لي نفسي أن أعود، أن أفر
بنفسي، أن أوجّل الزيارة الخطيرة ليوم آخر. ولكنّي
نفيت عني فكرة التأجيل بغضب، وبدا لي أن أنزل
وأن أخفف عن توتر أعصابي بالمشي ومعاودة ترتيب
أفكاري. وهمت بالتراجع، ولكنّي تساءلت في
اللحظة التالية ألا يرتاب البواب في أمري إذا رأي
نازلًا بعد دقيقة من مخاطبته ثم رأي بعد دقائق عائداً
إلى العمارة؟... وعدلت عن فكرة النزول، ووقفت
مع ذلك ساكناً لا أبدي حراكاً. وحمد بصري على
الباب حتى خلت ثقبه عيناً تحدق في وجهي بسخرية.
وانتقلت عيناى إلى زرّ الجرس وثبتت عليه بخوف
وهلع. ما عسى أن يحدث لي لو فُتح الباب فجأة عن
وجه من الوجوه التي أعرفها وتعرفني! وتميّت في تلك
اللحظة لو كانت حياتي واصلت مسيرها الوئيد دون أن
تصطدم بهذا الحبّ الذي قلبها رأساً على عقب!
وجاءني بغيّة صوت رفيع من الداخل يصيح: «افتحي
الراديو يا صباح» فارتعدت أوصالي وأرهفت السمع في
خوف متزايد. ويلى منك يا أمّاه، أما كان الأفضل أن
تكوني في مكاني هكذا؟ ثم قرع أذنيّ وقع قدمين
صاعدتين فتضاعف اضطرابي ولم أجد من التقدّم
مناصباً، وتدائنت من الباب، ورفعت يدي إلى زرّ
الجرس، وترثيت لحظة في اضطراب، ثم ضغطت
عليه فرنّ رنيناً مزعجاً، وتحتيت جانباً، منتظراً في
حالة يرثى لها. وفُتح الباب وبرز وجه أسود كالفحم
لجارية في الخمسين، فحدجتي بعينين برّاقتين وقالت:
- أفندم؟

وقلت وأنا أتمنّى أن يكون البك خارج البيت لسبب
أو لآخر:

- جبر بك موجود؟

ولكنّها أجابت قائلة:

- نعم يا سيدي... مين حضرتك؟

فاستخرجت من محفظتي بطاقة وقدمتها لها قائلاً:

- أرجو أن يأذن لي البك بمقابلة قصيرة...

ومضت الجارية بالبطاقة وانتظرت خافق الفؤاد

وكنا قد توغلنا في الطريق طويلاً فاقترحت أن
نعود، ودرنا على عقبينا عائدين. ولم نتبادل في عودتنا
إلا كلمات قلائل، وكنت من السعادة في حلم، ولكنّي
لم أغفل لحظة عما أنا مقبل عليه من جلائل الأمور...

٣٦

واستحوذ عليّ الخوف والقلق، وعاودني ذلك
الإحساس الخائق الذي قهرني يوم دعاني أستاذي بكلية
الحقوق إلى منصّة الخطابة. هل تستطيع قدماي أن
تحملاني إلى بيت جبر بك؟ هل أستطيع مكاشفة
الرجل بما في صدري؟ اللهم أدركني برحمتك فإنّ الحبّ
يركبني مركباً صعباً لا يقبل لي به، ولما ضقت بالواقع
المخيف روحت عن نفسي بالأحلام، فرأيتني في جزيرة
مهجورة، وليس بها حيّ إلّاي وحيبتي، حيث الحبّ
لا يسيم المحبّ خطبة ولا كلاماً ولا اتصالاً بأحد،
وهفت نفسي في محنتي إلى تلك الجزيرة المهجورة.

ومضى السبت والأحد في عذاب نفسيّ عنيف،
فصممت على أن أستجير من عذاب الفكر بقاء الخطر
وجهاً لوجه. وغادرت البيت عصرًا بعد أن أخذت
زينتي، وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية
الكرسي. ولما عبرت الجسر ولاح لي عن بُعد جانب
من العمارة ثقلت قدماي وكدت أرجع من حيث
أتيت، ولكن كان تصميمي راعياً، وكان إشفائي من
أن تستبطئ حبيبي قدومي لا يدع لي فرصة للتردّد.
وجعلت أشجع نفسي قائلاً إنّه لو لم يكن ثمّة أمل لما
رضيت حبيبي بأن تلقاني يوم الجمعة، ولما مهّدت
السيبل لمقابلة أبيها، ودفعت قدمي الثقيلتين فأخذت
أقترب رويداً من العمارة. ولم يكن بالنافذة ولا الشرفة
أحد فارتحت لذلك لأنّي اضطرب في سيرتي تحت وقع
الأعين، ثم وجدنتي مقبلاً نحو البواب، فوقف الرجل
متسائلاً فقلت:

- جبر بك السيد.

فقال:

- الدور الثاني...

وارتقيت السلم في رهبة وخوف، متوقفاً عند كلّ

- إني تشرفت بعرفتك يا أستاذ كامل! ... ترى
أحضرتك من حيننا هذا؟
فقلت وقد سررت بما هيأ لي من سبب للحديث:
- نعم يا بك، إني من سكان منيل الروضة!
- حيّ هادئ لطيف.
فقلت وقد آنست إليه:

- وإني من مواليدته أيضًا، وقد أقام به جدّي
الأميرالاي عبد الله بك حسن منذ أكثر من سبعين
عامًا!
فقال متفكرًا:

- عبد الله بك حسن! ... أظنني سمعت بهذا
الاسم! أهو جدك لوالدك؟
فقلت مضطربًا:
- كلاً، إنه جدّي لأمي، أما أبي فمن أسرة
لاظ...

- وهل كان ضابطًا أيضًا؟
فقلت وقد تزايد قلقي:
- كلاً... كان أبي رحمه الله من الأعيان...
فابتسم قائلاً:

- حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيرًا ما
يرتبطون بالزواج فيما بينهم...
وآمنت على قوله، وسكت الرجل فلم أجد ما
أقوله، وعدت إلى تذكر محفوظاتي فحضرتني الجملة
الخطيرة التي يتوقّف عليها حقلي في الحياة، ولكن
خائني لساني، فلذت بالصمت، وما لبث أن عاودني
الاضطراب والهلع، والتهب رأسي حياء وارتباكًا، وفي
تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة - التي تعرفني حقّ
المعرفة - تحمل صينية الشاي، فوضعتها على منضدة
مكفّت سطحها بمرآة مصقولة، وتراجعت وهي تداري
ابتسامة خفيفة! ورحبت بدخولها وبالشاي الذي حملته
لأنها استنقذاني من حرج الصمت الذي ثقلت وطأته
عليّ. وملاً البك قدحين ودعاني للشراب، فتناولت
قدحي شاكراً ورحت أرتشفه متمهلاً وعقلي لا يني عن
التفكير. وفرغت منه على رغمي، ووجدتني مرّة أخرى
حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة التي

مضطرب النفس. وتميّلت البك وهو يقرأ البطاقة
بصوت مرتفع فيتبادل الجميع النظرات والابتسامات،
ويهرعون إلى مكان آمن يروني منه حين دخولي،
فالتهب وجهي حياء وازدادت اضطرابًا، وبرز رأس
الجارية مرّة أخرى وهي تقول:
- تفضّل.

ودخلت خافض الرأس، فأرشدتني إلى باب على
يمين الداخل مباشرة، فدخلت حجرة الاستقبال، وهي
حجرة أنيقة ذات أثاث كحليّ، فأنجبت إلى مقعد
يفصل بين كنيّتين وجلست، بعيدًا عن سمت الباب.
لم أكد أصدّق أنّي بلغت حقًا مجلسي هذا من البيت.
وجعلت أرهف السمع في خوف وقلق وهلع. وتميّت
لو يتأخّر البك ريثما أسترّد أنفاسي، ثمّ دفعني العذاب
إلى تمّي حضوره سريعًا لوضع حدّ لآلامي. ولا أدري
كم انتظرت حتّى سمعت وقع أقدام تقترب. دخل
البك فنهضت قائمًا، ثمّ سلّم عليّ في أدب وترحيب
وأومأ إلى المقعد وهو يقول:
- تفضّل بالجلوس...

وجلس على الكنبه غير بعيد. كان طويلًا نحيلًا،
في الخمسين من عمره، له قامه حبيبي وعيناها،
فسرعان ما أحببته، وكان يتلقّع بعباءة فضفاضة ضاربة
للحمرة، ويسطع من راحتيه عطر زكيّ، ونظر إليّ
مبتسمًا وقال مرحبًا:

- شرفتنا يا أستاذ كامل... أهلاً وسهلاً...
فقلت بامتنان:

- شكراً لك يا بك...

ترى هل علم بالغرض من الزيارة؟... هل سمع
قبل الآن بهذا الاسم الذي قرأه في البطاقة؟
على أنه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاحمته في
الموضوع كما لو كان يبجله. وكنت قد كتبت صورة نما
ينبغي قوله كما تصوّرت، وقرأتها مرارًا حتّى حفظتها
قبل مغادرة البيت، فقلت بصوت منخفض:
- إني أسف على إزعاجي سعادتك بهذه الزيارة على
غير سابق معرفة...

فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفّته الرقيقتين:

ولست من ذلك كله في شيء، ولكنّ رباب لا تودّه، ولو كان بها من رغبة فيه لما قابلتني وشجعتني على مقابلة أبيها، ورطب هذا الخاطر قلبي المحترق وردني إلى نشوتي، ولكنّه لم يستطع أن يستأصل الشكّ والقلق من قرارة نفسي. وتتابعت أيام الانتظار وما أزداد إلا كآبة وتشاؤماً، ولذلك أخفيت سرّي عن أمي حتى لا تعلم بإخفاقي إذا كان مقدوراً، وكابدت الانتظار ومرارة الشكّ في وحدة مخيفة، ومن عجب أننا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ ذلك المساء العنيف. وقد اعتور سلوكها شيء من التحفّظ والتغبرّ لم يخفيا عن إحساسي الدقيق. وبدت في أحيان كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها. وكنت إذا أقبلت عليها محدثاً تلقّنتني برية لا تزييلها حتى تطمئنّ إلى نوع الحديث. وأحنفتني تغيرها ولكنّي لزمتم معها الأدب والتودّد. وفي أثناء ذلك أسرّ إليّ زميل من الموظّفين بأنّ «بعضهم» يتحرّى عنيّ كما أخبره موظّف بإدارة المستخدمين، وسرعان ما ذاع بين موظّفي إدارة المخازن أنّي شارح في الزواج، وجعلوا يعرضون لي بما في أنفسهم مداعبين فأزداد امتعاضاً وحنقاً، ولمّا انقضت فترة الانتظار مضيت إلى مقابلة جبر بك السيّد، ولكنّي لم أذهب إلى بيته - حال دون ذلك خوفاً من الخذلان - فقابلته في وزارة الأشغال، ورحب بي الرجل ترحيباً جميلاً وأعلن لي موافقته! هكذا انتهى عذابي ورُدّت إليّ الروح. وفي تلك المفايلة اتّفقنا على يوم الخطبة. وإذا كانت حياة الإنسان خليطاً من الشقاء والسعادة فقد بدا لي أنّ أيام شقائي قد ولّت، وأنّي سأجزى عن صبري وتعاسي ونحاوي في سعادة صافية فيما بقي لي من عمر. ورجعت إلى البيت ودعوت أمي وأخبرتها بما تمّ، وقد استمعت إليّ في استسلام ودهشة وقالت لي متسائلة:

- ولماذا أخفيت عنيّ الأمر كلّهُ؟

فقلت متضاحكاً في ارتباك:

- لم أكن أقدر أن ينتهي مسعاي إلى ما انتهى

إليه...

فقلت بحدّة:

- يا لله! أكنت تتصوّر أن يرفضوا يدك؟! يا لك

تستحقّني في صمت على الكلام، لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وإلا انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية. لأصطنعن شيئاً من الرجولة أمام الرجل الذي أروم مصاهرته أن أصغر في عينيه. ولمت أطراف شجاعتي وقلت وإن تمهّج صوتي وتخلخلت نبراته:

- سيّدي، أردت... أعني... الحقّ أنّي أرجو

التشرف بمصاهرتك...

ولم تكن الجملة التي كتبتها وحفظتها لتفترق عمّا قلت كثيراً، وقد اعتراني الاضطراب بعد أن فتحت فيّ بالكلام ولكنّ الله سلّم وأفصححت عن رأيي بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجل فوجدته ما يزال مبتسماً، وترتّب لحظات استغلظ وقعها في نفسي المرّوعة، ثمّ قال بأدب جمّ:

- أشكر لك حسن ظنّك بنا...

وصمت لحظات أخرى متفكّراً ثمّ واصل حديثه

قائلاً:

- ولكن أرجو أن تمهلني أسبوعين لمشاورة أصحاب

الشان الآخرين.

فبادرته قائلاً:

- طبعاً... طبعاً... ولا يسعني إلاّ شكرك على

كرم أخلاقك وحسن ضيافتك؟

ونهضت قائماً مستأذناً في الانصراف، ولكنّه دعاني للبقاء فترة أخرى، فاعتذرت شاكرًا له جميل أدبه، وسلّمت وذهبت. وتنهّدت في الخارج من الأعباق وشعرت كأنّ حملاً ثقيلاً رُفع عن عاتقي. وبدا لي الأمر هيئاً لا يستدعي بعض ما عانيت من خوف وقلق وهلع، فابتسمت في ارتياح، ثمّ استرسلت ضاحكاً...

تملّيت نشوة الارتياح والظفر حتىّ المساء، ثمّ عاودني

القلق ذلك الرفيق القديم الذي لا يملّ عشري...

أيرضى جبر بك بموظّف صغير مثلي زوجاً لابنته؟...

ألا ترجع كقّة عمّد جودت رغم دخلي من

الأوقاف؟... إنّه مهندس كجبر بك، وجار وصدّيق،

- ينبغي أن نجد علاجًا لحجلك، فوالله ما رأيت
مثلك رجلًا.
ولم آبه لانتقاده وسخريته. كنت سعيدًا...

٣٨

... ثم هان عليّ عناء الزيارات، اعتدتها وأنست
إليها. أمكنني أن أضغط على زرّ الجرس دون أن
ينخلع قلبي، وأن أمضي إلى حجرة الاستقبال دون أن
أعثر بطرف سجادة أو قطعة أثاث، وأن ألقى آلي
الجدد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث، بل
أمكنني أن أتحدث أيضًا وأن أضحك إذا دعى الداعي
للضحك، في حدود طاقتي. وأسرتي الجديدة أسرة
لطيفة حقيقة بالمودة، حبيبتني عنوانها، وحسبها هذا
شهادة وثناء، وقد توّقت الأسباب بيني وبين جبر بك
السيد فصرنا صديقين، وقربت الألفة بيني وبين نازلي
هانم فكأننا ابن وأمّ. وأسرتي الصغيران محمد وروحية
بظرفهما، حتى الخادم الصغيرة والحارية السوداء حظيتا
بنصيب من ودي، فأحبيبتهم جميعًا حبًا دلّ على ما
بقلبي من هيام بحبيبتني وشوق مكبوت للمعايشة
والتودّد.

وكان جبر بك السيد من أولئك الرجال الذين لا
يبرحون بيوتهم إلا للضرورة القصوى، فإن لم يكن في
الوزارة أو في رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو في بيته وبين
زوجه وأبنائه، بدا لي من أول يوم لتعارفنا مهذبًا رقيق
الحاشية، ولم يخفّ عن عينيّ - على ضعف ملاحظتي -
أنّه من الأزواج المطيعين وأنّ زوجه هي الأمرة الناهية
في البيت، ولكنّ ذلك لم يضعف من منزلته، ولعلّه
حظي من حبّ أبنائه بما لم تحظ به الأمّ نفسها، ولم يخلُ
من ميل للفخر والمباهاة على تجاوزه الخمسين، وما
أسهل أن تلاحظ ذلك إذا سمعته محدّثًا عن عمله
ومركزه وصلاته بأقرانه ومرءوسيه، أو نموّهًا برحلاته
التفتيشية وملاحظاته، وما أكثر ما ينتقد المهندسين
الشبان ممن تلقوا علومهم في إنجلترا وألمانيا، فيقول إنّ
علم الهندسة في مصر هو علم الهندسة في أوروبا، وإنّ
القدم لا ترسخ في العلم إلا بالتجربة والممارسة، الأمر

من طفل غريب! ألا تعلم أنّ الفتيات لا حصر لهنّ،
وخيرًا من فتاتك ألف مرّة، يرضين بك عن طيب
خاطر!

فقلت بلهجة تمّت عن عدم رغبتني الاسترسال في
النقاش:

- إنّي أنتظر تهنتك يا أمّاه...

فإلت نحوي حتى لثمت خدي وتمتت:

- إنّي أحقّ منك بالتهاني...

ودعت لي طويلاً، وكان وجهها كالصفحة المصقولة
لا تخفى بها خافية، ولم تكن تحسن مداراة ما يعتمل في
نفسها، فلمست في نظرة عينها خيبة عميقة نعتت
عليّ صفوي، بيد أنّي تجاهلتها وتظاهرت بتصديق
كلماتها، وسرعان ما شغلت عنها بسعادتي، وكتبت في
نفس اليوم لأخي خطابًا أخبرته بما كان ودعوته لشهود
الخطبة، وزرت أختي راضية ودعوته كذلك، وذهبتنا
جميعًا في اليوم الموعد. ولست أدري كيف واتتني
شجاعتي ذلك اليوم. لقد شبكت ذراعي بذرّاع
شقيقي مدحت ورجوته أن يكون مرشدي، ولشدّ ما
أنعبتة بجمودي وارتباكّي وخجلّي.

لم أنبس بكلمة طوال السهرة، ولم أرفع عينيّ عن
الأرض، ولبثت محاصرًا بأعين المستطلعين رجالاً
ونساء، ولم تزايلني الرهبة حتى بعد انصراف الأقارب
واقْتصار الموجودين على الأهل. وقد ضحكك حرم
جبر بك وقالت لي:

- أنت خجول يا سيّ كامل... وقد أدركت الآن
السّرّ في أنّك كنت تحوم حول عروسك أشهرًا طويلاً
كالخائف...

وخفق قلبي لقولها، واختلست من أمّي نظرة لأرى
وقعه في نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك في
حديث. وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن
أستطيع إرواء قلبي الظامّي لرؤيتها. وما ألقىت عليها
إلا نظرة سريعة حيّة حين دخولها الحجرة في هالة من
نور وهاء ثمّ غبت في حيائي وارتباكّي، ولمّا انفضّ
الحفل العائليّ وغادرنا البيت ضحك أخي مدحت في
الطريق مقهقها وقال لي بدهشة:

الذي يتجاهله الشبان. وكان في تلك الأيام قلقًا على مركزه بالوزارة، ولا يفتأ شاكيًا ما يلقى من اضطهاد سياسي مرده في رأيه إلى صلته بالوزير الوفدي السابق، حتى أنه صرح مرّةً بأنه يفكر في طلب تحويله إلى المعاش والاشتراك في النشاط السياسي، ولكنّه لم يستطع الاسترسال في شرح رأيه لتصديّ زوجته له بالمعارضة الحاسمة التي لا تحتمل مناقشة. وكنت أجد حياله شعورين متضادين: شعورًا بالضالّة لتفاهة مركزي في الحكومة وقلة حظّي من الثقافة، وشعورًا بالزهو لانتسابي لرجل مثله عظيم في قدره ومركزه وعلمه. أمّا نازلي هانم فعلى نقيضه ميّالة للقصر المفرطة في السمّة، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدلّ بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال في صباها. وكانت على سميتها المفرطة بالغة في نشاطها ويقظتها وسهرها على رعاية بيتها وأبنائها وزوجها، وقد شكّا زوجها مرّةً إليّ حرصها الزائد عن الحدّ على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخادم والطاهية، وإفراطها في ذلك إفراطًا هو أدنى إلى الوسوسة والإرهاق، ولكنّه لم يخل في شكواه مما يشي بإعجابها ورضاه.

وبدت لي ظريفة في غير ما تكلف، ولشدّ ما ضحكّت من ذكريات تطلّعي الصامت إلى الشرفة والنافذة، وفارنت بين حياثي وبين وقاحة الشبان، وعلّقت على ذلك قائلة:

- فمن حسن الحظّ أن تكون لرباب، ومن حسن الحظّ أن تكون رباب لك، فهي ليست كفتيات اليوم أيضًا.

وهذه هي الحياة والذكاء والجمال، وإنّ الأيام لتريدني بها تعلقًا وهيامًا وإعجابًا، ما أرخم صوتها، وما أرشق إيماءتها، وما أجمل رزانتها، وكانت إلى هذا كلّه أنوثة ناضجة كاملة، وإنّ عينها لتطالعاني بالإخلاص والمودة والصدق من غير ما حاجة إلى خفة مصطنعة أو تكلف غير بريء. ولم أكن أفوز بها في خلوة أبدًا، ولم تنهني لي فرصة للانفراد بها منذ إعلان خطبتنا. وشاقني كثيرًا أن

أخلو إليها، وأن أتملّ بإدامة النظر إلى وجهها الصبيح في أمن من الرقباء، على أنّي لم أخلّ من خوف من مثل هذه الخلوة المأمولة وما أنا حريّ بأن أعانيه فيها من عيّ وحصر وحرّج واضطراب، ففنعت بالمبدول لي في حظيرة الأسرة، راضيًا آمنًا، مكتفيًا إلى حين بالنظرة الخاطفة والمحاورّة المقتضبة، سعيّدًا بالنشوة التي يبثها وجودها في قلبي وروحي، ووجدت حديثها لطيفًا طبيعيًا، لا أثر فيه لشهادتها العالية - وهو ما كنت أحاذره وأشفق منه - فلا تفلّس ولا ادّعاء ولا حدلقة.

وتّم الاتّفاق فيما بيننا على أن يكون الزواج في العطلة الصيفيّة، ولم يألوا جهدًا في إعداد الجهاز، واقترحت نازلي هانم أن ينتقلوا إلى شقّة كبيرة على أن أنضمّ إليهم، ولكنّ الاقتراح أزعجني وذكرني بأمي، فاعتذرت من عدم استطاعتي قبوله قائلًا إنّي لا يمكنني التخلّي عن أمي، وعند ذلك قالت نازلي هانم:

- والدتك سيّدة محترمة ولطيفة ولكن يبدو لي أنّها لا تميل إلى المعاشرة!

وفهمت ما تعنيه، والحق أنّ أمي لم تزرّ بيت خطيبتي منذ إعلان الخطبة إلا مرّة واحدة تحت ضغط وإلحاح، فقلت في ارتباك غير قليل:

- لقد اعتادت أمي الوحدة... ولم تألف الزيارات قطّ...

وقصصت عليهم جانبًا من حياتي متحاميًا الفجوات التي لا تطيب ذكراها. ولا أنكر أنّ ملاحظة نازلي هانم أزعجتني، وذكرتي بأمر أخافها، فدعوت الله مخلصًا أن يقيني مغبّة الشقاق في حاضري ومستقبلي.

وفي مرّة، وكنت جالسًا إلى فتاتي وأمّها فقط، وانتني الشجاعة فذكرت عهد تطلّعي الصامت إلى «رباب»، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الختام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به! وضحكّت حبيبتني وقالت:

- ومع ذلك فلم تكد تخطو خطوة واحدة حتى تمّ كلّ شيء في غمضة عين!

وقالت نازلي هانم:

- طالما تساءلنا ماذا يريد هذا الشاب؟! ولشدّ ما

- أترين ضرورة في إحياء ليلة الزفاف؟!
فرمقتني بنظرة استنكار كأنّ تساؤلي أدهشها وقالت:
- طبعاً!
فغمغمت في ذهول:

- قيان وزفاف ورقص وغناء!

- ينبغي أن تكون ليلة فريدة غناء...

وتملّكني الخوف، ورفعت إليها عينين ملؤهما الرجاء
والاستعطاف، ثم قلت بياس:

- لا يمكنني أن أزفّ بين المدعّوين! هذا فوق ما
أستطيع.

فلاحت في وجهها الدهشة والانزعاج وقالت
بغرابة:

- لست أفهم شيئاً... هل يعجزك الحياء لهذا
الحدّ؟

فقلت بضراعة، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال
الموت:

- لا أستطيع... لا أستطيع... صدّقني يا
سيّدي إنّ الموت أهون عليّ من الزفاف بين المدعّوين
والقيان...

- هذا شيء عجيب، إنّك تكون أوّل رجل يهرب
من الزفاف!

فقلت بأثني وقد شعرت بالسنة الخجل تلهب جيبني
وخديّ:

- ربّما، ولكن ما باليد حيلة، إنّّي أستحلفك بالله أن
ترحميني...

فتساءلت في إنكار:

- وما عسى أن تفعل؟

فقلت بلهفة وقد عاودني الرجاء:

- نكتب العقد في جمع من الأهل فحسب، ثمّ
أمضي بالعروس إلى بيتنا!

- وكيف يكون هذا فرحاً!

لو كان الأمر غير ما يتصل بالحنجل لسلمت دون
عناء، والحقّ أنّي سريع للمطوعة مهما كلفني الأمر من
تضحية إلاّ إذا كنت بموقف الذائد عن حيائي، هناك
أنقلب إلى الاستماتة والتشبّث. وقد استمددت من

حدّرت «رباب» أن تكون من الشبان الذين يطاردون
الفتيات في الطريق! وقدّرنا في وقت ما أنّك مشغول
بالتحرّي عنّا كما يفعل طلاب الزواج. فلمّا طال تردّدك
بعد ذلك داخلني استياء وتساءلت عمّا لم يعجبك
فيّنا؟!!

فقلت مرتبّكاً متألّماً:

- ما فعلت شيئاً من هذا، وحتّى الأسماء ظللت على
جهلي بها حتّى اللحظة الأخيرة...

وكان لديّ من المال ما يُعدّ بالقياس إلى ثروة،
فأغدقت على حبيبي الهدايا، وجعلت من شقيقتي
راضية مشيرتي في هذه الأمور التي أخفيها عن أمي
فمحضتني المشورة وأرشدتني إلى «الواجب» وخاصّة في
المواسم كعيد الفطر وعيد الأضحى، فأصبحت بفضل
رأيها خطيباً مشرفاً؟

وظلّت العلاقة بيني وبين أمي على ما يرام، على
الأقلّ في الظاهر، وحرصت على أن أشركها في مهمّة
الإعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنّها تباركها، فكلفتها
بأن تبحث لنا عن شقّة جديدة، ووقع اختيارها على
عمارة في شارع قصر العيني على بعد محطات ثلاث من
عمارة حبيبي، ولم يبد منها ما يعكّر صفوي، ولكنّها
بدت كشخص مغلوب على أمره، تزحزح على رغمه
إلى هامش الحياة، فانطوت على نفسها انطواء لم أجد
في معالجته حيلة، وقطّع قلبي. ولكن لم يكن في وسع
شيء في الوجود أن يعتاق تيار السعادة المتدفّق الذي
يسكرني ليل نهار. والواقع أنّ تلك الفترة من حياتي
هي أسعد ما لقيت في الدنيا من أيّام...

وقالت لي نازلي هانم يوماً، وكانت الأسرة قد
أعدت عدتها للزواج:

- إنّ رباب أوّل عهدنا بالأفراح فينبغي أن تكون
ليلتها بالغة المسرّة.

وولّى قلبي فرازاً، ولم يعد بدّ من مواجهة الأمر
الخطير الذي طالما تحاميته إشفاقاً وجبنًا. وتساءلت في
قلق:

وتقضى نصفه الأول في تهيئتي، فمضى بي شقيقتي
مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لدنه على أحسن
حال، حتى قالت لي أختي في دعابة:

- أنت أجل من عروسك!... اليس كذلك يا
أمّاه؟

وهمت أمتي بالكلام، ولكنها طبقت شفيتها دون أن
تنبس، وجعلت أتساءل عما أرادت قوله. وارتديت
بدلة العرس السوداء على حرارة الجوّ، ثم ذهبنا إلى
بيت العروس قبيل العصر بقليل ومعني أمتي وأختي
وأختي وزوجها وعمي وبعض بناته وخالي وأسرته.
ولمّا اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فُرشت
رملاً فاقع اللون، وتدلّت مصابيح كهربائية كبيرة من
عمد ملوّنة، فداخلي اضطراب وقلت لنفسي: «هذا
خروج عن الاتفاق!» وارتقينا السلم وقد أبيت إلا أن
أسير في المؤخرة شابكاً ذراعياً بذراع مدحت... وما
كاد أولنا يدخل الشقة حتى استقبلتنا عاصفة من
الزغاريد المجلجلة، فشددت على ذراع أخي وشعرت
برغبة في التساوي، ولكن أين؟ وخفضت عيني،
وسرت، بل جرّني أخي، إلى حجرة الاستقبال، دون
أن أرى شيئاً مما يحيط بي وإن أحسست بأذني أنّ
البيت مكتظ برواد السرور!... وأجلست وأنا
متشبّث بذراع مدحت وقد همست في أذنه:

- أرجو ألا تفارقني...

فردّ عليّ هامساً:

- تشجّع وإلا بدت عروسك دونك خجلاً!

ولم أكبد أتفأس الصعداء لمروور لحظة الاستقبال
المفزعة حتى جاءني جبر بك السيد ليقدمني لصفوة
المدعوين، فوقف مرتباً كالعادة، وراحت يدي
تسلم، ولساني يردّد كالألة «تشرّفنا... تشرّفنا» ثمّ
جلست مرّة أخرى دون أن أحفظ اسماً واحداً. ودار
حديث طويل، لم يفزع عقلي لفهمه فضلاً عن
الاشترائك فيه، ولم يغب عني حرجي، فتضاعف
ارتباك، وخيل إليّ أنّ الجميع يتغامزون بي، أو
يهزءون بي في سرائرهم. ومرّ الوقت قاسياً حتى دُعيت
إلى كتابة العقد، وخفّف عني أن تمّ ذلك في حجرة

يأسي وخوفي قوّة فتوسّلت وضرعت وألحفت حتى كفّت
السيدة عن المناقشة وهي تهزّ رأسها عجباً، ولم يكن بي
خوف أن يظنّوا بي تهرباً من تكاليف الزفاف لما أبدت
من سخاء كخطيب كان حديث الجميع، على أنّ جبر
بك السيد أخبرني بعد ذلك بأنّه مصمّم على دعوة نفر
من خاصّة أصدقائه، وأنّه سيولم للجميع وليمة عشاء
فاخرة، ثمّ أخبرني بعد حين بأنّ أحد أصدقائه من
هواة الغناء والموسيقى تطوّر بإحياء الليلة في حدودها
الضيقة، وقال مخففاً عني وقع الخبر:

- وهكذا يجي ليثلتك موظّف كبير...

فقلت محزوناً:

- يؤسفني والله ألاّ أحقق رغبتكم في إحياء ليلة
زفاف باهرة ولكي لا أحتمل أن أرفأ!

فهزّ كتفيه في عدم اكتراث وقال مبتسماً:

- لا أحبّ أن أضايك فلك ما تشاء...

ومحلّ الجهاز إلى الشقة الجديدة، وفُرشت حجرة
خاصّة لأمتي، وانتقلنا من المنيل إلى الشقة الجديدة قبل
الليلة الموعودة بأسبوع. وأشرفت شقيقتي على فرش
شقة العروس بنفسها. وبهرت شقة العروس عينيّ
فجعلت أتقلّ بين الحجرات في غبطة وفرح ساوي.
ولمّا جاء دور المخدع اجتزت بابه بعد تردّد، وفي حياء
شديد ورهبة. يا له من منظر خليق بأن يهزّ الفؤاد
هزاً! جعلت أقلّب ناظريّ فيما حولي وأنا بين مستيقظ
وحالم. فراش كالذهب، وأغطية حريرية في لون الورد
الزاهر، ومراة مصقولة رقاقة. دبّت الحياة في قطع
الأثاث فلم تعد جامدة ولا صلبة، وحاكت ألوانها
الجذابة تورّد الخدود والتساع الأعين، ونذت عن
حواشيها المسدولة هسات خافتة منغومة خفق لها الفؤاد
خفقاً متتابعاً.

وفي صباح اليوم الرهيب ساءلت نفسي متى أعود
بعروسي وقد خلّفت ورائي الناس والضوضاء؟ ليت
التقاليد كانت تقضي بأن ينتظر الرجل عروسه في بيته
من غير هذا العناء كلّ! بدا لي يوماً عسيراً لم يُخلق
لأمثالي، فلم يفارق قلبي الشعور بالرهبة والخوف.

فسرت في جسدي رعدة وهتفت في هلع:
 - كلاً... كلاً... اتفقنا على ألا تكون زفة!
 - ليس الأمر كما تتصوّر، فقد أقمنا في الصالة
 الكبيرة منصّة للعروسين، فتجيء بعروسك وتحلسان
 عليها، الجميع يريدون أن يروا العروسين فما ذنبي
 أنا؟!

كان كلامه ينقلب في مخيلتي صوراً، فأبني أمشي
 وسط الجميع إلى حجرة العروس وأعود بها والمدعوون
 يحيطون بنا مهلّلين، ثمّ نجلس فريسة للأعين...
 رباه... سأقع مُغمى عليّ.
 وقلت بحرارة:

- ولكن هذه الزفة!... ليس في مقدوري!...
 أرجو يا بك أن تفهمني... لا أستطيع...
 - الأمر أسهل ممّا تتصوّر، ولا بدّ ممّا ليس منه بدّ،
 وألاً ماذا يقول المدعوون؟!
 فهتفت في فزع:

- دعهم يقولوا ما يقولون. لا أستطيع... سأنتظر
 العروس على بسطة السلم ثمّ نذهب إلى بيتنا...
 ولم يتمالك الرجل نفسه فضحك وصاح بي حتّى علا
 صوته على صوت المغنيّ:
 - بسطة السلم... يا لك من عريس عجيب!
 وكان مدحت يصغي إلينا صامتاً، فضغط على
 ذراعي وقال لي بحزم:

- ما هذه الأفكار الصبيانيّة؟!... ألا تريد أن
 تجيء بعروسك؟! ألا تستطيع أن تشقّ طريقك بين
 نخبة من السيّدات الفضليّات؟ أتريد البك على أن
 يعتذر عن عدم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع
 الظهور أمام المدعوّات؟! وافضّحتاه!
 وتشجّع جبر بك بكلام شقيقي، أمّا أنا فحدجت
 أخي بعينين غير مصدّقتين، لم أكن أنصوّر أن تحييني
 الطعنة القائلة من اليد التي أعتد عليها، وضحك
 أخي لفزعي وذهولي، وأراد أن يتكلّم، ولكنّي قاطعته
 محزوناً يائساً:

- كيف تدفعني إلى ما لا قبيل لي به?... أتريد أن
 تجعلني أضحوكة المدعوّات؟

تكاد تكون خالية، ولكن انفجرت الزغاريد في تسابق
 عنيف، وعادتني مرّة أخرى رغبتني في التواري،
 وعدت إلى مجلسي الصامت، ومرّ الوقت، ولم يكن
 بالنسبة إليّ إلاّ صمتاً وفكراً محترقاً وهفة على الفرار.
 ثمّ دُعينا إلى سباط أعدّ على سطح العمارة في الهواء
 الطلق. والعشاء عشاء جديد لثلي، ولكنّه محتمل
 بخلاف الحديث، لأنّ المدعوّين يشتغلون بالطعام عمّا
 عداه فيجد من كان مثلي فسحة للطمأنينة
 والسكينة... وعدنا إلى مجالسنا، شابكاً ذراعي بذراع
 أخي، ثمّ بدأ الغناء. وكان المغنيّ الهاوي وفرقته - من
 الهواة كذلك - يتصدّرون حجرة الاستقبال وقد غنى
 «يا ما انت وحشني» بصوت لا بأس به، فاق في نظري
 صوت فتان حانة سوق الخضّر. وجاء جبر بك للجوقة
 بقتنيتين من الويسكي، وقُدّمت كئوس مترعة
 لأخريين، وقد همس مدحت في أذني:

- ألا تشرب كأساً أو كأسين؟

فنظرت إليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بإنكار:
 - محال...

قلتها بلهجة تنمّ عن الاستفضاع، ثمّ خلوت إلى
 ذكرياتي في صمت. لشدّ ما همت بنشوة الخمر! أفليس
 عجبا أنّي لم أذقها منذ الساعة التي اجترأت فيها على
 مخاطبة حبيبتي?... هجرتها في غير ما عشاء كأنها لم
 تكن، ولم تنازعني النفس إليها ولا مرّة واحدة! وتتابع
 الغناء والحديث وعلا الضحك. وكنت حريّاً بأنّ أنس
 الجوّ، وأنّ يذهب عني الضيق وتوتر الأعصاب، لولا
 شعوري بخطورة الساعة التي تتربّص بي!... متى
 أتلقى عروسي؟ وأين... وهل يحدث هذا في خفية
 عن الأبصار؟! ومرّ الوقت. ثمّ انتهت بغتة على جبر
 بك السيّد وهو يقف حيالي ويضع يده على كتفي قائلاً
 بصوت منخفض:

- هلمّ يا سيّ كامل أزف الوقت.

ورفعت إليه بصري في ارتياح وغمغمت:

- آن وقت الذهاب!

فقال ضاحكاً:

- ليس في الحال ولكن بعد زفة بسيطة؟

- ارفع رأسك، حملق في وجوه الحسان حتى يغضبن
حياء!

ولكنني تقدّمت على مهل خافض الرأس. لم أشكّ
في أنّ منظري استثار الضحك المكتوم. وبلغ مسمعي
صوت نسائيّ يتساءل: «أيتها العروس؟» فأجابت
أخرى: «الطويل!». كان المكان مكتظًا، وقد رأيت
عديدًا من السيقان والأحذية البيض على جانبي
الطريق الذي أفسح لنا. ثمّ سمعت صوت أخي
يهمس في أذني:

- بلغنا المنصّة، اصعد إليها، وحيّ عروسك
واجلس.

ارتقيت درجتين، ورفعت عينيّ في حذر وإشفاق
فرايت حبيبي جالسة تحت ظلّ من الأزهار، في ثوب
العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفلّ والياسمين
تسدل منها على الظهر ذيول من الحرير. وكانت بهاء
ونورًا وفلًا وياسمينًا، وقد غضّت بصرها ولاحت على
نغرها ابتسامة خفيفة. وصرت منها على قيد خطوة،
وتذكّرت قول أخي: «حيّ عروسك واجلس». كيف
أحبيها؟. أسلم باليد؟. أم أوجّه إليها تحية النساء؟
وتردّدت مرتبكا، ورأيت في ابتسامتها الخفيفة الخجلة
ما ينمّ عن انتظار تحيّي، ثمّ شعرت بما غاب عنيّ
لحظات قصار، أو عاودني الشعور بالأعين المحدقة بي
تكاد تحرق ظهري، ففقدت جناني، وجلست على
المقعد الخالي دون أن أنبس بكلمة أو أحرك يدي.

أخطأت بلا شكّ؟! ماذا تقول النسوة؟. . . ماذا
تظنّ حبيبي؟. . . أه يا له من موقف؟. . . لو عرفت
هذا من قبل ما فكّرت في الزواج أبدًا! . . . الموسيقى
تعزف، والزغاريد تجلجل، وأريج الروائح الزكية
يتطاير في الجوّ. الموت أهون من الزواج! هل أظنّ
الدهر ضحية للمنصّات؟ بالأمس قضت منصّة الخطابة
بكنيّة الحقوق على مستقبلي، والليله تكاد تقضي منصّة
العروس على حياتي! ترى ماذا يقلن عن عينيّ اللتين لم
تزايدا الأرض؟! وذكّرت بغتة أمي، ترى أين تجلس؟
إنّها تراني في هذه اللحظة بلا ريب، وتضاعف حياتي،
وتولّاني شعور من يُضبط وهو يقترف عيبًا. ووجدت

وتأثّر جبر بك للهجتي الحزينة البائسة، فقال برقة:
- المدعوّات جميعًا من الأهل. وقد تعرّفت إليهنّ
يوم الخطبة، وسترى صدق قولي. . .

لم يزل الفزع يتملّكني، وتناهى بي الضيق فقلت
بتوسّل:

- نشدتكما الله أن ترحماني!

وكأنّ أخي أدرك أنّ الكلام لا يجدي، فوجّه خطابه
لجبر بك قائلاً:

- يمكن أن تتفق على حلّ وسط فتجيء العروس إلى
المنصّة بين صويحباتها، وأذهب مع أخي إليها،
فيجلسان معًا بين الأهل ردحًا من الزمن قبل
الذهاب. . .

وأومأ إلى البك ألا يعارض، فذهب الرجل،
والتفتُ إلى أخي مغيطًا عنقًا وقلت له:

- يا لك من أخ خائن. . . كيف تسمّي هذا حلًا
وسطًا وما هو إلّا التنكيل بي. . .

فندّت عنه ضحكة مجلجلة ذكّرتني بأبينا وقال لي:

- إنك تعرّ بلدًا، فدع النضال، وسنذهب معًا. . .

ليتني أجد كلّ يوم زفة فاشقّ سبيلًا طريًا بين النساء!
وصمت لحظة قصيرة، ثمّ لكزني في كتفي وعاد
يقول:

- إذا حدّثتك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن
العروس!

واستسلمت إلى الواقع في يأس وضيق وهلع.
وعزفت الفرقة نشيد الزفة فحفق قلبي بارتياح وشعرت
بدنو الخطر. وقرعت أذنيّ الزغاريد الآتية من الصلاة
فانهارت قواي، والتفتُ إلى مدحت قائلاً:

- أما من حيلة؟ أما من طريق؟

فشدّ على ذراعي ونهض وهو يقول:

- طريق واحد يفضي إلى المنصّة كأنك طفل يُساق
إلى الختان!

وسار، فتحرّكت قدماي وقلبي يغوص في
صدري. . .

وقال لي همسًا ونحن نجتاز الباب:

صورها المعكوسة على مراهيها التي ترسم حولها نصف دائرة، وراحت تنزع إكليل الفلّ والباسمين، بينما وقفت في وسط الحجرة مرتفعاً حافة الفراش الخشبيّة، مردّداً بصري بين ظهرها الرشيق وصُورها المتنافسة في الحسن. هذه الحجرة هي دنيائي، وحسي بها من دنيا، وهذه الفتاة هي نصيبي من الكون وحسي بها من نصيب، هي حبي وسعادي وأملي، ولن أسأل الدنيا مطمئناً بعد اليوم.

انتهت حبيبي من نزع إكليلها، وأخذت تسوّي ما بعثر من خصلات شعرها الكستنائي في تمهّل من يرغب في اكتساب أقصى ما يسعه من وقت. ولكن سنتهي حتماً فترة الانتظار فما العمل؟

ربّاه إنّ قلبي يقظ متوتّب، وإني لأجد رعدة ترعش ركبتيّ، وإني لأتساءل في حيرة عن الخطوة التالية بنفس هيّابة وحياء شديد يدور مع دمي. وأدركت رغم اضطرابي أنّه ينبغي أن نبذل ملابسنا، ولكنني لم أدر كيف يتمّ هذا وكلانا في حجرة واحدة مغلقة! وبدت لي وكأنّها تنتظر مني شيئاً، فقد انتهت من تسوية خصلاتها وإن تظاهرت بالعكس، ولاح في وجهها الارتباك والحرص. وإني أعلم أموراً ولكن فاتتني التفاصيل، وأعوزتني الحيلة والعزيمة. ليتني استخبرت أخي مدحت، أو ليته كان لي أصدقاء أرجع إليهم في أمثال هذه الأسرار، ولكن قاتل الله الحياء الذي يقيم بيني وبين أخي والناس سداً، ثباً له! لماذا لا يزياليني وقد صرنا وحدنا!

وبلغ ضيقي بصمتي وجسودي منتهاه، وثار بي الغضب على نفسي، فصمّمت لأتكلّمَن - وهو أضعف الإيمان - وقلت بصوت غريب أنكرته أذناي:

- ما أجملك!

هذه أوّل كلمة غزل أتفهّوه بها في حياتي!... وقد سدّدتُ بصرها نحو صورتي المائلة في المرآة وابتسمت، ثمّ غصّبتُ بصرها، وشبكت ذراعها على صدرها. لم يعد يجدي التظاهر بتسوية الشعر فشبكت ذراعها في استسلام المنتظر. وازدادت حرّجاً، وعضضت على شفتي قهراً وغيظاً. وبدا لي تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة

إحساساً لا يقبل لي بمقاومته يدفعني إلى البحث عن موضعها، وارتفعت عيناها في رفق وحذر، ولكنّها كانت أقرب ممّا أتصوّر، كانت تجلس في الصّفّ الأوّل الذي يحدّق بالمنصّة، فالتقت عيناها، وتبادلنا ابتسامة رقيقة. وطار خيالي إلى صورة من الماضي البعيد، فرأيتني أفق وراء سور المدرسة الأولى وهي بموقفها على الطوار المقابل للسور، ترنو إليّ بعين التشجيع والتوديع، فشعرت بغمز على قلبي.

وتنفّست الصعداء حين أقبلت نازلي هانم نحونا وقالت مبتسمة:

- الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة.

ثمّ خاطبني هامة:

- ستذهب الحارية صباح مع سيّدتها الصغيرة لأتها لا تحتمل مفارقتها!... وإني أوصيك بها خيراً، وستجد فيها خير طاهية.

وتنحّت المرأة جانباً مغرورة العينين، ونهضنا من مجلسنا، وأخذت بيد عروسي وغادرتا المكان في سير وثيد والزغاريد والأنغام تودّعنا حتّى باب العبارة. وكان أحد أصدقاء جبر بك قد وضع سيّارته تحت تصرّفنا حتّى نبلغ دارنا. واحتوتنا السيّارة معاً، ثمّ انطلقت بنا. والتفتُ نحوها متنهّداً فكأنّي أراها لأوّل مرّة. وقلت بارتياح:

- يا له من موقف قاس!

- يا لك من نخجول!... ألهذا الحدّ؟!

فندّت عني ضحكة أداري بها ارتباكها، وجعلت أتملّى غبطة تملأ القلب والعين والروح.

٤٠

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة. كان هذا الجناح من الشقّة خالياً صامتاً، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجد حجرتا أمي والاستقبال... وكان مخدعنا مرّبماً يتوسّطه الفراش، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون وردّي، وفي الجدار المقابل التواليت والمشجب. مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست على مقعد التواليت بين

يضمّمها إليه، فماذا يغني؟
 إنّ هي إلّا خطوة أقطعها، فهل تكلف خطوة
 واحدة كلّ هذا العناء؟ كان قلبي مثلها متعطّشًا،
 وكان خجلي حارًا محيّرًا، أمّا جسمي فكان ميتًا لا
 حراك به! أأظّل هكذا أبدًا؟... لماذا لا أداري موتي
 بالحديث؟... ولكن ما عسى أن أقول... لقد عقد
 الاضطراب لساني، وكلّ دقيقة تمرّ تركني أشدّ ضعفًا
 واضطرابًا. وعلى حين بغتة انحرف ذهني إلى حجرة
 أمي دون داعٍ، وتساءلت ترى هل نامت؟ هل تتخيّل
 ماذا أفعل الآن؟ وتضاعف اضطراب الخجل بنفسني،
 وشعرت بما يشبه الاختناق. سلّمت من جانبي باليأس
 والعجز، وتساءلت هل نبقي على هذا الوضع
 المضحك حتّى الصباح؟ ووجدت في أعماقي نزوعًا إلى
 الهرب، ولهُفًا عليه، وكدت أتمنّي لو لم يكن ما
 كان!... وأفقت من أشجاني على صوت حبيبتني وهي
 تقول:

- الجوّ حارٌ... -

وتحوّلت صوب النافذة لتفتحها، ووجدتُ فرصة
 مواتية فدفعت نفسي وراءها وأكملت عنها فتح
 المصراعين وهمت حبيبتني بالعودة فقلت كالمستغيث:
 - هلاً وقفنا في النافذة قليلاً... -

ولبت حبيبتني نداء الاستغاثة. فوقفنا جنبًا لجنب لا
 يفصل بيننا إلّا قيراط. وكانت النافذة تطلّ على الناحية
 الخلفيّة للعمارة، وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم
 بجنباتها أشجار عالية تتصاعد همسات حفيفها في
 صمت الليل. وهفت على وجهينا نسمة رطبية أتطلّع
 إليها كما يتطلّع الطفل إلى القمر؟ ها هي ذي لا
 يفصلنا إلّا قيراط. وملت بجسمي في تودة وحذر،
 فتماست ملابسنا. ثمّ شعرت رويدًا بلمس طريّ،
 والتصق الجنبان. ونذت عني تنهدة مسموعة أبقظت
 حيائي فتريّت قليلاً. وخفت أن تصدني أو تبعد عني
 حياء فأغلب على أمري ولا يعود ثمّة أمل، ولكنّها
 لبثت بمكانها وارتفعت حافة النافذة.

ودفعتُ بيسراي إلى الورا قليلاً، ووجهتها وراءها
 حتّى رسمت خلف خاصرتها نصف دائرة، وجعلت

في الوجود، فهل نبقي على هذه الحال الأليم حتّى
 مطلع الصبح؟... لماذا لا أمضي نحوها فأضمّمها إلى
 صدري حتّى تحلّ المسألة نفسها بنفسها؟... ولكن
 كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة؟! إني أستطيع أن
 أتخيّل، وأن أحادث نفسي، أمّا الإقدام على عمل فهو
 المحال. وامتلأ قلبي غيظًا وألمًا، وازددت إحساسًا
 بالعجز والخزي، فصممت أن أخرج من صمتي على
 الأقلّ، فقلت:

- هلاً بدّلت ملابسك يا عزيزتي؟

فقلت بعد تردّد:

- ليس أمامك!

لعلّها توقّعت دعاية أو مغالطة ردًا على قولها، ولكنّي
 لم أفكر في شيء من هذا، وتركّز تفكيري في إيجاد
 مكان أتوارى فيه ريثما تحلج هي فستان العرس.
 وتراجعت قليلاً جاعلاً الفراش بيني وبينها، ثمّ جلست
 على أرض الغرفة مخنفيًا عن عينيها وأنا أقول:

- بدّلي ملابسك يا عزيزتي... -

وحسبتي قد ظفرت بالحلّ السعيد. وانتهزت
 الفرصة فمضيت أخلع ملاسني في هدوء محاذراً أن يبدو
 متي شيء، ووضعت البدلة على الفراش، وتناولت
 البيجاما وكانت ملقاة على المقعد الطويل، وحشرت
 فيها نفسي وأنا لا أزال ملازمًا موضعي على الأرض.
 وانتظرت مليًا ثمّ سألتها برقة:

- هل انتهيت يا عزيزتي؟

فأجابتن بصوت مهموس:

- أجل... -

فنهضت قائمًا وهنا وقع بصري على صورتي في المرآة
 فرأيت الطربوش ما يزال على رأسي فنزعته مبتسمًا!
 ونظرت صوبها في حياء فوجدتها بمجلسها السابق وقد
 التفتت في روب من الحرير الأبيض، وأدارت المقعد
 مستقبلة به الحجر. وعدت إلى موقعي مرتفقًا حافة
 الفراش، رانيًا إليها في غبطة وهيام، وكلّما رفعت إليّ
 عينيها غضضت بصري في حياء. انتهينا من تغيير
 ملابسنا، لكن ليس هذا كلّ شيء!... بدت الليلة
 وكان لا نهاية لمشاكلها... بيد أنّ قلبي يرغب أن

وذكرت في التوأمي، وتساءلت عما تظنّ بهذا الاستيقاظ المتأخر، وشعرت بحياء اليم، زاد من ألمه أنّه لم يحدث ما يستدعي التأخير قط، وأحسست بضيق نغص عليّ سعادتي، وكأنّني أدرك لأول مرّة أنّ الليلة الماضية لم تخلّ من فشل وإخفاق. على أنّي قاومت هذا الإحساس الخائن، ورغبت عن الانفراد به فغادرت الحجرة. وقابلتني في الصالة الجارية صباح - التي انضمت إلى أورتنا - فهتأنتني «بالصباحية» وأخبرتني بأنّ العروس تنتظرن في حجرة السفرة فمضيت إليها، ووجدتها جالسة كالوردة اليانعة فانشرح صدري بمنظرها وأقبلت نحوها متهللاً وقبلت خدّها. وتناولنا إفطارنا معاً المكوّن من اللبن والشاي والبيض والجاتوه. وتبادلنا على المائدة حديثاً عادياً، فسألته متى استيقظت، وأجابته بأنّها استيقظت في الثامنة، وبأنّها تستيقظ في العادة مبكّرة مها تأخر بها وقت المنام. ثمّ جاءت أمّي فهتأنتنا معاً، وجالستنا بعض الوقت.

وانتقلنا إلى حجرتنا، وقضينا النهار في حديث عذب لا يملّ. وذهبت عني الوحشة فأنست بها وقصصت عليها قصة حبي من البداية إلى النهاية، وكنا نفضل حديثنا بالقبل السعيدة المتبادلة. وسألته متى أحسّت بوجودي في دنياها، فقالت إنّها فطنت لجوّمان حولها وتطلّعت إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلاً، وإنّ أمّها لاحظت ذلك في نفس الوقت تقريباً، ثمّ صرت بعد ذلك حديث البيت فكانت الخادمة الصغيرة إذا لمحتني من النافذة آتياً من طريق المنيل قالت لهم ضاحكة «عريس ستّ رباب»، وكانوا يزجرونها بشدّة، ولمّا طال بي المطال دون أن أتقدّم خطوة ظلّوا بي الظنون، ونهتها أنّها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة في الأوقات التي أكون فيها بالمحطّة. وسألته بلهفة:

- ألم تشعرني نحوي بعاطفة ما؟

فابتسمت ابتسامة رقيقة، فتحت فاهها لتتكلم، ولكنّها أطبقت شفيتها دون أن تنبس. وكان بي نهم شديد لسماح ما يبيلّ جوانحي فألححت عليها أن تتكلم، فقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- لا أدري... لا أدري متى أحببتك.

أضيقها على مهل وحذر وخوف حتّى مسّت ثنيات الروب الحريريّ، فسرت من مسّها لقلبي رجفة ونذت عني للمرّة الثانية نهدة مسموعة. ثمّ توتبت بمجامع قلبي وأحطت خاصرتهما بذراعي... ولم تُبّد حبيبي لا معارضة ولا حراكاً. ونفضت عني أفكار التردّد والمزيمية، وشدتني نحوي مستعيناً بذراعي اليمني، وتلقّيتها في حضني وأسندت جبينها إلى صدري، فهويت بشفتي على مفرق شعرها، وغمغمت وأنا لا أدري:

- أحبك.

ولبثنا في عناقنا، والله أعلم بما لبثنا ثمّ تراجعنا متسالكين إلى الفراش، وصعدنا إليه وذراعي لا تتخلّيان عنها. وأسندنا منكبينا إلى عنققتين عاليتين، وحبيبي وما عليها من روب على صدري وبين ذراعي، ومن عجب أنّ بصري لم يتطلّع عليها فاتّجه إلى السماء خلال النافذة. وامتلأت نفسي حياة لا عهد لي بها. أمّا جسمي فظلّ جامداً بارداً لا ينبض ولا تدبّ به حياة، كأنّ نفسي استأثرت بكلّ قطرة من حياتي. أسكرتني نشوة روحية باهرة غشاء طروب سامية، وظللت على حالي حتّى مطلع الفجر، ولم أدرك كيف استرقّ النوم خطاه إلى جفني...

٤١

استيقظت ونور الشمس يملاً نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة، فوقع بصري على المرأة، وعاودتني ذكريات الليلة الماضية في لمح البصر. ودارت عينا في الحجرة فوجدتها خالية، وأدركت أنّ حبيبي غادرتها وأنا أعظّ في نومي، فتندى قلبي حناناً وبعثت لها بتحية ودعاء. وقلت لنفسي إنّ متاعب الخطبة والزواج والزفاف قد انتهت، ولن يضمّر لي المستقبل إلّا صفاء لا يكدره مكدر. وراجعت ذكريات الأمس فساحت نفسي في متاهة النشوة والسعادة. بيد أنّه لم يغب عني أنّي لم أبدأ بعد، وأنّني لم أكتب حرفاً واحداً في كتاب الزواج الضخم. وغادرت الفراش ونظرت في الساعة فوجدتها قد تجاوزت العاشرة، فهالني تأخيري،

مرّت هذه الخواطر برأسي وحببتي ما تزال بين يديّ. فانقلبت تمثالاً جامداً من شرّ الفكر، وضاعت سعادة السعادة هباء. وتنهّدت، ولعلّها ضاقت بالوقفه، فوخزتني تنهّدتها ولم أعد أطيق جمودي. ورفعتها بين يديّ، وسرت بحملي المحبوب إلى الفراش، وأمتتها في رفق ثم اضطجعت إلى جانبها. ودفعني الشوق إلى تقبيل شفّتها وخذبها وعقها بسرعة وغزارة، فداخلتها رقةً وأحاطت عنقي بذراعها البضة والتصقنا طويلاً وتناهى بها العطف والحنان، واضطرعت بقلبي أحاسيس الحبّ واليأس واللذة والخوف فكأني في متاهة حمى يذهب بي هذيانها ويحيي بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف. إني في حلم سعيد ولكنّ الخوف لا يزالي واليأس يثير في وجهي غباراً، وكيف لي بالنجاة وجسمي ميت لا حياة فيه! وأحرق جفاف الخوف حلقي، ووقفت حيال عجزتي ويأسي حائرًا أتساءل، ولكنّي لم أفكر لحظة واحدة في التقهقر، وأين المفرّ؟. . . بل دفعني اليأس إلى أن أنزع الروب عنها، ففجرت يديّ إلى عقدة زناره وحلّتها، وشعرت بصدرها يرتجف تحت صدري، فأزحت جانبها عن صدرها فبدا جسمها الرشيق في قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئاً، وبادرت تُرجع طرف الروب تستتر فأزحته مرّة أخرى فأنحسر عن القميص الشفاف، ورنوت إلى هيئة الجسم الفاتنة بعينين لم يترك لها الاضطراب إلّا قليلاً من الإبصار. كان حالي ممّا يرثى له. ولم يكن عذاب محتضر يجاهد يائساً للاستمسك بحياة جسده بأسوأ من عذابي. ورغم هذا كلّه تابرت على عنادي، واستمددت من يأسى وعذابي قوّة وإن لم تكن تهدي. إنّ الخجول لا يفرّ إبان المعركة لأنّ الفرار مخجل حيال الغريم. أجل إنّه يتحامي المعركة، ويفرّ منها بعيداً عن الأعين، فإذا ولج ميدانها وغدا محطّاً للأنظار بات الفرار - كالعراك سواء بسواء - فوق احتماله. لذلك أجلست حببتي ونزعت الروب من ذراعها وتركتها قميصاً شفافاً وجسداً بادياً. وأدارت عنّي رأسها، وأخفتها في الوسادة. ولم تكن تعلم بأنّ نفسي تحترق يائساً، وبأنّ

وشعرت بتخدير عميق وددت لو أنام به دهرًا. وجعلت وجهها بين راحتيّ متملّياً شفّتها اللتين برزتا تحت ضغط يديّ، ثمّ وضعت عليها شفّتيّ، وذبت في قبلة طويلة، وجدت حببتي فتنة، حديثها عذب، وبديتها حاضرة، وذاؤها باهر حتّى بدا حديثي على ضوء حديثها فاتراً باهتاً. وبدت لي لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلّا تأدّباً واحتشاماً. ولا أدري لماذا كنت أتحلّلها مثلاً لضبط النفس، بل وللبرود أيضاً، ولكنّي لمست في قبلاتها حرارة تذيب القلب، وفي نظرة عينها عاطفة عميقة وإحساساً مرهفًا. وانطلقت على سجيّتها بأسرع ممّا توقّعت، وربّما شجّعها على ذلك ما رأته من شدّة حياتي.

ولمّا جاء الليل وأغلقت الباب ورائنا قلت لنفسي وبه رهبة زحفت عليّ مع الظلام «الليلة يتمّ الأمر بإذن الله». لم تكن لي تجارب على الإطلاق، ولم أعرف من الحياة الجنسيّة إلّا العادة الجهنميّة التي لم أكد أنجو منها، ولكنّي عرفت أمورًا بالسراع عفواً - في الوزارة - لا أدري إن كانت تخفي عنّي شيئاً. ورأيت حببتي واقفة حيال المرأة تمشط شعرها فراقني منظر قامتها الرشيق الفارعة، وتدانبت منها، ولففت ذراعيّ حولها، فاستدارت حتّى شعرت بمسّ صدرها على قلبي. وضممتها إلى صدري في حنان وهيام. إنّه الحبّ، ولكنّي أدركت بغريزيّ أنّه ينبغي أن أستنزله من النساء كثيرًا كي أفوم بسواجبي! . . . ولكن كيف!؟. إنّها تسكن إلى صدري كأنها طيف من نسج السحاب الطاهر. وإني أبدو كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدي؟! وسرعان ما انسربت إلى نفسي مشاعر قلق وخوف وتوتر أذكتها جميعًا تجربة الأمس الفاشلة. ولم تكن تراءت لي كتجربة فاشلة إلّا في هذا الصباح، وكذّبت رأبي أو كدت في أثناء النهار، ولكنّي عدت إليه في تلك اللحظة بتسليم ويقين ويأس. ثمّ استحوذ عليّ الحياء القاتل فأثلج دمي وأوهن عزيمتي. وركبني خوف شديد من الفراش الذي لا أجد لنفسي عذرًا عليه بينا أجد شبه عذر بعيداً عنه.

أليس هو الجسم الذي يلتهم نارًا في العادة الجهنمية!! وإلام يدوم هذا اليأس... ظل رأسي كقطعة حجارة من الحديد يتطاير عنها شرر الأفكار.

٤٢

حبيبي عطف ورحمة. وقد طالعتني في الصباح بالابتسامة المشرقة. ووثبت هنا وهناك ببشر وسرور ومرح، فلم يداخلي شك في أنها عروس سعيدة. ولو بدا لي أنها تتظاهر بالبهجة لتخفف عني الحرج لما وسعتني الدنيا شقاء، ولكنها كانت تصدر في مرحها عن وحي فطرة بسيطة سليمة لا تعرف التصنع ولا التمثيل. وشعرت بصدق وحق بأن فتاتي تحبني، وبأنها قلب كبير مليء بالحنان والعطف والأنوثة، فعاودني الأمل. وقلت لنفسي إننا ما زلنا في البداية وإن مسرات لا حصر لها تنتظرنا إذا عبرنا الخطوة الأولى الشاقّة، وقضينا النهار معًا، بعضه في الحديث وبعضه الآخر في مشاهدة الرسوم والألعاب التي مهترت في إبداعها لأطفال الروضة. وحين المساء زارتنا أسرتها، وجلسنا جميعًا في حجرة الاستقبال ومعنا أمي أيضًا. وتحدّثنا طويلاً، والتهمنا بلذّة الشيكولاتة والمثلّبس. وحاولوا أن يجزّوا أمي إلى الحديث، ولكنها - مثلي - لم تكن محدّثة ماهرة، فبدت متحفظة، وخجلت إليّ أن محضرها لم يترك أثرًا حسنًا في نفوسهم، وأن رباب شاركهم نفس الشعور، وما لبثت أن سرت العدوى إليّ، وكنت أجد نحوها إحساسين متناقضين: إحساسًا بالرغبة في وجودها معي وهو ما ألقته وطُبع عليه، وآخر بالخجل الأليم لوجودها في بيت الزوجية. والحق أنّي ما كنت أذكرها حتى يتنلّي جيبيني خجلًا. ولما انفضّ السامر وأقبل الليل استقبلته بكابة وخوف، وما كاد باب حجرتنا يغلق وراءنا حتى نصب معين السرور والبشر من قلبي، وغاض منه الأمل الذي ابتعته مرح النهار، وبدا لي أنّ فتاتي تعاني بعض ما أعاني، وأنها تداري قلقًا لم تنفع لباقتها في مداراته. تولّت عني الثقة في أقلّ من ثانية، وتحايلت لعيني ذكريات الليلة الماضية، وتميّت لو كان في الإمكان أن ننام دون أن

هذا المشهد ما هو إلا مهزلة، فتضاعف ألمي وخجلي. ومع ذلك مددت يدي مرّة أخرى كأنني ما زلت أطمع في أمل لا أدريه. مددتها وهي ترتجف من اليأس والبرودة فنذ عن حبيبي صوت يهمس:
- إنّي خائفة...

واخجلتاه!... ممّ تخاف!؟... لقد ألهبني همستها كسوط حُمّلت أطرافه بالرصاص، ومع ذلك لم أتوقف... لم تثني لا المقاومة ولا الصدود... حتى بلغ النظر غايته! ماذا دهاني؟ ليس الموت فحسب ما بي. إنه شيء جديد مفزع مزعج، ماذا دهاني؟! ربّاه حبيبي جميلة لطيفة ولكنّه الجهل والخيال الأعمى! كنت غرًا أعمى لم تر عينا نور الحياة، فتخيّلت عنه خيالات صيبانية فلما أن رأت النور الحقيقي أنكرته! إنّها مأساة. ولعلّه لولا موتي لما كانت مأساة على الإطلاق. وقد علّمتني تلك التجربة القاسية أنّ الحبّ يخلق الجمال كما يخلق الجمال الحبّ... ومهما يكن من أمر فقد ركبني الفزع فوق ما بي من يأس وخجل ولم يعد ثمة أمل. ولبثت جامدًا وحبيبي دافنة وجهها في الوسادة، مستسلمة تحت رحمة جلادها... لبثت جامدًا لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أتراجع ووجدت في لحظة رهبة قوّة عصبية متوتّرة تدفعني إلى الضحك لولا أن تماسكت وشعرت في اللحظة الثانية برغبة في البكاء، ولولا أنّ البكاء خجل لسرّحت بالدمع عن نفسي المتلذّعة... ثمّ استنقلت الجمود كما خفته فضممتها إلى صدري وقبّلتها ومشاعر العطف والحزن - علينا معًا - تسيل من شفّتي، كان رثاء بالقبل. ومرّ الوقت كأنّ دقائقه وثوانيه أسنان منشار يجزّ عنقي، ومرّت دقائق وربما ساعات. ثمّ انقلب الحال مملاً مضئيًا، وفي حركة لطيفة تخلّصت من ذراعي... وتغلّطت بثيابها وبدا لي النوم نهاية مضحكة ولكن ما حيلتي؟! رقدت حبيبي دون أن تلتقي عينانا فلم أدري متى رتق الكرى بجفنيها. ولبثت مسهّدًا متعبًا لا أدري بأيّ وجه ألقاها في الصباح. أيّ شيطان أغرابي بالزواج؟... ألم يكن عذاب الحسرة القديم خيرًا من هذا العذاب؟... كيف خانني جسمي؟

فكابدتُ عذابي وحيدًا صامتًا يائسًا. وكان نهارًا
متملاً، بل هيجًا بفضل حبيبي التي تذيب روحها
راكد الهم، حتى إذا جاء الليل غشيتنا كآبة لم تنفع
حيلة في تبديدها: كان كلانا يشعر بالحرَج والضيَق
والخوف. ولم تواتني الشجاعة على معاودة التجربة بعد
إخفاق الليلتين المتعاقبتين، فكنت أفتح بأن نضطجع
جنبًا إلى جنب، وأضممها إلى صدري، منتظرًا الرحمة
في خوف وقلق وهلع، حتى يتسلسلي النوم من عذابي،
ولذلك لم يزل الحياء حجائبًا بيني وبينها، ولو أتيج لنا
الامتزاج لرفع الحجاب رويدًا رويدًا، فلم أستطع أن
أشكو إليها بتي وهمي، وطالما نازعتني نفسي إلى
الترويح عنها بالكلام، فما أكاد أفتح شفتي حتى أطبقها
في ارتباك وخجل. وفي إحدى هذه المرات قالت لي
بصوت مهموس:

- هل ترغب أن تقول شيئًا؟ ...

ووجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام، ففحق
قلبي بعنف وقلت في اضطراب أخفيته بجهد شديد:

- أرغب دائمًا أن أقول إنني أحبك!

هذا حق في ذاته، ولكنني كنت أرغب بلا ريب أن
أقول شيئًا آخر، وأحسست بأنها تقرأ صفحة أفكاري
الخفية، فجنمت الكذب على صدري كالكابوس،
وغمغمت بعد أن جاهدت حياتي جهادًا مريزًا:

- إن ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما
يستظرنا من عمر طويل.

وخيل إلي أن وجهها تضرع بالاحمرار وإن كنت أراه
على ضوء المصباح الساهر الخافت، وداعت شعري
بأناملها، ثم قبلتني قبلة عذبة على شفتي، وسألني في
أذني:

- أياضيك شيء؟

فالتهب جسمي خجلًا وألجأ. وقلت بإخلاص:

- معاذ الله ...

وصمت على رغمي مليًا، وقلبي يخفق بشدة
وعنف، ثم قلت وبودي لو أتوارى عن ناظرها:

- إنها مسألة وقت ...

هكذا تعاقبت الأيام، ومرة أخرى أقول إنه لولا

نجرّب محاولة جديدة، وأيقنت بالإخفاق قبل البدء.
على أنني لم أجد بدءًا مما ليس منه بد. وأعدت التجربة
بحدافيرها من قبل وعنق وإخفاق! أجل إخفاق
وإخفاق وإخفاق. مسكينة حبيبي، لقد استسلمت
بادئ الأمر فيما يشبه الخوف. ثم انتهت بأن لمت نفسها
في حياء وارتباك. انتهينا في ساعة متأخرة كما انتهينا
أمس، فنامت هي، وبقيت مسهلاً متفكرًا. ماذا
بي! ... إنني أحبها بكل قوة نفسي، بل إنني أعبدها
عبادة ولئن يخلو بيتي منها بعد اليوم لأهلكن لا محالة،
أتكمن الماساة فيما دهاني به النظر من انزعاج لم أتوقعه!
ولكن هذا محض افتراء لأن موتي سابق للنظر فليس
فيها رأيت دخل فيه، بل إنني آلف الحقيقة التي غابت
عني سريعًا وتكاد تنهزم خيالات الوهم الصبيانية حيال
الواقع الحقيقي، ولم يتغير مني شيء. . . وقد أثر في
حياؤها وارتباكها - وهي ترتدي ثيابها - تأثيرًا عميقًا
فأقسمت لا أفرين ثيابها حتى يغير الله ما بي!

ومضت بنا الأيام في حب ظاهر، فامتزج روحانا،
حتى صارا روحًا واحدًا في جسمين غير متصلين. ولولا
حبها العميق، ومرحها الطليق، وبساطة قلبها الكبير،
لمت غمًا وكمدًا ...

وإنها لأيام عجيبة، وإنه شهر غسل غريب! وكانت
حبيبي مثالًا للشعور الحي والرقّة البالغة والحب
الصادق. وكثيرًا ما كنت أسترق إليها نظرات متفحصة
مستربة فلم أجد منها إلا الصفاء والوداعة والرضا،
فكاد يقع في روعي أنه لا يعوزنا شيء، وأستطيع أن
أقول إنني لم أنعم بالراحة إلا في تلك اللحظات. وفيما
عدا ذلك كانت حياتي جحيماً مستعراً لا يدري به
أحد، لم تعد سعادتني إلا أويقات طارئة كأنها إفاقات
من يعاني سكرات الموت. وشعرت بشدة حاجتي إلى
المشير. ولكن حياتي وقف في طريقي سدًا منيعًا
كالجبل الساسخ فاستحالت علي المشورة حتى مجرد
تحليلها كان يشب في نازًا ويبعث في نفسي إحساسًا
قاهرًا للفرار والاختفاء. وفضلًا عن هذا وذاك فلم
يكن لي صديق، وكانت أمي - وهي صديقي الوحيد
في دنياي - أبعد من أن أذكرها في هذا الأمر خاصة،

حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير لم تُغثًا وكمدًا.

* * *

وذات مساء - وكان مضي على زواجنا ثلاثة أسابيع - لاحظت أنها تخالسي نظرات تنم عن الحيرة، وأن لديها ما تقوله، فقلت لها مدفوعًا برغبة قوية في استدراجها إلى الكلام:

- في عينيك كلام...

فقلت مبتسمة في ارتباك:

- أجل...

فمضيت إليها وكانت جالسة على المقعد الطويل وجلست لصقها، وقلت مستسلمًا للشعور الطارئ نفسه:

- هاتي ما عندك...

- أمي...

وانفجر الاسم في أذني كالثقبلة، إنه لفظ واحد ولكنه يتضمن كتابًا، وإني على رغم غبائي أفهم ما يعنيه. ولعل الأم تواجهها بهذا السؤال الطبيعي المعروف فسمع ردًا على سؤالها جوابًا واحدًا لا يتغير «كلاً بعد...»! ولما طال السكوت قالت حبيبي برقة:

- إنها لا تفتأ تسألني، ولا أدري ماذا أنفد صبرها...

وقتلني الحجل، وتميزت غيظًا، ثم قلت بهدوء:

- هذه شؤوننا الخاصة. أليس كذلك؟

فقلت كمن تعتذر:

- طبعًا... إن هي إلا تريد أن تطمئن علينا. هذا

كل ما هنالك...

فسألته محزونًا مغتيًا:

- وماذا قلت لها؟

فقلت باهتمام وعجلة:

- لم أقل «شيئًا» مطلقًا... فقط صارحتها بأن لا

داعي للعجلة.

- وماذا قالت؟!

فتفكرت مليًا كأنما لترن كلماتها، ثم قالت:

- قالت لي إن للموقف رهبته، وخاصة بالنسبة

لشباب طاهر نخجول، وإنه إذا دعا الحال فلدينا صباح

الجارية...

فاتسعت عيناى دهشة وقلت بدهول:

- صباح!

فأومأت برأسها بالإيجاب في ارتباك، فتساءلت

بدهشة:

- وماذا تستطيع صباح؟

وترددت لحظة، ثم أنشأت تشرح لي ما غمض عليّ

أول وهلة، وأنصت إليها باهتمام حتى أدركت كل

شيء، وأخذت أفيق من ذهولي رويدًا رويدًا. ولست

أخفي أنني شعرت بارتياح إلى اقتراح الأم، فهو يزيل

عقبة من سبيلي، ويخلىني من بعض المسئولية، ويعفيني

من مراقبة الأم، ولا أظنّها تسأل بعد ذلك عن

شيء... وسألت زوجي بحياء:

- وكيف نخبر صباح؟

فقلت ببساطة:

- لقد حضرت صباح جانبًا من حديث أمي...

فهتفت بحياء وانزعاج:

- كيف؟... كيف بالله!

فقلت مبتسمة:

- لا عليك من هذا، إنها أمي أيضًا ولا نخفي عنها

شيئًا.

وتبادلنا نظرًا طويلًا صامتًا... ثم سألت في

إشفاق:

- وهل علم أحد من الآخرين؟

قلت بلهجة لا تدع مجالاً للشك:

- مطلقًا...

فداخلي ارتياح، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد

من الاطمئنان، فقلت بلهجة ذات معنى:

- أرجو ألا تخرج «أسرارنا» من هذا الباب!

فحدجتي بنظرة عتاب وتساءلت:

- أيداخلك في هذا الشك؟!

وعدت وأنا لا أدري إلى أسر العادة الجهنمية التي لم يعرفها زوج قبلي. ألا ما أشد حيرتي وقهري! كيف يقع لي هذا وقلبي يعبدها عبادة!... بل كيف ونظرة إلى وجهها أنفس عندي من الدنيا وأنعمها! إنها حياتي وسعادتي ودنياي جميعاً.

وجدتها يوماً وكأنها تعاني رغبة الإفصاح عن شيء يعتلج بنفسها، ففحق قلبي قلقاً وخوفاً، ولكن لم يسعني أن أتجاهل ما رأيت مفضلاً أن ألقى الخطر وجهاً لوجه على أن أضيف جديداً إلى ما أكتمه في نفسي من القلق والوساوس، فسألتها:

- ماذا وراءك يا عزيزتي؟

فلاح في وجهها التردد والضيق ولاذت بالصمت، فتضاعف قلقي وقلت بفؤاد منقبض:

- هاتي ما عندك لا تخفي عني شيئاً...

فنفخت قائلة:

- أمي...

ووقع قولها من نفسي موقع الفزع والهلوع، ما بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح!؟ ولشد ما أبغضتها في تلك اللحظة، على أنني تساءلت متظاهراً بقلة المبالاة:

- ما لها يا رباب؟

فقال بصوت منخفض وهي تنظر فيما بين قدميها:

- لا تفتأ تسألني هل جد جديد في الطريق!

ومن عجب أتى فهمت المراد من هذا المجازا فهمته بغريزتي، أو بالخوف الكامن في نفسي وبلا أدنى تردد، ولكنني تساءلت متجاهلاً:

- ماذا تعنين يا رباب؟

فأومات إلى بطنها وهمست قائلة:

- تعني هل جد جديد هنا!؟

تولاني فزع شديد، فاطرقت مرتبكاً محزوناً، عمّ تسأل المرأة؟ لعلها تريد أن تعرف شيئاً أخرى ضمناً، وحنقت عليها حنقاً فظيماً. واحتلست من رباب نظرة فوجدتها ساهمة الطرف، صامتة... أحقاً يضايقها تساؤل أمها أم هي تبتغيه وفي نفسها غرض؟ آبات بدورها تشارك أمها قلقها وجزعها؟... ولماذا تتوارى

ولكن ليس هذا كل شيء في الزواج. وكيف يكون كل شيء وهو «واجب» قامت به صباح؟! وتساءلت في سذاجة مضحكة عما ينقص حياتي الزوجية، وهل هو ضروري لهذه الحياة! ومن عجب أنني ترددت عن الجزم! وتساءلت ألسنا سعداء! نحن نعيش في هناء وغبطة، ويجب كلانا صاحبه حباً لا حد له ولا يداخل أحداً شك في سعادتنا، فلماذا تزعجني الأوهام!؟ ولكن الإنسان موكل دائماً بالتفكير فيما ينقصه، حتى ينسى ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه، فلم تزايلني الوسواس، ولم أستتم لحياتي. وفي ليلة من الليالي، وكنت مضطجعاً على ظهري أراد النوم وقد رنق الكرى بجفني حبيبي، طاف بي الفكر مسارح بعيدة حتى نسيت ما حولي أو كدت، فساوري شعور بالوحدة، قواه في نفسي ما يحيط بي من ظلمة، ورويداً وجدت حياة تدب في جسدي، كذلك الحياة التي كان يستثيرها الظلام والوحدة.

وسرعان ما استخفني الفرح فكدت أصبح من فرط سروري. ثم أقبلت على حبيبي النائمة أيقظها بالقبيل حتى فتحت عينيها في انزعاج استحال دهشة، ومرّت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها، ثم مدت ذراعيها إلى عنقي فضممتها إلى صدري بلهفة وشوق، ولكنني ما كدت أفعل حتى عاد كل شيء إلى أصله، وزحف الموت البارد على جسدي حتى شمله في أقل من ثانية، وانقلبت إلى حيرة خرساء وخجل مخزٍ! وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت، وبدا في وجهها أنها لا تفهم شيئاً فسألني:

- أكنت تحلم؟

ما أصدقها من كلمة وإن قبلت اعتباراً، ولشد ما زلزلتني تلك الحادثة زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرماً على ما كان يترامى لي أحياناً من أمل وإه، وعرضت لي خلوات أخرى في ظلام الليل وحبيبي غارقة في نومها، وعساودني ديبب الحياة الغريب، ولكن لم تواتني الشجاعة مرة أخرى على إيقاظها، ووجدتني أتردى من جديد في الهاوية التي انتشلني الزواج منها قرابة شهر،

تعترى حبيبي الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة
الوحشية؟ إن هذا لأبغض مما أتصوراً

* * *

وانتهت إجازتي فعدت إلى إدارة المخازن بالوزارة،
واستقبلني الموظفون استقبالاً حافلاً، لم يكن لي بينهم
صديق، ولكن المناسبة - عودة عروس من شهر
العسل - أنستهم تحفظهم فأقبلوا عليّ بين مهين
ومداعب وتلقّيتهم في صمت وارتباك وخجل، وتكلّموا
كثيراً. وتطوّع أحدهم بتحذيري من الإفراط،
واستفاض الحديث حتّى ألهامهم عنيّ، وخاضوا في
طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، واستشهدوا بالأمثال
والحوادث والحكايات. أنصت إليهم خفية وأنا أتناظر
بفحص الآلة الكاتبة، بقلب مكلوم ونفس معذبة،
وكم تمّنت أن يستشهد أحدهم بحالة «كحالتني»،
ولكنّ حالتي لم تقع لأحدهم في حساب، وامتلأت
نفسي بما سمعت حتّى دارت بي الأرض، إنّ رباب
امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء إن صحّ
ما يقوله هؤلاء الموظفون؟ أيمن أن تضيق بحياتها أو
تملّ عشرتي؟! ولكنّها سعيدة؟ ما رأيت وجهها إلّا
متألّقاً بنور السعادة، وما رنت عيناها إليّ إلّا بالحبّ
والإخلاص، إنّ وجهها لا يعرف الرياء، وإنّه لصفحة
نقية ومرتاد طاهر لا يكتم كذباً ولا يداري إثماً. كذب
هؤلاء الموظفون! إنهم حيوانات فلا يرون الناس إلّا
حيوانات مثلهم. بيد أنّي غير مطمئنّ، ولن أذوق
الطمأنينة مهما أقنعت نفسي بها، لقد نبت دُمل الشكّ.
ولمّا خلوت إلى حبيبي ذلك اليوم جعلت أنظر
إليها طويلاً متفكّراً دون أن أنبس، حتّى ضحكت
وقالت لي:

- هل عاودك الحنين إلى النظر الصامت القديم؟
وهفت على فؤادي نسمة لطيفة من قديم الذكريات
حين فؤادي مضطرم وأملّ مشرق وهذه البلوى لا
تدور لي في خلد. وتملّيت الذكرى ملياً، ثمّ سألتها في
إشفاق:

- رباب... أنت سعيدة؟

خلف أمها؟ إنّ المكر لا يجمل بمن كانت في مثل جمالها
وطهارتها! وما كان أغناها عن اللّف والدوران! هكذا
حملني الفزع على عدم تقدير موقف فتاتي المظلومة.
واشتدّ بي الحرج حتّى أرهقتي وأعياني، ثمّ تركّز
اهتمامي في شيء واحد، وهو أن أسبر مدى ما تعرف
نازلي هانم من أسرارنا، فسألته قائلاً:

- وماذا قلت لها؟

فقلت ببساطة:

- قلت لها الحقيقة!

فتشّج قلبي تشنّج حادة وصحت بفزع:

- الحقيقة!

فحدجتني بدهشة وتساءلت:

- ما لك؟!

فهتفت في انزعاج:

- أحقاً قلت لها الحقيقة؟!

فقلت بعجلة ولهوجة:

- أجل قلت لها إنّه لم يجّد شيء بعد!

وتنفّست الصعداء! إنّها تعني حقيقة غير التي تشغل

بالي. على أنّه بقي في النفس شيء. فقلت بحرارة:

- «رباب» أهذا كلّ ما قالت؟ لا تخفي عني شيئاً

وأنت قلبي وحياتي.

فقلت بارتباك وقد قرأت البراءة في عينيها:

- عمّ تتساءل يا كامل؟ إنّي لم أقل لها كلمة واحدة
زيادة عمّا قلت لك. لقد سألتني عن هذا الأمر فلم
يسعني إلّا أن أجيب بالحقّ والصدق، وهو أمر كما
تعلم لا ينفع فيه الكذب، فهل تراني أخطأت؟ أم
كنت تريدني على أن أتناظر بالحبّل؟...

فقلت في ارتياح نسبيّ:

- كلّاً يا عزيزتي... لقد أحسنت بصراحتك...

لن أذوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة
منا... رباه، إنّي أحتضن همّي وحدي لا صديق ولا
مشير. ولقد ضقت ذرعاً بأمّها وبأمّي وبنفسي! وعاودني
السؤال القديم: هل ما ينقصنا ضروريّ للحياة
الزوجيّة؟ هل تجد حبيبي مثل هذا الإحساس الحيوانيّ
الذي دفعني إلى اعتناق العادة الأئمة؟! أيمن أن

بالخط الكبير: «الدكتور أمين رضا، أخصائي في الأمراض التناسلية من جامعة دبلن» ولم أكن رأيتهما من قبل، فحدّثني نفسي فجأةً باللجوء إلى الطبيب. ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردّد. ثار خجلي وخوفي، وكادا يثنياي عمّا خطر لي ولكنّ تلهّفي على النجاة كان أقوى من خجلي هذه المرّة، فصمّمت على الذهاب ذات مساء، وذهبت...

كان الطبيب مشغولاً بفحص مريض. فجلست في حجرة الانتظار، وكانت الحجرة خالية فداخلي ارتياح عميق، وإن شعرت بالاستهانة بالطبيب. ولم يطل بي الانتظار، فدُعيت بعد دقائق إلى حجرة الكشف ووجدتها آية في فخامتها وأناقتها، كاملة العدد، وبها من أدوات الرهبة ما ردّ إليّ الهارب من ثقّي. وإلى يمين الداخل مباشرة جلس الطبيب إلى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراسات. كان شاباً في الثلاثين على أكثر تقدير، نحيف القوام، طويل القامة، مجعد الشعر، ذا بشرة سمراء وقسبات دقيقة واضحة، وعينين حادّتين تلتمعان وراء نظارة أنيقة. وكان ممّا يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطّى فمه وأكسبه وقاراً ليس من سنّه، حيّيته فردّة تحيّي باقتضاب، وحدجني بنظرة مستهفمة قرأت فيها الترفع والكبرياء، وثقة بالنفس تبلغ حدّ الغرور، فلم أرتح إليه. وكان منظره عامّة مخيّباً لأمني، لأنّي توقّعت أن أرى شيئاً مهيباً بساماً كطبيب ذهب بي أمي إليه مرّة منذ أعوام طوال، فاستأنت ووددت لو لم أكن قدت نفسي إلى هذا الشرك. وقال لي بهدوء:

- تفضّل بالجلوس.

فأذعنت وأنا أرمقه بقلق. وجعل ينظر إليّ منتظراً أن أبدأ بالكلام. ولكنّ فكري تشبّت وجفّت حلقي ولبثت ملازماً الصمت حتّى قال متسائلاً:

- أفندم؟

فاستجمعت قواي، ولكنّي لم أزد على أن قلت:

- جئت للكشف...

فسألني بهدشة:

- ماذا تشكو على وجه التحديد؟

فنظرت إليّ باستغراب وقالت بصوت ينمّ عن الصدق:

- سعيده جدّاً...

فتساءلت وعيناي تطرقان من فرط الحياء:

- أمحييني؟

وكانت على بعد شبر منّي فتزحزحت حتّى التصقّت بي ورفعت إليّ وجهها مورّداً وغمغمت:

- أجل أحبّك...

فأحطت خاصرتها بذراعي وقبّلت شفيتها وخذها، وتناولت يدها الصغيرة الجميلة وجعلت أقبل أناملها أمثلة أمثلة في حنان وهيام، وكنت في الواقع أمهدّ بما قلت لما أرغب في الإفصاح عنه ممّا ضمّنت بكتانه، ولما هممت بالكلام خانتني شجاعتي وانعقد لساني. أردت أن أبثها همّي، وأن أعترف لها بأنّ ما يعتريني حيالها طارئ غريب لا أدري كنهه، وأنّي لم أكن كذلك بل إنّي لست كذلك إذا خلوت إلى نفسي، وأن أسألها المشورة والمعونة، هذا ما كنت أريد البوح به، ولكن خانتني العزيمة فنكصت مغلوباً على أمري. ثمّ سلّمت بالهزيمة كعادتي، وجعلت أسوّغها لنفسي قائلاً: إنّ البوح بهذه الأسرار حريّ بأن يسيء إليها ويغضبها، وربّما قضى على سعادتها قضاء مبرماً.

وعندما أويّنا إلى الفراش حدّثني نفسي بأن أعاود التجربة، ولكنّي تردّدت، وتردّدت طويلاً حتّى عمّلكني الخوف فوّلّي قلبي فرازاً، لقد بتّ أخاف جسمها بقدر ما أحبّها، وتأمّلت حياتي في صمت الليل وظلمته، فبدت لي غريبة متنافرة، وضاق صدري فلم أجد من متنفس له غير البكاء فبكيّت طويلاً...

٤٤

وخطر لي أن أستشير طبيباً، وجاء الخاطر فجأةً، بل لعلّه كان محض مصادفة، ولم أكن فكّرت في استشارة طبيب لخلجلي الشديد من ناحية، ولا اعتقادي بأنّ حالتي لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى، ولكنّ بصري قد وقع يوماً وأنا في طريقي إلى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة بشارع قصر العيني قد كُتبت عليها

وعانيت عذاباً شديداً قبل أن أقول:

- إني رجل متزوج...

ثم سكّ، أو بالأحرى انعقد لساني، ولكّني استثقلت السكوت، على حين استحثّني عينا الطبيب الحاذقان فاعترفت بكلّ شيء! تكلمت بادئ الأمر باضطراب وتعثر، ثم تشجعت بما لاح في وجهه من أمارات الجذّ والرزانة فتدفقت بلا توقّف، وشعرت كأنما ألقيت عن عاتقي حملاً ثقيلاً، وكأنما بات هو المسئول من الآن فصاعداً عن الشقاء الذي نغص عليّ صفوي. وسألني الطبيب:

- متى تزوّجت؟

فقلت:

- منذ قرابة شهر ونصف.

- متى وجدت هذه الحال؟

قلت بامتعاض:

- من أوّل ليلة.

- هل انتابتك قبل الزواج؟

- لم يكن لي تجارب مطلقاً...

وسألني عن الأخرى فتردّدت لحظة ثم أجبت بالصدق. وسألني عن بعض التفاصيل فأجبت بصراحة، ولم أخف عنه إفراطي المخيف. وعاد يسألني:

- ألم تمارس عادتك بعد الزواج؟

وأعجبت به لسؤاله الذي بدا لي فراسة ثابتة

فقلت:

- بل...

فقال متفكراً:

- كأن طبيعتك لا تتغيّر إلا حيال زوجك.

فقلت بحيرة وأسى:

- أجل...

فسكت ملياً ثم قال:

- سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبني بالصدق. هل تحبّ زوجك؟

- جداً...

- أهما شذوذ من أيّ نوع كان، أو برودة في الطبيعة؟

- أبداً...

- هل نشأتما نشأة واحدة منذ الصغر؟

- إنها ليست من ذوات قرياي...

وألقي عليّ بعد ذلك أسئلة استفطعتها، ولكن لم يكن بي شيء منها، فأجبت بصدق وصراحة. ونهض قائماً، ثم أجرى عليّ فحصه في أناة وعناية، فاحتملته بقلب واجف ونفس يصطرح بها الأمل واليأس. وعدنا إلى جلستنا السابقة، فراح يقيد في كراسه ما يعن له ثم اعتدل في جلسته وقال لي:

- جسمك سليم. أجل إنك أسأت إلى نفسك بعادتك المردولة فتركت بك أثرًا يحتاج لغسيل خاص، ولكن لا علاقة لحالتك الأخرى بهذا فيما أعتقد، فليس عجزك بناشئ عن سبب فيزيقي، ولعلك تعاني أزمة نفسية، أليس في بلادكم عيادات نفسية؟

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه، وعجبت لقوله «بلادكم» كأنه أجنبي عن هذه البلاد. وقلت له بدهشة:

- أنت أعلم مني بما تسأل عنه يا دكتور!

فقال مبتسماً:

- الحقّ أنّ حديث عهد بالوطن، ولم أفتح عيادتي هذه إلا منذ أيام...

فأدرت لماذا وجدت عيادته مقفرة، ولماذا لم أر لافتته من قبل. بيد أنّي بت أدرك كذلك أنّ هذه المرمطة التي ابتليت بها قد انتهت إلى لا شيء، فعاودني القنوط والكمد. واستطرد هو قائلاً:

- ليس بك من نقص مطلقاً، وإنك تستطيع أن تقوم بالواجبات الزوجية، وستقوم بها يوماً ما فلا تدع لليأس سبيلاً إلى نفسك. كثيراً ما يحدث هذا لبعض الشبان ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة، فانتظر يومك بثقة لا شك فيها. وأنصحك أن تمرّ عليّ للغسيل حتّى تنزول حالة الاحتقان الخفيفة.

أصغيت إليه باهتمام وبكلّ جوارحي، وتنازعني

مخلصه، ولم تعد إلى ذكر أمها، فلم أدر إن كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حبيتي تخفي عني ما يدور بينها من حديث. لشد ما أحبها يا ربي، إن امتزاجنا في حياة واحدة لم يذهب عني سحرها، بل أسكنها أعمق مكان في قلبي. وإني لأهيم بها وهي لصقي على المقعد أو الفراش كما كنت أهيم بها وهي تلوح في الشرفة أو وراء زجاج النافذة. وإنه لمن التعاسة حقاً أن يتغص عليّ سوء الحظ تلك الأيام الحافلة بأشهى فرص السعادة والهناء.

وكان سوء الحظ لم يقنع بما رساني به في نفسي، فرماني بأمي أيضاً. . .

وأمي على تأديتها لم تكن لتفلق أبداً في مداراة عواطفها، فإن لم يخنها لسانها خانيتها عيناها، وإن لم تخنها عيناها نمت عليها ما التزمت من حال غريبة سلبية. انطوت على نفسها، وجعلت من حجرتها سجنًا لا تكاد تغادره، وكأنما فرغت للعبادة والصلاة، ولم تخف على رباب هذه الحفوة الطويلة، وكانت على دمايتها ورقتها تنقلب حيال أُمِّي كآية امرأة من النساء انفعلاً وغضباً، فكانت لا تفتأ تقول لي: «لشد ما تكرهني أمك». ولم تقبل أُمِّي أن تغير من سلوكها، معتلةً بأنّها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط. وكنت إذا ذهبت للجلوس معها تلقّيتني برقةً وابتسام، وحدثتني بخضوع واستسلام، فسرعان ما أشعر بغرابة الجوّ، وبأنّ حجاباً ثقيلاً يقوم بين نفسيها، وبأنّ حيال شخص آخر غير الأم التي عرفتها طوال تلك الأعوام. وما أكاد أفاطمها بأنّ زوجي تضيق بتحفظها حتى تقول لي بحدة: «إنّ زوجك تكرهني، هذا كلّ ما هنالك». كنت أتجلّد وأنصبر والألم يمضّ نفسي والكآبة تغشى روحي. . .

وذهبت مرة إلى أختي راضية لقضاء يومين، وكان المكان أعجبها فمكثت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع. كان أول أيام نفترقها في حياتنا المشتركة، فنقل على قلبي فراقها، ووجدت وحشة لا نطاق في خلوّ البيت منها، وذهبت إلى شقيقتي لأعود بها فلم تحبب رجائي وعدنا معاً.

اليأس والأمل بعنف وقسوة. متى يأتي هذا اليوم! وهل يأتي حقاً! انتهى الطبيب من عمله وقوله، ولكنني لم أبدأ حراكاً وظللت متشبهاً بمكاني، وثبتت عيناها عليه في استغائة وضراعة. ثمّ سألت:

- ماذا عنيت بالعبادة النفسية؟

- أوه. . . إنّها عبادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد في بلادنا. ولكن لا تلق بالآ لا قلت، ولا أظنك في حاجة إليها.

- قلت إنني ربما كنت أعاني أزمة نفسية. فما معنى هذا؟!

- قلت لك لا تلقي بالآ لما قلت. قد غاليت في تقديري، ولست على آية حال طبيياً نفسياً فلا أخوض بك أموراً عسى أن تضر أكثر مما تنفع. إنّ علاجك بيدك فلا تياس ولا تفقد ثقتك بنفسك واقهر الخوف والقلق، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها. . .

وسألته سؤالاً أخيراً:

- أرايك هذا حاسم لا شك فيه؟

فأجابني بثقة:

- أجل. . .

وغادرت العبادة خيراً ممّا دخلتها. عدت وبني أمل ورجاء. وقلت لنفسي: إنّ الطبيب لا يكذب ولا يخطئ فاستخفّني السرور، وقطعت الطريق إلى البيت مشياً على الأقدام. ومررت في طريقي بالعمارة التي تقطنها أسرة زوجي، عبارة الذكريات، فحلّق بي الخيال بعيداً، وعلى حين فجأة فترحماسي واستحوذ عليّ القلق، ولم ألبث أن انقلبت إلى التجهّم، بيد أنني رحت أردد على مسمعي ما أكده لي الطبيب متلمساً الثقة بأيّ سبيل.

وبالرغم من قلقي الدائم كنت أعلل النفس بالشفاء. وواصلنا حياتنا البريئة يحدوني هذا الأمل. وكنت أسترق إليها النظر إذا اشتدّ بي القلق وأسأل نفسي ترى أهي سعيدة حقاً كما تبدو لي؟ أما تزال تحبني؟ أما هي فكانت تبدو سعيدة راضية، محبة

وذهبت من فوري إلى حجرة أمي نائراً الأعصاب،
فما روعني إلا أن أجدها محمّرة العينين من البكاء.
ولمحت عبوس وجهي فهتفت في توجّع:
- هل أرسلتُك لتؤذيني!
فرفعت رأسي إلى السماء وقلت من الأعياق: «يا
ربّ السماء خذني وأرحني من الدنيا ومن عليها».
ولكنّها صاحت بي:

- بل يأخذني أنا، إني عجوز لا خير فيها. أما كان
يجمل بزوجك أن تؤجّل شكواها حتى تخلع ثيابك
وتأكل لقمتك؟... ولكن هيهات أن تدعن لغير
عنادها وتحبّرها...

فقلت في استياء وغيظ:

- إنّها تبكي بكاء مرأاً...

فصاحت بي وكأتها فقدت أعصابها:

- لقد سبّني وشتمتني حتى شبعت، وهما هي
تستقبلك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد
أفلحت...

ما أضيع الحق بين النساء! لقد أعياني الكلام
والنضال ولم أنه إلى شيء. وأعجزني أن أصلح بينهما
فنكد عيشنا طويلاً وساد البيت جوّ خصام. وكففت
يدي يائساً تاركاً للأيام أن توفّق باناتها فيما أخفقت
فيه.

وبدأت أشعر في حياتي الزوجية بفرغ! ولم يداخني
شكّ في أنّ زوجتي تشاركني هذا الشعور. ولم يعد
الليل وجده الذي يثقل على أعصابنا، فما كان انفرادنا
الطويل نهائياً مما يمكن أن نطيقه على وتيرة واحدة إلى
الأبد. لذلك اقترحت عليها أن نقتل الوقت بأسباب
التسلية حتى يمين موعد افتتاح الدراسة ونجد ما
يشغلها. وتقبّلت اقتراحي بسرور ودعتني لزيارة أهلها
الكثيرين، فتنقلنا من بيت لبيت وزارونا بدورهم، ثمّ
اقترحت على أن نذهب إلى السينما يومين في الأسبوع
فقبلت، ولا أدري إن كنت أروم التسلية حقاً أم
أهرب من حياتي الضائعة! ووجدت في السينما راحة
وإن كنت بطبعي أؤثر الوحدة والعزلة، ولكنّي ضمقت

وقلت لها في الطريق متودّداً:

- لم أحتمل البيت بغير وجودك...

فافتّر ثغرها عن ابتسامه صافية، وكانت تتأثر
بالكلمة الطيبة تأثر الأطفال ولكنّها قالت لي:

- يحتمل لي أنّ وجودي في بيتك لا معنى له، وأنّه
يضايقكم.

فأحقتني قولها، وقلت باستياء:

- ساحلك الله على ما ترميننا من تهمة باطلة. لقد
تغيّرت يا نينة بلا موجب فتغيّرت الحقائق في نظرك،
ولا يسعني إلا أن أقول مرّة أخرى ساحلك الله.

فنظرت نحوي بغرابة وقالت بهدوء ويقين:

- إنّ زوجك تكرهني، وبالتالي فهي لا تودّ بقائي في
البيت، وقد ظننت أنّ ما تودّه زوجك ينبغي أن تودّه
أنت.

وشعرت بأنّها لا تترفّق بي متممّة فكاد ينفجر
غضبي لولا رغبتني الصادقة في المسالمة والمصالحة
فكظمت نفسي وقلت واجماً:

- إنّ زوجي لا تكرهك، وهي على العكس من
هذا تظنّ أنّها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفّظ
وحفاء ومقاطعة. حرام عليك أن تقولي قولاً ينغص
عليّ حياتي...

فبدأ على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة. ربّاه.
لشدّ ما تغيّرت!... ألا يمكن أن تمنحني ابتسامتها
المشرقة بدلاً من هذه الابتسامه الباهتة؟... ألا تعود
إلى فتح صدرها لي في ثقة وطمأنينة؟ ترى هل ينبغي
أن أكاشفها بالأمي لتعلم بأنّي لم أتزوّج في الواقع
وأنتي أشقى إنسان في الوجود فتصفح عني وتعود إلى
سابق عهدتها؟...

ورجعت من الوزارة يوماً فوجدت زوجي باكياً،
فهلاني الأمر، وأقبلت نحوها في جزع وألم وانزعاج.
وكانت صباح حاضرة فأخبرتني أنّها - صباح - كانت
تباشر عملها في المطبخ حين دخلت عليها أمي
وجرحتها بانتقاد مرّ، فندخلت زوجي لتصلح الأمر فما
كان من أمي إلا أن رمته بكلام قارص غادرت المكان
على أثره باكياً...

القلب، ونصحها باتباع إرشاداته دومًا لتفادي من
النوبات في المستقبل.

وطال رقادها بالرغم من أن الطبيب أكد لنا عدم
خطورة الحال، ولكن بدا لي أنها تعين المرض على
نفسها، وأن روحها توشك أن تنهار. ووقع في نفسي
أني المسئول عن مرضها فعانيت مرارة التأنيب والندم
في حزن وصمت، وكأنا أردت أن أكفر عن ذنبي
فسهرت بنفسي على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة
والدواء، ولم تأل رباب في القيام بواجبها. لقد ألمتني
حقًا ولكن عن حسن نية، أما أنا فقد ألمتها عامدًا تحت
تأثير غضب مخيف. ومرّت بي أيام قاسية مظلمة، كنت
أرنو إلى وجهها الذابل الشاحب بفؤاد كسير، وراحتها
بين يديّ، ولساني يلهج بالدعاء. وكانت متعبة خائبة،
ولكن قرأت في عينيها نظرة راضية سعيدة، كأنما نسيت
بعطفي وحيي جميع آلامها.

٤٦

وهلّ الخريف بجوّه اللطيف وسحابه الرقيق،
واستقبلت المدارس عامًا جديدًا، وكنت وزوجي
نخرج معًا في الصباح، ونستقلّ ترامًا واحدًا. وكانت
الذكريات تنثال على قلبي في وجد وحزن، حتّى قلت
مرة:

- في مثل هذه الأيام كنت أهرع إلى المحطة أكاد
أموت شوقًا إلى اجتلاء محياك...

فابتسمت رقيقة وقالت:

- وكنت أنتظر بمثل هذا الشوق...

الله محبوبتي!... ما وجدت مثلها تحية راضية
مسرورة.

كانت حبيبتي سعيدة مخلصّة في غير ما تكلف أو
رياء. أكانت تجدّ آلامًا ثمّ تتغلب عليها بما طُبعت عليه
من مودة وطهر؟ ومن أدراني بما كان يعتلج في أعماق
صدرها؟ وما كان يدور في خاطرها عني وعن حياتها؟
ولكنّها كانت سعيدة صادقة محبة وهل من داع يدعوها
إلى ذاك النظاهر المتواصل بالسعادة إذا كانت تعيش أو
كارهة؟ بيد أنه لم يداخلني شكّ كذلك في نضح

على عجل بالزيارات التي أفقد فيها نفسي وأقع فريسة
للحياء والارتباك والعمى والحصر، وما لبثت أن تخلفت
عنها تاركًا زوجي وحدها تقوم بها.

وكان بوسعي أن أحملها على العدول عنها أسوة بي،
ولكنّي لم أرد أن أحرّمها سببًا من أسباب التسلية
وتزجية الفراغ، ولعلني بت أخاف في أعماقي أن تضيق
بالوقت كما أضيق به. كنت أودّ بكلّ قلبي أن أهنيّ لها
جميع أسباب الراحة والسرور، وما كنت أتردد لحظة
عن بذل جميع ما أملك في سبيل مرضاتها، لقد صارت
رباب كلّ شيء، ولم أعد شيئًا مذكورًا.
ولكن بدا لي أن أمي لا ترتاح لحياتنا هذه. وقد
قالت لي يومًا:

- لا يجمل بك أن تسمح لزوجك بقضاء كلّ هذا
الوقت خارج البيت...

وضاق صدري بملاحظاتها فقلت باقتضاب:

- أنسيت أنّ زوجي موظفة؟

فقالت بلهجتها الانتقادية:

- وإن كانت...

وأشفقت من أن يتأذى بنا الجدل إلى ما لا يُحمد
عقباه فقلت برجاء:

- انسها يا أمّاه تستريح وتريح!

فغلبها الانفعال وقالت:

- لو كنت لسان دفاع لي كما أنت لها لما احتقرتني
وسبّتني...

ولذت بالصمت لعلها تمسك، ولكنّها استطردت
تقول:

- إنها تتيه بلا موجب، فكيف لو كانت أمّا!

فقاطعتها صائحًا كالوحش وقد هوى كلامها على
رأسي كالطرفة:

- اسكتي... لا تنسني بكلمة أخرى.

وحددتني بارتياح دون أن تنبس، ثمّ أطرقت.
ولكنّي لم أرث لها ولم أرحمها إذ أفقدني الغضب والألم
وعمي.

وحدث عقب ذلك بأيام أن شعرت بتعب الزمها
الفراش، وقال لنا الطبيب الذي استدعيناه إنه

راح يدق بعنف تباعاً. تملّكي الملع وخجل قاتل،
ونقل على صدري ضيق غليظ كأنما هويت إلى أعماق
بشر سحيقة. وإذا بنازلي هانم تقدمني له، ثم تقدّمه لي
قائلة:

- هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقديمه إليك، لأنّه
عاد من أوروبا حديثاً، ولأنّه يندر أن يتفضّل علينا
بزيارة: الدكتور أمين رضا ابن عمّتي.

وتصافحنا كالمألوف. التقت عينانا لحظة قصيرة،
فلم أقرأ في عينيه إلا نظرة ترحيب باسمه، لم تشر
عينه بأنّه تذكّرني، وظلّ ملازماً سمة المترفع المتحصّن
ضدّ الانفعالات. ولما انتهى من مصافحة الجالسين،
جلس إلى جوار جبر بك وراحا يتحدّثان، وتمت أنا في
أفكاري الفزعة الشاردة، ترى هل تذكّرني!... لعلّه
نسني شأن الأطباء الذين يلقون وجوهها بعدد
الدقائق!... ولكنّه طبب جديد قليل الرواد!...
ومع ذلك فلم يبسّد في عينيه أنّه عرفني على
الإطلاق... أم يكون عرفني ونجاهلني رافة بي!...
ليتني أجد وسيلة للتحقّق من هذه النقطة! وهبّه
عرفني فهل يمكن أن يسوّح بسرّي لقربته نازلي
هانم... ما أبعد هذا عن النصور، ولكن ما أبعدني
عن الطمأنينة كذلك! وجدّتي غريباً في بحر لحيّ من
السواسوس والمخاوف فهل كنت في حاجة إلى
مزيدي!...

ودّعينا إلى الطعام فخرجت من أفكاري وإن عقلت
بي آثارها، كالخارج من نار. وجلّسنا حول المائدة،
وعند ذلك التفتت نازلي هانم وقالت مبتسمة:

- أنت خجول يا سي كامل ولكن حذار فالولائم لا
ترحم الخجولين.

وعلّق بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتدّ بي
الضيق، على أنّهم لم يلبثوا أن شغلوا عنيّ بما بين
أيديهم من لذيذ المأكّل. ولم أكد أشعر بالارتباك الذي
يركبني في أمثال هذه المجتمعات لشروء ذهني فيها هو
أجلّ وأخطر، فلا يفلّ الارتباك إلا الارتباك! ثمّ عدنا
إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة. وتناولت
الفنجان، وقربته إلى فمي، وعلى حين بغتة طار خيالني

أنوثتها وعمق عواطفها. كانت أبعد ما تكون عن
النزق والطيش، ولكنّها كانت عامرة القلب بالحيويّة
والحرارة والعطف. لعلّها كانت تحيا حياة يحدوها الأمل
نفسه الذي أتطلّع إليه صابراً متصبّراً. على أنّ الحقّ
الذي لا مزيّة فيه أنّي كنت مشغولاً بهمومي على حال لم
تدع لي إلا قليلاً للانشغال بهموم غيري. ربّما رجع
ذلك قبل كلّ شيء إلى أنانيّتي الفطريّة، وكان لجهلي
كذلك نصيبه. ولعلّي كنت أحسب أنّي الضحيّة
الأولى - إن لم تكن الوحيدة - في تلك المأساة.

وفي أوائل ذلك الحريف دعانا جبر بك ونازلي هانم
إلى وليمة غداء أقامها للأهل والأقارب لمناسبة شفاء
محمد - شقيق زوجي - من مرض ألمّ به.

وذهبت وزوجي على حين تخلّفت أمنيّ معتذرة
بالنظام الجديد الذي تتبعه في غذائها منذ أشار عليها
الطبيب بذلك. مضيت مرتبّجاً كالعادة، لأنّ وليمة
غداء أشدّ على نفسي من المرض، ولأنّها - هي وأمّناها
من المجتمعات - تعيد إلى ذهني ذكرى منصّة الخطابة
بكلّيّة الحقوق. وقد تعمّدت أنّ نذهب مبكرين لنسبق
المدعوين جميعاً فلا أتعرّض لنظرات أعينهم حين
دخولي حجرة الاستقبال. ونجحت خطّتي فوجدنا
البيت قاصراً على أهله. هم أهلي أيضاً، وإنّي لأحبّهم
جميعاً وإن بتّ أخاف نازلي هانم خوفاً شديداً يثير في
نفسي أشدّ الألم. وأخذ المدعوون يتوافدون. فجاء
أعمام رباب الثلاثة وأحوالها الأربعة مصحوبين
بزوجاتهم وأبنائهم وحضرت كذلك خالتها، واحدة
مصطحبة زوجها، والأخرى - وهي أرملة - برفقة
كبرى بناتها. ومضت نازلي هانم لتستقبل قادمًا جديدًا
فسمعتها تقول له: «لماذا تأخّرت يا سي أمين؟» فردّ
القادم عليها معتذراً بصوت خيّل إليّ أنّي سمعته قبل
ذلك، فتطلّعت إلى الباب باهتمام... ودخل المدعو
الجديد فعرفته من أوّل نظرة. رأيت أمامي ذلك
الدكتور الذي زرته منذ شهرين وبعث له بسرّ شقائي
كلّه، ثبتت عيناى عليه في ارتياح بادئ الأمر، ثمّ
تمالكت نفسي بسرعة وقوة، وإنّي على إخفاء ما يعتلج
بصدري لقادار، ولكنّي لم أجد حيلة مع قلبي الذي

- أنك مغرم بتحميل نفسك الموموم على اختلافها كأنك المسئول عن الدنيا ومَن عليها. ركز اهتمامك في عيادتك وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص، ألا ترى أنك في الثلاثين وهي سنّ فاصلة؟! وهنا قالت إحدى خالتي رباب:

- اطمئني يا أختي فلعلك أن تسمعي أخبارًا سارة قبل استدارة هذا العام.

ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء... وقالت لي رباب همسًا - وكانت تجلس إلى جانبي - إن هذه الفتاة التي يتحدثون عنها حسناء مفرطة في الحسن والورثة المنتظرة لثروة طائلة، وإنها زاملتها عهدًا في الدراسة. والظاهر أن أحد أحوال رباب كان ممن تجذبهم أحاديث السياسة، فما كاد حديث الزواج ينتهي حتى قال مخاطبًا الدكتور:

- لا داعي للتشاؤم فكل شيء مصيره إلى الصلاح وإن طال الزمن. وها نحن على أبواب انتخابات جديدة، ولعلّ الرياح أن تهب هوائًا ورخاء.

فاشتدّت عينا الدكتور وقال بحدة:

- من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة، ذلك أن الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئًا ذا بال في حدود الأوضاع القائمة، فالخير أن تستبدّ الحكومة الفاسدة حتى تعجل بالنهاية... النهاية المحتومة!

فضحك جبر بك وقال:

- ما زلت ساخطًا متبرّمًا. ألا تجد في مصر ما يستحقّ إعجابك وتقديرك؟

فأدار الدكتور عينيه السراقتين في الحاضرين وقال مبتسمًا:

- بلى... أم كلثوم...

وضجوا جميعًا بالضحك. وجعلت أصغي إليه باهتمام واستغراب، ولكنّي لم أكّد أفقه معنى لما يقول. وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وأمثالها، ليس في حياتهم هموم تشغلهم عنها؟ وتمثّل لي في حديثه رجل عليم ورأي وثورة، بادي الغرور والعجرفة. وكما كانت دهشتي كبيرة حين ذكر أم كلثوم

إلى الحانة القديمة بشارع الألفي وتراءى لعينيّ قدح الخمر!... كيف جاءتني هذه الذكرى، ما الباعث عليها؟... لقد وجدت دهشة صادقة، ولكنّي شعرت كذلك بارتياح عجيب، كسرور الحبيب بالحبيب، الخمر... النشوة... السرور... ألا ما أشدّ حاجتي إلى مهرب. كان خاطرًا مفاجئًا غريبًا ولكنّه كان قويًّا لا يقاوم... وعدت بانتباهي إلى ما حولي في حذر وخوف. واتّجهت عيناى إلى الطبيب فوجدته منغمًّا في الحديث، يلقي أقواله بثقة وفصاحة وترفع، وكثيرًا من الحاضرين يتوتّبون للنقاش في اهتمام وسرور. وجرّ الحديث إلى الحياة في بلاد الإنجليز فقال الدكتور: إنّ دراسته شغلت جلّ وقته فلم يتمتّع بحياته هناك كسائح إلّا فيما ندر، على أنّه استطاع رغم ذلك أن يجبر عن كذب مائة الأسس التي ينهض عليها بنيان الحياة السياسيّة، وما يتمتّع به الشعب من مستوى عالٍ للمعيشة، وحرّيّة شاملة تتناول كلّ شيء، قال له جبر بك:

- كأنك واضطت في إنجلترا على الاهتمام بما كنت تهتمّ به في مصر قبل بعثك.

وقال أحد المدعوّين ضاحكًا:

- أجل يا جبر بك، ذكرّه بعهد كليّة الطبّ والثورة الوطنيّة.

وقال آخر:

- من كان يظنّ أنّه سينتهي بك المطاف إلى بلاد العدو وأنك ستعود منها حاملًا له هذا الإعجاب كلّه؟

فقال الدكتور مبتسمًا:

- العداوة لا تُناقض الإعجاب...

فعاد جبر بك يسأله:

- ألم تنزل كما كنت، وفديًا متطرّفًا؟... لقد سُجنت يومًا بسبب الوفد!

فقال الشابّ وقد مطّ بوزه برمًا:

- أرى الآن المصريّين جميعًا يعيشون في سجن كبير، والحقّ يا سيدي أنّ الأخبار الوحيدة التي كانت تسوؤنا

ونحن في إنجلترا هي أخبار مصر...

وقالت نازلي هانم مبتسمة:

- أين كنت من زمان؟
فأجبتته مبتسماً وقد سررت لثيبتته:
- الدنيا... .

ثم أريته خاتم الزواج فقال:

- مبارك... مبارك... وهل أنجبت طفلاً؟

وشعرت بامتعاظ وألم، وهزرت رأسي سلماً، ثم طلبت كأساً من الكونياك وشربت في اعتدال، حتى شعرت بدبيب النشوة في القلب والرأس، وارتسمت على فمي ابتسامة سخرت من جميع الآمي فقلت لنفسي: «أهلاً وسهلاً ومرحباً»، وحرصت على ألا أجاوز الحد، ثم غادرت الحانة زهاء الساعة، ولم أكد أنتهي إلى شارع عماد الدين حتى تذكرت حانة سوق الخضرا! وكان رأسي بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت في شبه تأنيب: أأنسى في رغدي الحانة التي أوتيتي في فقري؟ وأوقفت تاكسي وركبته وانطلق بي إلى حانة الموظف المفلسين والحوذية. ووجدتها في حالة غناء وعريضة كما توقعت. وكان الموظف العجوز يغني «يا ما بكره نعرف» فيردد الجميع «وبعد نشوف»، ولما لمحني قادماً توقف عن الغناء وصاح:

- هس يا أولاد الحلال.

وعرفني الرفاق القدماء فتصافحنا في حرارة، وما كدت أطمئن إلى مقعدي حتى سألتني العجوز متعجباً:

- كنت فين يا حلو غايب؟

فقهقتها ضاحكاً وقلت:

- الدنيا... .

فقال أحد الصحاب:

- فلنلعن الدنيا التي ترغم الحبيب على نسيان
أحبابه... .

فلعنتها معهم عن طيب خاطر. وحدث أن رأى أحدهم خاتم الزواج في إصبعي فهتف:

- دخلت دنيا يا بط... .

وكان لإعلان الخبر أثر شامل فسألني الموظف الفئان:

- كيف وجدت هذه الدنيا... .

وأفزعني تحول الحديث إلى هذا الموضوع الخطير،

كالثيء الوحيد الذي يستحق إعجابه في البلد، وتساءلت في حيرة: أيعشق الغناء حقاً من كان ذا جدّ وصرامة وحدة كهذا الدكتور المجنون؟! ولما كنت أحب الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية، بعد أن أعياني أن أجد صلة شبه بيني وبينه! وكان الدكتور أول المنصرفين، فقام الحاضرون جميعاً لمصافحته، وصافحته بدوري وأنا أتفحص عينيه بخوف واهتمام فلم أجد فيها وراء نظراتها المترقعة ما يرييني. ثم غادرنا نحن البيت في نحو الخامسة. عدنا مشياً على الأقدام ولم تكف حبيبتني عن التعليق على المأدبة والمدعويين طوال الطريق ولكّني لم أستطع أن ألقى إليها انتباهي، واستسلمت لتيار أفكارني الزاخر المضطرب، كيف ألقى الحظ العاثر في طريقي بهذا الدكتور المجنون؟ وكيف قادني القدر إلى الاعتراف له بسرّي الذي أخاف عليه آذان الحيطان!

٤٧

أوصلت رباب إلى باب العمارة ثم عدت أدراجي إلى المحطة معتدراً ببعض أعمال خيالية! استقلت الترام إلى العتبة، ثم مضيت إلى شارع الألفي بك. كان قلبي يخفق في خوف ورهبة كما خفق أول مرة حملتني قدماني إلى هذا الشارع، وتراءى لعيني خيال الكأس مفترقة الثغر عن إغراء عنيف. كنت نسيتهما فلم تخطر لي على بال منذ بلغ قلبي مناه حتى رأيتها اليوم في فنجان القهوة فحرك أعماق الفؤاد. أمي + زوجي + الدكتور أمين رضا = الخمر، هذه هي المعادلة التي استقرت في نفسي. على أنني ترددت حين أصبحت من حانتي القديمة على قيد خطوة، وتساءلت في حزن وقلق ألا يُعدّ إقدامي هذا خيانة لزوجي؟. ولكّني أنكرت على نفسي هذا المنطق الغريب وشققت طريقي إلى الداخل. وتراءى لي فجأة خيال أبي، واثالث على ذهني صور من ذكرياته، فاستعرضتها في هدوء، وفي غير ما شئانة أو كراهية، ثم جلست إلى المائدة وأنا أغمغم، «رحم الله وغفر له».

وجاء النادل مسرعاً فحياتي وهو يقول لي:

النور وغمغمت «من؟» ثم واصلت نومها دون أن تستيقظ، وخلعت ملاسي في عجلة واضطراب ويدي ترتعشان، وأنفاسي تتردد في دهشة وسرور وجزع، وهرعت إلى الفراش، وانسدست تحت الغطاء، ضممتها إلى صدري ووضعت شفتي على شفتيها حتى فتحت عينيها، وأمطرتها قبلاً بنهم ورغبة وسرور حتى أفأقت وبادلتي القبل، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يضمن به المنام، حلم لا يصدق بيد أنه كان حلماً قصيراً لم يستغرق ثانيتين من الدقيقة. وأفقت من سحره في طمأنينة وسلام، وبى من السعادة نشوة أضعاف ما بى من الخمر، واضطجعت في حبور، وأغمضت جفتي مستسلمة لامتاع الخواطر والأحلام. على أن أحلامي لم تنسج وشيها هذه المرة من مادة الخيال، ولكنها استمدته من الواقع، من صميم حياتي، وألذ العيش ما كان حلمه السعيد صدق للواقع الراهن! لا تلقيت السعادة بامتنان العابد، وأيقنت أن همومي انجلت إلى الأبد. وفي صباح اليوم التالي جعلت أزر إلى حبيبي بثقة وسرور، وشعرت حقاً بأنني زوج، وبأنني رجل... ولم تزايلني أحاسيس السعادة والفضار طوال اليوم، وعندما أت المساء ذهبت إلى شارع الألفي بك، ثم عدت إلى حبيبي طائراً على جناحي نشوتي، وعللت من الكأس المترعة، بالسرور نفسه والسرعة نفسها، ثم اضطجعت ضجعة المطمئن، ما كان لثلي أن ينسى ما تجرّع من غصص العذاب، ولكن السعادة الحقة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب.

٤٨

وتقضت أسابيع - لعلها لم تجاوز الشهرين - في سعادة وطمأنينة. وإني إذ أعود إلى ذكرى تلك الأيام يمضي شعور بالألم والأسى، لا حسرة على سعادة ذهبت، ولكن أسفاً على أكبر خدعة ابتليت بها في حياتي. لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الإطلاق. وإذا كنت قد تمتعت بالسعادة زمناً رغداً، فما ذلك إلا لأنني كنت غرماً جاهلاً أعمى. وما من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل

ولكني لم أجد بداً من أن أقول:

- حلوة!... ألسنت متزوّجاً يا سيدي؟

فضحك الرجل حتى بانث أسنانه المُرّمة وقال:

- المرأة إذا جاوزت الشباب لم تعد امرأة... .

فقال آخر مؤمناً على قوله:

- صدقت. المرأة أقصر المخلوقات عمراً وإن

هرمت.

وقال غيره:

- إن زوجي تدبّر لي شجاراً نظير كل سهرة في

الحانة، وقد قلت لها: إنّي على أهبة الاستعداد لأن

أهجر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هي

الدنيا!!

وبدوا جميعاً ساخطين على حياتهم فداخلي عزاء لم

أجده من قبل، وعجبت لهذه الأسباب الغريبة التي

تؤاخي بين السكرين. ثم لاحظت تغيب «فران»

شريب اشتهر بيننا بإدمانه وصمته. فسألت عنه؟

فأجابني العجوز الفئان:

- لم تعد الخمر لتؤثر فيه، فهو يمضي مساء كل يوم

إلى البَدال ويشرب كحولاً صرفاً...

وواصلوا ما انقطع من الغناء، ورحت أشرب

كالأيام الماضية. ما أعجب قدرتي على الشرب! إنّي

ضعيف رعديد حيال كل أمر، ولا ثقة لي في عقلي ولا

في قلبي. أما معدتي فقادرة على ابتلاع حانة! وغادرت

الحانة في العاشرة مودّعاً بأطيب التحيات، وتنقلت من

طريق لطريق لا تسعني الأرض من فرط النشوة

والسلطنة، ثم هفا عليّ طيف حبيبي فتخيّلها بعين

السكران: وقد طال بها انتظاري فاستسلمت للرقاد،

فانتشت نشوتي، وخفق فؤادي خفقان الوله، وهتفت

بنفسي الأشواق، وبحثت عيناى الزائعتان عن تاكسي

ثم مضيت إليه لا ألوي على شيء وطلبت إلى السائق

أن يسرع بأقصى ما لديه من سرعة، فطار بي يطوي

الأرض طياً، وغادرته عند العمارة، وارتقيت السلم في

عجلة، ثم دخلت الشقة وسرت إلى حجرتي بلا تردد،

وأدرت مفتاح الكهرباء فوق بصري على حبيبي وقد

استغرقت في نوم هادئ. وقد تحرك رأسها لدى سطوع

سعدتُ به! أعجبتُ بها من حقيقة تحميري، ولكن لإلم أكذب نفسي! إنها تبدو كأنها تخاف الليل وتحماسها، ولا نكاد نخلو إلى نفسينا حتى يعثورها قلق تفصحه عنها الصافيتان، ثم تفتأ - في هذه الأيام الأخيرة خاصة - تعتذر بشقّي الأعدار، فمن تعب إلى توَعك إلى رغبة ملحة في النوم. وإذا أذعنت لي فلنأتم تدعن في تسليم لا سرور فيه، ثم تنتثر جسمها من جسمي في شبه استياء وغضب! وأقرّ إلى هذا كله بأنّها لم تعد فتاتي الضاحكة المستبشرة الصافية. شابت ضحكها التكلّف، ودبّ في سعادتها الفتور، وانقلب ودّها تودّداً. حاشاي أن أقول إنّها أعلنت سخطاً أو أساءت أدباً، حببتي فوق هذا كله، ولكنني أحسن قلقها بقلبي، وأدرك حيرتها بغريزي. ربّاه إنّ الدنيا جميعاً لا تساوي خردلة إذا تألّمت حببتي؟ فماذا بها؟... إنّني أفتقد حببتي فلا أجدها، ولا بدّ أن أجدها، أو أموت كمداً...

وبلغ شقائي غايته إذ ترك نفورها في نفسي أثراً عميقاً، تغلغل في حناياها، فحرك الداء القديم، وولّى الشفاء الساحر، ولم تنفع فيه الخمر. وتناهى بي الحزن حتى أشفيت على الجنون. أيعاودني العجز؟ وهل أزد إلى ذلك اليأس المميت؟. وقلت لها مرّة في قنوط:
- رباب... ماذا بك؟... لست الحبيبة التي عهدتها.

فلاذت بالصمت، وغضت بصرها حيرة وارتباكاً، فقلت بتضرّع متسائلاً:

- إنّ قلبي لا يكذبني فخبّرني ماذا غيرك؟
فهمست قائلة وقد لاحت في عينيها نظرة ساهمة:
- لا شيء...

فهنفت من الأعماق:

- بل شيء وأشياء، إنّ زوجك يا رباب وحياتي كلّها لك، فلا تخفي عني شيئاً. آه يا رباب إنّ أبكي أيامنا الماضية.

فتهدّدت ولاح في وجهها الارتباك والألم، ثم غمغمت في حذر وإشفاق:

- وإنّي أبكي أيامنا أيضاً...

عماه، أمّا إذا رُدّ إليه البصر ورأى سعادته سراباً فهل يجني من ذكريات سعادته إلا حسرة مضاعفة وهماً مقيماً؟ وهذه هي حالي بلا زيادة ولا نقصان، وما فطنت إليها إلا في بطة شديد يوافق جهلي وبلادتي.

لاحظت أنّ «رباب» تمضي النهار كله وشطراً من الليل خارج البيت، بين مدرستها وبيوت أهلها وأقاربها، وقد رافقتها بادئ الأمر رغم طبعي النفور، ثم شقّ عليّ الأمر فنكصت على عقبي، ولم أعد أصحبها إلا فيما ندر من الزيارات. وعادت أمّي تعلن عن ملاحظاتها في مرارة وأسى وأنا أدافع عن زوجي بلا فتور وإن تجاوب لانتقادها في نفسي صدق عميق، وكنت فيما مضى أشجّع زوجي على هذه الزيارات لتتسلّى بها عيّا أشعر به من نقص حياتنا المشتركة، أمّا الآن فلم يعد من موجب في نظري للإفراط فيها. ولملت أطراف شجاعتي يوماً وقلت لها:

- كأنك تقاطعين بيتنا يا عزيزتي، فهلاً أقللت من هذه الزيارات المتواصلة؟

وحددتني بنظرة مريبة وسألني بحدّة لم أعهد لها من قبل:

- أما زالت تشغل نفسها بانتقادي؟

وفهمت أنّها تعني أمّي، وساءني أن تضمّر لها هذا النفور، فأجبتها متلطفّاً:

- إنّ أمّي لا تتدخل فيما لا يعينها. وهذا رجائي أنا دون غيري، والحق أنّي لا أطيق بيتنا إذا كنت خارجه...

فقال وقد استردّت هدوءها: هلمّ نخرج معاً. لماذا تضيق بالناس؟...

فقلت برقة: هكذا أنا...

ولا أدري ماذا غيرها أثر كلمتي تلك فقالت بحدّة:
- إنّ الحياة لا تحتمل على غير هذا الوجه.

آه يا حببتي، لم تكن رقتك لتسمح بمثل هذا الضيق، فما الذي حدث؟ وليس هذا كلّ ما في الأمر، فإنّ قلبي أحياناً يرى ما لا تراه عيناى. ينبغي أن أشقّ ستار العمى وأن ألقى الحقيقة على مرارتها وجهها لوجه... يجئ إليّ أنّ «رباب» لم تسعد بشقائي كما

لا أدري لماذا آلتني رقتها. ثم تذكرت بعض ما سمعت في إدارة المخازن فقلت:

- ولكن لا يمكن أن تتم سعادة المرأة إلا بهذا...

فتورّد وجهها وقالت بسرعة ويقين:

- كلاً... كلاً... أنت مخطئ في هذا.

ورنوت إليها في حيرة! ترى حقاً تصدقني القول؟ ولكن ما عسى أن يحملها على الكذب؟! لم أكن إلا غرّاً جاهلاً، ولن تجد كالغزr الجاهل صيداً سهلاً للهجة التأكيد، فأثر في قولها تأثيراً عميقاً...

هل أكذب حبيبتي وأصدّق سخفاء الموظفين؟! ألم يعبر قولها هذا عن رأي قديم اعتنفته قبل أن يجولني عنه مجون الزملاء بإدارة المخازن؟... وفضلاً عن هذا وذاك فليس بوسعي وصلها بعد أن باحت، وبعد أن عاودني من العجز ما عاودني، لذلك كلّه تظاهرت بالارتياح، واصطنعت ابتسامة. ثم قلت بتسليم:

- ليس لي وراء سعادتك مطلب يا رباب!

وسرّي عنها، ولاح في عينيها نظرة ارتياح، وتداننت مني حتى التصقت بي وقبّلتني!

عدنا كما كنا. عدت زوجاً عذرياً ذا عادة ذميمة،

ورحت أقول لنفسي: إنه لا ذنب لي فيما انتهينا إليه.

إني رجل كامل ولولا طبعها هي ما انتابني هذه النكسة! بل إني أحمّل هذه الحياة الغربية إكراماً لها! يا

له من عزاء كنت في ميسس الحاجة إليه! ولكن هل

حقاً صدقت نفسي؟! ومهما يكن من أمر فإنّ ذكرى

عهد السعادة لم تغب عن ذهني لحظة واحدة، كيف

انقضى ذلك العهد بتلك السرعة التي لم أتوقعها؟ وكيف

أذي حبيبتي حتى خرجت عن صمتها بهذه الشكوى

السافرة؟ أليس معنى هذا أنّي شقيّ ولا حيلة لي في

شقايتي؟ أه... لشدّ ما نازعتني النفس إلى الحرّية

والفرار! وعاودتني ذكريات تشرّدي في الطرّيق بحنان

ولهفة...

هل عاد كلّ شيء إلى أصله؟!!

وما زال الحبّ يجمعنا في عناق وعطف، وعادت

حبيبتي إلى مرحها وحبورها وهي تقضي يومها ما بين

مدرستها وبيوت الأهل والأقارب، وبحسبي أن أراها

فتولّاني الدهول والانزعاج وسألتها في حيرة شديدة:

- كيف يا رباب؟... إني لا أفهم شيئاً. أما كان

ينبغي لحياتنا أن تكون أوفر سعادة!

ثمّ وجهها على أنّها تعاني من ضروب الحيرة مثلها

أعاني، فازددت ذهولاً وانزعاجاً وانتظرت أن تميط

اللثام عمّا يحيرها فتجلو لي ما يحيرني بالتالي. وانتظرت

في قلق وإن بات قلبي يمدس أموراً يفرق لها رعباً

ويأساً وخزياً. ولما طال بي الانتظار قلت:

- لماذا لا تكاشفني بذات نفسك!

إنّما ترغب في البوح بما ينوء به صدرها الرقيق

ولكنّها لا تجد سبيلاً إلى الإفصاح أو لا تواتيها

الشجاعة عليه، وإني أزداد خوفاً وقنوطاً حتى تناهى بي

الجزع فقلت:

- رباب... إنك لا ترتاحين لما جدّ في حياتنا!

فحدجتني بنظرة غريبة، ثمّ خفضت بصرها

وراحت تقضم ظفرها في حيرة وارتباك. برح الخفاء.

بيد أنّ صمتها أخذ يضايقي فتساءلت فيما يشبه

الضجر:

- أليس الأمر كذلك؟

ورنت إليّ بنظرة توسّل واستعطاف وقالت بصوت

لا يكاد يُسمع:

- لعد كما كنت؟... كانت حياة طيبة!

وكانّ لطمه هوت على وجهي ففضضت عينيّ حياءً

وقنوطاً. ومع أنّ رغبتها هذه حقيقة بأن تهبّي لي عذراً

أداري به ما عاودني من عجز إلا أنّي تلقّيتها بخزي

ميت. ولعلّها قرأت ما لاح في وجهي من أمارات الألم

فقالته برقة:

- لست أعني شيئاً يمكن أن يكدرّك، ولكنّي أهفو

لحياتنا الماضية. كانت حياة طاهرة سعيدة!

فقلت كأنني أكمل حديثها:

- ولم يكن بها ما ينغصّ صفوفك؟

فطرفت عيناها، وتجلّت فيها نظرة عطف وقالت

برقة:

- كنا سعداء أليس كذلك؟... ولم يكن ينقصنا

شيء على الإطلاق...

نهضت مستأذناً وغادرت الحجرة. ولاحت مني التفاتة إلى حجرتنا - وكان بابها مفتوحاً كما تركته - فرأيت رباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطاباً. وأدركت لتوي أن ساعي البريد جاء به حين كنت منفرداً بأمي وإلا لعلمت به وقت وصوله، وظننته مرسلًا إلي من أخي لأن رباب لم تكن تتلقى خطابات، فعدت إلى حجرتي مستطلعاً، وشارفت بابها ورباب مغرقة في القراءة لم تنتبه لي حتى قلت لها:

- أهذا الخطاب لي؟

ورفعت رأسها نحوي في دهشة، وطوت يدها الخطاب بحركة آلية سريعة، وسألتي في اضطراب ظاهر:

- هل نسيت شيئاً؟

فقلت وقد تولاني قلق لا أدريه:

- كنت في حجرة أمي، ورأيتك عند مغادرتي لها تقرئين هذا الخطاب فظننته لي.

فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التواليت، وكانت بلا ريب تحاول أن تضبط عواطفها، ولكن عينها وشتا بما تركه حضوري المفاجئ في نفسها من وقع عميق لم تتوقعه، وقالت وقد نذت عنها ضحكة مقتضبة جافة لم تجد في مداراة اضطرابها:

- ليس خطاباً كما تظن، إن هي إلا وريقة سجلت بها بعض ملاحظات تتعلق بعمل المدرسي...

وداخلني خوف تمثى في مفاصلي. لعلها لم تجاوز الصدق ولكن عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسي فشعرت بذاك الخوف الغريب، كأنه نذير شر مجهول يتجمع في أفقي المكفهر. ما الذي يدعوها إلى الكذب؟ ولكني رأيت في يدها خطاباً بلا ريب! وقد خفت أن أتمادي في إظهار الشك أن يكون الحق معها فأقع في حرج ما أغنائي عنه. على أنني لم أتمالك أن قلت:

- ولكني رأيت خطاباً بيدك..

ووقع قولي من أذني موقعاً سيئاً، فحيل إلي أنني لم أحسن اختياره، وأنه يفصح عن شك واضح، ورمقتها في إشفاق. وانتظرت أن تسط لي الوريقة في حركة

سعيدة مسرورة. ولعل طبعها اعتراه تغير طفيف يبدو في سهومها الحين بعد الحين كما يبدو في سرعة غضبها لأقل همسة تصدر من أمي.

هل كنت سعيداً؟

كانت حبيبي سعيدة يبدو لي، فكان طبيعياً أن أعد نفسي سعيداً. حقاً لم تنقطع بي الوسوس ولكني متى عرفت الحياة بلا وسوس؟... وأطرده تيار الحياة تتقاذفي أمواجه، يسعدني سرور حبيبي، ويشقيني حزن أمي، أقضي وقتاً ثقيلاً في الوزارة، وأنفق ساعات حاملة في الحانة على فترات متباعدة. وحتى ضميري الذي عانيت طويلاً من شعوره بالخطيئة لم أَل أن أغضي علي أناته وتآهاته بضحكات السرور والعريضة، وكنت كلما ألح علي وخزّه أقول لنفسي بصوت مرتفع إنني سعيد، وكل شيء حسن!

ومضى الشتاء فالربيع ثم الصيف. وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسي الجديد بما تبتدرنا من عزيز الذكريات.

٤٩

وعرض لي أمر بدا تافهاً ولكنه كاد يقلب حياتي رأساً على عقب، ومن عجب أنه تكشف لي عقب مصادفة، فحق لي أن أتساءل: أكانت حياتي تستهدف وجهة أخرى لو لم تعرض لي تلك المصادفة؟ ولكن ما هي المصادفة؟ ألا تبدو الحياة أحياناً سلسلة متصلة من المصادفات؟ ماذا ألقى برباب في طريقي غير المصادفة؟ وهل كان يتاح لي الزواج منها لو تأخر موت أبي شهراً واحداً؟ بل ماذا كان يحدث لي لو أصر أبي على استرداد كما فعل براضية ومدحت؟ على هذا المنوال أتساءل: ألم يكن من الممكن أن تطرد حياتي على وتيرة واحدة حتى الموت لو لم يطل اللقاء بيني وبين أمي دقائق معدودات ذلك اليوم الذي لا ينسى؟!

كنا في أواخر الخريف، وكان الوقت عصراً، وقد ودعت رباب وغادرت الحجرة لقضاء سهري المسائية. والتقيت بأمي في الصلاة وكانت متوعدة فمضيت معها إلى حجرتها ولبثت معها نتحدث فطال بنا الحديث، ثم

- إنه خطاب، ولن أرجع حتى تعترف لي بكل شيء...

تراجعت متأوهة حتى استندت إلى مرآة الصوان وقالت بصوت تمزقه الشكوى:

- بالله لا تسئ بي الظن. لا شيء البتة يستوجب غضبك أو ارتيابك، أو أه لا تنظر إلي هكذا...

ولكنني لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسي تتلهف على الحقيقة، فإنما النجاة وإما الهلاك. رباه إنني لفي كابوس طاع. وهل كان يقع في ظني أن أقف منها هذا الموقف إلا في كابوس؟! واستدركت تقول بصوت متقطع الأنفاس:

- لا تنظر إلي هكذا! لقد أخطأت حقاً ولكنك أنت المسئول عن خطي! لقد فاجأني فركبني الاضطراب، فنورطت في كذب لا داعي له...

رباه ما أحوجني إلى النجاة، ما أشدّ تلهفي على قطرة غيث تبلّ جوانحي... وقلت في حيرة:

- كان خطاباً...

فبادرتني قائلة:

- أجل! وكان يبدو لي أمره تافهاً حتى وقع في نفسك الارتباب. وتجهّم وجهك فتخيلت الأمر التافه جلاً خطيراً فالتمست مخرجاً في الكذب، وكان ما كان.

فسألتهما وما أزداد إلا حيرة:

- إذا كان خطاباً، فمن أرسله؟

فقالته وبها مثلما بي من الحيرة:

- لا أدري...

فنفخت قائلاً:

- ما هذه المعميات؟!

تولّى عنها الذعر رويداً، وتشجعت بانفشاء غضبي فقالت بصوت ملؤه الأمل:

- دعني أقصّ عليك قصة هذا الخطاب المشوم بالحرف الواحد: لقد تلقّيته صباح اليوم بالدرسة، ففضضته بدهشة لأنني لم أعتد تلقّي الخطابات، ووجدته غفلاً من الإمضاء، ولم يكن به سوى سخب وقبح، خطّه قلم شخص سمحاً وملكني الحق بادي

عصبية وأن ترميني بطرف ساخر مؤتب، ولكنها كانت تعاني أحاسيس أخرى. وكأنما قهرتها عاطفة مجهولة فقالت وهي توليني ظهرها:

- قلت لك إنهما وريقة خاصة بملاحظات مدرسية.

ثم رأيتها تمزقها بحركة مباغته، وتحولت صوب النافذة ورمت بها! كانت حركة مباغته أبعد من أن أتوقعها فتسمرت في مكاني كأنما حلّ بي شلل. واستقبلتني بوجهها متظاهرة بعدم المبالاة فتملكني حتى وغضب ويأس، وشعرت بأن جدّاً هائلاً قد انقضّ على حياتي فدفعها تحت ركامه، وأن عيني تنفتحان - بعد أوهام العمى - على حقائق بشعة. وهل غير الحقائق البشعة ما يستشير هذا الاضطراب وذلك الخداع الماكر؟. وصحت بلا وعي:

- كاذبة... لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كذباً

وخداعاً. ولكنه خطاب كما رأيت، وقد مزقته لتواري عني سواه...

وغاص الدم في وجهها فترك صفحته شاحبة كوجوه الموتى، ولكن بدا أنها لا تريد أن تسلم بغير دفاع المستيسر فغمغمت:

- أنت مخطئ... وظالم... لم يكن خطاباً!

فهتفت بها مغيطاً محمّلاً والألم واليأس يطرقان رأسي بعنف:

- لماذا مزقته؟... لماذا تولّك الذعر؟...

تكلمي... لا بد أن أعرف الحقيقة... سأنزل إلى الطريق ألتقط القصاصات.

وانجّمت نحو النافذة في عجلة واضطراب وأطلت على الطريق فرأيت العطفة الضيقة التي تفصل مؤخرة

العمارة عن حديقة الكنيسة، فداخلني يأس وأيقنت أنّ الهواء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة.

واسودت الدنيا في عيني، وخيل إليّ أنها تتمخض عن عالم من الشياطين الراقصة في تيار من هيب. كيف

أنترع الحقيقة من بين شفتيها؟ ودرت على عقبي فوجدتها بموقفها، يحاكي وجهها وجوه الموتى، وتلوح في

عينها نظرة ذعر وارتباك، فاشتدّت قسوة قلبي، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة، وقلت بإصرار وحق:

وكأنني فقدت وعيي:

- لماذا مرّفته... لماذا مرّفته؟

فنفخت فيها يشبه اليأس، ولزمت الصمت ملياً،
ثمّ قالت بهدوء واستسلام:

- لقد تسلّمت هذا الخطاب المشثوم في المدرسة،
ولا أظنك تشكّ في هذا لأنّه من الجنون أن يرسله إلى
البيت. والآن اطرح على نفسك هذا السؤال: ما
الذي يدعوني إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت
إذا كان به ما يريب؟ لماذا لم أمزّقه في المدرسة بعد
قراءته!

وعقدت الصمت لساني حيال وجهة الحجّة ولعليّ
أسفت على ما بدر منّي من صياح كاسر. أمّا «رباب»
فعادت تقول:

- لو كنت مذنبه لما وجدتي بهذا الموقف السيئ، ولما
علمت بشيء وهيهات أن أغفر لك سوء ظنك بي...
فألني قولها، وداخلي شعور أليم بالخجل فخفضت
بصري أن ترى به أي الهزيمة. على أنّ ألمي لم يُنسني ما
أحبّ أن أجعله من غامض الأمور فقلت بصوت
منخفض:

- إنّ قولك مصدّق... ولكن لعلّ صاحب
الخطاب لم يوقّع بإمضائه لظنه أنّه من السهل
الاستدلال عليه، كأن يكون ممن يعترضون سبيلك
مثلاً...

ولم يخفّف لين نبراتي من ألمها، بل لعلّه جعلها
تتهادى فيه، وقالت بامتعاض:

- من عادتي أن أسير فلا ألوي على شيء ولا ألقى
بالأ لإنسان.

لم أكن في حاجة إلى قولها وقد خبرته بنفسني، ولكن
لاح لعينيّ شبها الرجلين اللذين قاسماني الإعجاب بها
فيها مضى. فقلت متسائلاً:

- ألا يُحتمل أن يكون جارك الذي شرع في طلب
يدك... أعني محمّد جودت؟
فقلت بلا تردّد:

- هذا رجل وقور لا ينزل لهذه الأساليب الوقحة،
وفضلاً عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ

الأمر، ثمّ لم أعد أباله. وصمّمت على الاحتفاظ به
لأطلعك عليه وفي ظنيّ أنّي أعدّ لك مفاجأة تضحك
منها طويلاً. ولكنّي غيرت رأيي عقب عودتك وخفت
أن يثير بنفسك ما لا داعي له من الاستياء. وأخفيت
عني أمره حتّى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته من
حقيقتي وأعدت تلاوته وفي نيتي أن أمزّقه ولكنك
فاجأتني وقت تلاوته، ولم يغب عنيّ حرج مركزي، ولم
يعد بوسعي الاعتراف بالحقيقة، فتورّطت كما قلت لك
في الكذب، وجنيت من كذبي ما جنيت ممّا لا
أستحقّ.

أصغيت إليها وكليّ آذان. ولما انتهت من قصّتها
لبثت بموقفني جامداً متحيراً. خفّت وطأة الجنون الذي
ركبني ولكنّي وقفت بباب التصديق والطمأنينة متردّداً.
وجدت نفسي في حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها
عنيّ، وأن يبني بصيرة نيرة أنفذ بها إلى أعماق هذا
الصدر الجميل الذي كأنما خلقت لتعذبي. وأرهقني
التفكير والتردّد فقلت وكأنني أسائل نفسي:

- من مرّسله؟!

وكأنّ السؤال ألمها، فغضّت بصرها مقنّبة وقالت:

- قلت كان غفلاً من الإمضاء.

فانفلت لساني يقول:

- هذا غير معقول.

فضربت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح في وجهها
الأم والتعسة:

- أتكدّبني يا كامل بعد أن صارحتك الحقيقة؟ إنّي

لا أحتمل هذا...

فاستطردت قائلاً وقد نال منّي تألها:

- أعني ماذا يفيد الخطاب إذا لم يترك به إشارة تدلّ
عليه؟ ألم يرسل لك خطاباً قبله؟

- ... هذا أوّل خطاب أنلقاه...

- وماذا كان به؟

فغضّت بصرها وهي تقول بضيق:

- كلام سخيف عن الإعجاب والجمال...

ووثب إلى خيالي منظر يديها وهما تمزّقان الخطاب
فلسعني الشكّ وانتفض جسمي في هلع فصحت بها

أعرف نفسي جيّدًا، وإني لأغار من الوهم ومن لا شيء! فأين مني جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل! وطار الخيال بغيته إلى حجرة أمني فسرت في جسدي قشعريرة ونخلتها تقول لي «ألم أقل لك؟» فنفختُ كمن يزيح عن صدره كابوسًا، ولاحت مني التفاتة نحو «رباب» فوجدتها تحمق في وجهي بدهشة، فخطر لي خاطر جديد لم أتوانَ عن الإفصاح عنه فقلت برقة:

- رباب، لماذا تواصلين خدمتك في الحكومة! لماذا تتجشمين هذه المشقة بلا ضرورة؟ لماذا لا تقنعين بيتك كغيرك من الأزواج؟

فتفترست في وجهي بإمعان وأناة، ثم قالت بهدوء:
- ألا تتق بي؟

فابتدرتها قائلاً: معاذ الله ولكفي...
وقاطعتني قائلة:

- إذا كنت لا تتق في فالأولى لي أن أغادر بيتك!
- رباب!

فلم تبال جزعي وقالت:

- إذا كنت ما تزال تتق بي فسأبقى في وظيفتي.
فقلت بتسليم:

- لك ما تشائين!

فالتت باللهجة نفسها:

- لا أحب أن أسمع كلمة أخرى عن هذا الموضوع.

وقد كان. وغادرت البيت، وأخذت أضرب في الأرض على غير هدى حتى تناهى بي الإعياء، فرجعت إلى البيت، وتلاقينا وكأن لم يكن بيننا شيء وتناولنا العشاء معًا، ثم آوينا إلى حجرتنا والتقت أعيننا في نظرات ذات معنى.

ولم نتمالك أن انفجرنا ضاحكين، ومضينا إلى الفراش فاضطجعنا وقبّلنا قبلة النوم. ولا أدري لماذا نازعتني نفسي إلى معاودة ما تعاهدنا على اجتنابه. والأعجب من هذا أنه لم تكن بي ذرة من ثقة، ومع ذلك كدت أهم... لولا أن ردّي الخوف إلى وعي! ثم خطر لي أن أسألها عمّا يجعلها تقضي على نفسها بالحرمان؟ وانفجرت شفتاي ولفظ صدري القول،

قراءة شهر في بيت أبي... .

فتفكرت قليلاً ثم قلت متحيراً:

- كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينه في ذلك العهد الذي كنت أحوم فيه حولك، أفلا يجوز أن يكون هو؟
فزوت ما بين حاجبيها مستذكرة، ثم قالت وهي تهز رأسها:

- لا أعلم عنه شيئاً... .

وحاولت أن أدكرها به ولكنّها بدت وكأنتها لم تحس له وجودًا، فقلت بيأس وغيظ:
- أريد أن أعرفه كي أؤدبه.

فالتت بصوت دلّت نبراته على التعب:

- ليكن من يكون! لو لم يدفعي الارتباك إلى تمزيقه لكنا نقرأه الآن ضاحكين، فهلاً نسيته وحسبنا ما نالنا من كدرا!

فعضضت على شفتي، وجنحت إلى الصمت مغنيظًا مقهورًا، فاستطردت قائلة:

- إنه أمر تافه، بل أنفه من أن يستحق كل هذا الاهتمام... .

فتنهدت قائلاً وأنا لا أدري:

- ليتك لم تمزّقيه!

والتمعت في عينيها نظرة غاضبة وتساءلت بحدّة:

- ألا زال يساورك الشك؟

فقلت بعجلة:

- كلا... . ولكي لي أهدأ حتى أؤدبه!

فالتت بضجر:

- ولكنك لا نعرفه فما العمل؟

وأحنفتي قولها، ولكني تحاميت الإفصاح عن حقيقي أن أستثير غضبها. وكأن الوقوف أرهاقها فمضت إلى كرسي التواليت وجلست عليه، وشعرت عند ذلك بألم في ظهري، فدلقت من الفراش واقتعدت حافظته. إنها صادقة بريئة، والأمر جد تافه، فليتني أستطيع أن أحو من مخيلتي صورة يديها وهما تمزقان الخطاب! لعل المجرم أحد أولئك الفضوليين الذين يراقبونها في ذهابها وإيابها! فليتني لم أخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة. إني

ولكنه جمد على طرف لساني! إنه الخوف أيضًا.

من أن أسارَ أُمِّي بها.

٥٠

هل أستطيع أن أجلو السرّ بنفسي؟ أياكون الله قد خلقها خلقًا طاهرًا لا تطيب له الحياة إلا بالعفة؟! هذا فرض محتمل يؤيده الواقع. ولست أسي عليه، فلولاها لكنت في مأزق حرج. والحقّ أنّ اتصالي بها - حتى في أسعد أوقاته - لم يخل من قلقي وخوف غامضين. وقد عاودني العجز في إبان جنوحها إلى النفور، ولكنّي كنت آبي إلا أن أصوّر نفسي في صورة الضحية لشذوذ حبيبي، والفداء لسعادتها... ولمّا بلغت هذا الحدّ من التفكير - وكنت أشرف الوزارة - اضطرب ذهني وشعرت بقلق طاغٍ لم أدركه. بدا لي الأمر وكأنّه يستدعي الطمأنينة التامة، ومع ذلك لفتني حيرة معذّبة فدخلت الوزارة ذاهلاً... من عسى أن يكون الوغد الذي كتب الخطاب؟ معقول جدًّا ألا يكون الرجل الوقور محمد جودت، فمن يكون؟ لماذا لا يكون الفتى الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المتغطّسة؟ وليس هذا بعيد. إنّه في تناول يدي، وإني لأعرف موقفه الذي ينتظر به كلّ صباح... ترى هل حقًا جهلته أم كانت تتجاهله؟ على أنّي تمثيت بقلبي ألا يكونه، إذ لم يخفّ عني لحظة أنّه قادر على أن يبطش بي بضربة واحدة؟ وقلت لنفسي ساخطًا: لو أنّها أبقت على الخطاب لأمكنني كلّ شيء. أيّ شيء أعني؟ لا أدري على وجه التحقيق، لكنّي وجدت عليها مرّة أخرى بعد أن عدّ الأمر منتهيًا. والله ما مرّفته إلا خوفًا من اطلاعي عليه. ربّاه هل أتردّي ثانية في الجحيم؟ حذار! إن تتمادى! إنّ من يسمح لنفسه بالشكّ في رباب لا يستحقّ أن يكون إنسانًا. ألا يحسن بي أن أسأله في التليفون عمّا إذا كانت تلقّت خطابًا جديدًا؟ نازعتني إلى ذلك رغبة جامحة ولكن حال دون تنفيذها الخوف... ودعاني صوت من الأعماق إلى الهرب! ولكنّ تمنّ أهرب؟ وإلى أين؟ إمّا أن أكون مجنونًا أو سخيًّا. إنّنا زوجان سعيدان في الواقع، ولكنّ عقلي شقيّ، فآه لو أستطيع حذف الأمس من الأيام. آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالي. وإليك خاطرًا جديدًا: إذا كانت قرأت الخطاب في المدرسة فلماذا

وعندما فتحت عينيّ في الصباح الباكر عاودتني ذكريات الأمس، فتأمّلتها في دهشة، وقد خيل لي أنّه لم يكن هنالك ما يستحقّ كلّ ذلك العناء والألم. وقلت لنفسي: لو أنّها مرّقت الخطاب في الروضة لما علمت به أبدًا، وفي هذا آية صدقها، ثمّ تمثّلت لعينيّ وهي تمزّق الخطاب وترمي به من النافذة، فكأنّما هي تمزّق قلبي وتنثر شظاياها في الهواء، وسرت في جسدي رعدة عنيفة. وهزّزت رأسي غاضبًا كأنّي أنفض الأوهام وغادرت الفراش. ولمّا فرغنا من فطورنا جلسنا على المقعد الطويل نحتمي الشاي. استرقت إليها نظرة فرأيت وجهها المحبوب هادئًا باسماً ينمّ عن جمال وسلام، فغضّني الندم على ما فرط منّي في حقّها وقلت لنفسي: «حقًّا إنّ الشيطان غوىّ رجيم». وفي اللحظة التالية لاح لي خاطر كالبرق، اليس من الجائز أن تكون قد تسلّمت الخطاب في البيت وأنّه لم يكن بوسعها أن تمزّقه في مكان آخر؟ ولكنّي سرعان ما نبذته، إذ إنّ غير معقول - كما قالت بحقّ - أن تبلغ الحماقة من شخص أن يرسل خطابًا غراميًا إلى بيت الزوج! ألا سحقًا للأوهام، إنّ حبيبي أهل لكلّ ثقة، والثقة هي كلّ شيء، ولولاها ما حال دون الشرّ حائل.

وخرجنا معًا. وركبنا الترام. لعلّ كثيرين يرمقونا بعين الحسد، فهل يتصوّرون كيف نحيا معًا! ألا ما أعجب العوالم التي تنطوي عليها النفوس. وأعجب من هذا أمر رباب، فكيف ترغب عن المعاشرة الزوجيّة بهذا الإصرار الغريب؟ لشدّ ما يشوقني أن أغوص في أعماقها. عند ذلك شعرت بحاجتي إلى مرشد أقصّ عليه وأصغي إليه. لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة. وكان طبيعيًّا أن أذكر مرشدي الوحيد في الحياة، أمّي، ولكن سرعان ما تملكني إحساس قويّ بالخجل والغليظ، حتّى لكأنّ نشر همومي على الملأ أهون عليّ

فرائض الدين حتى لم أعد أواظب إلا على الصوم في حينه، ألسْتُ حقيقاً إذا عدت إلى هدى الصلاة أن يطمئن قلبي ويخفّ عن ظهري وقر القلق والمخاوف. وكان قلبي على أله يتفياً ظلّ النبوة الظليل، ويعبّ من غير صافٍ مثلوج، ويغمره سكون عميق يدعوني إلى الاستزادة من صفاء الساعة الهنيء. وفي نشوة من نشوات السلام تراءت لي آلامي كخيوط رقيق من نسيج القضاء المهيم على كل شيء فنزعت إلى الرضى والتسليم. ودوّمَ بنفسى صفاء روحيّ سما بي إلى ذروة من البهجة فوق المنى فكأنّ القلب يعلو غصناً من أغصان الجنة تهدل عليه حمامة السلام. ولبثت في نشوتي زمناً لا أدري كم لبثت حتى اندسّ إلى خيالي على حين غرة صورة رباب وهي تمزّق الخطاب وقد تمكّنها الملح فأفقت بقسوة وعنق كمن يفيق من نوم على زلزال عنيف، وتهدّت من قلب مكوم ثم نهضت قائماً، وتلوت الفاتحة مرّة أخرى وغادرت الجامع، وقد وقع بصري لدى خروجي من الباب على زَمالٍ يئن يستطلعون الغيب، إني أومن بهؤلاء الناس إيمان أمي بهم. وقد انتظرت حتى انفضّ من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء، وسألته أن يقرأ لي الطالع. وراح الرجل ينكت بإبهامه في نقرات الرمل وينقل فيها بينها قواعده. كان نحيلاً كالمومياء، شاحب اللون، متلقّعاً بكساء أبيض، فقال من فم لم تبق فيه إلا ثنيتاه العليان:

- كثير الهمّ والفكر.

فقلت لنفسي: لقد صدق، وأرهفت السمع

بانتباه، فاستطرد قائلاً:

- ولك عدوّ مآكر.

فخفق قلبي! أليس هو صاحب الخطاب؟! وواصل

الرجل حديثه قائلاً:

- إنه يمكر مكره وسيردّ الله كيده إلى نحره...

ألا يعني هذا أنّ «رباب» بريئة؟

- وستجيتك ورقة تسرّبها طويلاً...

- أتعني خطاباً؟

- ربّما، إني أرى أمامي ورقة...

أعادت قراءته في حجرتنا؟... أَلذّها أن تعيد تلاوته أم كانت تستوثق من الميعاد؟ أو شكّ جيبني أن يتفجّر من همّي الفكر...

ولمّا غادرت الوزارة أسعفني هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتنفّست تنفّساً عميقاً، وأحسست انتعاشاً ردّني إلى السكينة. وجعلت أردّد: ما أحقني! وفي البيت لاقتني رباب بابتسامه وضّاءة فانبسّطت أساري، وسألته ضاحكاً:

- هل من جديد؟

- أتعني خطاباً جديداً؟

فقلت وما أزال ضاحكاً:

- نعم.

فقال مبتسماً:

- كلّاً انقطع البريد...

وغادرت البيت عصراً وليس لي غاية، وما كدت استقرّ بمكاني في الترام حتى نشأت في صدري رغبة جميلة، هي أن أزور «السيدة» طالما كانت ملجئي وملاذي، ولم أتردّد عن تنفيذ هذه الرغبة التي ملكت نفسي. وعندما عبرت عتبة المسجد سرت إلى صدري نسمة ارتياح سعيدة، وطافت برأسي ذكريات محبّبة إلى قلبي. رأيتني بعين الخيال أسير ممسكاً بيدي أمي إلى الضريح الطاهر. وذكّرت يوم جاءت بي لأتوب عن الذنب الذي أكاد ألقه وأعتاده. يا لها من ذكرى أعقبت ندماً وخجلاً حتى شعرت برغبة في التواري والفرار، ولكنني واصلت السير، فطفت بالضريح قارئاً الفاتحة، وتشجّعت إِدلالاً بمنزلي منذ الصغر عند صاحبه الطاهرة، فوضعت راحتيّ على الباب وغمغمت في ضراعة: «يا أمّ هاشم، أنت أعلم بقلبي وطيّبه، وبأني لم أضمر في حياتي أذى لإنسان فاجعلي جزائي من جنس عملي. هذا دعائي يا ستّ». وانتبذت ركناً وتربّعت على الأرض. سطعت أنفي رائحة ذكيّة لعلّها كانت رذاذاً يرشّه أحد المجذوبين، وتجاوبت في الأركان أصوات الدعاء يردّها الطائفون، على حين مضى شيخ غير يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم، وذكّرت كيف انقطعت عن

فما العمل إذن؟ الصواب أن ألتمس إجازة من الوزارة، ثم أفرغ للمراقبة في خفاء لا يدري به أحد. أيهون عليّ أن أتجسّس على «رياب»؟! ألا ما أشقّ هذا على نفسي، ولكن كلّ شيء يهون إلّا عذاب الشكّ...

٥١

توتّبت للعمل وبني من الألم ما لا يعلمه إلّا الله، فخرجنا معاً كعادتنا كلّ صباح وركبنا الترام معاً، ثمّ نزلتُ في محطة الوزارة وناديت «تاكسي» وأمرت السائق بالذهاب إلى العباسية. سبقتها إلى مكان عملها لأهني نفسي موضعاً يصلح للمراقبة. وكانت الروضة تقع بشارع كمال - المتفرّع من الطريق العام إلى اليسار - على يمين الداخل بعد فوات بيتين من مدخله، وقفت في المحطة أتفحص ما حولي فرأيت شارعاً فرعياً يقابل شارع كمال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة، بدا لي أن أجلس في هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد، ومراقبة زوجي حين دخولها وحين خروجها. واتّجهت إليها - وكان بابها يفتح على الشارع الجانبية - واخترت مجلساً على عتبة المدخل يمكنني أن أرى منه ما أريد رؤيته، وأن أتواري إذا دعا الحال بزحزحة الكرسيّ قليلاً إلى الوراء. وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة، فكانت موائدها قديمة وكراسيها باهتة رثة ورؤاها من النوبيين، ولكن لم أبال. هذا، بل وجدت به مدعاة للطمأنينة. جلست وعيناي لا تتحوّلان عن شارع كمال، وكلّما جاء ترام من المدينة اشتدّ انتباهي ويقظتي. ولم يطل بي الانتظار فما لبثت أن رأيت زوجي وهي تعبر الطريق متلفّئة بمنة ويسرة لتتفادى من المركبات حتّى بلغت «الطوار» الأيمن لشارع كمال، ثمّ سارت بمعطفها الرصاصي المنمم، بطولها الفارع الرشيق ومشيها اللطيفة المهذّبة، في احتشامها المعهود ووقارها المحبوب ثمّ انعطفت إلى مدخل المدرسة وقد وقف لها البوّاب احتراماً، غلبني الخجل والألم لموقفي ذلك، وترطب قلبي المحترق بالعطف والحبّ وأنا أذكر

ما معنى هذا؟! كان الأمر يزداد غموضاً، وسألته: هل تأتي من قبل العدو؟ - كلاً... كلاً!... ناحية أخرى فتنجلي بها همومك. - آية ناحية؟ - يأتيك الخبر من حيث لا تدري.

فتولّتي الحيرة وتمتّيت لو يزيد بيأساً، ولكنّه عاد يقول: - إذا جدت صعاب فسيذللّها هذا الحجاب بإذن الله. وأعطاني لفاة صغيرة جدّاً من الورق مربوطة بخيط رقيق ثمّ قال: - ضعه على القلب، وتوكّل على الله... * * *

ذكرت في طريق العودة ما عانيت من ألم منذ عصر الأمس فأيقنت أنّ سعادة عام لا تزن شقاء يوم واحد، لم أهند إلى مرسى وما أزداد إلّا حيرة وتلبّلاً. إنّ ما يظنّني أحياناً من طمأنينة ما هو إلّا سحابة صيف، ولن يهدأ لي جانب حتّى ألقى الحقيقة وجهها لوجه، ما كنت أحبّ أن تلوّث نفسي بالشكّ في الوجه الصبيح الطاهر، ولكنّ بذرة الشكّ قد ألقيت في أعماقها ولن تزال تنمو وتثمر شوكتها الجهتيميّ. لقد شددت بقوة اليأس على أهداب الطمأنينة فتهتكت وتخرقت، وما أطيق أن أحتمل الحياة متردّداً بين ساعة سلام خادعة وساعات عذاب طويل، فما من محيد عن أن أرى وراء الحجب، قد يكون في ذلك هلاكي ولكنّ الحياة تقضي علينا في أحيان كثيرة بأن نجري وراء هلاكنا كأنّه اللذّ المنى. إنّني أحبّك يا حبيبتي ولعلّ القدر قد رمانى بهذا الحبّ ليقضي به عليّ، ولكن هل أملك ردّ فضائه؟ لعلّي أدرك الآن لماذا لم يكن يزاييلي القلق حتّى في أصفى ساعات سعادي، أكان قلبي يشهد لمحات من المقدور وراء ستار الغيب؟... على أنّي لا أحبّ أن أتأدى في التشاؤم، فقد يكون المخبوء على غير ما توفّع قلبي، وقد أجد به ما أتلهّف عليه من طمأنينة وسلام.

وارتفعت في القهوة ضجة ضحك فانتشلتني من الأحلام، فعدت إلى وعيي متعباً كالمرضى، وألقيت نظرة على الوجوه السود الدائبة على ثرثرة لا تنقطع بأصوات غريبة مكهربة، ونظرت بين يديّ فإذا بفنجان القهوة لم يمّس، فرفعته إلى فمي ورشفت منه رشقات باردة، وعدت ببصري إلى الطريق حتى استقرت على باب الروضة. إن «رباب» تباشر الآن عملها في طمانينة، ومن يدري فلعلّ هذا الرعب كلّه أن يتمخض عن لا شيء، ولعلّي أن أذكر موقفى هذا يوماً فلا أداري خجلي. أتكذب هاتان العينان الصافيتان؟ أيغدر هذا القلب الطاهر؟ وتتابع الدقائق في تفكير متواصل، حتى انتهت على طقطقة نافذة وهي تفتح، فأتجه بصري بحركة عكسيّة إلى الجانب الآخر من الطريق، فأريت النافذة في الطابق الثاني من عمارة كبيرة وقد أطلت منها امرأة، ولعلّها عجبت لجلوس أفندي مثلي في قهوة النوبيين، فنظرت صوبي باهتمام، كان في عينها جراءة، فارتدّ بصري في حياء. ومع أنّ عينيّ لم تثبتا عليها إلا لحظات إلا أنّها عادت منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدورها المكتنز، وداخلي إحساس بالقلق، لأنّ النافذة تطلّ على مجلسي مباشرة، وقد رفعت عينيّ في حذر شديد فأريتها تدخّن سيجارة وتنظر إلى شيء بين يديها على حافة النافذة، فتشجعت بتحوّل عينها عنيّ وأدمت إليها النظر. كانت فوق الأربعين إن صدق نظري - وقُلّ أن يصدق في تقدير الأعمار - وكانت على رغم تأنّفها وتزيّنها أقرب للدمامة منها للحسن، ذات وجه مستدير غليظ، وعينين بارزتين ثقيلتا الجفنين، وأنف قصير أظس، وشفنتين ممتلئتين، ووجنتين متكورّتين منتفختين، وسُعر جعد لامع. وما لبثت أن غابت من النافذة فكاد يذهب عنيّ القلق، ولكنّ باب شرفة تجاور النافذة فتح على مضراعيه وبرزت المرأة منه تجرّ كرسيّاً، ثمّ وقفت قليلاً مرتفعة حافة الشرفة، فأريت جسمها المكتنز المائل إلى القصر، ثمّ جلست على الكرسيّ واضعة رجلًا على رجل. كانت الشرفة أقرب إلى الطريق العامّ من النافذة، فأمكنني أن ألحظ من فيها دون حاجة إلى

كيف بهرني هذا الجمال الوقور أوّل مرّة، اللهمّ إذا كانت حبيبي ملاكًا فلتحرفني بنقمتك وإذا كانت شيطانًا فلتحرقنا جميعًا، ولتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شيء يستحقّ الرحمة، وارتفعت عيناى إلى السماء وغمغمت: «ربّي! إذا شاءت حكمتك أن تذرّ سموم الغدر في حنايا هذا الجمال فلتخضر لي الجنون والثورة!».

وتفحصت الطريق أمامي متسائلًا في رهبة: ترى هل أرى بعد ساعات من يقف منتظرًا بموضع من هذا الطريق؟ هل أراها وهما يتبادلان إيماءة أو ابتسامة أو يلحق أحدهما بالآخر؟ ما عسى أن أصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسي!! وانتفض جسمي غضبًا ورعبًا! وتخيّلت الكارثة كما لو كانت قد وقعت، وتخيّلتها حتى تجسّمت لناظري، ثمّ تساءلت مرّة أخرى عنيّ عسى أن أفعل! ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش في أحلام اليقظة، ومع ذلك فلم يسعفني الخيال بنفحة منها، ولعلّه تحرّج لأنّ الخطر الذي تهدّدي لم يكن بعيدًا بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه، كان على العكس قريبًا محتلمًا، فشكمت الأحلام، وتمثّل لي الموقف البشع في حدود الواقع، فتصوّرت به قلب هيّاب ونفس مخلخلة القوائم، تمثّل لي العدو شخصًا حقيقيًا في طريق مزحوم بالمائة فما أسعفني الخيال على التصدّي له جهازًا ونشر فضيحتي على الملأ، أو خوض معركة لا أشكّ أنّي سأكون فيها من الخاسرين! تصوّر زوجًا مخدوعًا صريعًا بلكمة من خادعه! تبّأ لي! لكم حنقت في تلك اللحظة على ضعفي! غضبت غضب من يروم ذلك الجبال، وتهدّدت تنهد من يعجز عن رفع حصاة، ولكن ما من الإقدام بدأ أرى «رباب» مع صاحب الخطاب ثمّ أقف مكتوف اليدين؟! محال... لأهجم إذن على غريمي وليكن ما يكون، أو أقتع بمشاهدة الجريمة الساعية في الأرض، ثمّ أنتظرها في البيت حتى تعود وأقول لها هدهد واستهانة: «لقد رأيت كلّ شيء بعينيّ، عودي إلى بيتك بسلام!». لماذا أقدمت على هذه الخطوة الجنونيّة؟ لماذا تزوّجت؟ ما كان ينبغي لمثلي أن يتزوّج.

عطف رأسي، فاختلست نظرات من ساقبها المرتويتين السمراوين، وشببها الأحمر الفاقع، وأنقذني وجودها من تيار أفكار الجهنمي وإن استحوذ عليّ ذلك القلق الطارئ، وراحت تنفخ الدخان من شفتيها الغليظتين وتقلب عينها فينا حولها، وكلما التقنا بي تفحصتني بجرأة منقطعة النظير حتى شعرت بحرارة الخجل تلهب وجهي، وتساءلت في ارتباك: متى تختفي؟ فلقد أربكني تفرسها في وجهي، ولعلّه ترك في نفسي أثرًا آخر غريبًا لا يخلو من ارتياح حذر وانفعال جنسي لم أعرف له سببًا. وكنت كلما رفعت إليها عينيّ حولت رأسها نحوي وحدجتني بنظرة وحة ناقبة كأنها ترى بأذنيها، أو أنها تتمتع بحساسية خارقة تنقل إليها النظرات التي تصوب نحوها من أي مكان كان، فركبني الخوف والحذر، وحرصت على ألا أرفع بصري القلق إليها. ترى هل يطول بي هذا الحذر والتوتر؟ وعلى حين فجأة رنّ صوتها - صوت ممتلئ رنان - وهي تقول وكأنها تخاطب أحدًا في الطريق: «إني قادمة يا ماما» ثم نهضت قائمة ومضت إلى الداخل! ولم أملك أن ابتمت في استغراب واستنكار، فقد هالني أن تقول «ماما» وهي المرأة التي تجاوزت سنّ الشباب، كما أدهشني أن تستجيب لنداء أمها بهذا الصوت الذي رنّ في الطريق بلا داع، وكان بوسعها أن تذهب إليها دون أن تنبس بكلمة، أو أن تخاطبها عقب دخولها إلى الحجرة، فبدت لي - إلى جراتها - غريبة الأطوار، محبة للظهور ولقمت الأنظار، متجاهلة لسنن العقل الذي تعتلي ذروته. علّ أنني سررت لذهابها، ولتخلصي من سطوة نظراتها، وعدت إلى نفسي، وإلى الطريق الذي عليّ أن أراقبه حتى ينطوي النهار. وتتابع الوقت فاتعبي تشاقله، واستحوذ عليّ الضجر. ألا يحسن بي أن أمضي هنا وهناك حتى يقرب موعد انصراف الروضة؟ ولكن من يضمن لي ألا تحدث أمور في أثناء تجوالي؟ فلا ظلّ رهين مجلسي هذا حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا! ولبثت بمكاني متجرعًا الصبر دقيقة فدقيقة، وجاءني صوت من الشرفة، فرفعت عينيّ، فأريت المرأة وهي تنقل الكرسيّ إلى موضع من الشرفة تملأه أشعة

الشمس ثم تستقرّ عليه... ولاحت منها نظرة إلى القهوة، فلما وقعت عليّ لاح بعينها الاهتمام والدهشة وكأنها تتساءل عن دعائي إلى ملازمة مكاني بهذه القهوة الخفيفة طوال هذا الوقت، وتعمّدت أن تظهر لي دهشتها بغير ما حياء فلم يبق إلا أن تسألني عما يبقيني في مجلسي ذلك؟ وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بتلذذ، وتسلّى بالنظر إليّ من وقت لآخر. وصمّمت على أن أركّز انتباهي في هدفي، فأرسلت بناظريّ إلى الطريق، ولكن ظلّ شعوري في شغل شاغل! وتبدّدت قوّة إرادتي في مقاومة ما يجذبني إلى رفع بصري، وغلبني الحياء والارتباك إذ تبيّأ لي - لضيق الشارع - أنني والمرأة في حجرة واحدة. ولم أحلّ من إحساس بالارتياح منشؤه أنني أجد نفسي محطّ نظرة امرأة لأول مرّة في حياتي، ولم يعد يخفى عليّ ذلك الانفعال الجنسيّ الذي بعثه في أعصابي وجهها الغليظ وساقها المرتويتان، ولئن كانت جراتها قد أزعجتني فلم تعدم في نفسي إشارة من ارتياح غامض، لعلّه نوع من الإعجاب الذي لا يريد أن يفصح عن نفسه، وتساءلت في دهشة: ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه المرأة من جرأة أكنت أقطع ما خلا من زمني موحوًا بغير رفيق؟! وانسقت وأنا لا أدري إلى مقارنة هذه الجرأة الجذّابة بذاك الاحتشام الجميل الذي تتحلّى به زوجي المحبوبة، ولكنّي سرعان ما أنكرت المقارنة الوقحة، فامتلاّت سخطًا وتقزّرًا، ولبثت المرأة بمجلسها ساعة ثمّ عادت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة، فتهدّدت في ارتياح عميق وغمغمت: «لا أرجعها الله»، وانفرد بي الانتظار، ومّر الوقت في إعياء وسأم، فجعلت أتسلّى بمراقبة سثة أو سبعة من النوبيين هم كلّ من بقي بالقهوة من الزبائن، وقد واصل ثلاثة منهم الترتة على حين جمد الآخرون على مقاعدهم كتبائيل من البرونز. وحينما أرمي بنظريّ إلى الطريق العامّ أحصي المارة نساء ورجالًا، وأشاهد مركبات الترام الذاهبة الآتية، أو أتساءل كلما قرع أذنّي أزيز ترام آتٍ من بعيد أن يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢، وهل يجرّ مركبة مكشوفة أو مغلقة ثمّ أحصي مرّات الصواب

والخطأ. ولما آن وقت انصراف الروضة عاودتني اليقظة، ثم اشتدّ بي القلق والحز، وجالت عيناى في جنبات الطريق ثم استقرتّا على باب المدرسة، ولشدّ ما خفق قلبي حين رأيت جماعة من المدرّسات يغادرن الروضة، وعلى أثرهنّ خرجت «رباب» بصحبة فتاة من زميلاتنا، وأنجھتنا نحو شارع العبّاسية وهما تتحدثان وتضحكان. وافترقتا في الطريق العامّ فأنجهت الفتاة إلى اليسار، وسارت زوجي إلى المحطة، ولما كانت وقتفتها بحيث يتّجه وجهها صوب شارع القهوة الجانبيّ فقد تراجعت بالكريسيّ إلى الوراء منتحياً عن مرمى بصرها، وتفحّصت الطوار بعناية وقلبي يكاد يشب من موضعه من شدّة الخفقان فقد حدّثتني نفسي بأنني سألتقى الضربة القاصمة بعد لحظات. وكان على «طوار» المحطّلة شتيت من الرجال والنساء، ولكنّ زوجي انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وفتتها المحتشمة لا تميل برأسها نحو أحد، وتنظر من آنٍ لآخر من وراء كتفها صوب الجهة التي يأتي منها الترام، لم أر ما يربيني، ولم تتحوّل عنها عيناى لحظة واحدة حتّى جاء الترام وصعدت إليه، وبارحت مكاني متعجّلاً وناديت تاكسي وركبته وطلبت من السائق أن يتبع الترام عن بُعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعيناى إلى مقصورة السيّدات، حتّى بلغنا العتبة، ونزلت زوجي من الترام واخترقت الميدان إلى محطة الترام رقم ١٥ الذاهب عن طريق الروضة، فدرت بالتاكسي حتّى وقف بي على كئيب من قسم الموسكي، رأيتها تقف في زحمة من الخلق فجعل بصري يدور في الحلقة التي تحيط بها ويثبت عليها في سرعة وجنون، وجاء الترام فصعدت إليه، ومضى بها، فتبعته محطة بعد محطة حتّى طوى الطريق إلى محطة عمارتنا ورأيتها تغادره وتعبّر الطريق صوب البيت! وانطلق بي التاكسي محطة أخرى، ثم غادرته وعدت إلى البيت مشياً على الأقدام، وشعرت في طريق عودتي براحة مشوبة بخجل، وتساءلت في حيرة: ترى هل فتاتي بريئة أم ينطوي الغد على ما لم أعثر به في يومي؟ ولما انتهيت إلى الشقّة وجدت أمي قلقة لتأخري، وكذلك «رباب»

فأخبرتها بأنّ العمل يستدعي بقاتي في الوزارة لهذه الساعة مدّة أسبوع على الأقلّ، وحين الأصيل أخذت «رباب» في ارتداء ثيابها وقالت لي إنّها ستزور أمّها، ودعتني - كعادتها كلّما خرجت - إلى مرافقتها، وتساءلت كيف يمكنني مراقبتها في المساء؟ ليس الأمر سهلاً كما في الصباح، فالبيوت التي تتردّد عليها في أحياء متقاربة، وهي تقصدها مشياً على الأقدام، فيما ندر، فلا أستطيع أن آمن على نفسي - إذا تبعتها - من الافتضاح، ولكيّي إذا لزمتها في تجوالها أمنت المساء، ولم أدع لها فرصة لأمر، بما يضطرّها إلى مقارفة الإنم - إن كان ثمة إنم - في نصف النهار الأوّل فنقع في شباكي من حيث لا تدري... لذلك تقبلت دعوتها بسرور وقلت لها ضاحكاً:

- سأذهب معك تفادياً من الملل الذي يقتلني في غيابك.
فشرت لقبولي دعوتها وقالت برجاء:
- لينك تخرج معي دائماً فليس أحبّ إليّ من أن نذهب ونجى معاً...

٥٢

وفي صباح اليوم الثاني خرجنا معاً كعادتنا، وأعدت ما صنعت بالأمس، فاستقلت التاكسي إلى قهوة النوبيين وأنحذت مجلسي بمدخلها، وجاءت رباب في موعد الأمس ومضت إلى الروضة، وخطر لي وأنا أتبعها عينيّ أنّه لو كان لها حساسية المرأة الغريبة - لم أذكرها منذ غادرت العبّاسية بالتاكسي أمس حتّى وثب لذهني هذا الخاطر - فالتفتت صوبي ووقع بصرها عليّ فدارت على عقبيها وجاءت إليّ في دهشة تسألني عمّا أتى بي إلى هذه القهوة؟! تصوّرت هذا المنظر في فزع، فانكمشت في مجلسي هلعاً، وعصني الندم والألم، ولكنّ زوجي مالت إلى المدرسة آمنة مطمئنة، غافلة عن العينين اللتين تراقبانها في حذر وارتياب، حتّى غيبتها الباب عن ناظريّ، فذهب عنيّ التوتّر والخوف، وشعرت برهبة حيال الانتظار الذي كان عليّ أن أعانيه في تصبّر وتجلّد نهاراً آخر، وألقيت نظرة دائرية ضجرة

الشرفة الخشبيّ وجهًا لوجه، وليس بالشارع الجانبيّ دكان، ولا يكاد يمرّ به أحد إلاّ فيها ندر، وأمّا زبائن القهوة فعاكفون على ثرثرتهم في الداخل لا يرون شيئاً، ومائدتي بموضعها من المدخل وحيدة، فخلتنا منفردين على نحو ما. وشعرت في اللحظة التالية بالارتباك والخرج، ولم أدرك كيف يمكنني البقاء هكذا تحت رحمة عينها الوقحتين، فتمنيت لو لم تحقّق رغبتني الحفيّة، وجعلت أنظر إلى الطريق البعيد تارة، أو أعطف بصري من فوق كتفي إلى داخل القهوة تارة أخرى، شاعرًا في أثناء هذا وذاك بوقوع عينها الثقيلتين على وجهي. إنّي راغب في وجودها ما في هذا من شكّ، ولكنّي لم أحتمله، وما من مرّة أسترق إليها نظرة إلاّ وأجدّها متفرّسة في وجهي في هدوء وإمعان وبلا حياة أو تردّد، وإنّ هذا ليملاّني سرورًا وخفة ولكنّه يسومني ما لا طاقة لي به من حجل وارتباك. إنّ عينها تنظران طويلًا ولكنّها لا تنظران فحسب، إنّهما تتحدّثان بأجلى لسان، كلّما التقت عينانا خلّتها تخاطبني فأغصّ الطرف وكأني أفرّ فرارًا. ونظرت نحوها مرّة فوجدتها تشعل سيجارة، وأطفأت عود الثقاب بهرّتين ثمّ رمت به نحوي لولا أن أرجعه الهواء، وأخذت نفسًا عميقًا وقد ابتسمت عينها، فحقّق قلبي بعنف وازدردت ربي بصعوبة... ماذا تريد هذه المرأة؟... كيف تواتيها الجراة على هذا النظر العارم الوقح؟ بل كيف تطاردني هذه المطاردة الصامتة وهي لم تسبق لها بي معرفة، ولم ترني إلاّ مرّة بالأمس ومرّة أخرى اليوم. واستحوذ عليّ الاضطراب، وشغلت بالشرفة انشغلاً تامًا فلم أعد ألقي على باب الروضة إلاّ نظرات سريعة لا تكاد ترى شيئاً. ورأيتني أنظر نحوها فوضعتُ رجلًا على رجل جاذبةً عينيّ قهراً إلى جانب عريض من فخذها أحدث التقاؤهما واشتباكها طيّات سمراء مثيرة فشعرت بمثل سورة الخمر وجفّ حلقي وطغت عواطفي على حيائي فذاب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس النارية فحملت فيها بلا خجل ولا تردّد، وما لبثت أن نهضت قائمة وغادرت الشرفة! تركتني في ثورة جامحة. وقلت لنفسي ساخطًا: أيّة هاوية تنفغر تحت قدمي! ثمّ

على شارع القهوة الجانبيّ وما يبدو لي من شارع العباسيّة والقهوة بزبائنها السود، تلك الأماكن التي قضيت عليّ بأن أمكث بينها كالسجين المجنون أتحطّ في دياجير الأفكار وشوارد الأخيلاّ الجهنميّة... ولكنّي كنت ذكرت المرأة الغربية وأنا أراقب زوجي في ذهابها إلى المدرسة، فرفعت عينيّ إلى العمارة على الجانب المواجه للقهوة، فرأيت النافذة والشرفة مغلقتين، وتساءلت كيف لي بتحتمل الانتظار نهارًا كاملاً بلا تسليّة أقتل بها الوقت؟ وكان تساؤلًا مريبًا أداري به رغبة في رؤيتها كرهت الاعتراف بها، ولكن ماذا يدعوني إلى إنكار هذه الرغبة؟ وهل هي رغبة في التسليّة وقتل الفراغ؟ أجل إنّ المرأة قد أهاجت في صدري انفعالاً جنسيًا، ولكن ليس في هذا جديد، فقد كنت ولا زلت أتلقّى هذه الانفعالات الجنسيّة من أفيج الأدميات، وأقدرهنّ. ولم يغيّر الزواج من حالي، ولم يشفني من دائي، فرُدّدت إلى عاداتي القديمة جميعًا، وعاودت النظر إلى النافذة مرّة أخرى، وكأني أعاني انتظاريين! فلأحاول فهم نفسي أكثر من هذا، لست طالب تسليّة فحسب، إنّي أرغب في رؤيتها مرّة أخرى، لتلتهمني بنظراتها كما فعلت بالأمس فيعاودني ذاك الشعور العميق بالارتياح والزهو، وأستردّ بعض الثقة المسلوّبة، ولم أكد أستغرق في أفكاره حتى قرع أذنيّ طقطقة النافذة، فرفعت عينيّ، فرأيتها وهي تفتح على مصراعها، ولاحت وراءها المرأة، والتقت عينانا، ولم تكن تتوقّع رؤيتي بطبيعة الحال. فتجلّت في عينها دهشة واضحة، ولبثت دقيقة أو نحوها وهي ترنو إليّ ثمّ تحوّلت عنيّ واختفت، وداخلني سرور لا يتناسب مع شقاء المهمّة التي جئت من أجلها إلى هذا المكان، وأنجبه بصري صوب الشرفة المغلقة منتظرًا أن تفتح. وقد كان. فدفعت يد مصراعها حتى اصطدما بعنف بالحائط على الجانبين، ثمّ دخلت المرأة تجرّ الكرسيّ بجسمها القصير المكتنز، وقد بدت لي في الروب الورديّ كبرميل إلاّ أنّه مفصّل تفصيلًا بهيميًا، ووضعت الكرسيّ في ركن الشرفة البعيد. وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومدّت ذراعها على حافة

إلا إحساسًا عابرًا، ولم يبق منه أثر في اللحظة التالية. وغشيتني بعد ذلك كآبة وامتعاض، ولم تلبث المرأة أن غادرت الشرفة تلبية لنداء من الداخل كما دلّت عليه استجابتها فلم تعد للظهور. وانتظرت طويلًا تتناوبني الأفكار والأخيلة المفزعة حتى انطوى يوم الانتظار ورأيت رباب - كالأمس - قادمة نحو المحطة. ولم يجدّ جديد فرجعنا، هي في الترام وأنا في التاكسي. وعند المساء اقترحت عليّ أن نذهب معًا إلى سينما رويال فقبلت بلا تردد، وذهبنا معًا.

٥٣

وفي صباح اليوم الثالث حملني التاكسي إلى نفس الهدف، وذكرت في الطريق المرأة الغريبة فتمثّلت لعينيّ بوجهها الغليظ وجسمها القصير المكتنز. ولم أكرز أذكرها لأول مرة ذلك الصباح، فقد لاحظت لخاطري في البيت وأنا أخذ زينيّ أمام المرأة فكانت داعيًا لمضاعفة العناية بتمشيط شعريّ وعقد رباط رقبتي، وتولّاني إحساس بالخجل والذنب والقلق، وألقيت تبعه هذه الورطة على رباب وسوء تصرفها الذي ساقني إلى هذه المراقبة الحمقاء! ولكن هل أستطيع أن أتمنّى عدم ظهورها في الشرفة صادقًا؟ هل يمكنني احتمال يوم الانتظار الطويل بغير وجودها، وبغير وقاحتها الممتعة؟ واتخذت مجلسي من القهوة فجاءني النادل ذو الجلباب الباهت، والطاقيّة المائلة إلى قذاله كاشفة عن ذؤابة متصلّبة، والنعل المنجرد، وحياتيّ تحيّة لعلّه لا يلقىها إلا للزبائن القدماء، فطلبت القهوة التي أحسوها بتقرّز واستكراه، وتساءلت ممتعضًا ماذا وراء هذا التجسّس المقيت؟! ألا يجمل بي أن أفلع عمّا أخذت نفسي به ظلّمًا وسوء ظنّ؟ لقد عاشت زوجي يومين كاملين في تناول بصريّ فهل وقفت منها على ما يريب؟! هل لاحظت عليها ضيقًا أو تبرّمًا؟ أليس كالعهد بها صفاء ومودة وسعادة؟! وطاب لي الفكر فداخطني شعور بالطمأنينة والارتياح، ومرّ وقت فسارع إليّ الملل، ونظرت في الساعة، ترى هل أستخبرها عمّا فات من زمن أم أسأله متى تفتح النافذة؟ ومهما يكن من أمر

ثبت إلى الهدوء رويدًا فأمضيتني الأسف والخجل وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغمت كما غمغمت بالأمس: «لا أرجعها الله!». قد يكون الانتظار مؤلّمًا ولكنّه خير من هذا الشرّ الذي يتهدّدني. ولم يكن يساورني شكّ في أنّها ستعود، وكان بوسعي أن أغادر القهوة إلى غير عودة، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار، ولكنّي أقنعت نفسي بأنّ هذه القهوة المتوارية هي أصلح الأماكن قاطبة لمهمّتي، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفي عينيها نظرة باسمة، وتملّكتني الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذي استخفّني. وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا أقبح منها، ولكنّي عدت أخالسها النظر وأتمنّى لو تأخذ راحتها وتضع رجلًا على رجل. وعدت أتملّى إيثارها لي بالنظر والاهتمام فازدهاني عطفها وشعرت بهم الجائع إلى الاستزادة منه، وهل كان هذا الاهتمام إلاّ لجمال وجهي ورشاقة قوامي! وقلت لنفسي في غرور صبيانيّ لعلّها معجبة بالأعين الخضرة والبشرة البيضاء والقامة الفارعة. وعلى حين بغتة انسلّ إلى خاطري صوت هامس يتساءل في سخريّة: «وهل أغنى عنك جمالك شيئًا؟!». وتمثّلت لعينيّ تعاسي الزوجيّة فكأنّ قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسي فأخمدتها وخنقت أنفاسي. فترت نشوتي وحلّ محلّها شعور بالغ بالشقاء والحبيّة، وتناسيت الشرفة، وهرعت أفكارني إلى الروضة فتمنّيت لو تنكشف لي الحقيقة مها كانت بشعة قاسية لأنتهي من الأمر كلّ. تمنّيت - إذا لم يكن من الأمر بدّ - أن أرى صاحب الخطاب يلاقي رباب ويحدثها اليوم لا غدًا ولا بعد غد، بل كان في ذهني شيء آخر - في تلك اللحظة - لا أدري كيف أعبر عنه. كأنني تمنّيت أن يصدق سوء ظنيّ! لست مخطئًا، كان هذا هو الواقع، ولكن كيف أفسره؟! هل ثقل عليّ الشكّ فرغبت أن أنجو منه ولو بهذا الثمن الفادح؟ أو ضقت بهذا العجز الغريب الذي جعل من حياتي الزوجيّة مهزلة فتمنّيت أن أجد في جريمة زوجي مهربًا من حياتي؟! أو كان ضميريّ الرازح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقابًا وتكفيرًا؟! على أنّه لم يكن

أَتَسَاعًا. وغلبتني ابتسامه فابتسمت وأنا أطرق في خجل لا يوصف. وأطلقت هذه الابتسامه شحنة حبسية من ارتباكِي فُسْرِي عَنِّي قليلاً، واستطعت أن أحس بما يستحقني من سرور. وشعرت شعوراً قوياً بالفارق بين عمرينا فلذني هذا الشعور، وتمتيت لو يتقهقر بي العمر إلى العشرين أو ما دونها. ربّاه...
 إنِّي أهوي بلا وازع. ولكنني لم أعد أبالي شيئاً. ولاحت مني التفاتة إلى شارع كمال فصادفت عند ناصيته شيخ فتاة تعطف إلى اليسار فحال بيني وبينها جدار القهوة. خلعتي رأيت معطفاً رصاصياً كمعطف رباب فخفق قلبي خفقة عنيفة كاد ينخلع لها. ما الذي دعاها إلى مغادرة المدرسة في هذه اللحظة؟ وما الذي جعلها تتجه إلى اليسار على حين أن طريق المحطة إلى اليمين فيها لو فرض أن عدراً دعاها للعودة؟... وانتفضت قائماً وهولت مسرعاً إلى الطريق العام بلا تبصر ولا احتراس، ثم نظرت صوب المعطف الذي سارت إليه ذات المعطف الرصاصي، فرأيتها: كانت امرأة في الخمسين تحث الخطى على الطوارا وتبهت من الأعماق وغمغمت كعادتي كلما نجوت من مأزق «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وعدت إلى مقعدي وبي ما يشبه الإعياء والخور. لن أنسى هذه الخفقة التي كاد يتصدع لها صدري، فهاذا يكون أمري لو وقع المحذور! ورفعت رأسي صوب الشرفة فرأيت المرأة تحملق في وجهي دهشة وعيناها تتساءلان عما حلَّ بي؟! وارتسمت على شفتي ابتسامه! أجل أنساني الانزعاج خجلي فابتسمت. لم يعد يخفي ما بيننا من ابتسام، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بالحجاب! ولم يعد يخفي علي ما يعتلج في صدري من عاطفة جهنمية. ولو كان ما بي حباً لركبني الخوف وقدّرت العواقب، ولكن بدا لي الأمر واضحاً لا لبس فيه فلم تزايلني الثقة. ولبثت ساعة أو أكثر أتلقى هذا الغزل في صمت وحياء وسرور جنسي عجيب، ثم نهضت المرأة قائمة وهي تتمطى فانفرج الروب عن صدر ريان متنفخ يكاد يتهتك من ضغطه القميص الوردية الشفاف، ثم ألقت علي نظرة وداع باسمه، وغمزت

فقد فتحت النافذة ولاحت وراءها المرأة بغلاظتها وتبرجها. اتسعت عيناها البارزتان دهشة ورفعت حاجبها المزججتين كأنها تقول: «أما زلت ملازماً مكانك!» ثم خفضت رأسها لتواري عن عيني ابتسامتها وخفق قلبي خفقاً سريعاً في سرور، وعادني الخجل من نفسي فجعلت أقول لضميري بأنني لا أتطلع لإثم، وإن مثلي حقيق بأن يسر إذا ما وجد من امرأة اهتماماً، أجل إنِّي بريء، وما جئت هذه القهوة إلا لغرض لا شأن له بهذه المرأة، وسأنقطع بعد يوم أو يومين عن هذا الحي كلة فلا أعود أذكرها بخبر أو بشر. أما المرأة فقد اختفت من النافذة، ثم فتحت الشرفة ودخلت بكرسيها، وجلست في الركن المواجه لي، وفي عينيها ابتسامه من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بت اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف، ولكنني ما زلت أتظاهر بالنظر إلى الطريق العام مختلساً من أن لأن نظرة إلى الساقين المدملجتين خلال قضبان الشرفة الحديدية، ولم يفارقي الارتباك بل لعلّه تضاعف هذه الابتسامه التي تلوح في عينيها كلما التقت عيناها، يا لها من امرأة جسور، بوسعها أن تفعل ما تشاء بلا خوف، أما أنا فليس لدي إلا غض البصر! أيدور لها بخلد أنني متزوج؟ وأنني ما جئت إلى هذه القهوة إلا كي أضبط زوجي متلبسة بجريمة الخيانة؟! ترى هل تبقى على اهتمامها بي إذا عرفت هذا كله؟ شعرت عند ذلك بخزي أليم. ثم ساءلت نفسي عنها من تكون. أهى زوجة أم أرملة؟! وماذا تريد؟! وحدث أن ارتفعت المنضدة بيساري وافتترشت ظاهر يدي بذقي، فما كان منها إلا أن ارتفعت حافة الشرفة بيسراها وافتترشت يدها بذقتها وهي ترنو إلي في دعابة! وتلقيت الدعابة بخجل جعلني لا أرى شيئاً، وأرسل قلبي ضربات عنيفة طنت في أذني. إنَّها تغازلني صراحة، وأشعر بأن «الرجولة» تقضي بأن أخرج من هذا الجمود ولكنني لا أبدي حراكاً، واشتد بي الارتباك فبت في حال يرثى لها. وسحبت يسراي، وشبكتها بيمناي على صدري فما أسرع أن سحبت يدها وشبكتها بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها

أيسر مما أتصور. ما أفزع هذا، ولكن ما أروحه لي كذلك، فإذا لم يكن من الكارثة بد فمّن الرحمة أن تقع سريعاً، واستحوذ عليّ القلق والجزع، وأيقنت أنني لن أستطيع مع اليوم صبراً. ولاحت منّي التفاتة إلى النافذة المغلقة فتعلّق بها بصري فيما يشبه الاستغاثة، وتعلّكتني إحساس عنيف بالضغط الذي يهتصري وتلهفت نفسي على منفذ تتسرّب منه بعض الأبخرة المزججة في أعماقها. أيّ تنفيس ولو جرّ وراءه الإثم والخزي. وعند العاشرة فتحت النافذة وطالعتني الوجه الغليظ بابتسامة مشرقة. وتحوّل انتباهي إليها فأنقذني من نفسي، وثبتت عيناها عليّ في جراءة لا عهد لي بها، وانبسطت أساريرها وأنا لا أدري فردّت التحية بمثلاً. واختفت من النافذة فسبقتها عيناها إلى الشرفة ولكن طال الانتظار عن المعتاد، ثمّ بدت مرّة أخرى في النافذة، فإذا بها قد ارتدت معطفاً وأخذت أهبتها للخروج. وخطر لي خاطر كالبرق، هل تدعوني إلى مرافقتها إلى مكان ما؟ وغمرتني موجة من السرور والحيرة والخوف. ما أحوجني إلى هذه الدعوة، ولكن هل أترك رباب في هذا اليوم الحاسم؟! إنّه بالعمى كله، وإنّ مصيري معلق بمصر الجديدة فكيف أقوم دعوة المرأة إذا دعيتي؟! وفرغت المرأة من زينتها، ثمّ وقفت تنظر إليّ في هدوء وابتسام. ونظرت إلى شيء بين يديها فتتبّعها بصري فإذا بأناملها تطوي ورقة صغيرة، ثمّ تثنيها من الطرفين، وتفحصت الطريق بنظرة شاملة ثمّ رمت بها فسقطت على كثر من قدمي... وتناولتها بعجلة وسطتها وقد سطع منها شذا طيب مخدّر فوجدت بها هذين السطرين «انتظرنى اليوم في تمام الساعة مساء عند الجسر في نهاية خطّ الترام». وداخلني ارتياح إذ إنّها منحتني مهلة عن غير قصد، ولكن ترى هل يسعني إنجاز الوعد إذا ارتبطت به؟ ألا يقع في مصر الجديدة ما يعوقني عنه؟ ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حدجنتي بنظرة متسائلة وهزّت رأسها مستفسرة، فلم أملك أن حنيت رأسي بالإيجاب. وابتسمت إليّ ابتسامة حلوة وحيّتي بإيماءة من رأسها ثمّ أغلقت النافذة، فأدركت أنّها ذاهبة إلى

بعينها قبل أن تغيب وراء الباب، تركتني في سعي التهمت ناره ساعات الانتظار الباقية، وفي ميعاد الانصراف غادرت رباب المدرسة واتجهت كالعادة إلى المحطّة. وعدنا إلى البيت كلّ على طريقته. ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختي راضية وزوجها فقصينا سهرة عائليّة ممتعة.

٥٤

اليوم الرابع، قالت لي رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطّة:

- سأتأخّر اليوم عن ميعاد عودتي لأنّي سأعود زميلة مريضة تغيبت عن المدرسة من يومين.

والقيت عليها نظرة مريبة لو رأتها لساءت العاقبة. ثمّ خفضت بصري بسرعة، كاطماً عواطفني، وسألته بصوت ينم عن عدم الاكتراث:

- أين بيتها؟

- في مصر الجديدة.

- ومتى تعودين؟

- وقت الزيارة ومسافة الطريق... لن أتأخّر عن السابعة.

بدأت تملّص من ظلّي الثقيل! واختلست منها نظرة فبدت لي جميلة رائعة، ثمّ ركبتني نزوة طارئة فتمنيت لو أهوي عليها بفأس فأشقّها نصفين. وجاء الترام فصعدنا إليه وأنا في أسوأ حال، وغادرت عند محطّة الوزارة وناديت التاكسي، فطار بي إلى قهوة النوبيين. واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة، ثمّ عدت إلى أفكاري. تلك الزيارة في مصر الجديدة! لن أدعها تذهب وحدها. كان تصميمي لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مساعي؟ هبني تأثرتها إلى مصر الجديدة ثمّ رأيتها وهي تدخل بيتاً أو عمارة فمّن يدريني بما يقع وراء الجدران؟ قد تكون في عيادة زميلة حقاً، وقد تكون في أحضان عشيق! وانتفضت انتفاضة قاسية، وعضضت على أسناني حتى سمعت صريها كالطقطقة. ولكّني أبيت أن أثبط عزيمتي. لا تبعنّها فعلياً أراها معاً في الطريق، ولعليّ أجد ضبط الجريمة

من هذه الحياة المرّة الطافحة بالخيبة والشك. سينتهي كل شيء بعد دقائق معدودات، فلا يبقى داعٍ لأن أسأل نفسي أهي بريئة أم مذنب، ولا يسوقني وسواس لتجسّم أهوال المراقبة والتجسس، وسيخلو البيت إلّا من الوجوه القديمة الآمنة، والحياة الهادئة الوادعة. أجل وددت لو أحطّم الرأس الذي حطّم قلبي، ولكنني أضنّ بنفسي عن أن تضيع بسبب امرأة آئمة. كان غضبي قويًا وحشيًا، ولكنّ حبي السلامة كان أقوى وأعمق. ألم يكن غريبًا أن تدور أفكارني حول محور الخوف والسلامة حتّى في تلك اللحظة المخيفة؟! وتراءت لي العتبة فتساءلت مرّة أخرى أين تغادر الترام؟ ورأيته في محطّة الميدان شأنها كلّ يوم، فنزلت من التاكسي أن ألقدها في الميدان المكتظ. ثمّ رأيته تخترقه إلى المحطّة الأخرى التي تنتظر بها عادة، فدرت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم. وما أحقني إلّا أن تقف في احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأنّي لا أشعل من أجلها نارًا. . . . واستبعدت أن تقابل أحدًا في هذه الزحمة فطلعت إلى رؤية الترام الذي تصعد إليه، وتتابع المركبات بأرقامها المختلفة حتّى جاء ترام الروضة فسارعت إليه واستكّنت في مقصورة السيدات. وتولّني الدهشة، أياكون الأمر في حيننا؟ وهرعت إلى تاكسي وتبعته الترام. وجعل قلبي يدقّ في عنف، وتشتدّ ضرباته كلّما مررنا بمحطّة. . . ثمّ دخلنا شارع قصر العيني، وقطعنا محطّة وثانية وثالثة ورابعة حتّى بلغنا محطّة بيتنا، فما راغبي إلّا أن أراها تغادر الترام. ونظرت من نافذة التاكسي الخلفية فرأيته تعبر الطريق وتدخل باب عمارتنا! وتوسّدت مسند المقعد وأغمضت عيني في إعياء وذهول. ماذا وراء هذا كلّه؟ هل فقدت عقلي؟ أما من نهاية لهذا العذاب؟ وعدت إلى البيت فوجدتها لم تكذب تفرغ من ارتداء الروب بعد أن خلعت ملابسها، وبادرتها قائلًا في دهشة:

- حسبتك في زيارة زميلتك!

فافتّر ثغرها عن ابتسامه وقالت:

- لم يكن بها إلّا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون أن تجسّم أحدًا مشقة عيادتها.

زيارة أو نحوها. هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعًا بضعفي الذي يجهل المقاومة وإن كنت لا أدري أين أكون وقت أروفه، وهكذا سقطت في نفس الخطيئة التي أتهم بها زوجي! أين خلق بي أن أسرّ بهذه الخطوة الجسور أم أندم عليها؟ وهل ينتهي اليوم بحبّ أو بمأساة؟ لشدّ ما كرهت الحياة في تلك اللحظة. واندمجت في تيار شعوري ألوان من المشاعر المتناقضة من سرور إلى خوف، ومن أمل إلى يأس، ومن حماس إلى فتور، ثمّ علت موجة طاغية من التلهّف على المغامرة لوأدّا من الهّم الذي ينبخ عليّ فيكاد يجرم بي الأرض. وطويت الورقة بعد أن تولتها عشرات المرات ثمّ دستتها في جيبي. وانفرد بي الانتظار حتّى فتحت الروضة أبوابها ولاحت لي رباب قادمة من بعيد. هذه هي الساعة التي أتربّص بها منذ أربعة أيّام هي أشقى أيّام حياتي. سأتبعها ما في ذلك شكّ تاركًا الموعد للظروف وحدها. وتوقّعت أن تميل إلى اليسار، صوب محطّة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة، ولكنّها عدلت إلى اليمين، إلى المحطّة المعتادة التي تنتظر بها كلّ يوم! وأدرت لسوي أنّها اختلقت قصّة الزميلة المريضة لتنتحل عذرًا لغيابها، واضطرب صدري اضطرابًا لم أدر كيف أمالك أنفاسي. هل آن لي أن أنتهي من هذا العذاب؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وأنا أعجب لهذا الاحتشام الزائف الذي يطوي في أعماقه شرًا فظيماً وفسقًا مخجلاً. ثمّ جاء دور المطاردة التي أرجو أن تكون مجدية هذه المرّة. فصعدت إلى الترام، وناديت التاكسي، وجعلت ناظرني إلى مقصورتها لا تتحوّلان عنها. ترى أين تغادر الترام؟ أين تفعل فعلتها؟ لشدّ ما يكبر عليّ أن أتصوّرهما في أمثال هذه المواقف المريبة! ولئن تكذّبتني الحقيقة الواقعة وتكشف لي عن وجهها الشائه الذميم فما يشعني ويطفئ غليّ أن أدكّ رأسها بأحجار هذه المدينة الهائلة، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الأثم هي التي تعفّ عن علاقة الزوجية المشروعة؟ أم إنّها لا تبغيها إلّا عوجًا؟ لشدّ ما مرّقتني الحيرة، لشدّ ما عدّبتني الغضب والحقد. على أنني متيت نفسي بالراحة من هذا العذاب كلّه، والخلاص

المأساة؟... آ... لا يزال أمامي متسع للهرب .
ولكنني لم أبدأ حراكاً. إن هذه المرأة هي فرصتي الوحيدة
لاسترداد الثقة الضائعة. وملكتني روح مغامرة لا عهد
لي بها قالت لي: جَرِّب، لن نخسر شيئاً، وعلى أسوأ
الفروض فلن نخسر شيئاً جديداً... واستيقظت من
أفكاري على سيارة متوسطة الحجم تقف أمامي بحذاء
الطوار، ثم انخفض زجاج نافذتها الجانبية وبرز منه
وجه المرأة الغربية وهي تجلس أمام عجلة القيادة.
ابتسمت إليّ، ودعتني إلى الالتصاف حول السيارة
لأجلس إلى جانبها من الباب الأخر، فأطعت في
اضطراب وفي أقل من ثانية كنت إلى جانبها، فجذبت
الباب والتصقت به وأنا لا أكاد أشعر بما حولي من
فرط الحياء. وأحسست بعينيها على خدي اليسرى،
فلازمت النظر إلى الأمام، حتى ضحكت مرء فيها
بصوت يُعَدُّ إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقاً وقالت
بلهجة تنم عن التحريض:

- لم يعد من داعٍ للحياء!

وانطلقت بالسيارة في مهارة وبسر وهي تقول:

- لنذهب إلى طريق الأهرام...

اندفعت بسرعة فائقة فوَّلى قلبي خوفاً، وجعلت
كلما اعتاقها عن الاندفاع زحام أو إشارة المرور أتنفّس
الصعداء... والأعجب من هذا أنّها خففت من
سرعتها الجنونية حين تركت وراءها الطريق المزحومة.
واسترددت أنفاسي، واسترقت إليها النظر، فرأيت
جانباً من وجهها الغليظ عن كذب، وذاك الصدر
المكتنز، وتمثّل لعيني صورة ساقها البرونزية المرتوية،
وذكرت أنّ قيراطاً واحداً يفصلها عن ساقِي،
فاضطرب دمي. وأدهشني هدوؤها وطمانيتها فكأنّها
تصاحب زوجها أو أخاها لا رجلاً غريباً لا يتمالك
نفسه من الحياء والارتباك. سألتني دون أن تحوّل
عينها عن الطريق:

- ماذا أدعوك؟

فقلت في اقتضاب:

- كامل رؤية...

واكتفيت بذلك عن ذكر القلب الذي كثيراً ما يثير

تري هل تنتهي وسواسي جميعاً إلى قبضة من
الريح؟ ولا أتمنى على الله من شيء إلا أن أسكن إليها
في طمأنينة وسلام. وقالت لي وأنا أبذل ثيابي:
- دعيتني خالتي بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم
وكلفنتني أن أنوب عنها في دعوتك...
فقلت لها وأنا لا أدري ماذا أقول:
- إن شاء الله.

وأدركت في اللحظة التالية أنني تسرعت بإجابتي
تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العباسية. ولكن هل
أروم حقاً أن أذهب إليه؟! إنّي الآن بعيد عن النافذة
والشرفة وتأثيرهما أفلا أزال أفكر في المرأة تفكيراً
جديداً؟... أيّ شيطان يغرّر بي؟! إن قلبي لحبيبي
دون سواها، فما بال نداء المرأة الغربية قهّاراً لا
يقاوم؟! وتفكرت طويلاً وما أزداد إلا استسلاماً للنداء
الشيطاني، حتى لم يعد يحول بيني وبينه إلا ما أخذت
به نفسي من ملازمة زوجي مساءً. ولكن أكانت
تدعوني إلى زيارة خالتها لو كانت تضمّر سوءاً؟!
وعاودت التفكير في جهد لأنه ليس أشقّ عليّ من
الاختيار بين أمرين. وترددت طويلاً قبل أن أقول:

- أوه لقد نسيت... إنّي مرتبط بموعد هام...

فتساءلت فيما يشبه الكدر:

- أتعني أنّك لا تستطيع الذهاب معي؟

فقلت وأنا أشعر بأنّ قلمي تنزلق إلى هاوية ما لها
من قرار:

- اعتذري عني للستّ خالتك...

٥٥

بلغت جسر العباسية قبل الميعاد بدقائق... كان
الجوّ لطيفاً والظلام شاملاً فاخترت موقفاً تحت مصباح
غازي... ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر
ذكرتني بحالي يوم حملتني العربية إلى حانة شارع الألفي
لأوّل مرّة... كلّ هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا
رشاقة، ينجلني والله أن أظهر معها أمام الناس! ولما
اقترب الميعاد ركبت الخوف الذي تناوبني كثيراً في فترة
الانتظار منذ العصر، ماذا يحدث لو تكرّر وقوع

وأغرقت في الضحك ثم قالت:
- نحن في السيارة لا في الطريق. إلا أن الطريق
نفسه لا يمنع أمثالا من الالتصاق إذا شاءوا. لا تتوار
وراء الأعدار الكاذبة. خبّرني ما عمرك؟!.

- في الثامنة والعشرين من عمري.
- يا للعارا... وكم امرأة عشقت؟
ولذت بالصمت شاعرا بأنه لا قبل لي بها. وكأنها
عجبت لصمتي فقالت بإنكار:

- أتريد أن تقول إنك لم تعشق امرأة من قبل؟!
وهل أنا أول امرأة في حياتك؟... ربّه وعيونك
الخضر ألم تجذب أحدا؟! لا شك أنني أدركتك وأنت
مشرف على الغرق، فليجزني الله على صنيعي خير
الجزء... ربّه من يصدق هذا؟ كيف تعيش وماذا
تصنع بحياتك؟

ولم أحر جوابا، وأثر في قولها تأثيرا موجعا لم تدرك
كنهه. ولعلها قرأت في وجهي الارتباك فرحمتني
بالصمت مليا. ثم سألتني عن عملي فأجبتها بأني
موظف... واستدركت قائلا أنني في إجازة قصيرة.
وساد الصمت مرة أخرى، وفي أثناء ذلك ترزححت
قليلا صوي حتى مس منكبها منكمي في رفق، فبعثت
في قلبي المنكمش حياة وبقطة فتتابع وجيبه على خوفي
وخجلي ولما لازمت جمودي والتصاقي بالباب قالت
باقتضاب وهي تكتف ضحكة:

- متى خطوة ومنك خطوة. ألا زلت هيأبا؟!
ولاقي منّي النداء نفسا راغبة وقلبا خائفا، ولكن
جالدت الخوف مجالدة وترزححت في حذر وإشفاق
حتى مس جانبي - من أسفل الساق إلى أعلى المنكب -
لحما طريا يتطاير منه عرف طيب ساحر، ولبثت هنيهة
متمليا مسه اللذيذ وكلّ جوارحي تنتفض، حتى
التفتت نحوي وشعرت بأنفاسها تتردد على خدي،
وهمست في أذني:

- أما زلت هيأبا؟!
كلّا، لقد أسكرتني العاطفة. وكانت أنفاسها لا
تزال تتردد على خدي فإل رأسها نحوي حتى غاص
فمي في شفيتها الرابيتين وسرعان ما حولت رأسها عني

الضحك، فتمتمت قائلة «عاشت الأساء»، وشعرت
بأنه ينبغي أن أسأها كذلك عن اسمها. وتخيّرت عبارة
مناسبة، واستجمعت قواي للفظها، ولكنّها لم تنتظر،
وقالت ببساطة:

- ادعني عنايات إذا شئت.
وغمغمت في خجل «عاشت الأساء» ولكنّها لم
تسمع إلا همسا، والتفتت نحوي فجأة وقالت
مبتسمة:

- يا له من حياء غريب! ألم تعلم بأن الحياء موضه
قديم؟ وأن العذارى أنفسهنّ نبذنه بلا أسف؟ فميم
تستمسك به أنت؟
فندت عني ضحكة مرتبكة ولم أنبس بكلمة،
فاستطردت قائلة:

- ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجح لا ينفع
إلا في حينه، وخبّرني بالله عليك ما الذي دعاك إلى
مخالطة النوبيين في تلك القهوة القدرة؟!
وتفكّرت قليلا متحيّرا حتى وجدت في الكذب
منجى فقلت:

- كنت يوما راجعا من مشوار طويل فلم أجد من
مكان أستريح فيه إلا هذه القهوة.
- هذا عن أول يوم، وما قولك عن اليوم الثاني
والثالث؟

وجاءني على البدهاهة جواب حسن، فتعلّبت على
الحياء وقلت بصوت منخفض:

- إنك المسئولة عن بقية الأيام...
فلحظتني ضاحكة وقالت بمكر:
- أحقا تقول أم أردت التهرّب بالغلز؟
فغمغمت:

- بل قلت الحق...
فرمت بنظرها إلى الطريق في دلال وقالت:
- فلماذا إذن تلتصق بالباب مبتعدا عني كأنك تكره

لسي!
وتولاني الاضطراب، ولم أدر ماذا أفعل، ثم قلت
كالمعتد:
- ولكننا في الطريق...

لها. إني بين يديها أتمرغ في التراب، ولكنّه تراب طيب حنون يجود بالثقة والسعادة. وأدركت أخطاء الحياة الماضية، وذكّرت زوجتي المحبوبة في حزن وقنوط أوشكا أن يقصفا بعمر الساعة الساحرة، ولم أتردد عن تحميلها تبعة تعاسي كلّها!... هكذا بدا لي الأمر. على أنّ قلبي هفا إليها حتّى في تلك اللحظة وفي ذلك المكان! أمّا المرأة فقد ضربت أنفي بأغملتها وسألتي:

- مبسوط؟...

فقلت من قلبي:

- جدًّا.

وأخذت يسراي بين راحتيها ورنّت إليّ طويلًا ثمّ غمغمت:

- يا لك من طفل رائع!

فتضاحكت قائلاً في حياء:

- طفل في الحلقة الثالثة!

ولاحت في عينيها نظرة جدّ واهتمام، وانتهت إلى أصابعها وهي تتحسّس خاتم الزواج، ثمّ ألقت عليه نظرة ذاهلة وهتفت بي:

- أنت متزوج؟! لم يذّر لي هذا بخلدا!

واستحوذ عليّ الخوف ونظرت إليها صامتًا. وعادت تفهقه ضاحكة ثمّ قالت:

- كيف لم يخطر لي هذا على بال؟! ولكن كيف أصدّق هذا؟! ربّاه لماذا جريت ورائي؟... ألا تعجبك زوجك؟! يا لك من فاسق!

فخفقت عيني في حيرة وارتيابك ولم أنبس بكلمة، فسألني باهتمام:

- ألا تحبّ زوجك؟

وضايقتني السؤال، وتردّدت لحظة لا أدري ماذا أقول، ثمّ أرغمني حرج الموقف على أن أقول بصوت لا يكاد يسمع:

- إنّها ستّ طيبة!

فقلت بعجلة:

- إني أسألك ألا تحبّها؟

وشعرت بأنّ الكذب ينقلب فضيلة في حضرة

إلى الطريق أمامها، فأحطت خاصرتها الغليظة بيسراي وانملت على جانب عنقها تقيلاً. وانحرفت بالسيّارة إلى جانب الطريق وهي تغمغم ضاحكة «رويدك» ثمّ أوقفتها وهي تقول:

- لنسترح هنا قليلاً فهذا مكان آمن...

والقيت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفاً وسيطاً في المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق، تشمله الظلمة ويكتنفه الخلاء من الجانبين، وفيها عدا أزيز السيّارات التي كانت تمرّ بنا مرور البرق كان الصمت عميقاً محيطاً، سألتها هامساً:

- أليس ثمة خطر؟

فقالت وهي تلفّ عنقي بيمنها:

- إنه آمن من بيتك؟

واستدارت في جلستها حتّى مسّ منكبها المسند، وثنت ساقها اليمنى تحت فخذها اليسرى، فصرنا وجهاً لوجه، وانبرى لي صدرها العالي ينحسر عنه عنق الفستان ومال وجهي نحو صدرها فتوسّده في حنان وذهول، وأسكرتني رائحة جسم آدميّ أشهى من العرف الذكيّ. وسكنت إليه ما طاب لي السكون ويدها تعبت بشعر رأسي. ثمّ رفعت إليها وجهي والتهمت شفتيها، والتهمت شفتيّ، وكأنّ كلينا يأكل صاحبه ويزدرده، وولّى الخوف إذ لم يعد له مسوّغ! وامتلاّت حياة وجنوناً وثقة لا حدّ لها، لا أدري كيف واتتني الثقة، كانت المرأة سيّدة الموقف فوجدت فيها المرشد الذي ضللته حياتي كلّها، أعادت إليّ الثقة والطمأنينة لأنّها أخلتني من كلّ مسؤوليّة وأخذتني بالموادة والرفق، أدركت في تلك اللحظة - أكثر من أيّ وقت مضى - أنّ إلقاء أيّة تبعة عليّ خليق بأن يفقدني نفسي، وأتني لا أجد هذه النفس المتهافئة إلاّ بين يدين ثابتتين قويتين. ذابت الدنيا في نشوة جنونيّة ساحرة خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق. وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة، بل هي الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة. افترّغني عن ابتسامه ظفر وسعادة، ورمقتها بنظرة امتنان لم تدرك عمقه وهيئات

النساء فقلت باستياء أخفيته بابتسامه:

- كلاً...

فانبسطت أساريها وسألت باهتمام:

- كم مضى على زواجك؟

فقلت وقد أهاجت سيرة الزواج أشجاني:

- قرابة عامين!

- ألم تكن تحبها قبل؟

- كلاً...

- زواجك منها بغير سابق معرفة؟

- نعم...

فهتفت بغضب:

- يا له من إثم لا يُغتفر، وهي ألا تحبك!؟

فقلت صادقاً لأول مرة:

- إنها لا تحب الحب!

وأتسعت عيناها دهشة، وفتحت فاهها - رأيت في

جانب فيها سنتين ذهبيتين لأول مرة - وقالت: آه!

(بصوت مملوط)... فهمت كل شيء. توجد نساء على

هذه الشاكلة، لم لا، ليس كل النساء بالكاملات...

وتبادلت نظرة طويلة في ابتسام وسمت، ثم سألتها

صاححاً:

- وأنت، ألسنت متزوجة؟

فقالته وهي لا تحوّل عينها عني:

- لست إلا أرملة، كان زوجي لواء عظيمًا يدعى

عليّ باشا سلام، تزوّجني على كبر وتزوّجته على صغر،

ثم مات من بضع سنين فعدت إلى أمي نعيش معاً،

والله وحده يعلم مع من أعيش غداً!!

جعلت تصفر بضمها وهي تبسم إليّ. ثم تناولت

حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على

وجهاها وعنقها وصففت خصلات شعرها المبعثرة،

وراحت تلقي نظرة على وجهها في مرآة صغيرة مثبتة في

جانب السيارة وهي تسألني:

- متى تنتهي إجازتك؟

- بعد أيام قلائل...

فقالته بهدوء:

- سنلتقي كثيراً، كل يوم إن أمكن، ولنا في السيارة

متسع حتى نجد مكاناً صالحاً...

واستوتت جالسة أمام عجلة القيادة، ولكنّي أمسكت

بمعصمها، ثم أحطت عنقها بذراعي، وضحكّت

ضحكة قصيرة، وضمتني إلى صدرها الرابي وهي

تقول:

- لماذا تركتني أستعيد زيني يا شاطر!؟

٥٦

عدت إلى البيت في تمام العاشرة، ولم أسأل نفسي

عماً إذا كنت قد أخطأت لأن ما استرددته من السعادة

والثقة كان فوق الخطأ والصواب، وكانت أمي قد

نامت، أما رباب فقد جلست في الفراش تطالع مجلّة.

ما إن رأيت وجهها الصبيح حتى أشرق بروحي نور

بهيج وأحسست بأنني أنتقل من دنيا إلى دنيا أخرى.

وألني تقزّز مفاجئ لما صنعت بنفسي، ولكنّه لم يتمكن

معي، فأنسانيه ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول بيني

وبين زوجي... واستقبلتني بابتسامه وأبلغتني سلام

خالتها وعتابها، ثم أخبرتني بأنّ عشائي جاهز على

السفرة فمضيت إليه والتهمته بنهم متعب جائع.

وعدت إلى مخدعنا وأنا أتساءل عماً تفعل رباب لو

علمت بذنبي!؟ وأخبرتني بأنّها دعيت إلى إعطاء درس

خاصّ لابنة قاضٍ كبير بالسنة الأولى الابتدائية

وسألتني عن رأيي. ومع أنّي لم أفق منها على ما يريب

إلا أنّي لم أرتج للاقتراح وقلت:

- حسبك ما تتجشّمين من مشقة طول النهار!

فقالته بغير اكتراث:

- صدقت...

وسررت لموافقته السريعة، وقلت لنفسني في شبه

ندم: «هيهات أن أقع على شبهة شكّ؟».

واضطجعت إلى جانبها، فنتحت المجلّة جانباً، وأطفأت

النور واضطجعت بسلام. كان النوم حريّاً بأن يسارع

إلى جفني، لكنّ حالت دونه يقظة غريبة في النفس،

طار خيالي إلى عنایات، والسيارة في طريق الهرم، إنّي

خائن! أعجب بها من حقيقة! فمن يصدق أن يتخذ

الزوج العاجز عشيقه!؟ تمثّيت في تلك اللحظة لو تعلم

صباحًا بيد أنني لم أتردد فناديت النادل ودفعت له الحساب ومضيت من فوري إلى الجسر، وخيل إليّ - في طريقي القصير - أنني أدركت حقيقة من حقائق الحياة، هي أنه لا توجد ثمة حركة بين الرجال إلا ووراءها امرأة! المرأة تلعب في حياتنا الدور الذي تلعبه قوة الجاذبية بين الأجرام والنجوم. فما من رجل «حي» إلا وفي خياله امرأة، حاضرة أو غائبة، ممكنة أو مستحيلة، محبة أو كارهة، مخلصه أو خائنه. وفهمت فهمًا جديدًا، كأنه لقوته بكر جديد، معنى قولهم: إنَّ الحب الحياة والحياة الحب: لم تكن حياة ثم كان حب، ولكن كان حب فكانت حياة، وأقسمت في تلك اللحظة ألا أعرض عن الحب ما حييت!

وجاءت السيارة فأتخذت مكاني كالأمس. وتساءلت المرأة ضاحكة:

- ما الذي جاء بك الآن؟ ألم يكن موعدنا مساء؟
فقلت مبتسماً:

- أنت أنت السبب...

فابتسمت في سرور وقالت:

- يجب أن نلتزق بالغرا فلا ننفصل أبداً...

وتصاعد أزيز المحرك ينذر بانطلاق السيارة فقلت
برجاء:

- الدنيا نهار فهلاً عدلت عن الطرق المزدحمة!

- أتحاف أن يراك أحد؟

فقلت بخجل:

- نعم.

- آه! نسيت أنك متزوج!... لا تؤاخذني يا

حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة!

وانطلقت السيارة بالسرعة الجنونية، وسألني في الطريق قائلة:

- ماذا فعلت بزوجك الأمس؟

فقطبت وأنا لا أدري، ولم أحر جواباً، فقالت:

- لهذا الحد لا تحب ذكرها؟

ثم تساءلت متجاهلة صمتي وارتابكي:

- ألا تنامان في فراش واحد؟

وحاولت أن اغتصب ضحكة ولكنني عجزت،

زوجي بهذه الحقيقة العجيبة، على أنها لم تكن إلا لحظة عابرة، وسرعان ما تقبض قلبي خوفاً وخجلاً. لقد تعقبت زوجي وبى شك في خيانتها فعدت خائناً لا شك فيه، أما هي فما وقفت منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبي منها العجز والإخفاق على حين أنني نعمت بين يدي المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية؟! لفتني حيرة شديدة، تلهفت نفسي على بصيص من النور.

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا غنى لي عنهما معاً. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذابي إلا عذاب من لا يستطيع أن يزوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتسم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يدع للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تترأى لعيني رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمي بلا داع فأتخذت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة! وتساءلت بي الحيرة حتى شملتني حال من الحزن والكآبة...

بيد أن أحاسيس الليل قلل أن تعيش في ضوء النهار. إنهما في الليل تندمج في تيار لحن غامض ينطلق في جو أثيري يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نلتمس سبيلها في الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى العباسية، ترى أقتفي أثر رباب حقاً أم ألبي ذاك النداء المطاع؟ إن سيرة زوجي لا تدع مجالاً للشك، سيرها كجهرها، فلا شك أنها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشغوم، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا.

وذهبت إلى قهوة النوبيين، فيما أوقفها رمزاً لحيي الجديد. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لي مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج، وأشارت إليّ بإشارة ذات معنى أن أنتظرها في مكان الأمس. لم أتوقع أن نتقابل

وشعرت بامتعاض كدّر عليّ صفوي، ففقهت ضاحكة وقالت:

- لشدّ ما أرغب في رؤيتها..

وأرادت أن تسريّ عنيّ بطريقتها فداعبت شفّي بأصبعها وقالت محاكية الأم التي تداعب طفلها:

- كتكوتي...

ووقفت السيّارة أمام مشرب شاي... فجلسنا معاً نقَلب الحديد ظهرًا لبطن في لذة وسرور. وأخبرتني أنّ اختيارها قد وقع على بيت الخيطة ليكون مهدًا لغرامنا. وعند الظهر غادرنا المكان، وقد أرادت أن تدفع الحساب ولكنني أبيت عليها ذلك، وافترقنا بعد أن تذاكرنا موعد المساء. وتكرّر اللقاء. ولمّا انتهت الإجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لقاءنا في الأماصي. وأتعتني التجربة الناجحة بأنّ الحبّ صحّة وعافية. ولم يخفّ على أحد دأبي على السهر، ومع أنّ رباب كانت تفضّل - على حدّ قولها - أن أمضي سهراي معها في زيارتها التي لا تنقطع، إلّا أنّها تحاشت مضايقتي، فباشر كلانا حياته بالسبيل الذي يرضاه. ولم يخفّ ذلك عن أمي أيضًا، وقد قالت لي: لاحظت يا بنيّ أنّك لم تكن على حالك الطبيعيّة في هذه الأيام الأخيرة، وقد خفت أن أعلن لك ملاحظتي أن تغضب، فإذا وجدت في السهر راحة فاسهر، هكذا الرجال جميعًا!!

٥٧

وانقضى شهر أو أكثر على حياة سعيدة لا يشوب صفاءها كندر. حلّ السلام مكان الشكّ وعبادت علاقتي برباب إلى أصفى ما كانت عليه من الودّ الطاهر والحبّ البريء، أمّا من الناحية الأخرى فقد أسلمت نفسي لعنايات في حبّ مضطرب وسرور ظافر. إنّها امرأة موفورة الثروة. وما من مرّة نذهب إلى مهدنا المحبوب بيت الخيطة إلّا وتفتحها بريال وأحيانًا نصف جنيه، وأبت عليّ كرامتي إلّا أن أكون كريماً كذلك، ولو في حدود طاقتي. وهيأت لي - وهي لا تدري - معاودة الشراب على حال لا تنقطع، فكانت

الخيطة تحتفظ لنا بقوارير الويسكي والصودا دومًا، بل أوشكت أن تعودني التدخين، وكأنّ لها مزايا وأيّ مزايا. كانت كاملة الأنوثة والحيويّة، فهي متعة للعشاق على كهولتها ودمامتها المحبوبة، بيد أنّها كانت كذلك على استهتار وجسارة يقشعر لها البدن. عندها الحبّ كلّ شيء، وفي سبيله تستبيح أيّ شيء. ولعلّها لم تكن من النوع الهلوك، ولعلّها لم تكن إلّا امرأة هالعة، تشعر دومًا بإدبار الحياة الزاهرة، وذبول الشباب اليانع، فلا تطيق أن يمضي يوم بلا حبّ. وكان أعجب ما في حبيّ لها أنّي فُتنت منها بما هو حريّ أن يُعدّ من الناقص في نظر الغير، بكهولتها ودمامتها وجسارتها، وكانت تملؤني ثقة لا حدّ لها، فلم أكن أحمل لشيء همًّا. ولولا ما كان ينتابني من قلق، منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحي وجسدي، لتملتّ الحياة صفاء خالصًا، على أنّها كانت حياة سعيدة.

وفي ذات يوم، وبعد فراغي من الغداء مباشرة، ذهبت إلى حجرة أُمّي لأشرب فنجانًا من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتي كلّ يوم، وسرعان ما لاحظت أنّها تردّد في وجهي عينها الصافيتين في قلق وتفكّر، ففترّست في وجهها الذابل الذي فقد مرجه وسعادته، فأدرت لتويّ أنّها تريد أن تقول شيئًا، وداخلني القلق، ولكنّي قلت مبتسّمًا:

- ماذا وراءك: هاتي ما عندك!

فلاح التردّد في عينها لحظات ثمّ قالت:

- بالأمس سمعت أمورًا أدهشتني، فهلّا أخبرتني عمّا بين رباب والسّت والدتها؟

كلّ شيء توقعته إلّا هذا. وغامت عيناي بسحب ذكريات سود، وتساءل قلبي الخافق: هل عادت المرأة إلى لجاجتها القديمة؟! ولم تكن رباب قد أخبرتني شيئًا عن زيارة أمّها لها بالأمس إلّا أن أقرّأني سلامها.

وعدت إلى أمّي أقول لها بصوت هادئ أو جعلته هادئًا:

- ليس بينها إلّا كلّ خير..

فهزّت أمي رأسها في ارتياب وقالت:

- لعلّه غابت عنك أشياء، أما أنا فلم أستطع استقبال نازلي هانم لأنني كنت متعبة، ولما جاءت صباح لتخبرني بقدومها تصنّعت النوم. وطالت الزيارة، فانسللت من الحجرة لقضاء حاجة، ودنوت من باب حجرة الاستقبال، فما راعني إلا أن أسمع السّت وهي تقول في انفعال وغضب: «هذا شيء لا يُجتمَل» فتردّ عليها رباب بعنف قائلة: «لا تتدخّلي في شئوني!» فما ملكت أن تراجعت إلى حجرتي...

التهب جبيني حياء، ثم ركبني الغضب، فشعرت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضوليّة. واقتحمت أمي عليّ أفكار متسائلة:

- ألم تعلم عنها شيئاً؟

فقلت بحزم:

- لا شأن لنا بهما.

وعدت بعد ذلك إلى مخدعي فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل، فلما رأني ألصقت ساقها بمسندة لتفسح لي مكاناً فجلست متفكراً، كيف أخفت عني ذلك النزاع؟ هل أشفتت من إزعاجي؟ ولعلّها لم تلاحظ تغبّر حالي فراحت تقول لي: إنّ اليوم الجمعة، وإنها تقترح عليّ أن نذهب معاً إلى السينما، فتركتها تتحدّث حتّى انتهت فسألتها قائلاً:

- كيف حال والدتك؟

فأجابني بأنّها على ما يرام، فنظرت إلى عينيها وتساءلت:

- هل مرّت زيارة الأمس بسلام؟

فلاحت في عينيها نظرة ارتباك وقالت:

- ماذا تعني؟

فقلت بحزن وكآبة:

- رباب، لا تخفي عني شيئاً. أعادت والدتك إلى ذلك الموضوع القديم؟

فلاذت بالصمت ملياً وقد تجهم وجهها، ثم تساءلت بحدّة:

- من أدراك بذلك؟ أريد أن أعرف كل شيء!

فأخبرتها بما قالت لي أمي، وكانت تصغي إليّ

باهتمام ثم انفجرت قائلة:

- أمك... أمك... ودائماً أمك!

ووخزني الألم الذي يجرّ في نفسي كلمة لاحت لي أي الكراهية المتبادلة بينهما، وقلت:

- لا داعي للغضب، لقد سمعت ما سمعت اتفاقاً، ونقلته إليّ بقصد حسن كما هو ظاهر. بالله لا تستسلمي للغضب، وخبريني هل عادت أمك إلى ذلك الموضوع القديم؟

وسحبت ساقها من ورائي، وألقتها على الأرض، وأطردت في تجهم وغيظ وقالت:

- الأمر الذي لم أشأ تعكير صفوك به أنّها اقترحت عليّ أن أعرض نفسي على طبيب ليرى أسباب عدم الحمل، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا!

وواصلنا الحديث البغيض ملياً حتّى طلبت إليّ أن أمسك، وأن أقبل طلباً للراحة من تعب اليوم، فأذعنت لمشيئتها ومضيت إلى الفراش واستلقيت عليه محزوناً مكتئباً. ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو، ولا أدري كم غفوت، ولكنّي استيقظت على شيء أطار عن عيني النوم. وفتحت عينيّ في انزعاج فسكّت مسامعي ضوضاء آتية من الصالة، فأرھفت السمع، ولم ألبث أن أدركت أنّ رباب وأمّي تبادلان أقسى الكلبيات في ضجّة وصياح. وقفزت من الفراش في هلع ووثبت إلى الباب ثم مرقت منه إلى الصالة فإذا برباب تصيح وقد تطاير الشرر من عينيها:

- هذا تجسّس لا يليق بسيّدة محترمة.

ووقع بصر أمي عليّ فخفضت بصرها وهي تقول:

- لا يسعني أن أجاريك في قلة أدبك!

وهتفت برباب قائلاً: «رباب...» ولكنّها تحامتنى

ورجعت إلى حجرتنا في غضب جنونيّ. ودارت أمي على عقبيها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فألجّته نحوها صامتاً متألماً. رأيتها تمسك بأكرة الباب ثم تقف دون أن تضغط عليها كأنّها عدلت عن الدخول. ورأيتها تضع راحتها على جبينها فخيّل إليّ أنّها تنحني رويداً، وأسرعّت نحوها، فما كدت ألمسها حتّى سقطت على يديّ فنلقيتها بها في رعب وفرع.

قواها؟ فهالني الاقتراح وقلت بارتياح:
- هذا مستحيل.

فابتسمت إليّ متلطفة واستطردت قائلة:

- ألا ترى أنّها تحتاج لخدمة وعناية في كلّ حين،
فمَنْ ذا الذي يقوم بخدومتها هنا؟ وأنت مشغول
بعملك، وزوجك مشغولة بعملها، وصباح تقوم على
خدمة المنزل، فإلى مَنْ تكبّل أمر أمّنا؟

ولكنّي استفظعت اقتراحها، وثرث على ما قدّمت
من حجج قويّة، وقلت بإصرار صادر من أعماق
قلبي:

- لن يطول رقادها بإذن الله، ولن تحتاج إلى مَنْ
يلازمها إلاّ في الأسبوع الأوّل كما قال لي الدكتور،
ولأجدنّ خادماً خاصّة تتوفّر للعناية بها.

وحاولت راضية أن تثني عن إصراري ولكن لم تجدي
محاولتها، وانتهى النقاش بأن قرّرت الإقامة في بيتي
حتى أوفّق لإيجاد خادم. وفي اليوم الثالث لمرض أمّي
حضر أخي مدحت - وكنت أخبرته بمرضها في خطاب
مستعجل - وجاءت معه زوجته. وقد اشتدّت وطأة
المرض على أمّي في الأيام الأولى لمرضها، لم تكن تبدي
حراكاً، ولا تكاد تنبس بكلمة، كانت إذا فتحت
عينها المتعبتين لاحت فيها نظرة ذابطة غائمة تقلّبها
بيننا في صمت وتسليم فتمزّق قلبي إرباباً؛ ولم تكن
نفارقها، وكانت إذا عاودتها بقطة خفيفة تردّد عينها
بيننا، وترسم على شفّتها الجافّتين ابتسامة، أو تبسط
راحتها وترفع بصرها إلى أعلى وتغمغم داعية لنا
بصوت منخفض وإن. ولكن لم تطل بها الغيبوبة،
فتحسّنت حالها قليلاً في نهاية الأسبوع الأوّل من
الأزمة. واستطاعت أن تدرك بوضوح أنّ أبناءها جميعاً
يحيطون بها، ولعلّها رأيهم كذلك لأوّل مرّة في حياتها.
وقد جمعنا الفراش مرّة فجلست راضية تنظر إلينا في
صمت طويل، ثمّ طفح وجهها بالبشر، وهمت
بصوت ضعيف:

- ما أسعدني بكم!... الحمد لله والشكر له.

ولاحت في عينها نظرة رقيقة تنمّ عن الحنان

وناديتها فلم تجب، وتدلّى رأسها وذراعها. وصرخت
منادياً صباح فجاءت تجري، فحملناها معاً وأمناها على
فراشها. وجئت بزجاجة كولونيا ورششت منها على
وجهها وعنقها، ودلّكت بها أطرافها، وجعلت أنادياها
بصوت متهدّج مبحوح دون توقّف، وغشيتها الإغواء
دقائق مرّين بي كالساعات، ثمّ فتحت جفنيها عن
عينين غائمتين، فهتفت بها وأنا أزدرد ريقى:
- أمّاه...

فشخصت بصرها إليّ، وأشارت بيدها إلى قلبها
دون أن تنبس بكلمة، وانطلقت مغادراً الشقّة إلى
البَدال في أسفل العمارة، وتلفتت إلى طبيها أن يحضر،
ثمّ صعدت إلى الشقّة وجلست إلى جانبها في حال من
الذعر والحزن لا توصف. لم تفارقها عيناها لحظة
واحدة حتى استلّت نظرة عينها الغائمة دمعي
الحبيس. شعرت بأنّي أشقى إنسان في الوجود،
وأفعمت نفسي كتابة وامتعاضاً. ثمّ جاء الطبيب
ولفحصها، وقال إنّها نوبة قلبية، تستلزم رقاداً طويلاً
وعناية كبيرة، ووصف الدواء كالعادة. وكنت قد
قصصت على الطبيب كيف أعمي عليها عقب شجار
مع الخادم! فقال لي: إنّ الشجار سبب طارئ ولكنّ
الداء قديم. وقضينا ليلة عبوساً. أمّا رباب فقد توارت
في حجرتنا في شقاء بالغ وقد ناءت بثقل تبعثها، وما
زالت تبكي حتى انفطر قلبها من البكاء فلم يسعني إلاّ
أن أطيب خاطرها وأربّت على منكبها قائلاً:

- حسبك بكاء، هذا قضاء الله، وربّنا يجعل
العواقب سليمة...

٥٨

وامتلاً البيت بالعواد، فزارتنا أسرة رباب وجمّع من
أقاربها، وجاءتنا أختي راضية وأسرمتها، وعادت رباب
المريضة وقبّلت يدها واستوهبتها العفو بعين باكية حتى
رجوت أن نبدأ - بسبب هذا الحادث - حياة جديدة
خالية من كدر القلوب. وتخيّنت راضية فرصة خلوّ
الحجرة من الأغراب وقالت لي:

- إني أستأذنك في أن أخذ أمّي إلى بيتي حتى تستردّ

والتأثر، ثم استدركت قائلة:

- إذا كان المرض يجمعنا هكذا فكم أتمنى ألا يزول.

وبدت - على مرضها - سعيدة، فانتقلت سعادتها إلى قلوبنا. الثامت أسرتنا التي قضى الله على عقدها بأن ينفرد منذ البداية: بتنا تحت سقف واحد، وأكلنا وشربنا معاً، وانتظمت قلوبنا خفقة واحدة. يا لها من أيام رددت أنفاسنا فيها الإشفاق والحنان والسعادة. بيد أنها كانت أياماً قلائل. فقد تقدمت صحة أمي تقدماً حسناً، وزال الخطر عنها وإن حتم الطبيب عليها بالآل تبرح الفراش شهراً كاملاً على أقل تقدير. وعند ذاك ودعنا مدحت وعاد بأسرته إلى الفيوم واعدداً بالزيارة من آنٍ لآنٍ. وعادت راضية كذلك إلى بيتها - وكنت قد وُفقتُ إلى اختيار خادم لأمي - على أن تعود أمها كل يوم. انفض السامر، وتفرق الشمل، وعاد كل شيء إلى أصله. ولم يكد يمضي أسبوعان حتى أخذت أمي تسترد حيويتها ويقظتها، وأمكنها أن تجلس إلى الفراش مستندة إلى وسادة منكسرة. ولشد ما سرني أن تقوم رباب بواجبها نحو حماها، ولن أنسى ما عانت من مرارة الألم والقهر في الأيام الأولى للمرض.

ولمّا عاودتنا الطمأنينة، ولم يعد أمام أمي إلا رقاد وإن يكن طويلاً إلا أنه مأمون، عدنا إلى سيرتنا المألوفة في الحياة. عادت رباب تروح عن نفسها بزياراتها المسائية، وانطلقت على سبيلي القديم. وقد استأذنتها في الخروج بضع ساعات ترويحاً عن النفس، فأذنت لي بحماس، وأفصحت لي عما كان يساورها من ألم لبقائي إلى جانبها كالسجين. وغادرت البيت متفكراً، متسائلاً ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هي في مغادرة الحجرة ترويحاً عن النفس؟ وبدا لي منطلق الحياة قاسياً ولكن لا حيلة لنا فيه!

وطرت إلى عناية. وكانت تلتفن لي كل صباح بالوزارة فبينت لها الأسباب التي حالت دون لقائنا. وعدنا كما كنا نلتقي في مهدنا فنسكر ونحب. كانت حياة غريبة، وأخوف ما أخافه أن تكون الذاكرة قد

خانتني ولو في القليل من تفاصيلها. أكنت سعيداً حقاً؟ كان قلبي موزعاً بين أمي وزوجي وعنايات، وبين الذكريات العميقة والهيام السامي والحب العارم. وحسبني قد آويت من زواج الحياة إلى مرفأ هادئ، ولكن القلق القديم عاد يطرق بابي في حذر وتردد كأنما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر. أجل كنت أمضي في طريقي، ثم أتوقف حيناً بعد حين في تردد كأنني أتساءل عن شيء أنسيته، هل أجد في السير أم يحسن بي أن ألقى نظرة إلى ما حولي، ثم يتبين لي أنه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضي على وجهي . . .

ويوماً وجدت رباب على غير ما عهدتها من المرح والنشاط فسألتهما عما بها؟ فقالت لي: إنها قضت نهراً متعباً بالمدرسة، وإنها ترجح أن تكون مصابة بإنفلونزا. وعدلت ذلك المساء عن الخروج. وفي صباح اليوم التالي، وعقب استيقاظها بقليل تفتأت بغتة، واستلقت في إعياء ووهن، فاقترحت عليها أن استدعي لها الطبيب، ولكنها لم توافق قائلة: إنه برد خفيف وستعالجه بغير معونة الطبيب. وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بحجرتها. على أن رباب أصرت في صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لي: إنها تشعر بأنها استردت صحتها تماماً، ومضت بالفعل إلى الروضة على رغم نصحي لها بالبقاء في البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها فوجدتها أسوأ مما كانت في الصباح، ولكنها أصرت على أنها متمتعة بكامل صحتها، ولم تقنع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها وكنت في بيت الحياطة ولمّا عدت إلى البيت في منتصف الحادية عشرة لم أجد رباب في حجرتها. وكان صباح كانت تنتظر عودتي فجاءتني على عجل وقالت لي:

- سببت ست رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم لتخبرنا بذلك . . .

ووقع الخبر من نفسي موقع الدهشة والانزعاج، فسألته صباح قائلاً:

- وما الذي دعاها إلى ذلك؟

إلى بيتها بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر.
وغُلبت على أمري فجلست على كنبه وثيرة تتوسّط
الفراشين، بيد أنّ هدوء الأمّ الظاهر انتقل إليّ رويدًا،
وجعلت الأمّ تقول: إنّ الإنفلونزا بسيطة في ذاتها
ولكن ينبغي أن نتقي نكستها.

فأصغيت إليها بغير وعي على حين رنوت إلى
محبوبيتي بعينيّ وروحي، وتطلّعت إلى رباب مبتسمة
ابتسامة فاترة، يلوح في عينيها الإعياء وقد رانت على
نظرتها العذبة اللامعة غشاوة. وساد الصمت حينًا، ثمّ
تذكّرت جبر بك فجأة فسألته عنه، فأجابني الأمّ بأنّه
في رحلة تفتيشية يعود منها في نهاية الأسبوع، ولما
دقّت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت في
الانصراف، وقبّلت جبين زوجي، وغادرت البيت.

وفي صباح اليوم التالي تركت البيت قبل ميعاد
خروجي المعتاد بثلاث ساعة، وكانت «صباح» قد
استأذنتني في زيارة رباب، فعهدنا بشئون البيت إلى
نفسية، ومضيت من تويّ إلى بيت جبر بك، فقابلت
على السلم محمد وروحية، فسلمت عليهما وسألتهما
عن رباب؟ فأجابتي الأخت الصغيرة بأنّها بخير،
ودخلت الشقّة وذهبت إلى الحجرة فوجدتها في
الفراش، والأمّ جالسة على الكنبه، وردّت تحيّي برقة
وابتسام، ولكنّي رأيت في عينيها ذبولًا شديدًا كأنّها لم
تنم ساعة واحدة في ليلتها الماضية، وساورني الفلق
واستحوذ عليّ الانقباض. ولكنّي أخفيت ما قام بنفسي
أن أخيفها، وقلت متعمدًا الكذب:

- أراك أحسن حالًا!؟

فقالته باستسلام أوجع قلبي:

- الحمد لله...

وجلست على طرف الكنبه قريبًا منها، وقبّيت على
وجهها عينيّ، كانت عاصبة وجهها بمنديل بيّ، يبدو
وجهها تحتها شديد الشحوب، وتلوح في عينيها
الذابلتين نظرة ساهمة، فغشيت صدري كآبة، وضاق
بي الدنيا وبدا لي وجهها قبيحًا كالخنا، ولاحظت نازلي

فقالته الجارية بلهجة تنم عن الإشفاق:

- إنّها بخير يا سيّدي. ولقد زرتها ورأيتها بنفسي،
إلا أنّ حرارتها مرتفعة قليلاً فلم توافق الست الكبيرة
على تعريضها للهواء، وآثرت على أن تبيت عندها حتّى
تنخفض الحرارة.

وغادرت الحجرة بلا تردّد وأنا أقول في حنق:

- لقد حدّرتها من هذا ورجوتها مرارًا ألا تبرح
البيت.

وقابلتني في الصالة نفيسة «خادم أمي» وأخبرتني بأنّ
أمي ترجو أن أذهب إليها، فمضيت إلى حجرتها
فأفصحت لي عن أسفها وكلفتني بأن أحمل دعاءها إلى
«رباب» فشكرت لها، وغادرت البيت حانقًا قلبيًا.

٥٩

كان البيت نائمًا تشمله ظلمة إلا نورًا ينبعث من
حجرة الأمّ، فقصدتها لا ألوي على شيء، ووجدت
«رباب» مضطجعة في الفراش، والأمّ جالسة في فراش
يقابله بالناحية الأخرى من الحجرة، فقابلتني بابتسامة،
وانزلقت الأمّ من فراشها وأقبلت عليّ وهي تقول:

- هذا ما قدرناه! قلنا سينزعج ويجيء من توه،
والأمر لا يعدو أن يكون إنفلونزا.

وأجهت صوب فراش «رباب»، وتناولت يدها،
وقلت لها معاتبًا:

- ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت؟... ماذا

بك؟... لماذا لم تعودي إلى بيتك؟

فابتسمت إليّ وقالت وهي تشير بأصبعها إلى أمها:

- أردت أن أعود ولكنّ «ماما» لم توافق.

فابتدرتني نازلي هانم قائلة:

- إنّ حاملها لا تدعو للقلق مطلقًا، بيد أنّ تعرّضها

للهواء أمر شديد الخطورة.

فقلت بحزم:

- سادعو الطبيب بلا إبطاء.

فقالته الأمّ:

- لم يفتنا هذا، والطبيب نفسه الذي نصح بعدم

تعريضها للهواء، ليس في الأمر خطورة البتّة، وستعود

دخلته فيها يشبه الهلع، ودققت الجرس، وفتح الباب بعد قليل، ولشد ما كانت دهشتي حين رأيت أمامي الدكتور أمين رضا، وكان هو الذي فتح الباب، وكانت الصلاة الصغرى التي يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواه، ولم أكن رأيته منذ اجتماعنا في مأدبة الغداء بهذا البيت. ترى ما الذي جاء به في هذه الساعة المبكرة؟! وما الذي أبقاه وحده في هذه الصلاة المغلقة؟ ومددت له يدي وأنا أقول:

- السلام عليكم!

فمد لي يده قائلاً: «وعليكم السلام»، وكأني لاحظت أنه يمدني بنظرة غريبة من وراء عويناته، فقلت له:

- ألا تفضل بالدخول؟ ...

فتحول عني وهو يقول:

- إني منتظر في حجرة الاستقبال.

وأتمه بالفعل نحو باب الحجرة، وفتحها، ودخل، ومضيت إلى باب الصلاة الكبرى وفتحته ودخلت، وسرت نحو حجرة نازلي هانم، ولكنني ما قطعت خطوتين حتى قرع أذني صوت غريب لا أدري كيف أصفه، أكان تنهياً طويلاً؟ أكان صراخاً مكتوماً؟ ولكنه كان آتياً بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلقة، حجرة رباب، واندفعت نحو الباب، وأدردت الأكرة وفتحته، ودخلت خافق الفؤاد من الهلع، وأتمه بصري إلى الفراش فرأيت رباب نائمة، مغطاة إلى عنقها، وقد التف مندبها حول وجهها من قمة الرأس إلى أسفل الذقن ماراً بالأذنين، كانت عيناها مغمضتين، وبشرة وجهها شاحبة باهتة، يشوبها بياض خفيف. لقد بعث الوجه المعصوب في نفسي ذكريات غامضة لم أجد وقتاً لتوضيحها ولكنه حرك رعباً كامناً في أعماقي، ثم تبين لي في اللحظة التالية أن نازلي هانم جالسة على طرف الكنبه دافنة وجهها في وسادة الفراش، مفرقة في نحيب موجع، وأن «صباح» واقفة عند أسفل الفراش تولول باكية فلم تتب له لدخولي ...

رباه! ... هل حقاً ماتت رباب؟!

هانم كآبتي فقالت بدهشة:

- ألم تجرب وعكة البرد قبل اليوم؟ إنك تدلّ لها يا سي كامل أكثر مما ينبغي ...

وسرّي عني قليلاً بأن التي تستهين بالحال هي أمها، ولو كان بزوجي ما يدعو للقلق لما ملكت الأم نفسها. وملت نحو الفراش قليلاً، ووضعت راحتي على خدّها فوجدته ساخناً، ولكنها ابتسمت إليّ وقالت:

- إذا كان بي تعب فالستول عنه أرق ألم بي الليلة الماضية، وسأستردّ انتعاشي إذا ما نمت ولو ساعتين ...

فقلت لها برجاء:

- حاولي أن تنامي معها كلّفك الأمر ...

ونظرت في عينيها طويلاً، فرتت إليّ دقيقة ثم خفضت عينيها بلطف، ولم أجد بداً من الانصراف، فنهضت واعدت بالزيارة عقب عودتي من الديوان، وذهبت.

بلغت الديوان بعد الثامنة بعشر دقائق، وعكفت على عملي، ولكن العمل لم يستطع أن يغتبيني عن نفسي، وعدت بفكري إلى رباب فتمثلت لي نظرة عينيها الساهمة واستشعرت وحشة لم أدر لها سبباً، وحاولت أن أفنى في العمل ولكني لم أفز بطائل، وغلبتني على أمري نفسي التي تخلق المخاوف من لا شيء، فاشتدّ بي القلق وجعلت أقول لنفسي: إن رباب عجزت عن العودة إلى بيتها، وهي تبدو مهزولة متضععة فكيف أطمئن؟! كيف أتركها؟! ولم يكن تهافت قلبي حيال أخفّ الملّات بجديد عليّ، وطالما جافاني النوم لوعكة خفيفة تتاب أمي، فلعل ذلك الخوف كان أنراً من هذا التهافت المقيم. أفضح بها من كآبة ثقيلة! إن قلبي ينقبض في خوف وألم، وكأنه يكاتم صرخة استغاثة تحاول أن تنطلق. لماذا أعذب نفسي بتجرّع غصص انتظار لا موجب له؟ وعند ذلك طويت الأوراق واستأذنت في الانصراف معتذراً بمرض زوجي. وغادرت الوزارة في منتصف العاشرة، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق ... وكنت كلما اقتربت من البيت ازداد قلبي وحشة، حتى

ونظرت المرأة إليّ بارتباك ثمّ قالت بصوت
مخنق بالعبرات:

- اشتدّ حال ابنتي فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار
بإجراء عملية في الحال...

فسألته وقد استحلّت شخصاً جديداً مخيفاً غير
الشخص الذي عرفه العالم قرابة ثلاثين عاماً:

- في أيّ عضو؟

فقالت المرأة:

- قال الدكتور إنّه البروتون...

وكنت أسمع الاسم لأول مرّة، ولكّني لم أبال
ذلك، وسألت بالصوت الرهيب نفسه:

- هل أجرى العملية؟

فقالت وهي تبكي:

- نعم... وانتهت بما ترى!

فضربت الأرض بقدم حانقة وصحت بها:

- ولكّني كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شيء! ألم
تؤكّدي لي أنّ الحال أبسط من أن أجزع لها؟!

فقالت بصوت تخنقه الدموع:

- اشتدّت وطأة الألم فجأة!... ما حيلتي؟... ما
حيلتي!

فسألته دون أن تأخذني بها رحمة:

- ومن عسى أن يكون الدكتور القاتل؟!

فرمقتي بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمغمت:

- لقد بذل ما في وسعه، ولكنّ قضاء الله سبق!

- من عسى أن يكون؟

فصمتت لحظة كأنّها تأخذ نفسها، ثمّ قالت:

- الدكتور أمين رضا...

فسرّرت في جسدي رعدة شديدة، ردّدت قولها في
ذهول: «أمين رضا»، ثمّ هتفت بها في غضب
وازدراء:

- الدكتور أمين رضا؟! إنّه شاب مبتدئ!... ثمّ
إنّه أخصائيّ في الأمراض التناسليّة!

فتولّأها الارتباك، وراحت تقول: إنّه كان أقرب
طبيب إليها، وإنّها ظنّت أنّ الطبيب يفهم الأمراض
كافة مهما كان اختصاصه، وإنّ الوقت لم يكن يسمح

هتفت كالمجنون:

- خبّراني ماذا حدث؟

والتفتت نحوّي صباح وصاحت وهي تشجج:

- سيّدي... سيّدي...

ورفعت المرأة وجهها في فزع ظاهر، وحملت في
وجهي بعينين محمّرتين، ولبثت لحظة جامدة لا تتكلّم
ولا تبكي، كأنّ محضري كان عليها أشدّ من الموت،
ثمّ شهقت وأفحمت في البكاء. رددت بصري بين
المراةين في ذهول ثمّ استقرّ بصري على الوجه
المعصوب. كيف أذعن لحكم هذا الواقع المخيف!
ونازعي قلبي المتفتّت إلى أن أرتمي على زوجي، وأن
أبكي وأصرخ حتّى أموت. بيد أنّي لم أبدأ حراكاً،
سمّرتني قوّة غريبة في مكاني، وملاّتني قسوة
وجنوناً... واجتاحني ثورة عارمة تتحدّى قوّة الموت
نفسه وبطش القضاء. أبيت أن أصلّد عينيّ،
واستعصي عليّ الاقتناع. ما معنى هذا؟ ولوّحت بيدي
للأمّ وسألته بصوت كنت أسمعها لأول مرّة:

- كيف... كيف...؟

فبسّطت ذراعها في فنوط وقد خنقتها العبرات،
ولكّنت صباح أقبلت نحوّي في حال من الهذيان مرعبة
وصاحت بصوت مبجوح:

- العملية المشنومة!... لعن الله العملية.

وتحوّلت إلى الجارية في ذهول وصحت بها:

- عمليّة؟... أية عمليّة!!؟

وأدرت عند ذلك أنّي أشمّ رائحة غريبة، فأدرت
بصري في الحجرة حتّى وقع على خوان في ركن منها
صُفّت عليه أدوات طبيّة وأوعية وزجاجات وقطن.
اقتربت من الخوان وتفحصته بعينين زائغتين، متى
جاءوا بهذا كلّه؟ ومتى استقرّ الرأي عليه؟ كيف حدث
هذا؟... ونظرت إلى المرأة فوجدتها ترمق الجارية
بنظرة قاسية غريبة، فزاد ذهولي وحيرتي، ثمّ تحجّر
قلبي قسوة وجنوناً، فألقيت عليها هذا السؤال بصوت
رهيب:

- أية عمليّة التي تتحدّث عنها صباح؟

الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية في فرح، ثم التفتت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت في وجهينا - أنا والطبيب - بصوت كالزئير:

- أنتما اللذان قتلتماها... اغربا عن وجهي.

وانفلت الطبيب من الباب، ولبثت وحدي أحدها بنظرة قاسية لا تأبه لثورتها. «أنتما اللذان قتلتماها». إن المرأة تهذي، ولن تأخذني بها رحمة، ولن يهدأ خاطري حتى أعمل عملاً ترتج له القلوب. إني حيال جريمة، إلا تكن جريمة جهل وغباء، ولا بد أن يؤدي الثمن غالباً. لقد تمخض خضوع العمر في عن ثورة جائحة وغضب ناروي وشراً مستطير. نسبت الجثة والحزن وتحاليل الشياطين لعيني. لتنقض الدواهي على رؤوس المجرمين.

وكانت المرأة تعول بصوت مزعج، وصباح تنتحب انتحاباً متواصلأ، فتحوّلت عنها بحركة مفاجئة، وغادرت الحجرة لا ألوي على شيء، ثم مرقت إلى الخارج مهرولأ كأني أفر فراؤأ.

٦١

بدت الدنيا لعيني حراء قانية. وركبني عناد جهنمي دفعني دفعا لا قبل لي به إلى ارتكاب أي شر أنفس به عن صدري. وكنت في شك من بلوغ آية نتيجة تشفي غليلي ولكني لم أتردد لحظة واحدة، وناديت تاكسي وأمرته أن يذهب بي إلى النيابة. ودخلت دار النيابة وليس في ذهني خطة معينة أو تهمة صريحة. وجدتي في زحمة خانقة وصكت مسامعي ضوضاء غير مميزة كهدير البحر، فلبثت حائراً لحظات حتى رأيت شرطياً فتقدّمت منه وسألته أن يدلني على حجرة وكيل النائب، فقال لي بخشونة، «في الطابق الثاني»، فارتقيت السلم واسترشدت بموظف إليها، ثم استأذنت ودخلت، رأيت مكتباً في مواجهة الداخل جلس وراءه شاب قصير نحيل، مكباً على أوراق بين يديه، فرفع رأسه حين دخولي، وتفحصني بنظرة ثاقبة، ثم سألني:

- ماذا تريد؟

بالتردد ألخ ألخ... فانتظرت حتى انتهت وأنا أنتفض غضباً وحنقاً، ثم انطلقت من ضحكة باردة كرنين النحاس وصحت:

- طبيب تناسلي ويجري عملية في البروتون!... لا عجب إذا كنتم قتلتموها...

ودرت على عقي واندفعت إلى الباب وصحت بصوت كالرعد:

- يا دكتور...

وكررت النداء، حتى جاء من أقصى البيت منقطع الوجه، ودخل الحجرة في خشوع لا يوائم كبرياءه المعهود، فشعرت نحوه وبحق وكراهية تضيق عنها الأرض، وبادرت قائلاً:

- أخبرني الهانم أنك أجريت العملية التي قتلت زوجي، فهلاً دلتني على ما جعلك تأخذ على عاتقك إجراء عملية جراحية خطيرة على رغم أنّ الجراحة ليست من اختصاصك؟!

وبدا في وجهه الانزعاج، وحجج نازلي هانم بنظرة غريبة أعادت إلى تخيلتي نظرة المرأة إلى صباح فطرح بي الحقن، وداخلني شعور غامض بأنهم يدارون عني أمراً خطيراً، وصحت به بوحشية:

- أجبني!

فالتفت نحوي مقطباً، وصمت لحظة كأنما يشاور كبرياءه الضائع، ثم قال بصوت منخفض:

- كانت في حاجة إلى عملية عاجلة...

فقلت وأنا أضرب كفأ بكف:

- لماذا لم تدعوني؟... لماذا لم تستدعوا طبيباً جراحاً؟!

فقال الأم بجزع:

- لم يكن في الوقت متسع!

فزعلت بها:

- ولكن كان فيه متسع لقتلها...

وخملت المرأة في وجهي بجنون وجعلت تردد:

«قتلها... قتلها... قتلها!» ثم انفجرت بغتة

ففقدت صوابها، وانهالت على خديها لطمأ، وقد أرادت

صباح أن تحول بين كفيها وخديها، ولكنّها ضربت وجه

- صدمني هذا السؤال البسيط فاستحال عقلي خواء، ووقفت ذاهلاً كأنني لا أدري على وجه التحديد لماذا جئت. ولاح التساؤل على وجه الشاب فأعاد سؤاله قائلاً:
- ماذا تريد؟
- ينبغي أن أتكلّم مهتماً كلفني الأمر، فقلت تاركاً مقودي للساني:
- زوجي... (كدت أقول قُلت ولكني عدلت عن ذلك خوفاً)... ماتت...
- فقَطّب الوكيل فيما يشبه الدهشة وقال:
- وما شأن النيابة في ذلك؟! ولكن من حضرتك؟ وتنفست تنفساً عميقاً، ووجدت رهبة الخوف تزيالي، وعرفته بنفسي ثم قلت:
- إليك قصتي يا سعادة الوكيل: تركت زوجي متوَعكة في بيت أمها صباح اليوم، وعدت إلى البيت بعد مغادرتي إياه بساعتين فوجدتها ميتة. وقالوا لي إنّ وطأة التعب اشتدّت عليها فجاءة فاستدعوا طبيباً قريباً من أقرباء أمها، فرأى أنّ حالها تتطلب إجراء عملية عاجلة فقام بها وماتت على الأثر...
- وازدردت ربقي وأنا أرمق الرجل بنظرة طويلة، ولبّما وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلاً:
- الواقع أنّ هذا الطبيب أخصائيّ في الأمراض التناسليّة، فهل يجوز أن يجري عملية جراحية؟ وإذا انتهت هذه العملية بالوفاة ألا يُعدّ مسؤولاً عنها فيجب أن ينال جزاءه؟! فصمت الرجل لحظة ثمّ سألتني:
- هل نُقلت إلى مستشفى؟
- كلاً... أُجريت العملية في البيت حيث ترقد ميتة الآن.
- من الذي استدعى الطبيب؟
- حماتي...
- وكيف استدعت طبيباً تناسلياً لا شأن له بمرض زوجك؟
- لقد سألتها نفس السؤال فقالت لي إنّهُ أقرب الأطباء إليها، وإنها تظنّ أنّ الطبيب، مهتماً كان
- اختصاصه، فهو يفهم الأمراض جميعاً... .
- وهل هو الذي أشار بإجراء العملية؟
- نعم.
- وهو الذي أجراها؟
- نعم! وقد سألته كيف يجري عملية جراحية على حين أنّه ليس جراحاً؟ فقال لي إنّ الحال كانت تستدعي عملية عاجلة... .
- فتفكّر الرجل ملياً، ثمّ سألتني:
- هل تتهم هذا الطبيب اتهاماً معيناً؟
- فلم أفهم ما يعنيه، ورنوت إليه في حيرة دون أن أنبس بكلمة، فسألني:
- هل لديك من الأسباب ما يحملك على اتهامه بقتلها عمدًا؟
- فخفق قلبي، وهززت رأسي سلّياً، فقال متسائلاً:
- هل تشكّ في حدوث خطأ أثناء العملية أدى إلى الوفاة؟
- هذا جائز جداً يا سعادة البك، ولن يكون مجرّد، خطأ، ولكنّه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة، فمستوليتّه لا شكّ فيها.
- فعاود التفكير مرّة أخرى ثمّ قال:
- لا أستطيع أن أفضي برأي قبل أن يفحص الطبيب الشرعيّ الجثّة، ويوضح أسباب الوفاة... .
- فاستحوذ عليّ خوف وكآبة، ولم أطق تصوّر عبث الطبيب بالجثّة، وفاض بي الألم فقلت:
- هلأ استدعيت الطبيب للتحقيق معه أوّلاً؟
- فلم يحفل باعتراضي، وأمسك بسَماعة التليفون وطلب رقمًا، ثمّ سمعته يحادث الطبيب الشرعيّ، ثمّ سألتني عن عنوان البيت، وطلب إليه أن ينتقل إليه ليفحص الجثّة ويكتب تقريراً عن سبب الوفاة، وأنهى الحديث ثمّ التفت نحوي قائلاً:
- إذا كان ثمة مسئولية جنائية فسأذهب للتحقيق... .
- وغادرت دار النيابة بعد إتمام الإجراءات الرسميّة وقد فقدت تهووري، فاستشعرت خطورة ما أقدمت عليه. ليس الأمر لعباً، إنّهُ نيابة وطبيب شرعيّ

فاستثار منظرها وسؤالها خويفي وشعور الخزي الذي
ركبني منذ فارقت دار النياية ولم أعد أطيع حبس السرِّ
الرهييب في صدري. نازعتني نفسي إلى الاعتراف،
وإلى لقاء الخطر وجهًا لوجه، فقلت بهدوء:

- ذهبت إلى النياية وطلبت إجراء التحقيق!

فأتسعت حدقتها وفغرت فاهها، وجعلت تملمق في
وجهي كأنها لا تصدق ما سمعت أذناها، ثم غمغمت
بذهول:

- النياية...!

فقلت بهدوء رهييب، وبصوت مرتفع لأسمع من في
حجرة الاستقبال:

- أجل ذهبت إلى النياية وسيجيء الطبيب الشرعي
إلى هنا عمًا قليل.

وسرعان ما بدا الدكتور خارجًا من الثوى، فوقف
غير بعيد ممتقع اللون ساهم الطرف، وعادت المرأة
الذاهلة تسأل:

- آية تهمة وجهتها إلينا؟

فقلت وأنا أتملى الحقد والتشقي بوحشية:

- ليس ثمة تهمة، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير
نجمت عنه الوفاة، خطأ خلقي بأن يقع فيه من ليس
له خبرة بالجراحة وهو يتصدى للعبث بأرواح
العباد!...

وساد صمت متوتر أليم تلاقت فيه الأعين
وافترقت. ثم شهقت المرأة شهقة عصبية وهتفت بي:

- كيف هان عليك أن تسلّم جثة زوجك للنياية؟
ووخزني ألم عميق فكادت تنهار قواي، ولكني
غطيت على الألم بغضب مفتعل وصحت بعنف قائلاً:

- يهون عليّ ذلك ألا تضع حياتها هدراً!

وفغر الطبيب فاه ليقول شيئاً ولكنّ الجرس دقّ بقوة
هلعت لها القلوب، فمضيت إلى الباب وفتحته، فبدا
شرطيّ ابتدرني قائلاً:

- هل توجد في هذه الشقة المرحومة حرم كامل
أفندي روبة الموظف بالحريية؟

فأجبت بالإيجاب، فتنحى الرجل جانباً وهو يقول
«سعادة الطبيب الشرعي»، ودخل رجل ربعة يحمل

وبوليس وفضيحة وقيل وقال، وقد يتمخض التحقيق
عن لا شيء فلا يبقى لنا إلا الفضيحة والقيل والقال،
بأي وجه ألقى الناس بعد ذلك؟ كيف ألقى أهلها
وأهلي والناس جميعاً؟! وألم يكف زوجي ما قدّر لها من
مصير تعيس حتى أجعلها معرضاً للأطباء الشرعيين
ومضغة للأفواه؟ واحرّ قلباه! هكذا عدت صوب
البيت مثقل النفس بالهم والفكر، ولما طالعتني العمارة
توقفت متردداً وقد أهاب بي نداء أن أنكص هارباً!
ولكن لم يكن لي مهرب، ولم يكن بدّ من أن أتجرّع
مرارة الكأس حتى الثمالة...
ودقت الجرس، ثم دخلت واجماً مستخزياً...

٦٢

كانت الأبواب مغلقة إلا باب حجرة الاستقبال كان
موارباً، ولم يكن بالبيت أثر من الضجّة التي تشمل
البيوت حين الموت، فتولّتي دهشة عفت على
اضطراب نفسي. لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة
فكيف لم يطيروا الخبر المجمع إلى بيوت الأهل
والأقارب! وعادوني شعور بالارتياح والحق...

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التي فتحت لي - وكانت
ملتبهة العينين من البكاء - وسألته ألم يحضر أحد؟
فهزّت رأسها سلماً في صمت وحزن، فأشرت إلى
باب حجرة الاستقبال الموارب وسألته:

- هل ثمة أحد هنا؟

فغمغمت قائلة «الدكتور أمين» فانتفض جسمي
غضباً ومقتاً. ثم مضت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة
فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحجرة التي ترقد فيها
رباب في أقصى البيت. لبثت وحيداً في الصالة
الصغرى لا أدري ماذا أنا فاعل، تتابني مشاعر الرهبة
بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والمقت التي يثيرها
في نفسي الجوّ المحيط بي. ثم سمعت وقع أقدام آتية
من الداخل، وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلي
هانم مكلّلة في السواد، فألقت عليّ نظرة باردة وسألته
بانفعال قائلة:

- أين كنت يا سيدي؟

بدفنها في الوقت المناسب، لا تفزعني يا سيدي
فسينتهي كل شيء في دقائق...

وارتمت المرأة على مقعد مغلوبة على أمرها وراحت
تنشج باكياً، على حين سرت أنا بين يدي الطبيب إلى
حجرة رباب! ولما بلغت الباب جاءني نحيب صباح
من الداخل، فدفعت الباب وناديتها دون أن تواتيني
الشجاعة على النظر صوب الفراش، ولبت الجارية
ندائي ففتحيتها جانباً موسماً للطبيب الذي دخل
الحجرة بلا تردد، ثم رددت الباب وراءه، وسألته
الجارية عن الرجل الذي جثت به فهرتها في جزع
ودفعها خارج الصالة. ورحت أذرع المكان جيئة
وذهاباً في اضطراب شمل أعصابي جميعاً، ورائت على
صدري كآبة قاتلة، فتصوّرت جثة زوجي الحبيبة بين
يدي هذا الطبيب الغريب، ينزع عنها الأستار،
ويعبث بها في برود لا يعرف الرحمة.

لقد نذ عتي أين موجع، وشعرت بألم حاد يمزق
قلبي إرباً، ومرّت بي لحظات ذهول فخيّل إليّ أنّي
فريسة كابوس شيطاني، وتلفتّ فيها حولي كأنما أتلمس
منفذاً للنجاة. ولكن هل نسيت الوجه الشاحب
المعصوب ييئس على جبينه شبح الموت الرهيب؟
رباه... إني أثوب إلى نفسي رويداً رويداً، تاركاً دنيا
الجنون الذي ركبني إلى عالم الفجيرة الواقع، تمثّلت لي
الحقيقة المرّوعة في شيء من الهدوء المحزن فكأنني أدرك
لأول مرة أنّ رباب قد ماتت حقاً. لم تعد من الأحياء.
وخلت منها حياتي إلى الأبد. لن تعود إلى بيتي كما
قالت أمها، ولن أصحابها صباحاً إلى الترام، ولن
أستقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهي تغالب
التعب بابتسامة حلوة، انتهى الشباب الرّيان، وانطفأ
الحبّ الباهر، وصوّحت آمال وآمال. أين مّيّ ذلك
التاريخ السعيد الذي بدا على طوار المحطّة، فنسج
ذكرياته من مادة الحبّ الأثيرية، وطاق بي في وديان
السعادة، ثمّ خلقتني خلقاً جديداً، أين مّيّ هذا
التاريخ الساحر؟ هل انتهى حقاً في دقيقة من الزمان
بخطأ طبيب أحمق؟... وما ذنبي أنا؟... الموت
كارثة فظيعة بيد أنّه غير مقنع!... ألم يكن أحدثها

حقيقية طبيّة وتبعه الشرطيّ على الأثر، وصادف الطبيب
الشرعيّ الدكتور أمين في مواجهته فسأله:

- هل حضرتك الزوج الذي بلغ النيابة؟

فقلت له وأنا أغلق الباب:

- أنا الزوج يا بك، وهذا هو الدكتور الذي أجرى

العملية...

ورددّ الطبيب عينيه بيننا في دهشة، وجرت على
شفتيه ابتسامة خفيفة، ثمّ سأل الدكتور أمين قائلاً:

- أيّ عملية كانت؟

فقال الدكتور أمين بصوت منخفض:

- عملية في البروتون...

- وما سبب الوفاة؟

- حدث ثقب في البروتون نتيجة خطأ خارج عن

إرادتي...

وقلت عند ذلك في انفعال شديد موجّهاً خطابي

للطبيب الشرعيّ:

- أسأله يا سعادة الطبيب عمّا جعله يجري عملية

جراحية وهو ليس جراحاً...

فترددّ الرجل لحظات ثمّ قال بصوت مرتفع:

- لقد جثت لهمة أخرى. أين الجثة من فضلكم؟

وكانت نازلي هانم واقفة بمكانها على كذب من باب

الصالة الكبرى ترددّ عينها المحمرّتين في وجوهنا في

صمت وذهول، فلما أن سمعت الطبيب يسأل عن

مكان الجثة نذت عنها آهة وهتفت بلا وعي قائلة:

- هذا لن يكون أبداً...

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثمّ قال لها برقة:

- تجملي بالصبر يا سيدي...

والقت عليّ المرأة نظرة مشتعلة بالغضب ثمّ عادت

إلى الطبيب تقول برجاء:

- إنّ المتوفّاة كريمة رجل من كبار موظفي الدولة،

جبر بك السيّد، كبير مفتشي الوجه البحريّ، لعلك

تعرفه يا سيدي، فارحم ضعف امرأة مثلي وانتظر

عودته، لقد أبرقت له بالفاجعة.

فقال الطبيب برقة:

- ينبغي فحص الجثة بلا إبطاء حتّى يمكن التصريح

بالتحية. وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة، ثم مضى إليها تَوًّا يتبعه الكاتب، ولم أجد الشجاعة للحاق بها، فانتظرت خارجًا. ولم يطل غيابها فعادا مرة أخرى، ونظر الرجل فيما حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا في أثره، وجلس على كنبه، واقعد الكاتب كرسياً قريباً باسطاً أوراقه على نضد. ووجه إليّ أسئلة عن اسمي وعمري ووظيفتي وطلب إليّ أن أروي معلوماتي عن الحادث. فصدعت بأمره والكاتب يسجل كل كلمة أقولها. ثم استدعى الدكتور أمين رضا فجاء الدكتور جامد الوجه شاحب اللون، وسمح له بالجلوس أمامه، ثم وجه إليّ الخطاب قائلاً:

- بوسعك أن تبقى معنا إذا شئت!
وخيل إليّ آتِي وجددت في هجته ما يشبه الأمر، وكانت رغبتِي في حضور التحقيق لا توصف، فجلست على مقعد ملاصق للكنبة التي جلس عليها المحقق وقد ملكنتني الرهبة والتأثر. وبدأ الرجل يلقي عليه أسئلة عامّة عن الاسم والعمر والمهنة، ثم قال له:
- أخبرني كيف أتصلت بهذا الحادث من بادئ الأمر؟

فقال الدكتور أمين بلا تردد:

- استدعيتُ إلى عيادة المريضة زهاء التاسعة صباحًا فوجدتها في حال سيئة من الألم، ففحصتها فتيّنت لي أنّ البروتون ملتهب وأنه يستوجب عملية عاجلة فقررت إجراءها إنقاذًا لحياة المريضة، وأعلنت رأيي لأمها فوافقت، وفي الحال أجريتها، ولكن حدث أن نُقب الغشاء ثقبًا خطيرًا، وذهبت مجهوداتي في إنقاذها سدى، فتوفيت...

- هل سبق لك أن عاجلت المتوفاة؟

- كلاً...

- ولا في هذا المرض الأخير؟

- كلاً، وقد علمت أنها رقدت ليلة واحدة وكانوا

يظنونها مصابة بنوبة برد.

- هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيما يلم

بها من أمراض؟...

- لم يحصل هذا، إلى آتِي لم أزاول مهنتي إلا منذ

منذ ساعتين؟ ألم تكن كالوردة الياضعة منذ يوم أو يومين؟ فكيف أصدّق أنها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء. ثم إنَّها حيّة في نفسي، إنِّي أراها رؤية العين، وأسمعها، وألمسها، وأشمّها، إنَّها ملء النفس والقلب، فهل من سبيل إلى إصلاح خطأ بسيط؟!

وحدثت حركة - لا أدري إن كانت جاءت من الصالة الخارجيّة أو من الحجرة المحزونة - ولكنّها أعادتني إلى وعيي فعلق خاطري بالطبيب وما يفعله. عاودني اضطرابي وقلقي ومخاوفي، ماذا أفعل لو لم يعثر الطبيب بشيء ذي بال؟ كيف ألقى القوم فيها بعد؟ لشدّ ما تمنيت أن يُنزل الله عقابه بالقاتل؟ بيد أنني لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لي سبيلًا إلى نفسي أو عقلي. وطال الزمن واستطال حتّى خُيّل إليّ آتِي شخت وهرمت وآتِي أموت. ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شيء، وتقدّم خطوات فصار في منتصف الصالة، فوقفت حياله فاغر الفم شاخص البصر، وسمح بأنامله على جبينه ثم قال بنبرات واضحة:

- لقد انتهيت من كتابة تقريرِي، وسأحوّله إلى النيابة في الحال، وأظنّه يستوجب تحقيقًا عاجلاً...

٦٣

كان ينبغي أن أشعر بارتياح وتشفّف، ولكن خارت قواي فجأة فارتميت على أقرب مقعد ومددت ساقي واستسلمت لما يشبه النوم. ولم يحدث في فترة الانتظار التي أعقبت خروج الطبيب إلا اندفاع نازلي هانم وصباح إلى حجرة المتوفاة، وتصاعد النواح والبكاء. ولاحت متي نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت الدكتور أمين رضا يذرعها في بطء وتثاقل، وقد جلس الشرطي على كرسيّ عند باب حجرة الاستقبال.

وعند منتصف الساعة الواحدة دقّ الجرس، فنهض الشرطيّ وفتح الباب، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطيّ، وخفق قلبي في ارتياح لرؤية رجال الحكومة، ونهضت قائمًا واتجهت صوب الرجل، ثم رفعت يدي

شهور لا تجاوز العام، ولا أذكر أنّ أحدًا من الأسرة قد مرض في هذه الفترة...
 - هل تظنهم كانوا يستدعونك في مثل هذه الحال؟
 - الواقع أنهم استدعوني في أول حال عرضت لهم.
 - ألا يعرفون اختصاصك؟
 - بلى ولكن شدة الحال جعلت الأم تستنجد بي،
 لقرب عيادتي من ناحية، وللقربة التي تربطني بها من ناحية أخرى.
 - لا أرى في هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر في اختيار الطبيب، ثم أنت كيف توافق على تلبية دعاء لحال مرضية تعلم أنها ليست من اختصاصك؟ ألا يشير الأطباء في أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب؟
 - رأيت اللياقة تقضي بأن ألبي الدعوة على الفور، فذهبت وفي ظني أنها حال إغماء أو مغص شديد أو ما شاكل ذلك مما لا يُعجز طبيياً على الإطلاق، وأظنّ هذا ما دار بخلد الذين استدعوني.
 - ولكنك وجدت الأمر أخطر مما تصوّرت فكيف كان تصرفك؟
 - فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره في ارتباك وتروء، فبادره المحقّق قائلاً:
 - لماذا لم تُبَيِّرْ باستدعاء جراح؟
 - كانت الحاجة ماسة إلى عملية عاجلة.
 - هل مارست الجراحة قبل ذلك؟
 - في الكليّة طبعا!
 - أعني بعد ذلك؟
 - كلا...
 - يدعيني أن أتصوّر إقدامك على إجراء هذه العملية الخطيرة.
 فقال الدكتور أمين وقد تغيّرت نبرات صوته قليلاً واعترتها حدة عصبية:
 - قلت إنّ الحال كانت خطيرة وتستدعي إجراء سريعاً!
 - وكيف أحضرت الأدوات الطبيّة اللازمة لهذه العملية! هل كانت توجد بعيادتك؟

ولأوّل مرّة تردّد الدكتور قبل الإجابة، ثمّ قال:
 - كلا...
 - كيف أتيت بها؟
 - من زميل.
 - جراح؟
 - أجل...
 - ولماذا لم تحضره؟
 - كان مرتبطاً بعمل في نفس الوقت...
 - من عسى أن يكون هذا الدكتور؟
 فتردّد مرّة أخرى، ثمّ تورّد وجهه الشاحب وقال بصوت منخفض:
 - الحقّ أنّي أحضرتها من المستشفى، مستشفى فؤاد الأوّل.
 - بصرف النظر عمّا إذا كان هذا التصرف سليماً أم لا من الناحية الإداريّة، ألم يكن الأخلق بك وقد رأيت أنّك لا بدّ منفق وقتاً غير قصير في إحضار الأدوات بطريقة غير مشروعة، ألم يكن الأخلق بك أن تستدعي جراحاً خصوصاً وأنّ استدعائه لم يكن يستند من الوقت أكثر ممّا يستنفده إحضار الأدوات؟
 فتفكّر ملياً ثمّ بارتباك ظاهر:
 - كنت متأثراً بحال المريضة فلم أفكر في هذا...
 - الأقرب إلى المنطق أنّه كان ينبغي أن تفكّر في هذا بسبب هذا التأثير نفسه. وهبّ الحقّ كما تقول، فلماذا لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الأخصائيون بوفرة؟
 - لم توافق أمّها على نقلها...
 - ألم يكن هذا أقلّ خطورة من تسليمها ليد غير خبيرة؟ ولكن لندع هذا الآن...
 وبسط المحقّق صحيفة بين يديه، جرى بصره على سطورها، ثمّ قال وهو يعتدل في جلسته:
 - ما رأيك في هذا، إنّني أراجع الآن تقرير الطبيب الشرعيّ فإذا به يؤكّد أنّ التهاب البروتون لا يستوجب هذه السرعة التي تتحدّث عنها كما تستوجب بعض حالات الزائدة الدوديّة مثلاً، فما رأيك في هذا؟
 فلاذ الدكتور بصمت عميق، ونمّ لمعان عينيه عن

شهور لا تجاوز العام، ولا أذكر أنّ أحدًا من الأسرة قد مرض في هذه الفترة...
 - هل تظنهم كانوا يستدعونك في مثل هذه الحال؟
 - الواقع أنهم استدعوني في أول حال عرضت لهم.
 - ألا يعرفون اختصاصك؟
 - بلى ولكن شدة الحال جعلت الأم تستنجد بي،
 لقرب عيادتي من ناحية، وللقربة التي تربطني بها من ناحية أخرى.
 - لا أرى في هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر في اختيار الطبيب، ثم أنت كيف توافق على تلبية دعاء لحال مرضية تعلم أنها ليست من اختصاصك؟ ألا يشير الأطباء في أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب؟
 - رأيت اللياقة تقضي بأن ألبي الدعوة على الفور، فذهبت وفي ظني أنها حال إغماء أو مغص شديد أو ما شاكل ذلك مما لا يُعجز طبيياً على الإطلاق، وأظنّ هذا ما دار بخلد الذين استدعوني.
 - ولكنك وجدت الأمر أخطر مما تصوّرت فكيف كان تصرفك؟
 - فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره في ارتباك وتروء، فبادره المحقّق قائلاً:
 - لماذا لم تُبَيِّرْ باستدعاء جراح؟
 - كانت الحاجة ماسة إلى عملية عاجلة.
 - هل مارست الجراحة قبل ذلك؟
 - في الكليّة طبعا!
 - أعني بعد ذلك؟
 - كلا...
 - يدعيني أن أتصوّر إقدامك على إجراء هذه العملية الخطيرة.
 فقال الدكتور أمين وقد تغيّرت نبرات صوته قليلاً واعترتها حدة عصبية:
 - قلت إنّ الحال كانت خطيرة وتستدعي إجراء سريعاً!
 - وكيف أحضرت الأدوات الطبيّة اللازمة لهذه العملية! هل كانت توجد بعيادتك؟

- سأزيد لك المسألة بياناً، يقرّر الطبيب الشرعي أنّ البروتون قد ثقب حقاً ولكن يؤكّد أنّه لا يوجد به شيء على الإطلاق من مرض أو التهاب، وأنّ حاله لم تكن لتستدعي علاجاً على الإطلاق فضلاً عن عمليّة جراحية!

- ولكنّي أجريت العمليّة بنفسِي.

- لم تُجرِ عمليّة على الإطلاق فيما عدا ثقب البروتون.

فقال الدكتور بصوت متهلّج وبحدّة غاضبة:

- أتريد القول بأنّي ثقت البروتون بلا داع! ... ما معنى هذا؟ ...

- أنت ثقت البروتون فقتلتها!

- في أثناء إجراء العمليّة ...

- أوّكّد لك أنّك لم تُجرِ عمليّة البروتون ...

فصاح الدكتور في غضب:

- أنتهمني بأنّي تظاهرت بإجراء العمليّة كي

أقتلها؟ ... أنتهمني بالقتل يا حضرة المحقّق؟

فقال المحقّق بهدوء:

- إنني أتهمك بالقتل حقاً، وستوافقني عمّا قليل على

رأبي. وسترى بنفسك - بغير حاجة إلى نصيحتي - أنّه

لن يبيّئ لك بعض النجاة إلاّ الصدق والصراحة.

انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهّماً، وركبته حال تعسة

من القهر. أمّا المحقّق فقد ألقى نظرة أخيرة على تقرير

الطبيب الشرعيّ، ثمّ استطرد قائلاً:

- لماذا أحدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون؟

فقال الطبيب في تجهّم، وفيما يشبه اليأس:

- لقد أجبت على هذا من قبل!

- يجدر بك ألاّ تتغاي وأنت بلا شكّ شابّ ذكيّ،

لقد أحدثت هذا الثقب لتخلق سبباً ظاهراً «مشروعاً»

للوفاة التي ظننتها لا محالة واقعة ...

أطرق الدكتور صامتاً وبدأ كشخص يعترف

مستسلماً، واستطرد المحقّق قائلاً:

- كنت تجري عمليّة حقاً ولكن في موضع آخر من

الجسم، ثمّ حدث ثقب خطأ في هذا الموضع الآخر

فظننت لقلّة خبرتك بالجراحة أنّه سيفضي على المريضة

تفكيره وقلقه. وعاد المحقّق يقول:

- ويقول أيضاً إنّ العمليّة تستدعي بضع ساعات

للتأهب لما يتناول المريض في أثنائها شربة عادة، ألم

تعلم بهذه المبادئ الأولى في فنّ الجراحة؟

- علمت أنّ المريضة تناولت شربة مساء أمس ولم

تذق بعدها طعاماً ...

- هل أخذتها استعداداً للعمليّة؟

- كلا ... أخذتها بسبب ما ظنّ بها من برد، أمّا

فكرة العمليّة فلم تنشأ إلاّ بعد حضوري اليوم.

واشتدّ انتباهي عند ذلك، وعجبت كيف لم يذكر لي

أحد أنّ زوجي تناولت شربة. وذكرت كيف أبقيت

بهذا البيت مع أنّه كان بوسعه أن تعود إلى بيتنا ولو في

تاكسي، وداخلني شعور ثقيل بالغموض والحيرة.

وعاد المحقّق يقول:

- إنّي حيال عمليّة أجريت بسرعة جنونية لغير ما

سبب فيّ يستدعي ذلك، ويبيد طبيب غير جراح كان

بوسعه ولا شكّ أن يدعو جراحاً مختصّاً ... فما معنى

هذا؟

والقى المحقّق على الدكتور نظرة نافذة باردة، فتردّد

بصريّ بينهما في قلق متزايد وخوف غريب. وبعث

الاضطراب في نفسيّ توتراً حاداً. ثمّ سمعت المحقّق

يقول:

- إنّي أتساءل عن الضرورة التي حثّمت أن تكون

أنت الجراح، وفي هذا الوقت بالذات؟

وسكت ملياً ثمّ استدرك متسائلاً:

- وما سبب الوفاة؟

- ثقب البروتون ...

فقال المحقّق ببرود:

- يقرّر الطبيب الشرعيّ غير هذا.

فتساءل الدكتور أمين رضا مستكراً:

- فما عسى أن يكون السبب إذن؟

- هذا ما يخلق بك أن تدلّني عليه بنفسك!

فقال الدكتور وقد اعتور نبرات صوته ذلك التوتّر

العصبيّ:

- لا أفهم ماذا تعني ...

الثلاثة عن ناظري، وغابت الحجره، ورأيت فراغًا
خفيًا تمزج فيه الحمرة بالسواد، وتراقص فيه أشباح
مرعبة من الذكريات والخواطر... عملية
إجهاض... كانت رباب حبلًا! الخطاب. هذا
الطبيب الشاب... يستطيع الشيطان ولا شك أن
يؤلف من هذه الحقائق المتناثرة جريمة مروعة، ساخراً
من شكّي الذي دفعني إلى التجسس حيناً، هازئاً
بالطمأنينة التي آويت إليها سادراً حيناً آخر... إن
المحقق يسعى جاهداً وراء جريمة طبيّة، وسيعثر في
طريقه الشائك بجريمة أدهى وأمر. ألم يحدس قلبي
الكارثة من بادئ الأمر؟! أليكون الطبيب هو صاحب
الخطاب؟ أم إنهم استشفعوا بقرابته على التستر
والكتمان؟ ولكن لا شك أن الأم كانت تعلم كل
شيء... كل شيء عن حياتي الزوجية، وزلة ابنتها،
ولعلها أرادت أن تطمس آثار الفضيحة بالعملية لولا
أن هنك الموت تديرها. آه يا رباب! إن كل عذاب
نُصابُ به في هذه الدنيا حقّ وعدل لأننا نتفانى في حبها
على حين أتيا لا تستحقّ إلا المقت.

واستيقظت على صوت المحقق وهو يهتف بي:
«هو... اصح!» فرفعت إليه عيني مرتجفاً وعدت
رويداً رويداً إلى الشعور بما حولي. قال الرجل:
- إني أسألك ألم تصارحك زوجك بكرهيتها
للحبل؟ ألم تفضّ إليك برغبتها في إجهاض نفسها؟
واسترفت من الدكتور أمين نظرة سريعة، وقلت
لنفسي إنه يعلم السرّ كلّ من بادئ الأمر، ولعله يعلم
أضعاف ما أعلم، فعزّ عليّ أن أكذب وأن أعرض
نفسي لإهانة جديدة، وتمتمت قائلاً:
- كلاً...

- أكنت تراها مسرورة بحبلها؟
فقلت في غير مبالاة وقنوط:
- لم أعلم أنّها كانت حبل إلا هذه الساعة!
فارتفع حاجبا المحقق فوق عويناته، وثبته على عينيه
وهو يقده فكره ثم سألني:
- كيف تعلل إخفاءها الأمر عنك؟
لشدّ ما زلزلني هذا السؤال! إنّها كلمة واحدة ثمّ

حتماً فما عسى أن تفعل؟ لو عُرف سبب الوفاة الحقيقي
لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهي غير
مشروعة، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة
جنونية، وهي أن تثقب البروتون فيظنّ أنه سبب
الوفاة، ثمّ تدعي كذباً بأنك كنت تجري عملية في
البروتون، بذلك تحكم الستار على جريمة العملية
غير المشروعة، أما قتلك مريضاً خطأ فلا يقع تحت
طائلة القانون، ولكنك أخطأت، فالمریضة لم تمت من
الثقب الأوّل ولكنك قتلتها وأنت تثقب البروتون.

انتفض الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة، وهتف
بالمحقق وكأنه فقد وعيه:

- كلاً... كلاً... لقد توفيت تماماً قبل أن أثقب
البروتون...!

وجرت على شفطي المحقق ابتسامة خفيفة، ألقى
على الدكتور نظرة ظافرة، على حين أطبق الآخر شفطي
في صمت وذهول، ورفع عينيه مرتين إلى وجه المحقق
في حنق وقنوط بدا لي وكأنه قد صُرع تحت وقع ضربة
قاضية فغلب على أمره. بيد أنني لم ألتجأ إليه. كان
عقلي ينتفض حرارة وحركة وهياجاً، عملية غير
مشروعة! عملية البروتون ما هي إلا خدعة زائفة
للتستر على جريمة! إمّا أن أكون مجنوناً أو يكون
الرجلان مجنونين!... توفيت تماماً قبل أن يثقب
البروتون!... ربّاه! أكاد أخرج عن طوري فينفلت
لساني هادياً رغم وجود هذا المحقق المخيف. على أن
المحقق خرق الصمت الثقيل قائلاً في هدوء:

- اتفقنا، وأظنّ أنه أن تعترف بأنه وقع الاختيار
عليك بالذات دون أطباء مصر جميعاً لإجراء عملية
إجهاض!

لم يتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّه واصل حديثه،
ولعله ذكر فيما قال البنج وأثره أو شيئاً من هذا القبيل،
ولعلّ الآخر نطق بيضع كلمات كذلك، ولكنّي لم أعد
أعي شيئاً ممّا يقال. تعلق ذهني بقوله: «عملية
إجهاض» وامتنع عن السير. لقد وقعت عليّ هذه
العبارة فشطرتني شطرين، ثمّ مرّقتني إرباً، ودوت في
رأسي حتّى ذهلت بها عن كل شيء، غاب الرجال

انتفض واقفاً غاضباً، وألقى بالحقيقة من بين شفثتي في غطرسة وكبرياء: «لا تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجة إلا رسمياً فحسب». رباه، لماذا لم أدق عنقه؟ لماذا لم أرم بنفسي عليه وأنشب أظفاري في قلبه؟ لتلهبني هذه الذكرى حتى الموت بمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار. ولكن ما الذي جعله يرمي بنفسه إلى الهلاك؟

هل حمله اليأس من تبرئة نفسه من إحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى؟ أو أنه راعه ما جنى الحب على حبيبته فنازعته نفسه في ساعة يأس إلى أن يشاطرها المصير الأليم؟ أهي ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معاً؟ من لي بأن أطلع على سرّ هذا القلب المتغطرس؟ بيد أنني ازددت حيرة وجعلت أتساءل: كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكفنة بالفضيحة؟ ألم يكن الأخلق به أن ينتهز الفرصة المبذولة فينقذ نفسه، ويستتر شرف المرأة التي أحبها... وأحبته؟!... أتراه نادماً الآن على ما بدر منه أم لا يزال منتصب القائمة غطرسة وعجرفة؟... إنه لغز، وسيظل لغزاً بالنسبة لي إلى الأبد، وكان قلبي متورماً من الحقد والغضب فوجدت في المصير الذي قضي عليهما به - هي في القبر وهو في السجن - راحة وغبطة.

وكانت قدماي قد حملتني إلى ميدان الإسماعيلية، فلم أجد مهرّباً خيراً من حدائق قصر النيل فأجّهت صوب الجسر... أه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاماً! ولم يدُر لي بخلد أن أشيخ جنازة المرأة التي كانت زوجاً لي، إذ لم يعد بوسعي أن أبدو أمام أحد ممن يعلمون بحقيقة المأساة. ولكن هل تزوّجت حقاً؟ لم تكن إلا مهزلة طويلة، أو مأساة على الأصح، ولشد ما تمكّنت الدهشة أهلي اليوم أو غداً إذا علموا بأن زوجي ماتت ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشيع الجنازة، ولكن سرعان ما تذهب دهشتهم إذا عرفوا الحقيقة وسرعان ما يلهيهم التندرّ بها عما عداها، ويا لها من أحدىة حقيقة بأن تحيي محافل السمرا وتقبّض قلبي وشعرت ببرودة تسري في أطرافي. لشد ما تعاودني

يصبح سرّي نادرة المتندرّين. إنّ مشاعر الحقد والانتقام تستفزني جميعاً إلى نشر هذا السرّ الدفين كي أهلك سرّ الأئمة وأنزل انتقامي بالمجرم. أريد أن أقول إنّه لم يكن في حياتنا ما يدعو إلى الحيل ليضع المحقق يده الفاسية على الفاسق. ولشد ما نازعتني نفسي إلى ذلك، وأوشكت الكلمات أن تثب إلى طرف لساني. بيد أنني لم أنبس بكلمة، وحلّ بي شلل عام لا أدري ما كنهه. هل يمكن أن يكون للخجل أثر حتى في مثل هذا الحال؟... هل يمكن أن تفوق رغبتني في التستر على عجزتي تحرّقي إلى الانتقام؟ لم أستطع التفوّه بالكلمة الفاصلة، وكلّما مرّت ثانية ازددت عجزاً ونكوصاً، ثمّ تمتمت قائلاً وأنا ألهث:

- لا أدري...

وما أدري إلا والدكتور ينتفض واقفاً ثمّ يتراجع خطوتين شابكاً ذراعيه على صدره في تحدّ وكبرياء وغطرسة! ويقول للمحقّق بثبات وعجرفة:

- تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجه إلا رسمياً فحسب، وإني أنا المسئول عن كلّ شيء من البداية إلى النهاية...

غادرت البيت دون أن أرى أحدًا من أهله، فلم يعد البيت بيتي ولا الأهل أهلي. ووقفت عند باب العمارة فجرى بصري إلى المحطة، محطة الذكريات، وطاب لي أن أردده بينها وبين الشرفة، ثمّ أغمض عيني لأرى موكب الذكريات يمرّ كلمح البصر، صورة صادقة من الحياة، جامعاً بين طرفي ملهاتها ومأساتها. ثمّ انطلقت في الطريق بلا غاية كأنما أجد في الهروب استحال قلبي حجرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشفاء والمقت. وقد خيّل إليّ أنّ هذه الدنيا العاكفة على همومها ستتناسى شجونها غداً وتغرق في الحديث عن فضيحتي، على أنني لم أكن قد أفقت من دهشتي ولم أزل أتساءل عما حمل الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة الهائلة! لقد هاضني الجبن فكتمت الحقيقة، ووهبت بذلك فرصة للهرب لو أراد هرباً، ولكنّه

صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبي وتوالت ضرباته
فرأيت النور يشع من الشرفة والنوافذ. أما أمام مدخل
العمارة فقد أقيم عمودان طويلان يتدلّى منها مصباحان
كبيران مضاءان. قضى الأمر...

٦٥

ذكرت وأنا أرتقي سلم بيتنا أمي فارتعدت فرائصي
واستحوذ عليّ حتى فظيع كأنه شيطان، ترى ماذا
أحنفتي؟... وسألت نفسي في حيرة عما عسى أن أقول
لها... ربّاه! ما الذي جاء بي إلى البيت؟ هل ظننت
أنه يسعني أن أقضي هذه الليلة في حجرة «رباب» وعلى
فراشها؟ على أنني واصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء
محتوم، ودخلت الشقة بصدر منقبض ووجه مكفهّر،
وجاءني صوت أمي وهي تتساءل في لهفة وجزع قائلة:
«من؟» فجمدت في مكاني غاضبًا حانقًا ثم قلت
بخشونة: «أنا» فهتفت بي بصوت باكٍ:

- كامل. تعال يا بني...

فخفق قلبي بعنف، وأيقنت أنها علمت بمصير
«رباب» وذهبت إلى حجرتها وكانت جالسة في
الفرش، فمدت إليّ يديها وهي تنشج باكية وقالت
بصوت تخنقه العبرات:

- ليتني كنت فداءها!.. كان ينبغي أن تبقى هي
لك...

فوقفت في وسط الحجره متجاهلاً يديها الممدودتين،
وسألتها في جمود وغلظة:

- كيف علمت بالخبر؟

فهتفت بصوتها المختنق:

- كيف نسيت يا بني أن تخبرني؟ إني أدرك من هذا
شدة حزنك. وقد تفتت قلبي رثاء لك... ليتني كنت
الفداء لك ولها، أنا العجوز المريضة، ولكنّه قضاء
ربّنا.

لم ينل تأثرها جمود نفسي، فلم أستجب لها،
وسألتها وكأنني لم أسمع كلامها:

- كيف علمت الخبر؟

- لقد انتظرت عودتك اليوم في قلق، ولمّا أن جاء

تلك الرغبة القديمة في الهرب! أين مّي بلد بعيد لم
يطرق أبوابه طارق، من لي بأن أقطع كلّ صلة تربطني
بماضيّ البغيض! أه لو يمكنني أن أولد من جديد في
عالم جديد لا تطالعني فيه ذكرى من ذكريات هذا
العالم، أجل لن أستطيع أن أوصل حياتي على حين
يتبعني هذا الماضي كالأثقل الثقيل... وقضيت بقية
النهار متخبطًا في الطرق أو جالسًا شاردًا في الحدائق،
لا أشعر بحرّ ولا ببرد ولا بظما، حتى أذنت الشمس
بالمغيب وانتشرت سمرة المساء فوق رؤوس الشجر،
فعدت من حيث أتيت في خطو ثقيل، وبلغت ميدان
الإساعيلية وقد هبط الظلام على الكون فملكنتي الحيرة
ولم أعرف لنفسي مذهبًا، ثم وثبتت إلى ذهني صورة
الحانة فجأة فتهتدت من الأعماق، ونذت عن أعصابي
المتوترة المكلومة آهة ارتياح كأنما حظيت بفرحة بعد
طول اختناق. وفي اللحظة التالية كان التاكسي ينطلق
بي إلى شارع الألفي. بيد أنّ ارتياحي ولّى سريعًا،
وحلّ محله قلق وانقباض وتردد، وجعلت أتساءل: ألا
يجمل بي أن أولي وجهي وجهة أخرى! وغادرت
التاكسي حيال الحانة ولكنّي لم أمض إليها، ورحت
أتمشى على الطوار في خطى بطيئة مثقل الرأس
والقلب، وغلبني اليأس، فانسقت معه إلى داخل
الحانة وانتبذت ركنًا منفردًا، وشربت كأسًا وأخرى،
وعللت، وما تكاد رأسي تستجيب للخمر، ولكنّي
شعرت بالجوع بغتة فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما
كدت أفرغ حتى حلّ بي تعب شمل معدتي ورأسي
وأعضائي جميعًا فكأنّ جهد اليوم المبرح قد وجد غرة
فزحف عليّ بجحافله وناخ عليّ بكلكله، ونهضت
مترنحًا، وغادرت الحانة إلى تاكسي واقف غير بعيد،
فانطلق بي صوب قصر العيني، علاني التعب والجهد،
وسرى في جسدي تخدير، وتولّاني شعور طارئ بعدم
المبالاة، فرمقت مأساتي بعين ساخرة، فبدت لي لحظة
كأنها مأساة شخص غريب، أو كأنها انتزعت من حياتي
الخاصة واحتلت موضعها من موكب المأساة الإنسانية
العامة. وجعل التاكسي يطوي الطريق حتى شارف
موقع العمارة التي امتحتني بها الدنيا، وانطلق بصري

يخلو منه بيت...
ولكنّي لم أرحمها، ولم أفهم في الوقت نفسه كنه القوّة
التي دفعتني إلى تذكيرها بالماضي الأسيء كأنما آسي حقًا
على «رباب»، بل غالبيت في الحنق عليها كما لو كانت
السبب فيها حلّ بي من كارثة، وضاعف من حنقي ما
وقع في نفسي من أنّها تداري بهذا الحزن فرحًا وشهامة،
فأردفت في غضب قائلاً:

- الحقّ أنّ الدنيا لا تسعك من الفرح... إني
أعرفك حقّ المعرفة كما أعرف نفسي سواء بسواء، فلا
تحاولي خداعي، إنك تدارين فرحك بهذه الدموع
الكواذب.

فتأوّهت هاتفة:

- كامل لا تقسّ على أمك، لا تقل هذا، لم أكرهها
علم الله، يجزني ما يجزئك...
فبدرت منّي ضحكة باردة كقرفة السوط في الهواء
وقلت:

- لأزيدك فرحًا فاعلمي أنّها لم تمت ولكن قُتلت!
فحملت في وجهي في فزع ولعلها خافت عليّ
الجنون وغمغت:

- اللهمّ لطفك.

فصحت باستهانة وجنون:

- قُتلت حين كان الطبيب يجهضها.

فضربت صدرها بيدها وهتفت:

- يجهضها! وهل كانت حبلتي؟ ربّاه لم أكن أعلم
هذا.

- ولا أنا... أخفّته عني لأنني لم أكن أبا
الجنين...! وصرخت أمي في فزع:

- كامل، رحمة بنفسك، رحمة بي، أنت لا تدري
ماذا تقول.

- بل أدري أكثر ممّا تتوقّعين، لقد عرفت في يوم ما
لا يعرفه مثلي في جيل، قلت لك أخفت الأمر عني
وذهبت إلى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها...
اللهمّ لطفك يا أرحم الراحمين.

- ألا يزال أرحم الراحمين؟ وداعًا، فلن أعبد بعد
اليوم! أمّا أنت فلعلك تقولين لنفسك في سرور

المساء ولم تحضر بلغ منّي الخوف، فوصفت للخادم
موقع العمارة وأرسلتها إلى هناك، فعادت إليّ بالخبر
الأسود...

ورمقتها بنظرة مستريبة وسألتها بصوت منخفض:
- هل علمت كيف ماتت؟

فعاودها البكاء وهي تقول:

- كلاً يا بني! ولا زلت في حيرتي وذهولي، أسفي
على الشابة المسكينة، كيف وافاها الأجل على غير
ميعاد؟

وداخلني ارتياح سرعان ما فتر وخمد... ففيم
أخدع نفسي براحة كاذبة وما من قوّة في الأرض
تستطيع أن توارى فضيحتي؟ وأصجرتي بكأؤها، ووقر
في نفسي أنّه أمانة حزن كاذب ممّا يصطنعه النساء
فقلت بفظاظة:

- ماتت كما يموت الناس أثناء الليل وأطراف النهار،
وكما مات جدّي وأبي وكما سنموت جميعًا...

وضغظت على «جميعًا» في حنق، ثمّ بادرتها متسائلاً
في سأم:

- لماذا تبكين؟

فرت إليّ خلال دموعها بوجوم وكآبة وتمتمت:

- وددت لو كنت فداءها...

فغلبني الانفعال وقلت بحدّة:

- كذب؟!... محال أن يرضى إنسان بأن يفتدي

آخر من الموت... أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال
على قيد الحياة؟!!

وأحدقت في وجهي بارتياح، ثمّ غصّت بصرها في
وجوم وألم، وساد الصمت ملياً، حتّى خرّفته متممة:

- أسأل الله أن يُنزل سكينته على قلبك.

فقلت بجفاء:

- لا حاجة بي إلى الدعاء. بيد أنّي أكره الرياء،
ولا يمكن أن أنسى أنّك أبغضتها حتّى قبل أن تقع
عليها عينك.

فرفعت إليّ وجهها في استعطاف وألم وقالت:
- كامل! رحمة بأمّك... يعلم الله أنّي لا
أخادعك، ولكن مثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد

الخدام يتصاعد في انتظام، وعلى الفراش رقدت أمي
في سكون عميق لا يكاد يُرى من وجهها إلا نصفه
الأعلى. ألقيت عليها نظرة قصيرة، ثم تراجعت إلى
الخارج، واتَّجَّهت نحو الباب الخارجي مرّة أخرى
ومرقت منه ثم أغلقتة دون أن أحدث صوتًا، وترامى
إلى أذني، أو خيّل إليّ أنّ صوتًا يهتف بي، فظننتها
استيقظت على حذري وحرصني وأنها تنادي بي. وتوقفت
ويدي على الدرابزين على حين تراخى قلبي ورقى،
ولكّني كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير
فهزرت منكبتي استهانة ونزلت. واستقبلت الصباح
الباكر في طريق مقفر أو يكاد فهنا على وجهي نسيم
رطيب بارد، وتلبّثت متحيرًا لا أدري أين أذهب ثم
قصدت محطة البترول حيث موقف التاكسي واستقللت
واحدًا إلى ميدان الإسماعيلية. ومال بصري إلى العمارة
الأخرى في الطريق فرأيت نوافذ مغلقة وسكونًا مطبقًا
والمصباحين المعلقين وقد انطفأ نورهما. وانتهيت إلى
الميدان فمضيت إلى لبّان وجلست إلى مائدة في أقصى
المحلّ، وتناولت فطورًا بسيطًا، وعلاقي تعب مبالغ
فمددت ساقتي، ثم زحف على جوارحي نعاس قهّار لم
أعد أملك معه رأسي فاستسلمت لسלטانه. وسرعان
ما رحلت في سبات عميق. وعاودتني اليقظة فوجدتني
منكفئًا على المائدة وقد توسّدت ساعدي، رفعت
رأسي ناظرًا فيما حولي في دهشة وارتباك، وسرعان ما
استحوذ عليّ حياء شديد.

وغادرت المكان مغمضًا عينيّ عن الجلوس وما كان
أشدّ دهشتي حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية
عشرة! نمت دهرًا طويلًا غائبًا عن دنياي المتجهمة فما
ألذّ أن أنام إلى الأبد! واتَّجَّهت صوب حدائق قصر
النيل وأنا أشعر شعورًا أليماً برثاءة هيئتي وذبول
منظري! وساءلت نفسي وأنا أجعد في السير عمّا عسى
أن أصنع بحياتي، ولكن وسوست لي النفس أن أوّجل
البتّ في هذه المسألة جريًا مع طبيعتي التي تنكص عادة
عن مواجهة المشكلات الخطيرة. ثم وجدتني أفكر في
رباب! إنّ بنفسي غضبًا عليها لا يزول كأنه عاهة
مستديمة، ولشدّ ما أتمنى لو تُبعث حيّة ولو دقيقة واحدة

غريب: «لقد نالت الأئمة بعض ما تستحقّ من
جزاء، لقد حدّثني قلبي بذلك من أول يوم ولكنك لم
تصنع إليّ!».

فزفرت أمي في شقاء وتعاسة وقالت بصوت
كالأنين:

- لشدّ ما يحزنني كلامك، إنك تقتلني بلا رحمة.

فصحت بها كالمجنون:

- اشمي ما شاءت لك الشبابة، ولكن إيّاك وأن
تتصوّري أنّنا سنعيش معًا. انتهى الماضي بخيره وشره
ولن أعود إليه ما حبيت. سأنفرد بنفسي انفرادًا أبديًا.
لن أعيش معك تحت سقف واحد، وسأطلب من
الوزارة نقلي إلى مكان قصيّ أقضي فيه البقية من
عمرى.

أشرق الدمع بعينها وعقد الأمل لسانها ولبثت ترنو
إليّ في فزع ووجوم. وكأنه لم يكفني ما قلت فأردفت
مرغبيًا مزيدًا:

- اذهبي إلى أختي أو إلى أخي واحسبيني منذ اليوم
في عداد الأموات.

وولّيتها ظهري وغادرت الحجرة ونحيبها يقرع
أذني...

٦٦

لم يخطر لي لحظة واحدة أن أذهب إلى حجرتي، كان
ذلك أبعد شيء عن تصوّري، حتّى النظر إليها
تحميته، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وارتيمت على
الكنبة في إعياء وقنوط، ومضى الليل ثقیلاً مضجراً فلم
يعد نصيبي من النوم إغفاءات متقطّعات تتخلّلها
أحلام مزعجة. ثم أخذ خصائص النوافذ ينضح بنور
خافت إيذانًا بمطلع الصبح فتنفّست الصعداء وتمطّيت
متعبًا، ثم نهضت قائمًا وغادرت الحجرة مدفوعًا برغبة
في الهروب والاختفاء. واقتربت من الباب الخارجي في
خطو خفيف حذر حتّى وضعت يدي على مقبضه،
ولكّني جمدت متردّدًا دون أن أبدي حراكًا، ثم
تراجعت في سكون نحو حجرة أمي، ودفعت بابها
الموارب في حذر بالغ وأدخلت رأسي. كان شخير

هل يسعني هجرها! طالما رقت على خاطري الرغبة في هجرها في صور أحلام غامضة، ولكن هل يسعني حقاً أن أهجرها؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخلقني أن أف مني موقف المتفكر المتردد. لماذا أقسو عليها؟ فيم أنتقم منها! وإني لأعلم أن خطرة منها تخطر على الفؤاد حقيقة بأن تردني إلى أحضانها نادماً باكياً، يا له من حب بغيض لا أجد إلى الخلاص منه سبيلاً.

ورجعت إلى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل، ووجدتني أذكر شارع الألفي بلهفة معهودة. وعلى كتب من محطة الترام لمحت زميلاً لي من الوزارة فتجاهلته، ولكنّه لمحني أيضاً وأقبل نحوي في اهتمام ووجوم وبسط لي يده قائلاً:

- البقية في حياتك يا كامل أفندي.

فسرت في جسدي رعدة وتساءلت في قلق كيف علم بالخبر وماذا علم عنه، وتمتعت في ارتباك:

- حياتك الباقية.

فقال الرجل وهو يضغط على يدي:

- عن إذتك ريشا أتناول لقمة ثم أعود للاشتراك في تشييع الجنازة.

رباه، كنت أظن أن الجنازة شُيِّعت أمس أو صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج، ولكنّها لا تزال تنتظر مقدمي وقد أذاعوا النعي في الصحف! أيّ مأزق يترتب بي!... وسألته بصوت منخفض:

- هل قرأت النعي في الأهرام؟

فقال لي بدهشة:

- كلاً، لا أظنّه ظهر في الأهرام وإلا لكانا علمنا به في الوزارة، ولكنّي أطلعت عليه في البلاغ.

واستخرج الجريدة من تحت إبطه وفتحها ثم أشار إلى عمود وهو يقول: «هاك النعي» وتناولت الجريدة في ارتباك وحجل وجرى بصري على السطور القلائل الآتية: «انتقلت إلى رحمة مولاهما كريمة المرحوم الأميرالاي عبدالله بك حسن، والدة مدحت بك رؤية لاظ من أعيان الفيوم وكامل أفندي رؤية لاظ الموظف بالحريّة وحرم صابر أفندي أمين...»

حملت في وجه صاحبي كالمجنون، ثم أعدت تلاوة

ريشاً أبصق على وجهها! وهل أنسى أنني فرحت لموتها فرح حاقده شامت؟... هكذا أنا ولا داعي للخفاء! بيد أنني على حال من السكينة أستطيع معها أن أفّر وأن أتأمل. ومن عجب أنني على أنانيتي المفرطة لا أبخل على خصمي بالإينصاف والعدل. لا حباً في الإينصاف والعدالة ولكن لأنني ألتفت أن أقيم الأعدار للخصم مداراة لعجزني عن الانتقام منه! لذلك تلمست الأعدار لرباب في مأساتها، وقلت لنفسي:

إنني أخطأت في تصديق ما ادّعت من أنها تكره الحب الجنسي، وإنّ عجزني حيالها هو الذي رمى بها إلى أحضان الغواية، وكيف يمكنني أن أشك في أنها أحبّيني بإخلاص؟ وهبّت على خيالي الذكريات كما تهفو نسائم عطرة على نار مؤججة، ذكريات النظرات المتبادلة، واللقاء الخالد في الترام، وصدودها عن خطيبها الأول وميلها إليّ في سحر هو أبهج ما اقتنيت من تحف السعادة المولوية. كان حباً صادقاً، ولكن عرضت له ربح ثلجية فاقتلعت جذوره وأغاضت منها ماء الحياة.

ألست شريكاً في قتلها؟! ودعوت الله في تلك اللحظة أن يختصر الطريق فيقيم القيامة ويرحم العباد من محنة الحياة، كان حبي سروراً إلهياً ثم مضى مخلّفاً وراءه مقتناً وغضباً. ولكن هل مضى حقاً؟ هب ما حلّ بي قد تمخّض بمعجزة عن حلم مزعج ولا شيء غير هذا ألا يعود حبي أقوى ممّا كان؟ بلى، فهو موجود إذن تحت ركاب البغض والمقت، إنّ العضو الذي ينفصل عن الجسد لا يعود إليه أبداً فهو غير موجود حقاً، أما الحب الذي يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقاً.

ولكن ما جدوى هذا التفكير الأليم؟ وقطبت كأنما لأخيف الذكريات التي تنثال عليّ. وصمّمت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التي تهزّبت منها منذ حين قصير ألا وهي مشكلة حياتي وماذا أصنع بها. لا ينبغي أن أترك أموري للمقادير. سأجد طريقة للتخلّص من أثار رباب ثم أنتقل إلى حيّ جديد. أسعى حقاً إلى الانتقال لبلد بعيد؟ لشدّ ما تنازعني نفسي إلى الفرار، بيد أنني أعجز من أن أهجر القاهرة. هذا شعوري ويقيني. فهل أهجر أمي حقاً؟

الليلة البارحة فقرر رأينا على أن نخرج الجنازة اليوم...

وارتعد جسمي المغموم وتمتمت في ذهول:
- منتصف الليلة البارحة؟ ولكني رأيتها نائمة في فراشها هذا الصباح!...

ولاحت في عيني مدحت نظرة حزينة وقال برثاء:
- لم تكن نائمة. إنه القلب يا كامل.

تحملت صورة ما بدا لي في وجهها من قنوط، وأطرافي ترتعش، وأعملت ذاكرتي لأستحضر الصورة كما رأيتهما، وساءلت نفسي أكان وجه ميت حقًا!...

وخارت قواي، ثم قلت بصوت ضعيف:
- أريد أن ألقى عليها نظرة الوداع...

فوضع أخي يده على منكبي وقال:
- أصبر حتى تتبالك قواك. ثم إنَّ الحجر مملأ بالنساء.

ولكني نحيته عن سبيلي واندفعت إلى داخل العمارة، وجرى أخي ورائي، فارتقبنا السلم وثبنا، ثم مرقت إلى الشقة وأصوات البكاء تملأ أذني، فما راعني إلا أن أجد نفسي محاطًا بالنسوة من جميع الجهات. وزاغ بصري وحل بي إعياء وارتباك، ولكن أدركني أخي فقبض على ذراعي وأتمه بي إلى حجرة النوم وهو يقول:

- لا تقاوم... ينبغي أن تخلو إلى نفسك قليلاً... وأجلسني على المقعد الطويل، وأغلق الباب، ثم جلس على حافة الفراش أمامي وقال بحزن:

- ثب إلى رشدك. لا ينبغي أن يغلبنا الحزن كالنساء، أليست هي أُمِّي أيضًا؟ ولكننا رجال...

وراح عقلي يتردد، كبنديل الساعة، بين أمرين في تركيز جنوني بين شجار الأمس المشغوم وبين رؤيتي لها هذا الصباح، وعلى حين بغتة وثبت إلى ذهني ذكرى فهتفت بأخي:

- كذب الطبيب!... لم تمت عند منتصف الليل... لقد سمعتها تتناديني وأنا أغادر الشقة...

فلاحت الدهشة في وجهه وسألني:
- وهل لبَّيت نداءها؟... هل تحدّثت إليها؟

النعي، وجميع جسمي ينتفض، وصرخت بلا وعي:
- هذا محال... هذا كذب...

ركضت لا أروي على شيء نحو تاكسي غير بعيد وارغبت داخله وأنا أحكّ السائق على السرعة. إنه لكذب وافتراء، ولأعلمنّ جليّة الخبر وعندها أعرف كيف أوذّب من رامني بهذا العبث السخيف. وانطلق التاكسي يطوي الأرض وعنقي مشربب صوب الطريق، حتى تراءى لعيني سرادق مقام أمام بيتنا، وتنزّى قلبي في صدري وارتعشت أطرافي جميعًا، وتوقّف التاكسي فغادرته زائغ البصر، لم أكن حزينا أو متألّمًا وإنما كنت مجنونًا، ها هو عمّي جالسًا عند مدخل السرادق، وهذا أخي مدحت قادمًا نحوي. وقد هرعت إليه فاقد الوعي وقبضت على رباط رقبته وصرخت في وجهه:

- كيف تخفون عني الخبرا!
وتخلّص أخي من قبضة يدي بجهد وهو يرمقني بقلق وانزعاج، على حين تدانى منّي وهو يقول:
- أين كنت يا كامل؟ لقد بحثنا عنك في كل مكان فلم نعثر على أثر...

فرددت بصري بينهما، ثم ألقيت على السرادق نظرة غريبة وغمغمت:
- أحقّ هذا؟

فقال لي عمّي:
- تمالك نفسك وكن رجلاً.
فسألت أخي في همس وإشفاق:
- ماتت حقًا؟... كيف؟ متى علمتم؟
فقال مدحت في كآبة:

- تلقّيت برقية في التاسعة صباحًا. هذا قضاء ربنا. أين كنت؟ لشدّ ما أروعني أن نضطرّ إلى الخروج بالجنازة في غيابك.

فصحت به في غضب:
- فميم هذه العجلة؟ لماذا لم تؤجّلوا الجنازة إلى غد؟
فقال أخي معترضًا:
- أكّد الطبيب أنّ الوفاة حصلت عند منتصف

- صدّق يا أخي، إنك إذا لم توطّن نفسك على تصديق هذه المآسي وأمثالها خرجت من الدنيا كما دخلتها غرًا جاهلاً. لقد قتلت زوجي أيضًا ولكن كان معي شريك هذه المرّة هو عشيقها.
- وضرب مدحت كفًا بكفّ وهتف بي:
- لا يمكن أن تغادر الحجرة وأنت على هذه الحال...

فهزرت رأسي في غضب ونهضت قائمًا وأنا أقول:
- هلمّ بنا.
ولم أكد أنّ هذه الجملة حتى غبت عن الوجود...

٦٧

لا علم لي بالساعات الطوال التي قضيتها في غيبوبة تامّة، ولكن ثمة أوقات أخريات كنت أتخبط في ظلمات بين الغيبوبة واليقظة. إنّها دنيا غريبة معتمّة، تتوزّعها الأحلام، فكان يداخطني شعور أنّي حيّ، ولكن حيّ كميّة وهنأً وعجزًا، وكم من مرّة جهدت في شقاء وبأس كي أحرّك عضوًا من أعضائي فأعاني الجهد وسلّمت للضغط الخائق والخوف المبهم، وفي أحوال أخرى عابثني الوهم فخيّل إليّ أنّي غير بعيد من اليقظة، وأنّي أكاد أميز أصواتًا مألوفة وأرى وجوهاً أعرفها حقّ المعرفة فاستصرختها أن تبرح إلى نجدتي، وناديت أمّي كثيرًا حتى أحفني تقاعدها عني وعجبت له عجبًا شديدًا، وطافت برأسي المحموم أحلام غريبة، فرأيت فيما يرى النائم أنّي مُمتطي منكب أمّي وأنّها تذهب بي وتجيء كما كانت تفعل على عهد طفولتي، ورأيتني حينًا آخر ممسكًا بتلابيب أخي مدحت في نضال عنيف في جوّ صاحب وهو يصيح بي: لا تقتلني، وخيّل إليّ أنّي رأيت أحلامًا كثيرة ولكن ابتلعها الظلمة. وطالت غيبوتي حتى ظننتها لا تنتهي، ثمّ تفتّحت عيني، وعدت إلى نور الدنيا، وتهدّدت من الأعماق. ووقع بصري على مرآة تعكس صورتي، وشعرت بوجود شخص عند رأسي فحرّكت عينيّ نحوه فرأيت أخي راضية جالسة على الفراش ويدها على رأسي، والتقت عينانا فابتسمت أساريرها

فتهدّدت من الأعماق في شفاء محبت وقلت:
- لم ألبّ نداءها لأنني كنت نائمًا عليها!... لشدّ ما كنت فطًا غليظًا معها...
وسادنا صمت وحزن. وكان رأسي يكاد ينفجر من الألم والحصى. ثمّ قلت وكأنّني أحدث نفسي:
- لقد قتلتها ما في ذلك ريب. ربّاه. كيف هان عليّ أن أقول لها ما قلت!

فرمقتي أخي بوجوم، وقال بلهجة تنمّ عن تحذير:
- إيّاك وأن تستسلم لهذه الأفكار!...
فقلت بعناد ورأسي يدور جنونيًا:
- لم أعصّد الحقّ في قولي. لقد قتلتها، ألا تفهم؟... إذا أردت أن تستوثق من صحّة قولي فادعُ النيابة والطبيب الشرعيّ...

فتأوّه مدحت قائلاً فيها يشبه الخوف:
- أنت تهذي بلا ريب، وإلا تتالك نفسك فلن أسمح لك بالسير في الجنّازة.
فندّدت منّي ضحكة باردة وقلت:
- إنّ أسرتنا مصابة بداء قتل الوالدين، ولقد حاول والدنا أن يقتل جدنا فأخفق، وأعدت الكرّة على أمنا فنجحت، وهكذا ترى أنّي كنت أعظم توفيقًا من أبي.
فلاح القلق في وجه الشابّ ونهض قائمًا. ثمّ ثبت عينيه في وجهي وتساءل:
- ماذا تنوي أن تصنع بنفسك؟... لم يبق إلاّ ساعة على تشييع الجنّازة.
فقلت في دهشة:

- أسمح بتشيع الجنّازة دون تحقيق؟ يا لك من أخ رحيم! ولكنّ الواجب فوق الأخوة. ادعُ النيابة، وسادلك على الطريق إليها فقد عرفته بنفسه أمس، وقل لو كبل النيابة إنك تدعوه للتحقيق مع الشخص الذي دعاه أمس للتحقيق في مقتل زوجته.

وبدا أخي كأنّه تذكّر أمرًا مزعجًا فصاح:
- يا له من حدث أليم!... كيف لم تبرق إليّ يا كامل؟ لقد أخبرتني الخادم اليوم فلم أكد صدّق...
فقلت فيها يشبه الهديان:

الرهيبة غريبة خالية. وشعرت بفراغ مخيف جدًا. فقد
خلا البيت، وخلت حياتي، وخلت الدنيا جميعًا.
وكنت في حياتها أجد طمأنينة راسخة، وأشعر في أعماق
قلبي بأنه مهما نكدت الدنيا فلي فيها حجرة دائمة
الإشراف بالابتسام والحنان، أما الآن فما أشبهني
بقارب تمزقت جبال مرساته في بحر هائج عاصف.
وحقّي شقيقتي التي تحنو عليّ في مرضي فما أسرع أن
تعتذر لي غدًا أو بعد غد ببيتها وأولادها وتركتني
وحيدًا. ربّاه هل خلقت - أنا الطفل المدلل - لمثل هذه
الحياة؟! الحياة!

ونظرت إلى أختي طويلًا في حبّ وامتنان، وأنعمت
النظر في وجهها بشوق لا تدريه مجذوبًا إلى مشابه فيه
من وجه أمي، فاهتزّ صدري ودرّ حنأًا وحرزًا عميقًا.
وألقيت على ما حو لي نظرة حائرة فوجدت أثار رباب
يحدجني بنظرات غريبة، فقلت في ضيق:

- هيهات أن تطيب لي الإقامة في هذا البيت.
سأقيم عندك يا أختاه...

فقلت أختي بصدق وإخلاص:

- هذا ما كنت عقدت العزم عليه... أهلاً بك
وسهلاً!

وسألته أن تقرب أذنها مني ثم قلت لها بحزن:

- خذيني إلى حجرتها لألقي عليها نظرة...

فأظلمت عيناها واغرورتقا بالدمع، وقالت لي
همسًا:

- لا يمكن أن تفارق الفراش الآن، ثم إنه لم يعد
بالحجرة شيء.

تخيّلت الحجرة الخالية، أربعة جدران وسقفًا
وأرضًا. ما أشبهها بحياتي. وتنهّدت محزونًا وتمتمت:

- ما أشقاني!

فقلت راضية برجاء وضراعة:

- هلاّ أجلت الحزن حتى تبرأ!!

ولازمت الفراش زهاء شهر، وأقامت راضية عندي
أسبوعًا ثم عادت إلى بيتها مضطّرة ولكنها دأبت على
زيارتي كلّ يوم عصرًا، ولم تكن تفارقني قبل أن

ولاحت في عينيها نظرة إشفاق وغمغمت بصوت
حنون:

- كامل...

وحاولت أن أبتسم. وندت عنها تنهّدة حارّة
وتمتمت:

- أشهد أن لا إله إلاّ الله.

تشهدت بصوت ينمّ عنيّ برّح بها من خوف
وعذاب، ووجدتها لا ترفع يدها عن رأسي، ثمّ
شعرت في اللحظة التالية بوجود شيء تحت راحتها،
فسألته بصوت ضعيف وقع في أذنيّ كالصغير المكتوم:

- ما هذا الشيء على رأسي؟

فجاءني صوت آخر يقول:

- كيس ثلج يا سيّدي...

فالتفتُ إلى الناحية التي جاء منها الصوت فرأيت
أخي مدحت جالسًا على المقعد الطويل، وأدركت في
تلك اللحظة أين أكون، وهجمتُ عليّ الذكريات التي
فررت منها بهذه الغيبوبة الثقيلة، وطالعتني الحياة
بوجهها الكالح مرّة أخرى، ووقع بصري على المنبه
فإذا بعقره قد جاوز العاشرة بقليل، العاشرة صباحًا
كما يدلّ عليه ضوء النهار. وإذن فقد انقضت الليلة
الكئيبة وأنا في نوم عميق! ونظرت إلى أخي بطرف
كسير وتساءلت:

- هل شُيعت الجنازة؟

فألقي عليّ نظرة طويلة ثمّ قال باقتضاب:

- طبعًا...

وصمت مليًا ثمّ استدرك قائلاً:

- لعلّك لا تدري أنّك غبت عن الوجود ثلاثة أيّام
كاملة.

ورنوت إليه بدهشة، ثمّ أغمضت جفنيّ في ذهول،
وتمتمت في حزن بالغ:

- قضى الله بالألأ أشييع لا أمي ولا زوجي إلى

مرقدهما الأخير.

وتحوّل بصري إلى أختي فرأيت عينيها مغرورقتين
بالدموع، فغشيتني كتابة موحشة بدت الحياة خلالها
كالموت. لشدّ ما بدت لي الحياة في تلك اللحظة

في أذنيّ، وتلك طمأنينة السلام تقرّ في قلبي! كان خيالي نشيطاً ولكنّه كان غادراً في كثير من الأحيان، فلم يكن يصعد بي إلى ذلك المرتقى حتّى يتخلّى عنيّ بغتة فاهوي من علّ، ثمّ أعود إلى قلبي القديم وخوفي المقيم...

* * *

وفي ذات صباح من أيّام النقاهة الأخيرة جاءتني الخادم العجوز وقالت لي:

- جاءت سيّدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال.

فرفعت إليها عينيّ في دهشة وسألتها:

- ألا تعرفينها؟

فهزّت المرأة رأسها قائلة:

- لم أرها يا سيّدي قبل اليوم.

ووثب إلى خاطري طيف فانتفض قلبي الضعيف واشتدّت ضرباته حتّى انهبرت أنفاسي. ربّاه أتكون هي حقّاً؟ وهل واتها الجرأة على اقتحام البيت؟ ألم تقدّر العواقب؟ ونظرت إلى الخادم في حيرة شديدة ثمّ تمتت:

- ادعيتها إلى حجرتي...

والقيت على المرأة نظرة متفحّصة، ثمّ تناولت المشط ورَجَلت شعري على عجل، وفي حياء شديد أنجّه بصري نحو الباب. ترى هل يصدق ظنيّ؟ وكيف غابت عن ذاكرتي طوال العهد كأنّها كانت كامنة في دم الصبّحة الذي نضب؟ ثمّ سمعت وقع أقدام تقترب، وأطلّ عليّ وجه القادم يتسم في شوق وإشفاق، فهتفت فيما يشبه الاستغاثة وقد وثى صوتي بما شاع في صدري من الانفعال:

- أنت!...

يغمض النوم جفنيّ... وعاد مدحت كذلك إلى الفيوم، ولكنّه كان يمضي عندي نهاية الأسبوع.

ولمّا دخلت طور النقاهة كانت الحمى قد عرّقتني وحلّفتني جلدًا على عظم. ولم تكذبى ثمة حياة إلا في خيالي، فازدهرت حيويته وامتلاً قوّة ونشاطاً فكاد يبلغ حدّ الهوس. ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقني ساعة من ساعات اليقظة. فبدت لي الحياة شاقّة مرعبة لا يقبل لي بها، وامتلات أذناي بذلك النداء القديم الذي يهيب بي - عند الشدائد - أن أوتّي فرازاً. ولكن أين المقرّ؟ ليتني أخلق شخصاً جديداً، سليم الجسم والروح، لا يعشّش بأركان نفسه الخوف والجفاء، فالقي بنفسي في خضمّ الحياة الإنسانيّة بلا خجل ولا نفور، أحبّ الناس ويحبّوني، وأعينهم ويعينوني، وآلفهم ويألفوني، وأندمج في كائهم الكبير عضواً عاملاً نافعاً! ولكن أين متي هذه السعادة؟! وفيم أعللّ النفس بالأمان الكاذبة؟ لم أخلق لشيء من هذا، وإنما خلّقت للتصوّف، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهني بغير قصد، لكن سرعان ما تشبّثت بها بدهشة وحيرة... التصوّف؟ لست أدري ما هو على وجه التحقيق! ولكنّه وحدة وعزوف وتفكير وما أحوجني للوحدة والعزوف والتفكير. عجباً ألم أكن أشكو الوحدة طوال رقادتي؟ الحقّ أنّي لم أشكّ الوحدة التي ألفتها العمر كلّه ولكنني استوحشت الوحدة التي خلّفتها أمتي. أمّا الوحدة المعهودة فما أشدّ لهفتي إليها؟ ينبغي قبل ذلك أن أظهر جسمي ظاهره وباطنه، ثمّ أكرّس قلبي للسّاء. لقد خلّقت في الواقع متصوّفاً ولكن أضلّتني نوازع الحياة، وتصوّرت نفسي في طهر عجيب، يستحّم جسدي بماء عطر، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء، فلا مشهد أرنو إليه إلا السّاء ولا خاطر ينبثق في نفسي إلا الله، وهذه بلابل الجنة تسجع